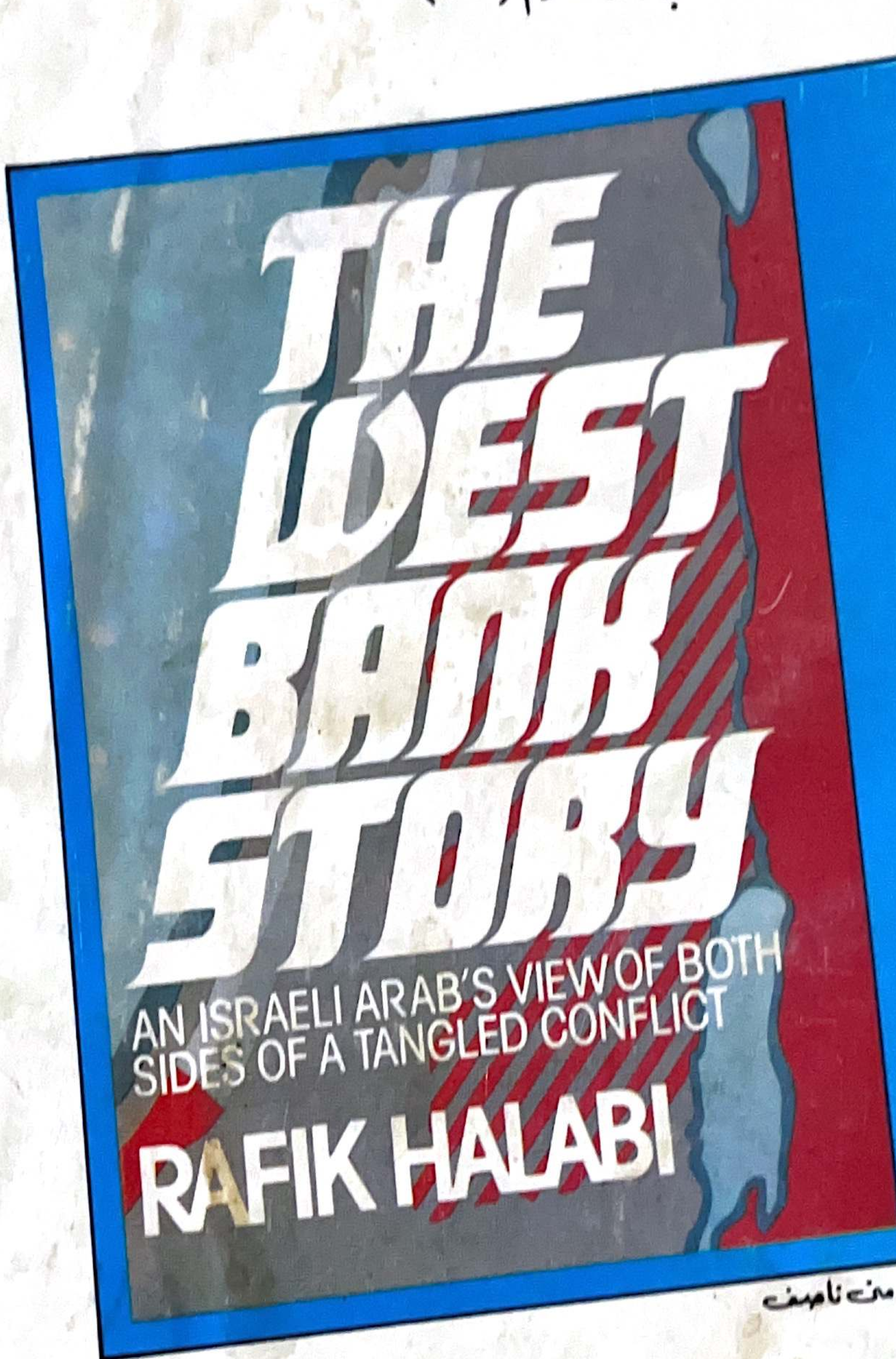
جمهورية مصر العربية
الهيئة العامة للاستعلامات
كتب مترجمة رقم (٧٦٦)



منى ناصف

قصّة الضفّة الغربيّة

تأليف : رفيق حلبي

جمهورية مصر العربية
الهيئة العامة للاستعلامات
كتب مترجمة رقم (٧٦٦)

قصة الضفة الغربية

تأليف : رفيق حلبي

كتـاب « قصة الضفة الغربية »

بقلم : رفيــق حلبى

المـؤلف :

ولد رفيق حلبى عام ١٩٤٦ فى قرية « دالية الكارميل » ، وهى قرية عربية يسكنها الدروز . وهو أول درزى فى القرية يتلقى تعليما عاليـا فى المدارس والجامعات الاسرائيلية . وتربطه منذ عام ١٩٦٧ علاقة وثيقـة بـ « تيدى كوليك » عمدة القدس . فى عام ١٩٧٠ التحق بالقوات المسلحة الاسرائيلية ، وفى عام ١٩٧٣ أصبح مراسلا لراديو اسرائيل ، والتحق بعد ذلك بالتليفزيون الاسرائيلى .

الفصل الأول

اوراق اعتمـــاد

اننى اسرائيلى وطني رغم اننى لست يهوديا . اننى اعيش فى بلد يضم خليطا من الثقافات القومية رغم الجهود التى لا تكل من أجل خلق طابع قومى فريد وموحد ويعتبرنى العرب فلسطينيا على الرغم من انه ليست لدى رغبة فى أن أكون مواطنا فى دولة فلسطينية مستقلة عندما يتحقق وجود مثل هذا الكيان . أننى درزى اى عضو فى طائفة تمثل اقلية دينية وواحدة فقط من الطوائف التى تتكون منها الجالية العربية فى اسرائيل ، واعيش فى بلد يشكل فيه اليهود اغلبية ولكنهم اقلية ضئيلة فى بحر من العرب فى الشرق الأوسط . فلا غرو ــ اذن ــ فى أن حياتى تتأثر يوميا ــ مباشرة بكل ثقل ودقائق الأوضاع القومية المعقدة فى هذه المنطقة . خلال السنوات القليلة المــاضية كنت احضر بانتظام سلسلة المحاضرات التى تغطى الكيبوتزات فى انحاء اسرائيل . وحيث أننى كنت المراسل الذى يتولى تغطية أنباء الأراضى المحتلة لشبكة التليفزيون الاسرائيلى التى تديرها الدولة ــ وهى الشبكة الوحيدة حتى الآن ــ فانه لم تكن هناك حاجة الى تقديمى باستفاضة الى الحاضرين فى مثل هذه المناسبات . وبدلا من ذلك فان المتحدثين الذين كانوا عادة يرأسون الاجتماع كانوا يميلون الى أن يفتتحوا الجلسة بكلمات تكاد تكون على نسق واحد مثل (يسرنا أن يكون بيننا الليلة مراسل من التليفزيون الاسرائيلى ونأمل الا يثيرنا كثيرا . استعدوا لتقديم أسئلتكم فى نهاية المحاضرة).وعندما يحين وقت توجيه الاسئلة فان صيغتها تكون متسعة أيضا لدرجة تحملنى فى بعض الاحيان على الشك فى أن منظمات الكيبوتزات تقوم بتوزيع منشور بين اعضائها بصدد التساؤلات التى يتعين طرحها على هذا الشخص الذى يعتبر مصدرا ((للازعاج القومى) . فثمة سؤال حتمى يثار دائما : (من أنت يا رفيق حلبى ؟ درزى ؟ اسرائيلى ؟ فلسطينى ؟ عربى ؟ أو ربما صهيونى ؟ ان الطلبة العرب هنا يعرفون انفسهم بأنهم عرب اسرائيلون ــ فلسطينيون؟ فمن أنت ؟ .

وفى شهر يوليو عام ١٩٧٩ دعيت للحديث فى كيبوتز جيفات حاييم وهو من المزارع التعاونية الراسخة والناجحة فى الطريق بين تل أبيب وحيفا وعندما فرغت من القاء محاضرتى ودعى الحاضرون لتوجيه أسئلتهم ــ كان أول المتسائلين عضوا سابقا فى الكنيست وعضوا قديما فى حزب المــاباى وقد شرع يتفحصنى بدقة كما لو كان يحاول قياس مدى اخلاص كلماتى وقال لى

متحديا « لمـاذا لا تتكلم من منطلق المواقف الواضحة ؟ كيف كنت تتصرف اذا كنت حاكما عسكريا فى الأراضى المحتلة ؟ ثم استغل عضو آخر التوتر الذى اثاره السؤال الأول ليمارس مزيدا من الضغط قائلا : « : اننا نختلف حول القضايا الأساسية ، ان اسرائيليتى لاتشبه اسرائيليتك . اننى جئت الى جيفات حاييم بعد الهلوكوست (أو عملية الابادة) التى تعرض لها اليهود فى اوروبا فى الوقت الذى كان فيه العرب فى هذه المنطقة يقومون بذبح اليهود . انك لاتكاد تفهم معنى (الهلوكوست) بالنسبة للشعب اليهـودى . انك لا تكاد تفهم معنى تجمع وعودة المشردين من بلاد المنفى . كما انتقد حاضرون آخرون ما اعتقدوا أنها فلسفتى وحاولوا التأكيد على اننى غير وفى بصورة مخزية للبلد الذى اعيش فيه ، فكانوا يقولون انه (فى مصر لن يسمح لك بالحديث بحرية كذلك فى سوريا او فى العراق ، ولكن هنا فى هذا الكيبوتز فانك تستطيع ان تقف وتلمح أنك لا ترفض فكرة تقرير المصير للفلسطينيين ولن يهاجمك احد قط » .

لقد كانت مطالبتهم لى باعلان مواقف واضحة واجابات محددة وتجاهل — او ربما اغفال — المأزق الشخصى الذى اواجهه فى محاولة تأكيد هويتى الوطنية هى التحديات التى واجهتها فى كل ساعة وفى كل يوم منذ بدات فى مواجهة مواطنى اسرائيل بالحقيقة القاسية حول الصراع القومى فى هذه المنطقة . لذلك فان السؤال : من انت يا رفيق حلبى ؟ هو سؤال فى صلب الموضوع . وربما يتعين أن يكون أول قضية نطرحها فى هذا الكتاب من اجل التعريف بالهوية غير العادية الى حد ما لمؤلفه .

ولدت فى قرية « دالية الكرمل » الدرزية فى جبال الكرمل جنوب حيفا عام ١٩٤٦ . لقد وجدت تلك القرية منذ اوائل القرن الثامن عشر ولكن يرجع تاريخ الطائفة الدرزية الى ابعد من ذلك بكثير ، الى القرن الحادى عشر عندما انشقت عن الاسلام خلال الحكم الفاطمى فى مصر . ان الدروز يؤمنون بالاله الواحد وتناسخ الأرواح،ولكن هذا كل ماأستطيع البوح به لأن الديانة الدرزية سرية ولقرون عديدة كنا حريصين على عدم افشاء أسرارها للغرباء . وفى الحقيقة فانه حتى اعضاء الطائفة مقسمون الى « العقلاء » وهم المتبحرون فى الديانة ، و « الجهلاء » الذين ليسوا كذلك . ويبلغ عدد الدروز اليوم نحو ٣٠٠٫٠٠٠ نسمة يعيشون فى المناطق الجبلية فى سوريا ولبنان واسرائيل ويتركز الـ ٣٣٫٠٠٠ درزى اسرائيلى فى ثمانى عشرة قرية فى الجليل وفى الكرمل وهم عادة يشكلون اغلبية ساحقة فى قراهم .

ولا تختلف « دالية الكرمل » عن مثيلاتها من القرى العربية . والكتب المقدسة للديانة الدرزية مكتوبة بالعربية ، وتعتبر العادات العربية والادب العربى بل وفى بعض الأحيان الحلم القومى العربى وكلها مفاهيم يشارك فيها الدروز كذلك . ان الأمور ربما تبدو بسيطة وقاطعة بالنسبة للمواطن المحتك بمستوطنة جافيت حاييم . فمما لا شك فيه انه جاء الى هذا البلد باعتباره صهيونيا يؤمن بانه هنا فقط يستطيع الشعب اليهودى المضطهد ان

يخوض تجربة البعث ، وهنا فقط يوجد نبع الأمل لأولئك الذين نجوا من الدمار الذى حاق بهم من المعاداة الفاشية للجنس السامى . بيد اننى ولدت من شعب يشق طريقه عبر حقائق اليوم السياسية ولم يكن واضحا لى دائما « اين مكانى من كل هذا » . وتعلمت بمرور الوقت التعبير الاجتماعى الشائع الذى يصف المأزق الذى وجد شعبى نفسه فيه : البحث عن هوية ، وفى دالية الكرمل « ولدت ايضا فى قلب منطقة الحرب والصراع الذى سبق انشاء دولة اسرائيل . كانت هناك حلقة من اثنتى عشرة قرية مسلمة تحيط بنا تضيف بعدا هاما للنزاع المرير الذى كان يقسم قريتنا . فكان هناك فريق يؤيد اليهود والهاجاناه ، منظمة الدفاع اليهودية السرية ، وكان الفريق الآخر يؤمن بأنه يتعين على القرية ان تؤيد « الثورة العربية » التى اندلعت فى عام ١٩٣٦ والتى حرضت عرب فلسطين ضد اليهود والبريطانيين وقد انضمت عائلتى الى جانب اليهود ولم يخف والدى موقفه هذا بل اننى اذكر انه كان يضع صورة الزعيم الاسرائيلى دافيد بن جوريون على خزانة الملابس فى الحجرة الوحيدة التى تتكون منها شـقتنا . ومع ذلك فانه حتى عام ١٩٤٨ فان مساندة الهاجاناه كان يعنى اثارة غضب المسلمين فى المنطقة ، وعادة ما كانت تلك المساندة تسفر عن أعمال وحشية تقع يوميا مثل شن هجمات ، عمليات سلب ، وسباب وسرقة قطعان باكملها من الماعز والأغنام . ولكن ابو دورة قائد العصابات المسلحة المسـلمة الذى كان يقوم فى أوائل الثلاثينـات بمهاجمة المستوطنات اليهودية ووسائل النقل — كان يلقى بالرعب فى قلوب الدروز كذلك .

اننى اشك فى ان يكون لدى مواطنى اليهود ادنى فكرة عما يدور فى خلد اى اسرائيلى درزى عندما يذكره احد بأعمال السلب والنهب التى كان يقوم بها ابو دورة . وربما لا يعرف سوى القليلين ان المغيرين قاموا بتدنيس الكتب الدرزية المقدسة ، وقاموا فى احدى المرات باختطاف مختار قريتنا (الذى كان بالمناسبة عمى) وذلك بسبب تأييده للقضية اليهودية ، ومع ذلك فلقد اصبح الدروز يعيشون على جبل الكرمل حلفاء لليهود . وقد قام احد كبار الشيوخ من قرية اليوسفية بالذهاب الى قرية طيرة لشراء أسلحة من سكانها وقام بتسليمها الى المنظمات اليهودية السرية . كما قام دروز آخرون يتصفون بالشجاعة بأعمال التجسس لحسـاب الهاجاناه واقاموا خطوط اتصال مع زعماء الجالية الدرزية فى سوريا، وعندما وصل الأمر بدروز الكرمل الى رفض تقديم اية تبرعات الى المتمردين العرب ، تحول شعورهم بأنهم فئة منفصلة الى عداء عميق .

لقد مضى اربعون عاما منذ ذلك الحين ولكن ما زالت قضية هوية الجالية الدرزية فى اسرائيل بدون حل ، واصبح امرا عاديا ان يقوم اليهود بتقسيم السكان العرب فى اسرائيل الى معسكرين « الطيبين » و « الأشرار » وقد تارجح الدروز بين هذين المعسكرين فهم احيانا يصنفون بين العرب الطيبين واحيانا اخرى بين العرب الأشرار ، وفى احيان اخرى عندما تصبح مشكلة التصنيف شاقة فانهم يصنفون باعتبارهم مجرد دروز وليسوا عربا البتة .

وتحاول المؤسسة الاسرائيلية استغلال الشك والحيرة اللذين يسودان الدروز وذلك بفصلهم عن تراثهم العربى وبيئتهم الطبيعية ، وكان هناك اتجاه متزايد للحديث عن الدروز باعتبارهم قومية متميزة . وعلى سبيل المثال وكمحاولة فى هذا الصدد فقد « تقرر » أن عيد الفطر وهو العطلة التى تأتى عقب صيام شهر رمضان ليس احتفالا درزيا على الرغم من أن آبائى درجوا على الاحتفال به لأجيال لا تحصى .

وقد دخلت العلاقات بين الدروز ودولة اسرائيل مرحلة جديدة فى عام ١٩٥٦ ، وذلك عندما وقع رؤساء القبائل الدرزية الكبرى « بناء على توصيات السلطات » التماسا يدعون فيه الحكومة الاسرائيلية الى تطبيق قانون التجنيد الاجبارى على المواطنين الدروز (ولم يكن أحد من العرب قد تم تجنيده فى الجيش الاسرائيلى حتى ذلك الحين) . وبصدور قانون بهذا الشأن فانه لم يعد هناك ادنى شك فى أننى « عربى طيب » ومع ذلك فبعد عام من صدور القانون قام رئيس الوزراء الذى لم يتوان عن مدح القادة الدروز « لمواطنتهم الجيدة » باعادة بطاقة هويته الى وزارة الداخلية لأنها كانت مكتوبة باللغتين العبرية والعربية ، واعترض على استخدام اللغة العربية فى وثيقة رسمية صادرة عن دولة اسرائيل ، وعلى بطاقة هويتى الى جانب كلمة (الجنسية) كلمة «درزى» وهذه الحقيقة مسجلة بالعبرية والعربية وعلى ذلك فان كلمة «درزى» المكتوبة بالعبرية تعنى شيئا ايجابيا بينما هى بالعبرية كلمة غير لائقة . ولابد على أية حال ، ان هذا هو ما كان بن جوريون يعتقده . ولكن من الواضح ان الزعيم الذى كان ابى يكن له اعجابا شديدا قد تجاهل حقيقة هامة وهى أن العربية هى لغتى الأصلية ولا استطيع ان افهم لماذا يجب ان اوصم بها كما لو كانت وصمة عار .

وانى اعتقد ان اى شخص يجىء من الخارج ربما يجد اغراء لأن يصف عالم طفولتى بعبارات جميلة فقد كانت الحمير والخيول هى وسيلتنا الوحيدة للانتقال . وكان الوصول الى حيفا التى تقع على بعد بضعة أميال فقط يستغرق منا ساعات من الركوب فوق ظهورها عبر الطرق المليئة بالصخور وأثناء الرحلة السنوية للحج الى قبر النبى شعيب (الذى يذكره الانجيل كذلك على انه حمو النبى موسى) . كان علينا ان نشق طريقنا عبر الريف المكسو بالخضرة الذى لا تتخلله الطرق وربما يشعر غيرى بحنين متزايد الى عالم وزمان كانت الاشياء تبدو فيه أبسط كثيرا . ولكنى لا افتقد تلك الحياة ان الحقيقة القاسية هى أن الفقر والمعاناة كانا منتشرين فى قريتى خلال طفولتى . وكانت المدرسة الابتدائية التى تلقيت فيها دراستى عبارة عن مجموعة من الحجرات الرثة التى جرى تجهيزها كيفما اتفق بأثاث حقير يكاد لا يفى بالغرض . وكان مدرسونا يسيطرون على الفصول السيئة الاضاءة بطريقة استبدادية . وفى كل صباح كانوا يقومون بتفقد نظافتنا الشخصية وهم يمسكون دائما بمسطرة يهددوننا

بها وينقلون الينا المعرفة والقيم المطبوعة فى المقررات الدراسية ، كما وصفتها وزارة التعليم . ولابد لى من ان اقر انه مهما كان ما حرمت منه ابان طفولتى فان دولة اسرائيل قد عملت على ان احصل على تعليم يهودى جيد . فلم اتعلم شيئا قط عن تاريخ الدروز وابطالهم فى المدرسة (على الرغم من اننا استطعنا معرفة شىء ما عن الاسلام والمسيحية) ولكننى اتذكر بوضوح كيف كنت أدرس لاجتياز الاختبارات الصعبة فى تاريخ الثورة المكابية . ولم اعرف اى اسم من اسماء الكتاب الدروز كما لم اقرأ أيا من اعمالهم ، ولكننى امضيت ساعات عديدة ادرس خلالها فلسفة « أحاد هاعام » الصهيونية وتعلمت ان احب الشعر العبرى الحديث وان اهوى قصص ابراهام مابو الذى يعبر فيها عن حنينه الى بيت المقدس . بل ان المقررات الدراسية كانت تتضمن دروسا لزيادة ارتباطنا مع (يهود الصمت) فى الاتحاد السوفيتى . اننى لا اعرف مدى معرفة اعضاء كيبوتز جيفات حاييم بتاريخ واحلام الطائفة الدرزية ولكننى قرات كافة الكتابات التى وصفها المفكر اليهودى ا. جوردون حول دور العمل فى اعادة تأهيل الشعب اليهودى . وعرفت ايضا المحن والخطوب التى واجهت المستوطنين اليهود الأوائل فى السهل الساحلى وكيف نجحوا اخيرا فى ضرب جذورهم فى أرض جيفات حاييم .

وعلى الرغم من الفقر والأوقات العصيبة لم يفقد ابى ايمانه قط فى مستقبل أفضل ، فكان يتطلع الى صورة بن جوريون فى اعجاب ويضغط على شفتيه ويهمس قائلا : غدا سيأتى الخبراء اليهود الى هنا ويحولون قريتنا الى فردوس وكان يعزز من ايمانه هذا مشهد القرى اليهودية الآخذة فى الازدهار فى المناطق المجاورة . وفى الحقيقة فان من اكثر التجارب العالقة بذهنى حتى الآن منذ طفولتى هى تلك الزيارات التى كنت ارافق فيها ابى الى مستوطنة « كفار يهوشوا » . كان ابى يوقظنى فى الساعة الرابعة صباحا قبل بزوغ اول ضوء من النهار لنذهب سويا الى تلك المستوطنة القريبة حيث استطاع (أصحاب الأرض) فى وادى (يزرائيل) بناء مزارع دواجن ومزارع كروم مثمرة . وكان ابى يقوم بشراء بعض الدجاج والفاكهة من المستوطنين اليهود ويعود الى « دالية الكرمل » ويبيع ما اشتراه الى جيرانه بربح ضئيل ثم يخرج بعد ذلك ليزرع قطعة أرضه ذات التربة الصخرية ولعدة سنوات كان ابى يقوم بانتاج المحاصيل الحقلية البدائية — مثل العدس والقمح والشعير وكمية ضئيلة من البصل والطماطم — وكانت قطعة الأرض التى تبلغ مساحتها ثلاثة دونمات ونصف الدونم اغلى عليه من اى شىء آخر .

وقد بدأت الحكومة الاسرائيلية بعد عدة سنوات من قيام دولة اسرائيل فى تناول مسألة الأرض ، وتمت مصادرة عدد من القطع الزراعية من قريتنا — بعضها للمصلحة العامة والبعض الآخر لصالح المستوطنة اليهودية المجاورة . وفى كل مرة كنا نذهب فيها الى كفار يهوشوا كان ابى يتعمد

اثارة الموضوع ليغرس فى التعاليم الأخلاقية الحقيقية التى يهدف اليها .
وكانت هناك قاعدتان يعتبرهما أبى مقدستين الى ابعد حد بل ان مطالبتى بمراعاتهما كان يتخذ شكل الوصية . فكان يقول لى : « لا تبع ارضك وحافظ على شرف اختك » . وعندما بلغ الثمانين من عمره قام بتوزيع ارضه بين ابنائه ونصحنا مرة اخرى « بألا نبيع هذه الأرض التى توارثتها عائلتنا على مدى الأجيال وهى رباطنا المقدس من هذا المكان . لا تستبدلوا الأرض بالجرارات » وكان يعنى بهذا زخارف التحديث والتكنولوجيا وهو الشىء الذى لم يخف قط كراهيته له .

وكانت « كفار بيهوشوا » ايضا مسرح تجربتى الأولى مع المجتمع اليهودى فقد كانت المستوطنة المعتنى بها جيدا تثير دهشتى وتثير غيرتى بسبب النظام والنظافة التى تسـودها . فى تلك الايام كانت « دالية الكرمل » قرية فقيرة مهملة وكانت ملابس « الفلاحين » بالية والمبانى مهدمة والتسهيلات الصحية لا تفعل شيئا اكثر من نشر المرض وكانت معالجة الأمراض تعتمد على مجموعة من الجرعات مستخرجة من النباتات البرية . ولكن كانت تلوح فى الأفق بشائر التقدم والتطور .

ففى عام ١٩٥١ تم تشكيل مجلس محلى فى « دالية الكرمل » واختير عمى رئيسا له (فى ذلك الوقت كان نصف عدد السكان البالغ عددهم نحو ٢٫٠٠٠ ينتمون الى عائلة الحلبى الكبيرة العدد التى جعلتها فروعها العديدة واحدة من اكثر العائلات انتشارا فى الشرق الأوسط) . وفى بادىء الأمر لم تكن مزايا الديمقراطية واضحة تماما . فلم تكن المؤسسة السياسية الاسرائيلية تولى اهتماما كبيرا للمواطنين الدروز وكانت تجرى معاملاتها الضرورية معهم عن طريق شيخ كل قبيلة الذى كان قدوة بالنسبة لاتباعه عند الادلاء بأصواتهم فى الانتخابات .

وكان متروكا لشيخ القـرية ما اذا كان سـكان القرية سيصوتون او لا يصوتون لصالح حزب الماباى ــ وهو الحزب الحاكم حينذاك ــ وكانت المؤسسة الاسرائيلية راضية تماما عن ذلك الترتيب ولكن لم يمض وقت طويل حتى عرف الناس حقوقهم وطالبوا باحترام تلك الحقوق . وعنـدئذ بدا عدد من الوزارات الحكومية تتنبه لما كان يجرى فى القرى وما زلنا نفتقد الى الماء الجارى والكهرباء ولكن المواقد التى تضاء بالكيروسين والمياه التى نحصل عليها من الآبار التى تغذيها الأمطار لم تكن تتمشى مع روح العصر . وعندما بدا العمال يتركون القرية ليعملوا خلال النهار فى حيفا او « المدينة الكبيرة » بدات الحالة الاقتصادية للفلاحين فى التحسن ببطء ولكن فى ثبات ، وتأقلمنا بسرعة كبيرة مع المخترعات الحديثة والتطور وسرعان ما بدانا فى المطالبة بما هو حق لنا . ومع بشائر التقدم الأخرى جاء اول راديو لينهى حالة شبه العزلة التى كانت تعيشها قريتنا . واذكر

كيف كان الجميع يلتفون حول (الراديو) ويهتزون طربا لسماع الأصوات الصادرة عن الجهاز وكنت فى الثالثة عشرة من عمرى حينما اتيح لى ان تقع عيناى على جهاز راديو ترانزستور .

كان العرب فى اسرائيل خلال السنوات الاولى من قيام الدولة الجديدة خاضعين لحكومة عسكرية وكانت تحكم قبضتها عليهم . ولكن الدولة اليهودية استثنت القرى الدرزية فى جبل الكرمل كطريقة للتعبير عن امتنانها لمواطنى تلك القرى التى كانت تتمتع بادارة مدنية كاملة . وعندما جرى تطبيق التجنيد الالزامى على الدروز بدا فصل جديد فى العلاقات بين الجالية الدرزية والدولة . لقد ادى تطبيق التجنيد الاجبارى على الدروز الى التفرقة بين الدروز والعناصر الاخرى من الاقليات العربية فى اسرائيل من المسيحيين والمسلمين الذين نظروا باشمئزاز الى التعاون مع العدو . وفى القرى القليلة التى كان يسكنها خليط من الدروز والعرب والمسيحيين او المسلمين كان الدروز الذين ينخرطون فى الجيش الاسرائيلى يعاملون معاملة الخونة للأمة العربية . وكان من الشائع السخرية من الدروز لحماسهم واستعدادهم لتحمل العبء باعتبارهم مواطنين متساوين بالدولة . واعتاد العرب الآخرون ان يسخروا منا قائلين : انكم لن تفيدوا من هذا ففى الوقت الذى تخدمون فيه الصهاينة نقوم ــ نحن العرب ــ بادخار نقودنا والدراسة فى الجامعات . والأمر المثير للسخرية ان هذا التقدير لم يكن يتجاوز الحقيقة . وربما يكون الدروز قد اكتسبوا الحق الادبى فى المطالبة بالمساواة ، ولكن الحقيقة أن شعورهم بأنهم « يهود » عندما يتعلق الأمر بالالتزامات « وعرب » عندما يتعلق الأمر بالحقوق لم يتبدد قط .

لقد اثبت قانون التجنيد الاجبارى ان له اثرا بعيد المدى على الجالية الدرزية . واول تلك الآثار واهمها هو انه ادى فيما يتعلق « بمسالة الهوية » الى تعميق الانقسامات التى كانت قائمة بالفعل داخل المجتمع . وقد قام الشاعر سميح القاسم الذى كان يعارض القانون بالاضراب عن الطعام لمدة اسبوع احتجاجا عليه قائلا : أن اعتراضاته قائمة على رفض حمل السلاح ضد الأشقاء العرب وقد حذا آخرون حذوه خاصة الهـاربين من الجندية والمتغيبين بدون اذن .

وفى حين نجحت القيود الأمنية والقبض على الهاربين من الجندية فى الحد من حجم المشكلة الا ان المعارضة ضد القانون لم تخمد نهائيا .

وكان لموضوع القرار جانب دينى لا يمكن تجاهله . ان من المعتقدات الأساسية فى العقيدة الدرزية هى تناسخ الأرواح . ففى احدى القصص القصيرة التى كتبها الكاتب الدرزى سلمان ناتور بعنوان « قتلنى الشيخ » نسج الكاتب قصة خيالية حول جندى درزى فى قوات الدفاع الاسرائيلية

الذى كان يتعين عليه ان يقاتل اخا تجسد فى شخص جندى يخـدم الآن فى الجيش السورى .

ان هذا العمل المعقد يعتبر نموذجا لشاب درزى دعى لحمل السلاح فى خدمة بلده ، وقد يجد نفسه يوما ما فى مواجهة جندى من الاعداء ليس فقط من طائفته بل ربما كانت تربطه به ايضا رابطة الدم خـلال مرحلة تجسد سابق .

ومع ذلك فقد قبل معظم شباب الدروز القانون كحقيقة واقعة واعتبر الكثيرون ذلك القانون انجازا هاما للدروز . كذلك فقد غيرت الخدمة فى الجيش من وجه القرية الدرزية تماما ، حيث اصبح شباب الدروز الذين يعشقون الأزياء الرسمية يسيرون الخيلاء فى الشوارع حاملين اسلحتهم فى ايديهم وصدورهم منتفخة فى كبرياء . ويخدم معظم الـدروز فى وحـدة خاصة بالاقليم او فى حرس الحدود وعليهم مثل غيرهم من الجنود فى قوات الدفاع الاسرائيلية ان يطيعوا الأوامر التى تصدر اليهم باللغـة العبرية ويتعلموا احترام رموز وعادات الجيش .

وسرعان ما اشتهر الدروز بأنهم مقاتلون جسورون وادت الاشـادة بهم بسبب اعمالهم البطوليـة الى رفع مكانة طائفتنا فى اعين المواطنين الاسرائيليين الآخرين .

ولكن كانت للخدمة العسكرية فى الجيش الاسرائيلى آثار اقل قبولا ، وخاصة فى شكل تزايد معدل الاندماج وهو الأمر الذى كان قد بدأ فى التأثير من قبل على الطائفة الدرزية . والأعراض التقليدية لعملية الاندماج هذه هى الزواج المختلط والهروب من القرى والرغبة القوية فى الذوبان فى المجتمع الحضرى ، فعلى سبيل المثال توجد فى ايلات جالية درزية ضـخمة يتكلم ابناؤها اللغة العبرية ويتلقون تعليمهم فى مدارس يهودية ويسمى كثير من الدروز بأسماء عبرية . وخلال دراستنا فى المدارس الابتدائية كان المدرسون يبذلون قصارى جهدهم ليبثوا فينا الرسالة القومية العميقة الكامنـة فى اعمال « احاد حاييم » بما فى ذلك تحذيره الملح ضد الاندماج .

هل يعانى المواطنون الدروز فى اسرائيل مصيرا شبيها بذلك المصير الذى عاناه اليهود الذين اندمجوا فى بلاد الشتات ؟

لقد انجرف الجنود الدروز بعيدا عن جذورهم القومية لأنهم فقدوا احساسهم بهويتهم الفريدة . والأسوأ من ذلك هو ان مفهوم تعبير (اسرائيلى) الذين اجتذبوا اليه ربما بقى بلا معنى بدرجة كبيرة بالنسبة لهم . ربما يكونون (مواطنين دروزا طيبين) بدولة اسرائيل ولكن بقى عليهم ان يصلوا الى وضع (اسرائيليين من اصل درزى) .

وكان الجيش بالنسبة لكثير من الشباب الدرزى اول اتصال واسع مع الحياة خارج قراهم ، غير اننى قد خرجت الى العـالم فى وقت مبكر الى حد كبير .

لقد قرر ابى الذى لم يكن راضيا عن التعليم الذى كنت اتلقاه فى المدرسة الابتدائية — قرر ان يرسلنى الى حيفا لاستكمال دراستى .

وفتحت المدرسة الثانوية ابواب عالم جديد امامى واصبحت النـافذة التى اطل منها على المجتمع الاسرائيلى . لقد جاء زملائى اليهود الى المدرسة وهم متشبعون بالمعرفة والثقة بالنفس التى يمتلكها الصابرا . كان سلوكهم طبيعيا ومنطلقا ، وفى البداية وجدت صعوبة بالغة فى التكيف ، ولاننى كنت آتيا لتوى من القرية وجوها المحافظ فاننى كنت اعتبر الجـو فى مدرستى الجديدة فوضى مطلقة . وخلال الايام الأولى كنت اشعر كما لو كان احد قد اقتلعنى من الواقع المألوف لدى والقى بى دون تحذير او نصح فى عالم غريب معاد . ففى قريتى كان التعليم المختلط امرا لا يمكن التفكير فيه ووجدت نفسى فجاة جالسا الى جانب فتاة فى مثل عمرى . ولحسن الحظ فان اسـاتذتى كانوا يتحلون بالصبر ازاء القلق الذى كنت اعانيه وغيره من المشاكل التى كنت اواجهها . ولكن فى احيان كثيرة كنت اجد من الصعب على تجنب الانتباه بصورة لا ارغب فيها ، الأمر الذى كان يسبب لى ازعاجا . وكانت الطريقة غير المتقنة التى كنت اتحدث بها اللغة العبرية تثير ضحكات زملائى . وكانت عاصفة من الضحك تنفجر من الفصل فى كل مرة افشل فيها فى نطق حرف ا بطريقة صحيحة — مثلى فى ذلك مثل اى شخص تكون لغته الأصلية العربية حيث ينطقه مثل حرف الياء . وكنت اعقد العزم فى كل مرة تنفجر فيهـا الضحكات على ان أجيد اللغة العبرية فى جامعة القدس .

وقد ثابر اساتذتى فى جهودهم من اجل بث الثقـة فى نفسى وشجعوا رغبتى فى الانتماء الى المجموع . ولم يكن هذا عملا هينا ، ولكن الأمور تحسنت ببطء حتى ان زملائى اطلقوا على لقبا عبريا هو (رافى) كما لو كانوا يقولون لى بطريقتهم انهم يرحبون بقبـولى فى مجتمعهم الذى كنت اشـعر تجاهه بالحسد . وفى الحقيقة احببت الاسم ولم احتج عليه ، على الرغم من انه لم يفعل شيئا لتغطية الهوة الاجتماعيـة والثقافية السحيقة بيننا . كنت ادرس بجد وكنت احقق انجازا طيبا وان لم استطع قط ان الحق بمستوى باقى فصلى — الا انه كان من المستحيل تخطى الهوة الاجتماعية فقد ظلت الزيارة التى قمت بها لأحد زملائى فى الفصل عالقة بذهنى الى الأبد . كانت حجرته — وهى حجرة خاصة به — مؤثثة بفراش ، ومكتب وارفف مليئة بالكتب وجهاز ستريو وغيرها من الأشياء التى كانت شاهدا على مستوى مرتفع من المعيشة ، وآخر ما وصلت اليه التكنولوجيا من آلات . وكان كل هذا الثراء يتناقض كلية مع الفقر فى (دالية الكرمل) حيث كنا نعيش كلنا فى حجرة واحدة ابواى واخوتى وانا وكنت انام على حاشية على الأرض . وكانت

الكتب الوحيدة فى منزلنا هى كتبى المدرسية التى كانت تأخذ مكان الصدارة فى خزانة ملابس الأسرة . وعندما كان يحين وقت اداء واجباتى المدرسية كنت الجأ الى ركن معتم من مخزن ابى الضيق وكنت عندما اذاكر للامتحان اذهب الى احدى الممرات القذرة التى تؤدى الى قريتنا .

« ان الاسرائيليين والسائحين الذين يسافرون عبر الضفة الغربية اليوم تصيبهم الحيرة ازاء رؤيتهم تلك الأعداد الكبيرة من الصغار الذين يسيرون فى جنبات الطرق ويحفظون دروسهم من الكتب المدرسية . اننى اعرف ان هذا ليس حبا فى الطبيعة دفعهم الى اكتساب تلك العادات الغريبة فى المذاكرة . بل ان ما حدا بهم الى ذلك هو الظروف المعيشية البائسة فى مخيمات اللاجئين التى تتميز بحواريها المظلمة وهو ما دفع هؤلاء الأطفال المتعطشون الى المعرفة الى البساتين والطرق الجانبية للريف .

وهناك فى المدرسة الثانوية واجهت للمرة الأولى مفهوما ثوريا آخر وهو : حرية التعبير . لم تكن الصحف العبرية تشبه صحيفة « اليوم » العربية اليومية — التى كان ينشرها القسم العربى من الهستدروت — التى كانت الصحيفة الوحيدة التى توزع فى قريتنا . وكان وجه الاختلاف بكل بساطة هو ان الصحف العبرية لم تكن تزيف الوقائع أو تخفى الحقيقة . لقد كانت المقالات الافتتاحية نافذة وكنت مندهشا بصفة خاصة ازاء تسامح الصحف تجاه (وجهة النظر الأخرى) . وكانت الصحيفة الوحيدة الأخرى التى تطبع باللغة العربية هى صحيفة الحزب الشيوعى (الاتحاد) . وكان من المفروض انها تتمتع بحرية الصحافة ، ولكن كان المرء يسمع قصصا حول قيود الرقابة المفروضة على الصحيفة والهجوم الذى يتعرض له محرروها وناشروها وعلى سبيل المثال فان رؤساء الحزب الشيوعى كانوا يتعرضون لهجوم عنيف وذلك قبل انتخابات الكنيست فى محاولة لقطع طرق تغلغل الحزب بين الناخبين العرب .

ومهما كان من أمر ، فان حرية الصحافة تلك الهمتنى وانا مازلت فى المدرسة الثانوية ان اكتب اول مقال صحفى لى والذى قمت بتسليمه الى النشرة الدورية الدرزية والتى كانت تصدرها وزارة الشئون الدينية .وكتبت ببراءة شديدة اتساءل لماذا يتزلف اعيان الدروز الى المسئولين الحكوميين عندما يظهرون فى القرى . وغنى عن القول ان المقال قوبل بالرفض . وهكذا لم يكتب لأول مقال صحفى اكتبه الظهور ولكنه لم يكن الأخير كما اثبتت الأيام فيما بعد .

ان هذه المواجهة مع الحرية كانت تأثيرا مسكرا بالنسبة لصبى ريفى من عائلة فقيرة لم تكن تمتلك قط كتبا فى منزلها . كنت أقرا كل ما تقع عليه

يداى وتعودت ان اقرا كل صحيفة تقع فى طريقى على الرغم من اننى لم اكن متحمسا للغاية لدروسى فى المدرسة .

وكنت حينما اسأل : ما هى مشروعاتى بعد التخرج ؟ كنت اجيب دون تردد باننى اريد ان اكون صحفيا . وبالطبع فان تلك الفكرة لم تلق ترحيبا فى بيتى لان ابى كان يريد ان ادرس الطب أو القانون . فمنذ ايام الانتداب البريطانى كان التسلسل الطبقى للمجتمع العربى مستقرا ومحددا : على القمة يقف الأطباء والمحامون ، ويليهم المهندسون . ولم يكن الصحفيون يتمتعون قط باحترام خاص بين الصفوة الاجتماعية . ورفض والدى الموافقة على اختيارى . وللحقيقة فاننى لا استطيع لومه . فلقد كان من الصعب تصور ان الصحافة مهنة محترمة .

كان ابى فخورا بانجازاتى ، ولم يكن يخفى هذا بل على النقيض لم يكن يكل من الحديث مع اصدقائه عن ولده ، ابن الفلاح من (دالية الكرمل) الذى اصبح الآن (مثقفا) فى مدرسة ثانوية فى حيفا . وكان يشقى من اجل ان يوفر لى الملابس المناسبة (لمركزى الاجتماعى) وكان يتوسل الى ان استعرض معلوماتى بالقاء خطب امام الفلاحين فى المناسبات . كنت اشعر بالتمزق بين ولائى لابى وبين ما كنت اتعلمه فى المدرسة ، ومازلت حتى الآن غير قادر على حل كثير من التناقضات بين المجتمع الدرزى التقليدى المحافظ والمجتمع اليهودى الحر المفتوح . وكذلك لم تكن الحياة فى المدرسة دائما سهلة فكثيرا ما كان ينشر خبر عن مصادرة الأراضى العربية فى الجليل ، وكنا نسمع احيانا عن اعتقال عناصر سياسية ثورية من العرب وذلك وفقا لقوانين الطوارىء — التى كان قد تم وضعها خلال الانتداب البريطانى ولكنها اصبحت تخدم مصالح نفس الشعب الذى طبقت ضده اصلا تلك القوانين . وكان زملائى يقبلون تبريرات الحكومة لتلك السياسات . ولكن كانت تتنازعنى الشكوك ومع ذلك فعلى الرغم من اننى كنت اريد ان اتكلم أكثر من مرة كنت اطوى احتياجاتى بين جانبى لأننى كنت اعرف انه نظرا للجو المعادى المحيط بنا والتهديد بالعنف المستمر الذى يبدو انه قدر اسرائيل ، فانه يجب فى بعض الأحيان ان يتوارى صوت العدل انتظارا لأوقات أفضل .

لقد كان من الصعب — ظاهريا — فى نهاية سنوات دراستى الأربع فى حيفا ملاحظة اى فرق بينى وبين زملائى من اليهود . انهم لم يحاولوا التقرب منى ولكن كنت انا الذى قطعت خطوات واسعة للاقتراب منهم . وسرعان ما بدا صغار آخرون من (دالية الكرمل) فى الانتظام فى المدارس الثانوية فى حيفا ، ونشأ صراع خفى فى قريتنا بين اولئك المتعطشين الى التقدم واولئك الذين ينصبون انفسهم حراسا على التقاليد . ولم يمنع وقوع صراع علنى سوى رغبة قوية فى الحفاظ على وحدة الطائفة الدرزية وفى تهدئة أثر ما كان يمكن ان يصبح ثورة ثقافية متشنجة . ان احدا لا يمكنه ان يتجاهل التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التى طرأت على الجالية الدرزية ، فقد انتظم مئات

من الطلبة فى مؤسسات التعليم العالى بل ان الشابات قد بدان مؤخرا فى الالتحاق بالتعليم العالى ومن المعروف ان بعض الخبراء قدموا النصح الى الحكومة بانه من الافضل بالنسبة لشباب جماعات الاقلية فى اسرائيل ان يظلوا يمارسون الاعمال (الوضيعة) اى عمال يدويين غير معلمين وغير مهرة وكانوا يرون ان هذا سيجعل مواجهة المشكلة العربية (اكثر سهولة) . وغنى عن القول ان هؤلاء الناس كانوا ضيقى الافق والخيال ، ذلك لان رايهم الذى يتسم بقصر النظر حول المستقبل لم يتحقق . فليس هناك فى (دالية الكرمل) اليوم قاطعو اخشاب ، واى اخشاب ، واى قروى يطلب منه اداء مثل هذا العمل يملك بلا شك مساعدة التكنولوجيا المتقدمة للغاية . وفى الحقيقة ان الثورة التكنولوجية قد نفذت الى كافة مجالات الحياة فى القرى العربية فى اسرائيل ويتضح تأثيرها فى المجالات الاقتصادية والصناعية وكذلك المجالات الاجتماعية فى حياة القرية .

بيد انه فى الوقت الذى كنت اوشك فيه على الانتهاء من دراستى الثانوية كنت اواجه سؤالا اهم من مستقبل شكل الحياة فى القرية . لقد ازف الوقت بالنسبة لى لحل مشكلة هويتى — او على الاقل تقرير اين يكمن ولائى . كانت بطاقة التجنيد التى تحمل اسمى تدعونى الى الانضمام الى خدمة البلد الذى لم اكن اشعر فيه دائما بأننى مواطن مرغوب فيه . ولكى اتوخى الصدق فاننى لا اعرف كيف كان يمكن ان اتصرف لو كان هذا التجنيد اختياريا . كنت اشعر بانه طالما عجز المجتمع الاسرائيلى عن توفير معاملة متساوية لكافة مواطنيه فلماذا يطالب الطبقة المحرومة من تحمل عبء مساو ؟ وكان هناك اساس لهذا الشعور بالحرمان . ولنأخذ على سبيل المثال تجربة قرية ساجور الدرزية التى تقع مباشرة فى مواجهة كيبوتز شازور فى شمال الجليل . وكثيرا ما يتندر دروز اسرائيل بأنه يجب احاطة قراهم بسياج ووضع لافتات تعلن انها (منطقة عسكرية — ممنوع التصوير) وذلك للتعبير عن مدى اعتبارها قرى (محاربة) ، وكم من شبابها خدم فى الجيش الاسرائيلى . ومع ذلك فان سكان قرية ساجور لم تدخل الكهرباء الى منازلهم حتى عام ١٩٧٧. وكان شبابهم يعود الى قريتهم من الخدمة العسكرية ليروا الأضواءالكهربائية تتلألأ فى عنابر تربية الدجاج فى مستوطنة شازور المجاورة فى الوقت الذى يقضون فيه امسياتهم فى ضوء مصابيح الغاز . فهل من المستغرب اذن ان يشعر الدروز بالحرمان والاحباط ؟ وعلاوة على ذلك ، فنظرا لعدم تعامل مؤسسات حكومية معينة — كالوكالة اليهودية على سبيل المثال — معالقطاع العربى فى اسرائيل فان عبء التنمية بالكامل وقع على عاتق الميزانية الوطنية وعلى السكان العرب انفسهم مما ادى الى تأجيل العديد من المشروعات لاجل غير مسمى لاسباب مالية .

وهكذا كانت هناك اسباب حقيقية وراء شكوكى ولكن امكننى فى النهاية التغلب على تلك الشكوك برغبتى القوية فى ان اكون جزءا لا يتجزأ من البلد الذى كتب على قدرى ان اكون مواطنا فيه . لقد كنت مدفوعا بحاجة

ملحة ولدت داخل نفسى خلال الاسابيع الاولى لدراستى فى حيفا — كنت ارغب بشدة فى الذهاب الى الجامعة . وعندما حان وقت تجنيدى تقدمت فى الموعد والمكان المحددين لاتخاذ الاجراءات التمهيدية ولكننى طلبت حينذاك تأجيل تجنيدى حتى اتمكن من مواصلة دراستى . وافقت قوات الدفاع الاسرائيلية على طلبى ثم سرعان ما انتقلت الى القدس وانتظمت فى الجامعة العبرية فى قسم اللغة العبرية السامية .

كنت اول درزى من قرية (دالية الكرمل) ، التى تعد من اكبر القرى الدرزية فى البلاد ، انضم الى الجامعة العبرية . وكانت القدس حينذاك مدينة صغيرة اقرب ما تكون الى القرية وكانت الحياة تتوقف كلية فى ايام السبت ، وهو يوم العطلة اليهودية . وكان الطلبة الاجانب والطلبة العرب الذين يبعدون كثيرا عن قراهم هم الاشخاص الوحيدون الموجودون فى قاعات النوم خلال العطلات الاسبوعية ، واذا تصادف وجود اى شاعر او كاتب عربى فى المدينة فانه كان يجمعنا لقضاء امسية ادبية او شعرية . وعلى عكس الطلبة العرب فى الحرم الجامعى اليوم فان وعينا السياسى كان يغط فى سبات حينذاك . ولكن سرعان ما تغير ذلك ، ففى شهر يونيو سنة ١٩٦٧ اصبح الشرق الاوسط مرة اخرى بؤرة احداث جسام قررت مصير الملايين وتركت بصماتها على المنطقة كلها .

فى الايام الاولى من شهر يونيو سنة ١٩٦٧ كانت شوارع القدس خالية من الناس وتسلل الخوف الى حجرتى التى كنت استأجرها فى شارع (ماميلا) الذى يقع على بعد بضعة اقدام من الحائط الخرسانى الذى يقسم نصفى المدينة ، وكنت استطيع ان ارى من نافذتى القناصة الاردنيين الذين اتخذوا مواقعهم على الجانب الآخر من الحدود . وكان زملائى الطلبة قد تم استدعاؤهم للانضمام الى وحداتهم . ولكننى ظللت بلا عمل على الرغم من رغبتى الهائلة فى أن اشارك فى هذا الجهد الوطنى العظيم الذى وحد بين مواطنى هذا البلد . وتقدمت للاشتراك فى دورة تدريبية خاصة بالاسعافات الأولية التى اعلنت عنها الجامعة . ولكننى لم اكن سعيدا للغاية عندما علمت ان جميع المشتركين الآخرين شابات صغيرات .

وفى نهاية المطاف عندما لم اطق صبرا على تحمل (العار) قررت العودة الى قريتى . ولم يكن التوتر والترقب هناك اقل منهما فى القدس . فكان اولئك الذين يؤدون خدمتهم العسكرية العادية فى الوحدة الدرزية ينتظرون بفارغ الصبر مثلهم مثل بقية الجيش صدور الأوامر اليهم للتحرك .

وقام عشرات من جنود الاحتياط الذين جرى استدعاؤهم باستئجار اتوبيس وذهبوا الى تل ابيب للاعراب عن استيائهم والمطالبة بانضمامهم الى المجهود الحربى على الفور .

كانت حرب عام ١٩٦٧ هى المرة الأولى التى يشترك فيها الجنود الدروز فى حرب على نطاق واسع داخل صفوف قوات الدفاع الاسرائيلية . وكان اخى توفيق يؤدى الخدمة الاجبارية فى ذلك الوقت . وانتشرت شائعة مؤداها ان الوحدة الدرزية ستقاتل فى مرتفعات الجولان التى تسيطر عليها سوريا .

وكنا نعرف ان لنا اقارب هناك ، اثنين من اولاد عمى اللذين لم اقابلهما قط ، رفيق حلبى وتوفيق حلبى اللذين يعيشان فى قرية ماسادا فى الجولان وعندما سمعت امى الشائعة انخرطت فى البكاء واعلنت الصوم واستمرت عدة ايام مستغرقة فى الصلاة .

وفى الحقيقة ان اماكن الصلاة الدرزية كانت تغص بالمصلين . واخترت ان ابقى فى المنزل قابعا الى جانب الراديو وانا اتوق الى اية انباء تأتى من جبهات القتال .

وكانت الصيحات العالية التى تصدر عن راديو القاهرة والتى تنادى قائلة : « اقتلوا ، اقتلوا ، اقتلوا من اجل بناتكم،من اجل امهاتكم،اذبحوهم، اذبحوهم » كانت مرعبة ، وكانت تلك الجرعات المنتظمة من التحريض القومى والدعوة البربرية لحمل السلاح تخيفنى لدرجة ينخلع لها قلبى . والأسوا من ذلك تلك الصرخات الهستيرية المنبعثة من راديو صوت فلسطين والتى كانت تهزنى حتى الصميم . وكان الصوت الحماسى للمذيع عبد الواحد زاهد يثير كل شعورى بعدم الأمان ولن انسى قط صوته . وقد قلت له ذلك عندما انضم الى العاملين فى قسم نشرة الأنباء العربية فى تليفزيون اسرائيل فى السبعينيات . ولحسن الحظ لم يدم عذابى طويلا ، ذلك لأن النصر الخاطف الذى حققته قوات الدفاع الاسرائيلية سرعان ما بدل حالتى النفسية الى النقيض . وقد ساد الشعور بالراحة والحماس حتى فى القرى عندما بدأ الشباب فى العودة اليها . وكان الأهالى يرحبون بهم كأبطال منتصرين ويستقبلوهم بالاحضان وبالربت على ظهورهم . فبدلا من أن تتقهقر قوات الدفاع الاسرائيلية نتيجة لضغط ثلاثة جيوش معادية فانها استولت على الضفة الغربية، وقطاع غزة ، وصحراء سيناء ، ومرتفعات الجولان ، ما اعجبها من ايام .

ولكن كان هناك جانب آخر من التجربة بالنسبة لى . ففى منتصف الطريق الطويل والدقيق الذى كان يزيدنى قربا وارتباطا بالبلاد الذى اعيش فيه جاءت تلك الحرب المذهلة لتدفعنى مرة اخرى فى متاهة الاضطراب والشك . فمن ناحية اكدت قوة اسرائيل وانتصار جيشها احساسى بالتقارب من الناس الذين صنعوا من هذا البلد وطنا لهم . وعلى الجانب الآخر فان الزهو الشديد والشعور المتعجرف بالتفوق والتصريحات المليئة بالاحتقار للجانب الآخر التى كان يدلى بها المنتصرون ، والتى سرعان ما استشرت فى طول البلاد منعتنى كلها من المشاركة فى انتصارهم . وعلى سبيل المثال فقد

تم مرة اخرى احياء عبارات الاستخفاف مثل (العمل العربى) (والعقل العربى) وكان عقلى المضطرب عقلا عربيا وكنت استطيع الاحساس بالاستياء ينمو بداخله . وفى الوقت الذى كانت البلاد منتشية بالانتصار كنت اشعر بالفعل بالخوف من العواقب المحتملة .

بعد ايام قليلة من انتهاء القتال نشرت بلدية القدس اعلانا باتاحة فرصة (عمل ممتع) للطلبة الذين يتكلمون اللغة العربية وانتهزت تلك الفرصة للعودة الى العمل من جديد . ووجدتنى فى يونيو ١٩٦٧ ادير اول مكتب بلدى اسرائيلى يقام فى القدس الشرقية وفى الوقت الذى كنت اواصل فيه دراستى اصبحت نائبا لمدير شئون القدس الشرقية ومكثت فى هذا المنصب حتى حصلت على شهادتى الجامعية . وفى مايو ١٩٧٠ التحقت بقوات الدفاع الاسرائيلية لاداء الخدمة العسكرية .

اننى لم اخف قط الفخر الذى اشعر به (لنيلى شرف خدمة قوات الدفاع الاسرائيلية وحبى لزيها الرسمى) ، وهى الصيغة التى وضعها الجيش . ومع ذلك فقد انتابنى القلق فى بداية الأمر لما ينتظرنى فى الجيش . فعندما يخدم جندى فى وحدة مقاتلة فانه يفعل اكثر من مجرد حب الزى فهو مدعو لحمل السلاح والمدفع الهجومى ليس موجودا للزينة . « وفقا لما تعلن مطبوعات الجيش » . ان الغرض منه هو الدفاع عن الحياة الانسانية وفى بعض الأحيان فان الدفاع يعنى الهجوم . وخلاصة القول فان الخدمة فى القوات الاسرائيلية عمل جاد .

ولقد ادركت بطريقة مؤلمة مدى جدية هذا العمل قبل ايام قليلة من تسليم نفسى لقضاء الخدمة العسكرية فقد حدث ان قتل صديقا حميما لى من (دالية الكرمل) وزميل دراستى وهو لطفى نصر الدين ، خلال اشتباك مع الارهابيين الفلسطينيين على الحدود الأردنية ، وحضر الجنازة موشى ديان الذى كان يشغل حينذاك منصب وزير الدفاع .

ووقف والد صديقى ربما بدافع الحماس لوجود ديان ، وتحدث عن المصير المشترك للدروز واليهود (وميثاق الدم) الذى يربط بينهما ، وانتحيت جانبا اغالب دموع المرارة التى كنت اشعر بها ، لكم سئمت تلك الطريقة الكريهة للتعبير عن الروابط بين المواطنين الأشقاء . لقد تقبلت الحاجة الى تحالف الجنود للقتال جنبا الى جنب للدفاع عن البلد الذى يتعلقون به ولكن كلمات (ميثاق الدم) تنضح بالغوغائية الغبية .

وتم ارسالى مع غيرى من المجندين فى الوحدة الدرزية الى احدى قواعد التدريب فى الضفة الغربية حيث كنا نشترك فى المناورات نهارا ونقوم بحراسة منشآت احد المعسكرات الأردنية المهجورة ليلا . وفى اواخر ذلك العام تم ارسال وحدتى الى مرتفعات الجولان للقيام بمناورات — وذلك بعد

ثلاث سنوات من حرب عام ١٩٦٧ . وحدث آنذاك اول اتصال لى مع دروز تلك المنطقة فى قراهم ومنازلهم . وقبل ذلك بعامين وقف ببابنا فى (دالية الكرمل) شاب ازرق العينين اشقر يسأل:عما اذا كان هذا البيت هو بيت رفيق حلبى، وعندما قلت له : اننى هو اندفع نحوى وانفجر فى البكاء وهو يردد (انا ايضا رفيق حلبى) ثم قال مردفا : من ماسادا على مرتفعات الجولان) وعندما استجمع شتات نفسه مضى يقول لنا : انه من عائلة كبيرة العدد فى الجولان وان شقيقه حمدى يدرس فى جامعة دمشق .

وكان رفيق ، ابن العم الذى لم اقابله قط قد اصبح مدير مدرسة قريته قبل الحرب ، وقد اعترف طواعية بأنه يؤيد حزب البعث السورى وانه معارض قوى للاحتلال الاسرائيلى . وفى الحقيقة فانه على الرغم من ان اهالى قريته قد حثوه على ان يخفف من موقفه الا انه رفض العودة الى منصبه فى المدرسة تحت الاحتلال ، وذهب للعمل فى مزرعة التفاح التى تمتلكها الاسرة بدلا من ذلك . وسألنى رفيق:ماذا يتعين عليه ان يفعل ؟ ولكنه اردف قائلا قبل ان اجيبه (تذكر ان اخى يدرس فى دمشق واننى مواطن سورى . انك تعرف اسرائيل،هل يمكن ان نثق فى ان يتركنا الاسرائيليون لمصيرنا عندما ينسحبون من الجولان ؟ « لقد طلبت الحكومة من الاسرائيليين الدروز بذل كل ما فى وسعهم لتسهيل اندماج دروز الجولان او على الاقل التخفيف من حدة معارضتهم للحكم الاسرائيلى . ولكن رابطة الدم ومشاعر القربى بين رفيق وبينى كانت تعنى ان النصيحة التى يطلب منى اسداءها له كانت اكثر من مجرد تقييم سياسى . وعلى الرغم من نداء الحكومة الا انه كان ينتابنى القلق حول التورط فى هذا الأمر . فقد كان من الواضح ان الموقف كان دقيقا وعلى الرغم من ذلك فان مدى المأساة لم يتضح امامى تماما حتى شهر اغسطس عام ١٩٧٣ بعد عشرة ايام من تسريحى من الخدمة فى الجيش .

كان هناك شخص يدعى اديب حلبى من قرية (مجدل شمس) وثلاثة شبان آخرون من مرتفعات الجولان يحاكمون امام محكمة عسكرية فى القنيطرة. وكنت قد تعرفت على اديب خلال الزيارات التى كان يقوم بها الى (دالية الكرمل) وكان يمنحنى الاحساس بأنه شاب هادىء مؤدب ، وها هو الآن يحاكم بتهمة ارسال رسائل متفجرة الى رئيس الولايات المتحدة ريتشارد نيكسون ووزير خارجيته وليام روجرز وذلك من مكتب بريد مدينة (كريات شمونة) الاسرائيلية فى الشمال . وقد انكر اديب الذى بدا مضطربا للغاية اى علم له بالأعمال التى كان متهما بها ، ومع ذلك فقد ادين وطالب المدعى العسكرى باعدام كافة من ادينوا . ولكن القضاة اكتفوا باصدار احكام بالحبس لمدة عشرين عاما . وكانت آخر مرة رايت فيها اديب ، هى عندما زرته فى سجن حنين فى الضفة الغربية .

وكانت نظراته الزائغة تعبر عن احواله . كذلك حكم على ابن عمنا رفيق من قرية (ماسادا) بالسجن لمدة سنتين لعدم تقدمه للبلاغ عن تفاصيل

الحادث الى السلطات . كان منطق الأمن فوق كل شىء يحتم عليه ان يبلغ عن ابن عمه . ولذلك فقد يلقى عقابه على عدم قيامه بهذا .

لم يزل من الصعب على فهم المصير السىء لشعبى — ولعائلتى — فى مرتفعات الجولان . ففى خلال فترة الحكم السورى تم القاء القبض على عشرات من الدروز بتهمة التجسس لحساب اسرائيل وعانت الطائفة الدرزية بكاملها . والآن عندما اصبحت الجولان فى ايدى اسرائيلية فان هناك دروزا آخرين يقبض عليهم بتهمة التجسس لحساب سوريا .

لقد ثار مؤخرا حديث حول تطبيق القانون الاسرائيلى فى الجولان ومنح المواطنة الاسرائيلية للدروز هناك ولكن يبدو لى ان احدا لا يمكن ان يقدر مدى تعقيد المشكلة سوى شخص له شقيق يعيش فى سوريا وابن عم موجود فى السجن ، وشخص يحتاج الى وثائق من الصليب الاحمر والحكومة السورية لزيارة عائلته على الجانب الآخر من الحدود . ان مثل هذا الشخص لا يحتاج الى بطاقة شخصية ، سواء اسرائيلية او سورية ، ان ما يريده فوق كل شىء هو وثيقة تؤكد حقوقه كانسان حر .

ومهما كان وضع اقاربى فى الجولان مؤلما فلم يكن بوسعى ان افعل شيئا ازاءه . ولكن اثناء وجودى فى الجيش كنت فى موقف يمكننى من معالجة بعض المشاكل التى تواجه الدروز القريبين منى . ففى سنة ١٩٧١ تم اختيارى لحضور دورة تدريبية للضباط ، وعند اتمامها عينت فى وحدة درزية متمركزة فى الشمال حيث اسعدنى ان اعلم اننى سأخدم مؤقتا كضابط تعليم الوحدة . وكان البرنامج المخصص للوحدة يغطى مجالا واسعا من البرامج ابتداء من تحسين قدرات القراءة والكتابة بالعبرية الى بناء الشخصية سواء بالنسبة للضباط او الجنود .

كان الجيش بالنسبة لكثير من شباب الدروز مجالا لأن يصبحوا مواطنين خلاقين ومفيدين فى مجتمع حديث . وكانت الخدمة العسكرية تربط الشاب الدرزى برباط اوثق مع هذا البلد ولكنها كانت تجعله فى الوقت ذاته اكثر ادراكا للفروق التى تفصله عن المجتمع اليهودى . ولذلك كان عملى حساسا وصعبا: ان اجعل الرجال يدركون أخطار الادماج الذى لن يحل شيئا بالنسبة لهم ، فى الوقت الذى احرص فيه على الا احبط شعورهم الصحى بأن لهم الحق فى المطالبة بالمساواة .

كان الجنود فى الوحدات الدرزية حساسين بالفعل ازاء اى تلميح بالتفرقة او الظلم من جانب السلطات او المجتمع ككل ، ولسوء الحظ كانت هناك اوقات كان يتعين عليهم فيها ان يكونوا عميا او صما حتى لا يشعروا بأنهم غير مرغوب فيهم . وقد حدث فى احدى المرات عندما كنت موجودا فى الشمال ان قامت مجموعة من الارهابيين بالاستيلاء على احدى الشقق فى

مدينة كيريات شمونة بالقرب من الحدود اللبنانية وتم استدعاء وحدتى للاشتراك فى عملية الانقاذ ، واثناء اطلاق النار قتل جندى جركسى واصيب جندى درزى اصابة خطيرة ونقل الى المستشفى فى مدينة صفد ، وعندما هرع والده لرؤيته مرتدين ملابسهما الوطنية احاط بهما مواطنو المدينة الغاضبون وهم يرددون صيحات (عرب قذرون) . وفى الوقت نفسه قامت مظاهرة فى كيريات شمونة تحت شعار (ايها الدروز عودوا الى بلادكم ، اننا لا نريد جنودا دروزا هنـا) .

فما كان من الميجور جنرال موردخاى جور قائد الجبهة الذى راى ذلك المشهد واستشـاط غضبا ازاء الاهانة التى وجهت الى رجاله الا ان اقتحم مبنى المجلس المحلى ولفت نظر القادة المحليين بحدة الى ان الجنود الدروز ضحوا بحياتهم لانقاذ المدينة . من مأساة رهيبة . وفى الوقت نفسه كان يسود الوحدة شعور متجهم « ان احدا لم يجادل فى واجبنا نحو خـدمة الدولة ، ولكنى كنت اسمع الرجال يتمتمون فى تذمر وهم يتناولون قهوتهم ويلخصون وضعهم فى هذه الكلمات (عندما تكون عضوا فى طائفة صغيرة فانك تكون الخاسر مهما فعلت ، لماذا يتعين علينا ان نتدخل فيما لا يعنينا ؟ » لقد بدا كما لو ان الدروز الذين استطاعوا لاجيال طويلة ان يسيروا بين قطرات المطر « دون ان يبتلوا » قد غرقوا تماما مؤخرا وكانت النتيجة اصابتهم بحالة مزمنة من الالتهاب الرئوى .

تركت الجيش قبل شهرين فقط من نشوب حرب يوم كيبور ، ولم تكن قد اتيحت لى الفرصة لاتكيف مع الحياة المدنية او التفكير فى المستقبل حتى حدث ذلك الزلزال الذى ترك بصمته علينا جميعا . وفجأة عرفت تماما وبدون ادنى ظل من الشك ما الذى اريد ان افعله بحياتى . كنت قد فقدت حماسى للعمل فى بلدية القدس (على الرغم من انه قد عرض على منصب بها ومكثت به لفترة) كما ان الحيـاة الدراسية لم تعد تستهوينى . وكانت القشعريرة تسرى فى جسدى كلما فكرت فى العمل فى مجال الأعمال . وكان ما اريده هو ان اكون فى مركز يسمح لى بالتأثير على مجرى الأحـداث فى هذا البلد . وربما بدا فى هذا التفكير شىء من الغرور عندما يدور فى خلد ابن فلاح درزى ـ على الرغم من الشهادة الجامعية التى حصلت عليها ومنصب الضابط الذى توليته ـ على اى حال فقد مرت هذه الفكرة على بالى . ولكن مثلى مثل غيرى من ابناء جيلى خرجت من حرب يوم كيبور ويراودنى شعور باننى ملزم شخصيا بأن افعل شيئا ازاء الحال التى وصل اليهـا الأمر فى هذا البلد .

ان الأخطاء الفادحة التى وقعت خلال حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ يمكن ارجاعها مباشرة الى احداث متتالية ادت الى تبلد الوعى النقدى فى المجتمع الاسرائيلى . فلقد تغلب الايمان الاعمى بقوة اسرائيل التى لا تقبل الجدل، على مناقشة الموضوعات القومية الهامة . وكنت اؤمن ايمانا قويا بانه يجب كشف كافة الحقائق ، وان اخفاء الحقيقة او تغييرها يعرض مستقبل هذا

البلد للخطر ، وكما اثبتت الحرب فان الروح المعنوية قد انهارت بدرجة كبيرة عندما كان الناس لايتلقون سوى جرعات من المعلومات المنتقاة بعناية . بدات مرة اخرى انجذب الى حلم طفولتى فى ان اصبح صحفيا ، وتدخل القدر فى هذه المرة عندما تصادف ان ذكر صديق قديم امامى ان قسم الانباء فى تليفزيون اسرائيل يطلب مراسلا يتكلم اللغة العربية لتغطية اخبار المناطق المحتلة ، تقدمت لشغل الوظيفة قبل ان اغير تفكيرى .

كان ذلك فى عام ١٩٧٤ عندما كان تليفزيون اسرائيل مايزال فى بداية ارساله ولم يكتسب خبرة ـ على الرغم من انه كان قد مر وقت كاف بالنسبة لنجوم الشاشة الصغيرة لان يصبحوا ابطالا قوميين ويحققوا شـهرة تكاد تقترب من شهرة نجوم كرة القدم . كنت اشعر بالاضطراب لتفكيرى فى الدخول الى عرين الأسد . ومن اكثر المسائل التى كانت تقلقنى اللهجة التى كنت اتحدث بها العبرية . فعلى الرغم من العمل الشاق لم يكن هناك سبيل الى ان يجرى لسانى باللهجة العبرية (الغربية) فلم تكن هذه اللهجة احدى الصفات المتوارثة التى اكتسبتها .

كنت اتكلم العبرية بطلاقة ولم تكن الكتابة تشكل اى مشاكل بالنسبة لى، ولكن مجرد التفكير فى ان ابدو للعيان وتحت الأضواء الكاشفة وان يحـدث كل شىء باللغة العبرية امام جمهور قابع امام اجهزته منصتا الى كل مقطع ، جعلنى عصبيا اكثر فأكثر . بل فى الحقيقة فان هذا الشعور بالاضطراب المتزايد يتغلب على تصميمى فى الحصول على العمل .

وفى النهاية ، استطعت ان اتكيف وان اندمج فى العمل بأسرع وأيسر مما كنت اتخيل . كان الجميع حساسين بدرجة كبيرة ولم يحاول احد الضغط على او معاملتى بفظاظة بل ان الأهم ان هيئة العاملين قد بذلت جهودا مضنية من اجل تلقينى اسرار العمل . وكنت اشعر احيانا وكأننى « هدف » للتفرقة الايجابية ، فقد احتضنتنى مجموعة متميزة تمثل المجتمـع الاسرائيلى فى افضل صورة .

ويرفض كثيرا من العرب فى اسرائيل تصديقى عندما اقول:ان تليفزيون اسرائيل كان بمثابة البيت الثانى لى . لقد كانوا يعذبوننى بأسئلتهم فى محاولة للحصول على اعتراف منى يكشف الحقيقة وراء ما يعتبرونه اوصافا (وردية) مثيرة للشكوك . والحقيقة أن عملى فى التليفزيون الاسرائيلى بدل نظرتى كلها الى هذا البلد . اننى لم اشك قط فى انتمائى الى الدولة او فى حق شـعب اسرائيل فى ان تكون له حياة مستقلة وخلاقة ، ولكننى لم احب قط المجتمع الاسرائيلى بصفة خاصة ، بل على العكس لقد تراكمت فى داخلى الكراهية ضد هذا المجتمع الذى اهاننى وعاملنى بغطرسة والذى كان يقف احيانا فى طريق تقدمى . وكنت اشك فى استطاعتى ايجاد مكان لى فى بيئة يهودية، لانه من خلال تجربتى كنت اعرف ان اليهود الاسرائيليين لم يكونوا معروفين على وجه الخصوص بتفتحهم على « الغرباء » ولكن ادارة الأنباء فىالتليفزيون

الاسرائيلى هدمت تحاملى بهذا الصدد وبددت مخاوفى . وأتذكر انه فى احدى الأمسيات عندما كنا نعمل بجد تحت ضغط شديد ، التفت الى احد الزملاء فجاة واعترف لى قائلا :

ـ (هل تعرف يا رفيق اننى اشعر باننى قريب منك اكثر من اى مهاجر آخر من بولندا أو جورجيا او العراق وكشف لى هذا الفيض المفاجىء من العواطف حقيقة عميقة وأساسية : ان الحياة فى اسرائيل قد خلقت رابطة من التعايش بين الشعوب ، وانه اذا أمكن الحفاظ عليها واستثمارها ، يمكن ان تقاوم كافة المحاولات الرامية لتقويضها .

وفى الوقت نفسه اثار عملى كمراســـل اخبارى للتليفزيون الاسرائيلى مسالة شخصيتى وولائى حتى وصل الجدل الى المستوى القومى . اننى لم اسمع احدا قط يشك فى واجبى نحو خدمة هذا البلد والوفاء بالالتزامات المفروضة على مثلى مثل اى مواطن آخر ولكن عندما بدات فى روايةماشاهدته عيناى وما التقطته كاميرتى فى الأراضى المحتلة فان الأصوات ترتفع فجأة لتشكك فى « اسرائيليتى » : وحاولت ان اتعامل مع مثل هذه التفاهاتببرود وتعقل وبالانصراف الى عملى . ولم يبخل زملائى على بالتعضيد ومساندتى فى عزمى هذا ولكن من الصعب تجاهل ما تتضمنه تلك الهجمات من دلائل .

ان كثيرين فى اسرائيل لديهم مقتشديد لأقل بادرة تشير الى «الاختلاف» الاجتماعى . ولكن هل (اسرائيلية) كل مواطن فى اسرائيل متماثلة حقيقة؟ هل بوريس الذى من كيف ودانى من تل ابيب ومحمد من يافا متشـــابهون حقيقة ومتساوون بهذا المعنى ؟ من الواضح ان الاجابة بالنفى . اذن لماذا يضرب المثل برفيق حلبى ؟ ان صراع الشعب اليهودى طوال القرن الماضى من اجل احياء القومية اليهودية يعد من اكثر قصص الشجاعة الانسانية اثارة عبر التاريخ . فهنا وعلى هذه الأرض تحول المثل الأعلى لمئات الالوف الذين اضطهدوا بوحشية الى حقيقة واقعة . فلا غرو اذن فى أن مؤسسى اسرائيل لا ينظرون الى دولتهم باعتبارها مجرد كيان قومى مماثل لغيره من الدول الأخرى فى العالم . اننى ادرك مدى شوقهم لأن تصبح دولتهم بمثابة الضوء الهادى للأمم ، واتقبل الأمر الحتمى المعنوى الذى فرض بقيام هذه الدولة . ان التاريخ قد خلق حقيقة لايمكن انكارها وان هيمنة الثقافة اليهودية فى دولة اسرائيل شىء لا اتطلع اطلاقا الى تغييره ومع ذلك فاننى كمواطن فى هذه الدولة ارى بلدى باعتبارها اطارا كتب على شعبين انيعيشا بداخلهجنبا الى جنب وان يشتركا فى البناء والكفاح معا فى سلام . كان ذلك هو الحكم الكامن فى اعلان استقلالاسرائيل . وهذا هو اعتقادى والعقيدة التى اسعى الى بثها فى ابنائى بل الأكثر من هذا فاننى اعتبر موقف اى اسرائيلى عربى من (المسالة اليهودية) ومن المعاناة السابقة للشعب اليهودى بمثابةالمحكللحكم على اخلاقياته .وبنفس القدر فاننى لا أخشى أن احكم على المستوى الأخلاقى للاسرائيلى اليهودى بموقفه من « المشكلة العربية » ولا مجال لانكار وجود تلك المشكلة .ولقد بدات اتعرف علىتلك المشكلة عندما كنت طفلا اشاهد اللاجئين

العرب الذين كانوا يريدون العودة الى قراهم المدمرة . وكان ابى يحـاول التخفيف من معنى ما اشاهده بقوله « هناك بلاد كثيرة باستطاعتهم العيش فيها » غير اننى لم استطع فى النهاية ان اتمالك نفسى فقلت له متحديا « ولكن الأرض وشرف الأخت قيممقدسة .لقد اخرجوا من ارضهم وكتب على بناتهم التجول من مكان لآخر » وكان رد ابى على هذا التحدى هو التقطيب وتقديم نصيحة استمرت معى لعدة سنوات « اننا طائفة صغيرة وضعيفة فاذا اردنا ان نعيش فعلينا ان نتشبه بمحيطنا طالما كنت نباتا رقيقا صغيرا فعليك ان تحمى نفسك من كل هبة ريح ولكن عندما تكبر وتقوى وتضرب بجذورك فى التربة فانك لن تخاف حتى عواصف الشتاء ! » .

اننى لم اعد ذلك الصبى العربى المذعور الذى كان يتجول حافى القدمين عبر الطرق القذرة فى قريته مثله مثل اولئك الاطفال الذين كنت اراهم بعد ذلك بسنوات فى مخيمات اللاجئين فى الضفة الغربية . لقد ضربت بجذورى فى دولة اسرائيل . وكما اننى يجب ان اعيش وفقا لقوانينها ونظمها كذلك فاننى اشعر باننى ملتزم بان احمى وادافع عن امنها وسلامتها ـ سواء المعنوية أو المادية . ولهذا فاننى حين ارى مظاهرة تشير الى تبلد الحس او الظلم فاننى لا استطيع التزام الصمت،ولهذا السبب ومن اجل ابناء وطنىومناجلشعبى كتبت هذا الكتاب .

الفصل الثانى

القـــــــدس

كانت اول لمحة تعرفت فيها على تأثير حرب الأيام الستة على الناس فى الاراضى المستولى عليها هى ما رايته من خلال تجربتى بالقدس عندما ذهبت للعمل فى بلدية القدس بعد وقت قصير من انتهاء القتال . وقد قمت بفتح اول مكتب محلى فى القدس الشرقية عندما كانت الحدود التى تقسم شطرى المدينة مازالت مزروعة بالالغام ومئات من الجنود الاسرائيليين يجوبون الشوارع كدليل اضافى على الأحداث المؤسفة التى اجتاحت المدينة لتوها . لقد سقط خلال القتال ثلاثمائة وستة وستون شخصا من بينهم حـوالى مائة من المـدنيين .

وكانت المدينة القديمة المحوطة بالجدران اكثر الأماكن التى تعرضت للقصف ، ولكن ادى القصف فى اماكن اخرى الى احداث خسائر جسيمة فى اسلاك الكهرباء ومحطة المياه وكانت المبانى المهدمة والسيارات المحترقة تملأ الشوارع والهواء معبأ برائحة خانقة .

لقد تم تدمير عشرات من المبانى تماما وخاصة تلك التى هجرها اصحابها فى منطقة الحدود . وكان سكان النصف الشرقى من القدس فى حالة ذعر وفزع ، وقام نحو خمسة آلاف منهم بالفرار من المدينة عندما تم الاستيلاء عليهـا . وكان من الواضح ان هناك كثيرا من العمل الذى يتعين القيام به ولكن كانت الأولوية لاعادة الحياة فى المدينة الى طبيعتها .

وقد قام موشى ديان باستدعاء الميجور جنرال شلومولاهات (الذى يشغل حاليا منصب عمدة تل ابيب والمشهور باسم شيش) الذى كان قد عاد لتوه من جولة محاضرات فى امريكا الجنوبية ، وذلك لتولى منصب الحاكم العسكرى للقدس الشرقية — وقال له ديان بطريقته القاطعة انه « اذا حدثت مذبحة فى المدينة وقتل العرب فانك ستكون مسئولا أمامى » .

ان القدس هامة بالنسبة لى . وفى الحقيقة لقد شاهدت عبر السنين مدى تصميم ديان على العيش جنبا الى جنب مع العرب ، واصبح سكان الضفة الغربية يحترمونه ويعجبون به . وكان ديان من القادة الاسرائيليين القلائل الذى استطاعوا اقامة علاقات حقيقية مع العرب فى الأراضى التى تم الاستيلاء عليهـا .

ولم يكن وزير الدفاع وحده فى مشاعره الخاصة تجاه القـدس . فلم يكد دخان المعركة يتلاشى حتى اصبح مستقبل الأراضى المستولى عليها موضوعا لمناقشة على مستوى الأمة فى اسرائيل ، وثارت مناقشـات حامية حول التنازل عن الأراضى فى مقابل اتفاقات سلام ، فيما عدا القدس ، التى بدا ان هناك اجماعا قوميا تبلور حولها بين عشية وضحاها .

فلم تكن القدس تعد « ارضا مقهورة » بل على العكس فانه منذ سقوط المدينة اصبح من المعتاد الحديث عن « تحرير » المدينة . ولم يستوعب عرب القدس الشرقية تلك الفكرة فى البداية ولم يفهموا ان مصيرهم سيكون مختلفا عن مصير بقية الضفة الغربية . وفى الحقيقة فان بعضهم لم يعرف حتى من اين اتى الجنود الفاتحون .

بيد ان الشخصيات البارزة فى بلدية القدس لم يختلط عليهم الأمر كثيرا ازاء هذه المسألة . فقد حكى لى صلاح جار الله رئيس البلدية الذى قابلته يوم ٧ يونيو ومعه روحى الخطيب عمدة القدس الشرقية كيف دخل الجنود الاسرائيليون منزله وهم شاهرون حرابهم وامروه بأن يأتى معهم ثم اقتادوه مع الشيخ سيد صبرة قاضى قضاة القدس — وهو منصب دينى اسلامى — الى الميدان امام المسجد الأقصى . وهناك قام الجنود بتفتيشهم،وان كانوا سمحوا لهم بعد ذلك بالعودة الى منازلهم ولكن جار الله كان يشعر بان شرفه كأحد الأعيان العرب — وهو ما يعتز به كثيرا — قد تعرض للاهانة وتحطمت روحه المعنوية تماما .وقد سمعت قصة اخرى عن اول لقاء بين المنتصرين والمهزومين رواها لى بعد قليل من وقوعها ، انور الخطيب ، الحاكم الأردنى للمدينة.
« استدعيت لاجتماع مع المتحدث باسم الحكومة الاسرائيلية وهو الميجور جنرال حاييم هيرتزوج وأخبرته بموضوع الأضرار التى لحقت بالمسجد الأقصى فرد مدافعا بقوله (ان الفيلق العربى وضع قناصة فى مئذنة المسجد وكانت قوات الدفاع الاسرائيلية مضطرة للرد) وعلق الخطيب على رد هيرتزوج بقوله (اعترف انه كان على حق فى هذا) ومضى الخطيب يقول: انه قال لهيرتزوج (اننى اعترف بانكم تتصرفون مثل الناس المتحضرين ولكن عندما قام جنودكم بتفتيش منزلى فى بيت حنين ظننت ان هذا هو آخر يوم لى على ظهر الأرض) وقال الخطيب : انه عندما نطق بتلك الكلمات انخرط فى البكـاء مما دعـا بهيرتزوج أن يرد عليه سريعا بقوله (انك مضطرب لأنك كنت خائفا من ان نفعل بك ما كنت تنوى ان تفعله بنا) واعترف الخطيب الذى كان حتى ذلك اليوم مؤيدا مخلصا للملك حسين ان هيرتزوج افحمه هنا كذلك (وقال الخطيب لهيرتزوج : انه قد اتصل بالملك حسين بمجرد نشوب القتال وطلب اذنـا بالاستسلام،وجاء رد الملك حسين فى صورة وعـد مشجع : اصمدوا وسـننقذكم) .

وقد طلب انور الخطيب من هيرتزوج خلال هذا الاجتماع ذاته أن يسمح لعدد من العائلات التى تعيش فى القطاع الشرقى من المدينة بالعبور الى الأردن لجمع الشمل مع اقاربهم هناك ووافق ممثل الحكومة الاسرائيلية على

هذا الطلب ولكن خوفا من تفسير تلك البادرة الطيبــة على انهـا اجراء اسرائيلي لنفى العائلات فانه اصر على ان يكون الطلب مكتوبا ، وبمجرد استيفاء الاجراءات تم فى ١١ يونيو استئجار احدى عشرة سيارة اتوبيس لحمل العائلات العربية حتى جسر اللنبى وسرعان ما غادر المدينة بضع مئات آخرون ولكن بعد التوقيع على اقرارات تفيد بأنهم غادروا القدس طواعية .

والصبغة الأساسية الغالبة على الاتصــالات الأولى بين المسئولين فى الادارة العسكرية الاسرائيلية وزعماء السكان العرب فى القدس هى الصبغة الرسمية المتحضرة والمهذبة . وكانت المهمة الأولى التى اوكلت الى مكتبى هى اسكان المسئولين فى البلدية وموظفيهم واعادتهم الى العمل ولكننى عندما طلبت من عمدة المدينة روحى الخطيب ومســاعده الادارى انطـون صفى تزويدى بقائمة حديثة بأسماء موظفيهم — ارتطمت بحائط عـداء وسرعان ما اثاروا موضوع وضعى الشخصى غير العادى — على الرغم من انهم فعلوا ذلك بصورة غير مباشرة . ابدى صفى ملاحظة على طـلاقتى فى اللغـة العربية وترددت فى اخباره عن اصلى . فلم تكون الوحدة الدرزية قد حاربت فى الضفة الغربية ولكن هذا لم يمنع انتشار شائعات شريرة حول (الفظائع) التى ارتكبها جنودها . واخبرته فى محاولة لتجنب اثارة اى شعور بالاستياء ان معرفتى باللغة العربية جاءت نتيجة (لدراستى فى الجامعة) ومهما كان رايه فى هذا فان الموضوع لم يثر مرة اخرى .

وكان صلاح جار الله الذى كان يتحدث اللغة العبرية قليلا — ربمـا تعلمها قبل عام ١٩٤٨ — اول مسئول يملك شجاعة كافية للمســاعدة فى استئناف الحكومة المحلية عملها مرة اخرى . وكان يساعده صديقه ابراهيم الدجانى سليل واحدة من اغنى العائلات واكثرها احتراما فى القدس وقد تعاونا فى صرف مرتبات كافة موظفى البلدية (بالجنيه الاسرائيلى بالطبع). ففى يوم ١٠ يونيو تم تكليف روحى الخطيب بمهمة مساعدة الحكومة المحلية على استئناف عملها فقام وبصحبته ممثل الحكومة العسكرية الاسرائيلية ، بالمرور فى الشوارع فى محاولة لاعادة الخدمات المدنية . وكان السـكان العــرب يختلسون النظر عبر النوافذ المغلقة الى هذا الثنائى (المتضامن) المار امامهم وقد ادان كثير من سكان القدس العمدة باعتباره خائنا لتجرئه على التعاون مع مندوبى الاحتلال الاسرائيلى .

ولكن الخطيب ، الذى كان بلا شك فى موقف لا يحسد عليه ، صمـد امام هذه الاتهامات ودافع عن تصرفاته وعقد اجتماعـا مع اعضــاء المجلس البلدى وشرح لهم دوافعه بوضوح تام : (اننا نعيش تحت الاحتلال العسكرى ولكننا سنستمر فى توفير الخدمات لناخبينا بنفس الكفاءة التى كنا نقوم بهـا قبل الحرب) . ودعا عمدة المدينة كذلك كافة الذين مازالوا يملكون اسلحة الى وضع اسلحتهم خارج مداخل منازلهم ، واكد ممثل الحكومة العسكـرية اهارون ليش لرجال المجلس انه لن يصيب اى شخص يستجيب لطلب العمدة اى اذى . وعلى الفور اذاعت الشبكة العربية لصوت اسرائيل نداء العمدة

وتاكيد اهارون . ومضى المجلس فى مناقشة عدد من المشاكل التى نجمت عن الموقف الجديد وفى نهاية الاجتماع اصدر المجلس بيانا الى سكان المدينة وكان نص هذا النداء الذى وجه الى السكان كالآتى :

١ — يدعو المجلس كافة سكان المدينة الى الحفاظ على الهدوء والنظام والامتناع عن اى عمل من شأنه ان يدفع الحكومة العســكرية الى اتخـاذ اجراء ضــده .

٢ — يدعو المجلس كافة سكان القدس الى مد يد المســاعدة لاعادة الحياة فى المدينة الى طبيعتها . كذلك يطلب المجلس من كل شخص فى القدس لديه اسلحة او ذخيرة من اى نوع فى حوزته أن يضعها خارج مدخل بيته اثناء سريان حظر التجول وفقا للأمر الصادر عن القائد العسكرى للمدينة، وان اطاعة هذا الأمر سيجنب اتخاذ اجراء ضد اى فرد او ضد المدينة كلها.

٣ — ان المجلس يود ان يعلن انه بالتعــاون مع الادارة الاسرائيلية استطاع ان يحرز تقدما فى تأمين الحالة الصحية وامدادات المياه الى عــدد من قطاعات المدينة وانه يبذل جهدا ضخما من اجل تأمين وصول تلك الخدمات الى كافة اجزاء المدينة بأسرع ما يمكن .

٤ — ان المجلس يود ان يعلن ايضا انه بالتعاون مع الادارة الاسرائيلية استأنفت شركة الكهرباء المحلية عملها واعادت الكهرباء الى عدة قطاعات من المدينة وتواصل جهودها لامداد الاحياء الباقية بالكهرباء .

٥ — ان المجلس يود ان يعلن انه بالتعاون مع الحكومة العسكرية فانه يواصل جهوده لاعادة كافة الخـدمات الاساسية .. وانه يبذل كل ما فى وسعه لاستئناف الحياة الطبيعية بأسرع ما يمكن .

وكان العمدة والحاكم والمجلس فى حال عقلية مهيأة للطاعة نظرا للذهول الذى اصابهم نتيجة لضخامة الهزيمة العسكرية وتبعا لذلك كان البيان معتدلا وفى الصميم . وارادت السلطات الاسرائيلية — وخاصة تيدى كوليك عمـدة القطاع اليهودى من المدينة وموشى ديان — التى ابتهجت لوضوح بوادر هذا التعاون الرسمى ان « تطرق الحديد » وهو مازال ساخنا وان تحقق اقصى انجاز ممكن على وجه السرعة . وكانت فلسفتهم التى ظلت حجر الأساس للسياسة الاسرائيلية فى الأراضى المحتلة هى ان اكثر الســبل فاعليــة فى استمرار السيطرة الاسرائيلية على المناطق التى استولت عليها والتى لا تنوى الحكومة التخلى عنها هو اقامة ما نسميه هنا الأمر الواقع . وهكذا فى يوم ١٠ يونيو ، وما كاد السكان العرب يفيقون من هول الصدمة ، حتى وجهت الادارة الاسرائيلية الضربة الأولى . ويمكننى ان اتذكر كيف اصبت حتى انا بالذهول ازاءها فقد كانت الضربة الأولى هى القرار الفورى بتدمير الحى الغربى بالمدينة القديمة المجاور للحائط الغربى — حائط المبكى .

ان خلفية ذلك القرار قصة توحى بالكثير فى حد ذاتها . كان من اول الاعمال التى قام بها تيدى كوليك باعتباره عمدة للمدينة التى تضاعف حجمها بين عشية وضحاها هو اصطحاب استاذه الموقر دافيد بن جوريون فى جولة عبر ازقة المدينة القديمة . لقد اثرت الحوائط التى تحيط بالمدينة القديمة تأثيرا عميقا على بن جوريون الذى كان يخشى ان تعمل فقط على استمرار انقسام المدينة الى الابد فاقترح فعلا هدمها . ولحسن الحظ رفض كوليك تلك الفكرة كلية وكان وصولهما الى الحائط الغربى هو ذروة جولتهما حيث وقفا مذهولين بسبب القذارة التى تحيط بهذا المكان لانه كان موضع التقديس الشديد لدى اليهود .

وكان بن جوريون يريد ازالة مصدر التدنيس : مرحاضان عامان موجودان الى جانب الحائط — واثار طلبه هذا موضوع : ما الذى يتعين عمله بالنسبة للمنطقة برمتها ؟

وكان جليا ان الزقاق على طول الحائط كان ضيقا بدرجة لا تسمح باستيعاب جموع المصلين والسائحين المتوقع زيارتهم للمكان .

وبعد اجراء المشاورات التى كان من الواضح انها لم تأخذ فى اعتبارها كافة جوانب المشكلة ، تقرر اقامة ميدان مواجه للحائط الغربى وكان ذلك يعنى هدم المبانى السكنية المجاورة للمكان .

وفى مساء يوم ١٠ يونيو سار ضابط اسرائيلى من بيت الى بيت فى الحى الغربى . اعلن السكان ان امامهم مهلة ثلاث ساعات لاخلاء منازلهم ..وارتفع العويل فى الوقت الذى بدات فيه العائلات فى التجمع بجانب بوابة صهيون حاملين معهم ما استطاعوا من المتاع الضئيل ولكن ثلاث عائلات تحدت الامر ورفضت ترك منازلها . واضيئت المنطقة باضواء ساطعة وشرع احد البلدوزرات الضخمة فى عملية الهدم ولاذت عائلتان من العائلات الباقية بالفرار عند رؤيتها له،وكلن رب العائلة الثالثة تشبث بموقعه وتراجع فقط عندما لاحت الالة المخيفة وبدات تتحرك فى ثبات تجاه منزله . وعلى الرغم من تفتيش المبانى قبل هدمها ، فان امراة عجوز قد وجدت بين الانقاض ولم يكن بجسمها اية اصابات ولكنها مع ذلك حملت الى المستشفى حيث ماتت بعد ذلك فى تلك الليلة ومن الواضح ان الرعب الذى تعرضت له كان فوق احتمالها .

وكان مجمل العائلات التى طردت من منازلها فى تلك العملية ١٣٥ عائلة وقد لجأت الى الشقق الخالية فى المدينة القديمة او الى القرى المجاورة ، وقد امضيت خلال عام ١٩٦٨ شهورا محاولا تعقبهم حتى يمكن تعويضهم عن ممتلكاتهم التى دمرت . وكان التعويض ضئيلا ولكنه كان كافيا للتخفيف الى حد ما عن الشعور بالفزع الذى تملكنى وجاءت الخطوة التالية فى ٢٧ يونيو، عندما سمعنا ان اسرائيل تنوى ضم القدس الشرقية وجعلها جزءا من الارض التى تفرض عليها الدولة سيادتها . وسعى روحى الخطيب الى الحصول على تكذيب للشائعات من ضباط الحكومة العسكرية ولكن فى نفس اليوم وقبل ان

يحصل على اجابة قاطعة نشرت الحكومة امرا تنظيميا رقم ١ لسنة ١٩٦٧ جاء فيه : يطبق القانون والقضاء والنظم الاسرائيلية فى الجزء العربى من القدس وحدد الامر كذلك حدود المنطقة المضمومة بانها القطاع الواقع تحت قضاء البلدية الاردنية فى القدس . وبعد يومين اصدر الجيش امرا بحل المجلس البلدى فى القدس العربية ونقل المسئولين به والموظفين الى بلدية القدس .

ان تلك الخطوات لم تترك اى شك فى نوايا اسرائيل وايقظت اخيرا زعماء القدس الشرقية من حالة الذهول التى اصابتهم منذ الحرب .

وبدا الزعماء المحليون فى تنظيم انفسهم للقيام بعمل سياسى بتحريض من الشيخ عبد الحميد صايح رئيس المحكمة الشرعية . وقد اثارت مبادرة صايح قلقا عظيما لدى الحكومة الاسرائيلية لانه كان يجسد مزيجا من الحماس السياسى والغيرة الدينية .

وبالفعل اجتمعت مجموعة من الشخصيات الدينية والسياسية يوم ٢٤ يوليو لمناقشة (الموقف الخطير) واتفقوا على القيام بسلسلة من الاحتجاجات للتعبير عن معارضتهم لسياسة الأمر الواقع الاسرائيلية ، وفى ختام الاجتماع نشرت المجموعة بيانا تستنكر فيه ضم القدس الشرقية واعلنت ان هذا الاجراء باطل ولاغ لان نظام الاحتلال قد فرض من جانب واحد وضد ارادة سكان المدينة الذين يعارضون هذا الضم ويؤمنون بوحدة الوطن الاردنى . كذلك رفض المشتركون تزويد وزارة الشئون الدينية الاسرائيلية بنسخ من الخطب التى ينوون القاءها خلال صلاة الجمعة فى مساجد المدينة وعلاوة على ذلك اعلنوا احتجاجهم على الملابس غير اللائقة التى يرتديها الاسرائيليون عند زيارتهم للمساجد وتدمير مسجدين فى الحى الغربى المجاور للحائط الغربى . وفى النهاية اقسم المجتمعون انهم لن ينحنوا للسلطة الاسرائيلية ودعوا الى مقاومة ما أسموه (محاولات اسرائيل للاستيلاء على الأماكن المقدسة) . كما تم خلال ذلك الاجتماع ايضا انتخاب مجلس اعلى اسلامى واختير عبد الحميد الصايح شيخ قضاة المسلمين فى الضفة الغربية لان يزاول عمله وفقا للقانون الأردنى ، وانتخب الشيخ حلمى محتسب رئيس الشئون القانونية الاسلامية كما تم توسيع اختصاصات كل من المفتى والقاضى .

واكد هذا البيان الرسمى الذى صدر بعد شهر ونصف من الحرب الرغبة فى الحفاظ على الروابط مع المملكة الاردنية الهاشمية وعلى الرغم من — او ربما بسبب — التوترات بين الحكومة الهاشمية فى عمان والسكان الفلسطينيين فى الضفة الغربية عمد الملك حسين الى توجيه رعايته الى القيادة المحلية فى الضفة الغربية مما ادى بالقيادة المحلية الى ان ترد المجاملة وان تعلن عن ولائها للملك . وعلى الرغم من ذلك فانه لا احد ممن اشتركوا فى ذلك الاجتماع منذ اربع عشرة سنة يقبل اليوم الاعلان صراحة عن ارتباطه بالأردن . ففى الوقت الذى استمروا فيه فى اجراء حوار سياسى واقامة

علاقات اجتماعية واقتصادية مع المملكة الهاشمية فانهم لم يستطيعوا ان ينكروا (فلسطينية) الضفة الغربية والقدس الشرقية ، وهم حريصون فى تصريحاتهم العلنية هذه الأيام على الا ينحرفوا عن الاجماع العام على تأييد منظمة التحرير الفلسطينية او معارضة هدف اقامة دولة فلسطينية مستقلة .

اما عن الدور الذى لعبته اسرائيل فى عملية (الفلسطنة) فان الموضوع يستحق دراسة جادة وسأعود اليه فيما بعد .

هذا ويعتبر اجتماع ٢٤ يوليو الذى عقدته الشخصيات الدينية والسياسية نقطة بداية العصيان المدنى . وانتهج نفس المسئولين الذين تعاونوا بكل كرم مع الادارة العسكرية الاسرائيلية بعد الحرب مباشرة موقفا اكثر عنادا . وتوقفوا عن محاولة الظهور بمظهر (رجال شرفاء) فى اتصالاتهم مع ممثلى الاحتلال ورفضوا الانصياع لمطالب ضباطه . وحاولت حكومة اسرائيل التى شعرت بالتغيير الذى طرأ على الشعور العام ان تواجه مشكلة كيفية معالجة الموقف المتدهور وطلب ليفى اشكول رئيس الوزراء فى اجتماع عقده بهذا الصدد مع عدد من المستشارين من بينهم بعض المستشرقين الادلاء بآرائهم وكان من بين الحاضرين اسحاق نافون رئيس اسرائيل حاليا الذى اشار الى أن الحل هو اثارة سلسلة من الاحداث تؤدى فى النهاية الى اقصاء الملك حسين حتى يمكن اقامة دولة فلسطينية فى مملكته وتوطين اللاجئين العرب فى عام ١٩٤٨ هناك . وقد اثارت هذه الفكرة وافكار مماثلة الاهتمام فى اسرائيل عبر السنين ، ولكن عندما طرحت الفكرة آنذاك لم يكن لرأى نافون وزن كبير وأيدت الغالبية موشى ديان فى الايمان بانه يتعين على اسرائيل أن تترقب فى صبر (المكالمة التليفونية) الشهيرة من الزعماء العرب .

اما فيما يتعلق بتيسير الشئون اليومية فى الأراضى المحتلة فان وزير الدفاع اوصى باتباع احد الأمثال العربية التى تقول : اخلع الضرس وتخلص من ألمه .

فاذا حاول الزعماء المحليون فى الأراضى التباهى بمعارضتهم الحكم الاسرائيلى فليس هناك حل سوى اقصائهم عن المسرح . تلك كانت نشأة سياسة الابعاد . وبمجرد اتخاذ القرار السياسى ، تحركت الحكومة العسكرية على الفور لتنفيذه . ففى ٣٠ يوليو تم ابعاد اربعة من اعضاء المجلس الاسلامى الأعلى الى صفد وحادرة وطبرية وتبرياس (فى الأراضى الاسرائيلية) واريحا مما ترك الأربعة المبعدين : أنور الخطيب ، ودكتور داود الحسينى ، والمحامين عبد المحسن ابو ميزار وابراهيم بكر فى مناطق خاضعة للقانون الاسرائيلى . ولكن لم يمض وقت طويل حتى تغيرت تلك السياسة ايضا حيث تم اقصاء المجموعة التالية من الشخصيات المبعدة عبر الجسور الى الأردن وتم نفيهم الى المملكة الهاشمية .

ومهما حققت عمليات الابعاد من وجهة النظر الاسرائيلية فانها لم تحقق على الجانب العربى ، غير زيادة تشدد الزعماء المحليين فى مواقفهم . وعقد عبد الحميد صايح بسرعة اجتماعا عاجلا اسفر عن تشكيل لجنة ارشاد قومى للتنسيق بين الأنشطة التى تدعو للاحتجاج وقيادة الكفاح الشعبى. ولم تضيع اللجنة الجديدة وقتا وشرعت فى العمل على الفور ، فاعلنت فى اليوم الأول لتشكيلها عن اضراب عام دعت كافة سكان القدس الشرقية الى الاشتراك فيه . واستجاب على الفور اربعة وعشرون محاميا واصدروا بيانا قالوا فيه انهم لن يتعاونوا مع السلطات الاسرائيلية . وحثت الغرفة التجارية اعضاءها على الامتناع عن دفع ضرائبهم واصدر اربع وثمانون من الشخصيات العامة بيانا يحتجون فيه على عملية ضم الأراضى . والأمر الاكثر اهمية ان عبد الحميد صايح نجح فى نهاية الأمر فى ان تمتد روح العصيان من القدس الى المدن الأخرى فى الضفة الغربية ، ولم يعد لدى الحكومة الاسرائيلية اى شك فى الدور الذى يلعبه لشحن الجو . وطلب موشى ديان موافقة مجلس الوزراء الاسرائيلى على ابعاده . وفى ٢٢ سبتمبر عام ١٩٦٧ تم ترحيل عبد الحميد صايح عبر نهر الأردن الى الضفة الغربية وبلغت سياسة الابعاد ذروتها .

ومع ذلك فان فاعلية تلك السياسة كانت مثارا للجدل . فعندما تم ابعاد عبد الحميد صايح قام روحى الخطيب ، عمدة القدس المعزول ، بمواصلة المسيرة حيث راس اجتماعات لجنة الارشاد القومى وتولى عملية ابلاغ انشطتها الى انصاره فى عمان ، واليوم وبعد اربعة عشر عاما من اصدار الأمر الخاص بحل المجلس البلدى للقدس الشرقية مازال هناك منبرا يسمى « المجلس البلدى للقدس العربية » وفى مايو سنة ١٩٨٠ قام اعضاؤه بزيارة انور نسيبة،وهو وزير اردنى سابق ومن اشهر الشخصيات المعتدلة التى تعيش فى القدس وأكثرهم احتراما ، لتقديم فروض الولاء والطاعة له .

ويشغل نسيبة حاليا منصب رئيس شركة كهرباء القدس الشرقية وكان الغرض من زيارة المجلس له هو تكريمه على انجازات الشركة وموقفه الشجاع ضد نية الحكومة الاسرائيلية المعلنة للاستيلاء على الشركة . وانتهز الوفد الفرصة لتذكير نسيبة بأن روحى الخطيب كان يشغل هذا المنصب قبله وابتسم نسيبة — الذى كان دائما سيدا مهذبا مثاليا — وفهم الرسالة الوطنية التى اتى زائروه لتبليغه اياها . وفى غضون أشهر قليلة قام الجنود الاسرائيليون فى ٧ مارس عام سنة ١٩٦٨ بزيارة الخطيب الذى كان يبدو أحيانا غير واثق من نفسه كبطل قومى — او كما لو كان ذلك امرا مفروضا عليه ضد ارادته — وقام الجنود بنقله الى أريحا حيث تم استجوابه وانتهى الأمر بابعاده الى الأردن .

الا ان عرب القدس لم يستسلموا وقام الثلاثى : القاضى سعد الدين العلمى ، وعبد المحسن ابو ميزار ، الذى عاد الى القدس بعد أن تعهد

بالامتناع عن القيام باى نشاط سياسى ، وكمال الدجانى المحامى ، الذى صعد الاحتجاجات بتشجيع النساء على السير فى مسيرة فى الشوارع والدعوة من جديد الى اضراب عام ، بشغل مكان روحى الخطيب كرئيس للجنة الارشاد القومى .. وسرعان ما اتضح ان المنظمات النسائية المحلية عنصر قيادى فى حركة العصيان المدنى حتى انها وجهت نداء الى الملك حسين تدعوه فيه الى تأييد الأنشطة الارهابية ضد اسرائيل . اما فيما يتعلق بالاضراب العام فان أصحاب الأعمال ترددوا فى البداية ثم رويدا رويدا بدا التجار فى غلق متاجرهم تضامنا مع القضية العربية وكان رد السلطات سريعا وحادا . فقد تم وضع القيادات النسائية تحت التحفظ الادارى وتم الاستيلاء على خمسة عشر متجرا وغلقها ووضعت تحت حراسة البوليس الاسرائيلى . وكان من المحتم ابعاد الزعماء الثلاثة الجدد للجنة الارشاد القومى وكذلك السيدة زليخة الشهابى ، رئيسة اتحاد المراة العربية الى الأردن .

ومن الواضح ان السكان العرب بداوا يدركون ان الاسرائيليين مصممون على كبت الثورة الوطنية حيث بدات العمليات الدالة على العصيان المدنى تخمد تدريجيا . لكن قبل ان يحدث ذلك بوقت طويل ، بدأ يحل محل العصيان المدنى شيء أكثر راديكالية وعنفا اذ ان معارضى الحكم الاسرائيلى بداوا يتجهون الى العمل السرى ويتحولون الى الارهاب .

وقد ظهرت البادرة الأولى على ذلك التحول فى شكل عبوة ناسفة زرعت قرب منشآت شركة الكهرباء الاسرائيلية فى المنطقة السكنية بحى كيريات موشى فى القدس الغربية وقد تم اكتشاف العبوة وابطال مفعولها فى الوقت المناسب ، ولكن فى يوم ١٩ سبتمبر عام ١٩٦٧ وقع أول انفجار ارهابى فى القدس الموحدة فقد تم وضع قنبلة فى فندق فاست وهو مبنى ضخم آيل للسقوط لا يبعد كثيرا عن بوابة يافا فى المنطقة المحرمة بين شطرى المدينة فيما مضى وقد أسفر الانفجار عن اصابة سبعة أشخاص وتدمير مطبعة قائمة بالمبنى .

وبعد أسابيع قليلة سعت الحركة الارهابية الوليدة الى تحقيق اهداف أكثر لفتا للأنظار عن نواياها ، ففى يوم ٨ أكتوبر قامت فاطمة البرناوى وثلاثة اعضاء آخرون فى احدى الخلايا المحلية التابعة لفتح بوضع قنبلة فى مسرح صهيون ، الذى يضم دارا للسينما فى قلب القدس ولاحظ رواد السينما اليقظين لفافة مريبة فدعا احد العاملين الذين استطاع ابعادها عن المكان .

ثم قام البوليس بأخذ القنبلة الى مكان خال بالقرب من مركز بوليس المدينة حيث انفجرت القنبلة بعد دقائق معدودة ، ومرة أخرى كان رد الفعل سريعا ولكنه صدر هذه المرة عن عناصر معينة من الجمهور الاسرائيلى فقد قررت جمهرة مكونة بصفة اساسية من الشباب تلقين مرتكبى الجريمة التى

لم تتم درسا ، وقرروا ان يتولوا بانفسهم تنفيذ القانون وتوجهوا الى الاحياء العربية لمعاقبة « أولئك » الذين وضعوا القنبلة وبالطبع كان « ضحاياهم » من الأبرياء العرب الذين لم يكن لهم يد فى الحادث بل لم يكن لديهم اى علم بالسبب وراء هذا الهيجان . وصب المشاغبون جام غضبهم على ممتلكات العرب وضربوا كل من اعترض طريقهم وادى التدخل الفعال لقوات البوليس الى الحيلولة دون تفجر الموقف من مجرد حادث الى مذبحة . ولقد تعرضت انا نفسى للاعتداء من جانب مجموعة من المشاغبين احتجزونى عند بوابة يافا طلبا للانتقام ، ولم ينقذنى سوى اننى دافعت عن براءتى بطلاقة بالعبرية ولكننى لم اهرب تماما من (العقاب) ففى تلك الليلة عبر احد رجال البوليس اليهود عن عمق مشاعره تجاهى بأن نعتنى فى وجهى بلفظ (عربى قذر) وكان الشيء اللائق الوحيد الذى نتج عن ذلك الحدث هو اعلان (تيدى كوليك) ومتحدث باسم البوليس ، استنكارهما العنيف لمسلك الغوغاء ووصفهما اياه بانه اهانة بالغة لكل سكان المدينة .

لقد هزتنى الى درجة كبيرة تلك الاضطرابات والفزع وعمليات الابعاد وكذلك غضب الغوغاء اليهود الطائش ، ومرت على ايام كنت اشعر خلالها بأن اليأس يكاد يشل حركتى .

وراودتنى لبعض الوقت فكرة ان ادير ظهرى تماما للمدينة المضطربة واعود الى قريتى ، وليس هناك شك فى انه لولا الاتجاه الليبرالى لتيدى كوليك ومساعديه لفعلت ذلك فعلا . وكان لكوليك اساليب مبتكرة تماما فى تهدئة الغضب والثورة وقد شرح لنا فى احدى المرات سر ذلك « اننى من الذين يؤمنون بالمعالجة العملية للأمور فلنبن مدرسة اخرى ، ومنزلا جديدا ، ومستشفى—ان هذه هى الكيفية التى سندعم بها القدس وسيكون هذا ردنا على المقاومة » .

استطعت التغلب على حال الاكتئاب الذى انتابنى ولكن ما ان استقرت الأمور مرة أخرى حتى ثار موضوع آخر بكافة تعقيداته ففى يوم ١٤ ابريل عام ٦٨ اصدر وزير المالية الاسرائيلى مرسوما بمصادرة كل الحى اليهودى فى المدينة القديمة وارغم مئات من العرب الذين كانوا يعيشون هناك على ترك منازلهم وقبل هذا فى شهر يناير من ذلك العام كان قد تم نقل آلاف الأفدنة التى كانت مسجلة باعتبارها ملكا للمملكة الأردنية الهاشمية كما تمت مصادرة ما يقرب من الف فدان مملوكة لاشخاص وذلك بهدف خلق منطقة يهودية آهلة بالسكان لتكون بمثابة منطقة عازلة بين القدس العربية والضفة الغربية . مرة أخرى كان الدافع هو (خلق أمر واقع) ومرة أخرى كان تأثير ذلك مدمرا .

وعلى الرغم من ان التقاليد الدرزية لا تعتقد بوجود اية مدن مقدسة الا اننى اقدر مدى الأهمية التى يعلقها كل من المسلمين واليهود بما فى ذلك العناصر التى تعلن صراحة انها علمانية على قدسية مدينة القدس .

ولم اكن اعتقد قط ان الادعاءات التاريخية يمكن ان تكون عاملا حاسما فى تقرير الحقائق السياسية فى الحاضر ولكنى كنت اعرف ان من يتجاهل الجانب الدينى وراء تلك الادعاءات لن يدرك دقائق اى موقف . وفهمت كذلك انه لا اليهود ولا العرب يريدون المدينة مقسمة مرة اخرى وقد ادرك الجانبان بمجرد توحيدهما ان هذه الوحدة امر صحيح وطبيعى تماما ، وان الطرفين لهما مصلحة مؤكدة فى الحفاظ عليها . وعندما اعلن موشى ديان انه لا يعترض بالضرورة على احتمال رفع العلم العربى على مساجد المدينة الكبرى نظرت الى هذا القرار بأنه دلالة على الحكمة التى تفتح طريقا واسعا للأمل .

ولكن تلك الآمال كانت ترتطم بين الفينة والفينة بتصرفات الحكومة والبلدية التى اثبتت سياستها انها خليط مشوش من الايماءات الانسانية والضربات الطائشة الغامضة .

وانا لا افهم حتى الآن لمـــاذا كان ضروريا ابعاد السكان العرب عن الحى اليهودى . وعندما طلب منى ان اساعد فى اقناعهم بترك المكان طواعية رفضت رفضا باتا . اننى لم استطع نسيان قصص مئات من العائلات التى تم ابعادها او الذين تم اقناعهم بترك منازلهم خلال حرب عام ١٩٤٨ والذين ما زالوا لاجئين حتى اليوم .

اننى لا اود القول بأن الموقفين متشابهان بالضرورة لسبب واحد هو ان العائلات التى نزعت ملكيتها هذه المرة قد عرض عليها تعويض عن ملكيتها . كذلك فان الوقت لم يكن زمن حرب ولم تكن هناك اية اعتبارات امنية وراء قرار تغيير الطبيعة الديموجرافية للحى اليهودى بقرار حكومى . واخيرا من يستطيع ان يقول : اى الروابط بالحى اليهودى تعتبر اعمق : اهى روابط اليهود الذين ابعدوا فى عام ١٩٤٨ أو روابط العرب الذين امروا بمغادرة المكان الآن ؟ وان القوى الموجودة ما كانت لتقف عند مجرد اعادة المعابد الى الملكية اليهودية او حتى تحقيق تكامل سكانى فى المنطقة بل ان الاوامر توحى بتطهير الحى من السكان العرب وهو قرار لم استطع قبوله ابدا. واستمرت تلك العملية عدة سنوات ولم تنته الا فى عام ١٩٨٠ مع مغادرة آخر ساكن عربى وهو محمد ططنجى الذى حاول أن يحصل على حكم من المحكمة بتغيير القرار ولكنه خسر القضية . ربما كان تيدى كوليك ومساعدوه يحاولان خلق مناخ من التعايش السلمى المثمر ولكن الحقائق السياســية وسلسلة من القرارات الخاطئة ادت الى اتجاه الأمور وجهة اخرى . واليوم يعيش سكان القدس ــ اليهود والعرب ــ فى خطين متوازيين وربما متناقضين فى بعض الأحيان .

ان الرجال والنساء الذين ادوا عملا فعليا فى هذا المجال يستحقون توجيه الشكر لهم على محاولتهم ارساء سياسة للتفاهم والوفاق . وعرف عن اشخاص معينين فى مجال الخدمة العامة الحساسية الشــديدة التى ابدوها تجاه الموقف الحساس لسكان القدس الشرقية وللأسف فانه لايمكن

قول الشىء نفسه عن كل اليهود بل ان الاستطلاع الذى قمنا به عام ٦٨ كشف عن بعض الحقائق المؤسفة فيما يتعلق باتجاهات السكان اليهود فى القدس تجاه جيرانهم العرب . فقد طلب من المشتركين فى الاستطلاع ذكر الملامح المميزة للعرب وكانت الردود التى حصلنا عليها هى :

انهم امة من المنافقين ، امة من الفقراء ، امة من الجبناء ، شعب متخلف . وقال عدد قليل فقط « ان الامة العربية تريد ان تعيش فى سلام مع اليهود » وذلك ردا على سؤال: هل تعتقد انه يجب السماح للعرب بالعيش فى القطاع الغربى من المدينة ؟ وبلغت نسبة من ردوا بالنفى ٥٧ر٨٪ بينما وافق ٣٨ر٤٪ على الفكرة . وكان معظم الذين سئلوا خلال الاستطلاع ٨٩٪ شديدى الايمان بأن اليهود يملكون كل الحق فى الاستيطان فى الجزء الشرقى من المدينة ويجب ان يمارسوا هذا الحق .

والأمر الجدير بالاهتمام ان الاسرائيليين الذين واجهوا وقاتلوا جنود « الفيلق العربى » فى ميدان المعركة كانوا من بين الذين ابدوا اكثر الاتجاهات نبلا وانسانية . وكانت اشرس المعارك التى دارت خلال حرب الأيام الستة هى تلك المعركة التى دارت بين قوات المظلات الاسرائيلية وقوة من « الفيلق العربى » التى تمركزت فى معقل حصين فى منطقة محصنة تماما تعرف باسم تل الذخيرة . وبعد معركة طويلة وباهظة سجل المقـــاتلون الاسرائيليون المنتصرون على الاطلال فى هذا الموقع عبارة تقول : « قاتل الجنود الاردنيون الشجعان وسقطوا هنا ببسالة » .

ان تلك العبارة البسيطة من التاريخ الطويل الملطخ بالدماء لمدينة القدس هى من اكثر السطور المعبرة والمؤثرة التى وقعت عليها عيناى حتى الآن وكان يجب أن تصبح بشيرا لعلاقات يسودها الاحترام المتبادل فى المستقبل ولكن ارساء التعايش السلمى يتطلب رصيدا ضخما من القدرة على مراعاة مشاعر الآخرين ، ولم يكن هذا متوفرا دوما . وكانت احدى القضايا التى ثارت هى موضوع اقامة اضرحة لضحايا الحرب . فقد ارادت اثنتا عشرة عائلة عربية ممن فقدت احباءها فى القتال اقامة نصب تذكارى تخليدا لذكرى اهالى القدس الذين قتلوا فى الحرب ولم يكن رد فعل الحكومة العسكرية الاسرائيلية المبدئى مشجعا . ولكن بعد مفاوضات مع كبار الشخصيات الاسلامية المسئولة عن الأوقاف تم التوصل الى اتفاق على اقامة النصب فى مواجهة متحف روكفلر . وطلب تيدى كوليك من الأوقاف المساهمة بنصيب من التكلفة واصر على ازالة كافة النصب التذكارية الصغيرة والهزيلة التى اقيمت فى الجزء الشرقى من المدينة دون الحصول على موافقة رسمية ، واصر كذلك على أن تصدر الأوقاف اعلانا عاما يؤكد عدم وجود جثث مدفونة تحت هذه النصب التى تقرر ازالتها . ومع ذلك فان القرار لقى معارضة شديدة من جانب المجلس البلدى الذى كان يتكون جميعه من اليهود حتى بعد ان اعلن ان لجنة حكومية خاصة قد وافقت فعلا على اقامة ثلاثة نصب وقد رافقت رئيسى فى العمل (ميرون بينفيتشى) الذى كان يشغل حينذاك منصب مدير البلدية لشـــئون

القدس الشرقية وذلك فى اجتماعاته مع حسن طحبوب رئيس الأوقاف واضطررنا فى النهاية الى ان نعمل طوال الليل لاقامة النصب فى مكانه قبل ان يؤدى ضغط الرأى العام المعادى الى الغاء القرار .

وقد اكتسب كوليك وبينفينشى اعجاب وتأييد العرب فى القدس نتيجة للسياسة التى انتهجاها . وحصل كوليك خلال الانتخابات البلدية التى جرت فى عام ١٩٦٩ والتى اشترك فيها نحو اثنى عشر الفا من سكان القدس الشرقية — حصل على الأغلبية الساحقة من الأصوات العربية التى اشتركت فى الانتخابات . وكنا نحن العاملين فى مكتب شئون القدس الشرقية نضع آمالا كبيرة على نتيجة الانتخابات معتقدين بأن اشتراك اعداد ضخمة من الناخبين فى الجزء الشرقى للمدينة فى الانتخابات سيعنى رغبة سكانها فى المشاركة فى اتخاذ القرارات التى ستشكل شخصية المدينة الموحدة .

وللأسف فان اتصالاتنا الفعلية مع الناخبين كانت محدودة للغاية ولذلك لم تكن فعالة . فقد كان يتعين علينا ان ندير حوارنا مع الجمهور عن طريق ممثليهم الوحيدين الذين كانوا مستعدين للتعاون مع حكومة البلدية — اى مع العمد وهم اشخاص رسميون يتم تعيينهم ويدفع لهم اجر ضئيل لا يوازى المتاعب التى يواجهونها ولكنهم لايمثلون حقيقة الجمهور الذى يتحدثون باسمه .

وبدات البلدية بعد اجراء الانتخابات فى انشاء لجان محلية . وبطبيعة الحال كانت مهتمة بوجود قيادات عربية محلية للعمل فى تلك اللجان واعربت بعض الشخصيات العامة عن استعدادها للقيام بهذا العمل ولكنهم ينكرون ذلك بسرعة بمجرد أن تعرف نيتهم فى التعاون معنا . ومن الواضح ان الضغوط التى وقعت عليهم كانت اكثر مما يطيقون . وحتى فى ذلك الوقت كان الارهاب فى الضفة الغربية يسير فى اتجاهين ، فلم يتورع الذين لجأوا الى استخدام العنف كوسيلة سياسية عن استخدامه ضد اهلهم كطريقة للقضاء على المعارضة الداخلية .

ومع حلول صيف عام ١٩٦٩ ومع اقتراب الانتخابات وصلت حال الاضطراب المدنى فى القدس الى ذروتها وعلى الرغم من انه حدثت عدة اضطرابات خلال الربيع الا انها لم تولد الاثارة التى حدثت خلال الأعوام السابقة ، ولكن حدث خلال شهر اغسطس اكثر الأحداث عنفا وايلاما فى القدس منذ الحرب ذاتها ، مما دفع القيادة العربية ، مرة اخرى ، الى مهاجمة الحكم الاسرائيلى . ففى يوم ٢١ اغسطس عام ١٩٦٩ اشتعلت النيران فى المسجد الأقصى . وعندما انتشر نبأ الحريق استشرت موجة من الألم بين العرب فى المدينة وفى كل الضفة الغربية ، واندفع أعضاء المجلس الاسلامى الأعلى (الذى كان يراسه فى ذلك الوقت الشيخ حلمى المحتسب) ومعهم جموع من جميع انحاء القدس الشرقية الى مكان الحادث واخذوا يرقبون السنة النيران فى هلع . وسواء اكانوا مدفوعين بالحزن او الغضب فان اعضاء المجلس اقتربوا من مراسلى الصحف الأجنبية واتهموا اسرائيل بمسئوليتها عن الحريق . وكان منطقهم فى هذا أنه لو لم يكن الاسرائيليون

يسيطرون على مداخل المسجد فان الحريق ما كان سينشب . وقالوا للصحفيين : ان مما يدل على سوء النية وراء الحريق — من وجهة نظرهم — هو ان اسرائيل تريد اعادة بناء معبدها فى مكان المسجد ، كما كان فى السابق، واعلن المحتسب خلال مؤتمر صحفى عقد عقب الحادث ان المسلمين سيعلنون صيحة الحرب التى ستؤدى الى العمل من اجل وضع نهاية للقهر والشر والألم .

ودعا الى اضراب عام وطالب بنزع سلطة حراسة مداخل الحرم الشريف من ايدى الاسرائيليين .

وقد طالبت جولدا مائر رئيسة وزراء اسرائيل — التى سمعت بالحريق وهى فى طريقها الى تل ابيب — اللجنة الوزارية للأراضى المحتلة بالتحقيق فى المسألة على الفور .

وندد تيدى كوليك الذى كان الشخصية الاسرائيلية الكبيرة الوحيدة الموجودة فى مكان الحادث عند وقوعه — ندد بالحادث ووصفه بانه « كارثة »، وحاول ان يخفف من وقع اتهام « المحتسب » لاسرائيل بالاهمال المتعمد بتوجيه الثناء الى الجهود التى بذلها رجال الاطفاء الاسرائيليين . ولكن لم يستطع شىء مما قاله عمدة القدس او اى اسرائيلى آخر ان يخفف من وطأة الحزن الذى خيم على السكان العرب . وكان رد الفعل من جانب الحكومة هو فرض حظر التجول على القدس الشرقية كما لو كانت قد خافت من انفجار المشاعر العنيف .

فى ذلك اليوم قام مخبرو البوليس الاسرائيلى بالذهاب الى فندق ريفولى فى القدس الشرقية بحثا عن دينيس ميشيل روهان وهو استرالى يبلغ الثامنة والعشرين من العمر وعضو فى الكنيسة المقدسة ويعمل فى جز صوف الغنم . ولم يكن روهان موجودا ولكن استطاع البوليس دخول غرفته ووجد بها صفائح بنزين وغيره من مواد ملتهبة . وعندما عاد روهان الى الفندق القى القبض عليه بتهمة احراق المسجد الأقصى . وساعدت تحريات البوليس وخلفية روهان المحايدة ، على تهدئة الجو العام الى حد ما . ولكن الحريق كشف الطبيعة الحقيقية للعلاقات بين العرب واليهود فى القدس والهوة السحيقة من عدم الثقة التى تفصل بينهم . وكان عرب القدس يؤمنون بأن الحريق كان مؤامرة اسرائيلية لتدمير المسجد وعلى الرغم من ان القبض السريع على روهان قد فعل الكثير لانقاذ ماء وجه اسرائيل ، الا ان دعوة المحتسب للقيام بمظاهرات واضراب قد ادت الى رد فعل عنيف من جانب اسرائيل — الا وهو فرض حظر التجول . وحاول المجلس الاسلامى الأعلى ، استغلال الحادث لأغراض دعائية وقام باغلاق المساجد امام الزائرين لفترة من الوقت لكن اعيد فى ١٩ اكتوبر ١٩٦٩ فتح المسجد

الأقصى امام الزائرين ، وكايماءة تصالح سمح للمجلس بوضع حرس الخاص هناك .

وخلال تلك الفترة ، ظلت القدس مركزا للعناصر المؤيدة للأردن بين الزعماء المحليين فى الضفة الغربية . وكان من بين أولئك المعروفين بولائهم للملك حسين كبار الشخصيات الدينية التى على صلة بالأوقاف ومدير شركة الكهرباء ، ومديرو المعاهد الخيرية والنواب السابقون فى البرلمان الأردنى . وخلال السنوات الأولى عقب الحرب لم تخف هذه المجموعة تأييدها للعناصر داخل الحكومة الاسرائيلية التى تعتقد أن حل مشكلة الضفة الغربية يكمن فى اجراء مفاوضات مع المملكة الهاشمية . ومع ذلك فان (فلسطنة) الضفة الغربية باطراد ، بالاضافة الى تصلب الحكومة حول الصيغة السياسية لتوحيد القدس ، ومبادراتها الجوفاء بل الرمزية التى لم تفعل شيئا لتغيير الموقف الفعلى فى القدس او للتأثير على شخصية المدينة — مثل التشريع الذى اصدره الكنيست فى عام ١٩٨٠ بتطبيق القانون الاسرائيلى على كل القدس فى حين ان ذلك القانون كان مطبقا فى الحقيقة منذ عام ١٩٦٧ ، او مثل الحديث عن نقل مكتب رئيس الوزراء الى الجزء الشرقى من المدينة — ان كل ذلك جعل الأشياء اصعب بالنسبة للمعسكر الموالى للأردن .

وقد ارغم كثيرون من أولئك المعتدلين عبر السنين الى الارتماء فى احضان منظمة التحرير الفلسطينية بل انه حتى أولئك الذين لم يصلوا الى درجة الارتباط الصريح بالمنظمات الفلسطينية كانوا يرفضون اصدار اية بيانات علنية دون الحصول مسبقا على موافقة قيادة منظمة التحرير الفلسطينية عليها .

لقد ارتكبت أشياء عديدة فى حومة ارساء (حقائق) غير قابلة للالغاء ، وفى حومة الرغبة فى توحيد القدس وتغيير وجه المدينة الأمر الذى لم يؤد الا الى تعميق وتوسيع الخلاف . وكان الشىء الذى اثار غضب السكان العرب اكثر من اى شىء آخر هو التوسع فى مصادرة الأراضى من أجل اجراء توسعات يهودية جديدة . ففى بعض المناطق قام المقاولون اليهود ببناء فيلات فاخرة لأنفسهم فوق الأراضى التى منحت لهم .

ان سياسة الأمر الواقع هذه تعتبر تصرفات شاذة من الناحية الأخلاقية وهى لا تعدو من وجهة نظر من يؤمن بحكمة مارتن بوبر التى تقول (يجب الا نفعل بالآخرين اكثر مما نحن مرغمون على فعله من أجل وجودنا ذاته) لذا فان هذه التصرفات لا يمكن وصفها الا بانها وحشية .

وخلال السنوات العشر الماضية استقرت الحياة فى هذه المدينة المقسمة الموحدة ، الا ان ذلك الاستقرار ما زالت تعكره أحداث تؤكد ان عرب المدينة لم يذعنوا — حتى بعد اربعة عشر عاما من ضم اسرائيل للقدس الشرقية — لذلك القرار الذى اتخذ من جانب واحد والذى يحدد مصائرهم .

ما زالت هناك دعوات لتنظيم اضرابات (عادة ما تكون ردا على مبادرة معينة تقوم بها الحكومة) وما زالت المدينة هدفا ضخما للنشاط الارهابى ، وانتشرت فى القدس عادة قذف العربات بالحجارة وهى عادة انتقلت من اجزاء اخرى من الضفة الغربية على الرغم من ان عدد اليهود المتشددين من سكان القدس الذين يقومون بقذف العربات كاحتجاج ضد سير العربات فى ايام السبت ، يفوق بكثير عدد الأحداث المتفرقة التى تنسب الى العرب الا ان اكبر دليل على عدم الاذعان هو الجو المتجهم الذى يسيطر على القدس الشرقية على الرغم من الدلائل العديدة على الازدهار التجارى للمدينة .

وفى عام ١٩٦٧ رايت فى القدس صورة لما كنت اراه فى (دالية الكرمل) فى اوائل الخمسينات ، وكنت اعتقد انه كما ادى التطور والرخاء فى قريتى الى زيادة الميل نحو الاعتدال والتسامح بين الناس فان نفس الشىء سيحدث فى القدس . وعندما ذهبت للعمل فى حكومة مدينة القدس كنت ممتلئا بالتفاؤل والأمل وكنت اغذى مشاعرى هذه بما كنت استمده من الأحداث الايجابية التى كانت تقع فى المدينة — مثلما حدث بعد عام من الحرب عندما حضر عشرات من عمد الضفة وممثلى الكنيسة المسيحيين لتقديم التحية الى تيدى كوليك بمناسبة الاحتفال بيوم استقلال اسرائيل .

واليوم بعد اربعة عشر عاما من الحرب لم يبق سوى عدد قليل من المتفائلين . ويوجد لدى البعض تصورات مرعبة عن حدوث انفجارات فى المستقبل ، ووصف البعض الآخر القدس بأنها بمثابة (بلفاست الشرق الأوسط) . ولكن حتى أولئك المتشائمون يخدعون انفسهم فيما يتعلق بمدى صعوبة المشاكل هنا . فمع كل الاحترام الواجب للعناد الذى تتسم به المشكلة الايرلندية فان بلفاست لا تضم بين حدودها الحائط الغربى ، والمسجد الأقصى وكنيسة المذبح المقدس .

اننى ما زلت أؤمن انه لا يجب تقسيم القدس مرة اخرى وما زلت آمل فى ايجاد حل لمشاكل المدينة الصعبة ، ولكنه لن يتحقق عن طريق القوة او (فرض الأمر الواقع) أو ما الى ذلك . ان أولئك الذين يهتمون بالقدس يتعين عليهم أن يعبروا عن اهتمامهم لوساطة انتهاج اسلوب الاعتدال والحساسية تجاه احتياجات ورغبات الآخرين .

والشىء الذى نحتاجه الآن اكثر من غيره هو النضج السياسى والشجاعة الأدبية للاعتراف بالأخطاء السابقة والتخلى عن الأساليب العنيفة فى التفكير والمعتقدات التى تدحضها كل يوم الحقائق الجديدة .

ان من يأمل فى الحفاظ على وحدة القدس عليه ان يتجنب الايماءات الجوفاء التى تؤدى فقط الى زيادة الاحقاد . ان شعورى بالاطمئنان وانا اسير فى شوارع المدينة القديمة اليوم اقل كثيرا عما كنت اشعر به عام ١٩٦٧ . ان احساس العربى المقيم فى القدس الموحدة باسرائيليته اليوم قد

تضاءل عما كان يشعر به قبل اصدار القانون الأخير الذى يعلن المدينة الموحدة عاصمة لاسرائيل .

وعندما اعود بذاكرتى الى عام ١٩٦٧ واحاول تلخيص الانجازات التى تحققت منذ ذلك الحين فاننى افزع من التفكير فى الفرصة العظيمة التى تهيأت لنا لنجعل من القدس واجهة للتسامح والاحترام المتبادل ، وكيف أننا افتقدنا البصيرة لرؤية ذلك . ومع ذلك فان التوحيد العضوى للقدس هو حقيقة لا يمكن انكارها ولا يجب ابطالها . والأمر متروك الآن لزعماء المدينة وسكانها من اجل بعث الحياة فى تلك الحقيقة المجردة وذلك بحل خلافاتها بطريقة ترضى مصالح الجانبين فى هذه المدينة الممزقة .

الفصل الثالث

الضفة الغربية

١٩٦٧

عندما انتهى القتال فى ١٠ يونيو عام ١٩٦٧ غمر سكان اسرائيل — وخاصة السكان اليهود — احساس بالانطلاق والارتياح ثم فى نهاية الأمر شعور بالنشوة . ومع ذلك فان تلك المشاعر كان يمكن أن تتسم بالاعتدال لو كان المحتفلون قد ادركوا ما الذى حدث بالفعل — ليس بلغة الانتصارات العسكرية المذهلة ولكن بالحقائق القاسية للنتيجة : فمع الاستيلاء على الضفة الغربية وقطاع غزة اصبح مليونا ومائة الف فلسطينى عربى تحت السيطرة الاسرائيلية فى مدى ايام قليلة ، وفر عشرات الآلاف من الضفة الغربية عبر الأردن واصبحوا لاجئين سواء برغبتهم او غير رغبتهم — وهو وضع عادى للغاية فى التاريخ الكئيب للشعب الفلسطينى . وكان نحو ٤٠٪ من سكان الضفة الغربية يشتغلون فى الزراعة — ٥٠٫٠٠٠ عائلة تشتغل فى منطقة تبلغ مساحتها ٥٠٠٫٠٠٠ فدان . وقد ذكرنى المزارعون الذين رايتهم فى اودية دوتان وجزريل بالقرب من جنين بأدواتهم البدائية وملابسهم الممزقة ، بما كان عليه والدى فى أوائل الخمسينات ، على الرغم من أنهم كانوا يفتقدون ايمان أبى بالمستقبل . فهم لم يدركوا تماما المعنى الكامل لما حدث او يقدروا حجم الكارثة بل كانوا يعتقدون أن الأمريكيين هم الذين هزموا جيشهم . ولم يستطع اولئك الفلاحون أن يتصوروا أن اليهود استطاعوا الحاق مثل تلك الهزيمة المنكرة بجنودهم .

ومرة اخرى كما حدث فى عام ١٩٤٨ أدت الحرب الى تدمير قرى بأكملها (معظمها فى السامرة فى الجزء الشمالى من الضفة الغربية) وقامت الصحافة بتغطية اخبارية لثلاث قرى على وجه الخصوص وهى قرية بيت نوبة ، وعيماوس ويالو فى منطقة اللاطرون البارزة والتى تم محوها بصورة متعمدة (لضرورة استراتيجية) . فى حرب عام ١٩٤٨ كانت اللاطرون مسرحا لقتال مرير حول جزء من الطريق الممتد من تل أبيب الى القدس . وكانت القوات الاسرائيلية قد فشلت فى السيطرة على مفترق الطرق هناك (والتى ظلت منطقة محايدة طوال التسعة عشر عاما التالية) مما أرغم اسرائيل على اقامة طريق بديل الى العاصمة ، وان كان اقل راحة ، وعندما سقطت اللاطرون فى ١٩٦٧ قررت السلطات حل مشكلة ذلك النتوء على الفور وبصورة نهائية

وقامة بازالة المستوطنات الثلاث من فوق سطح الأرض بل ان مقاولى البناء الخصوصيين قاموا بازالة الأحجار المتخلفة عن المبانى المدمرة تماما ولم تترك لها اى اثر .

وقامت القوات التى اوكلت اليها تلك المهمة الكريهة بتوزيع المياه على القرويين الذين اصابهم الذعر وتوزيع الحلوى على اطفالهم ولكن الأوامر كانت صارمة : عدم السماح لأية عائلة من العائلات المبعدة بالعودة . وقد بعث آموس كينان وهو كاتب اسرائيلى شهد العملية حيث كان يخدم فى احدى وحدات الاحتياط التى كانت تعسكر بالقرب من المكان ، بتقرير مفصل الى ليفى اشكول رئيس الوزراء آنذاك وموشى ديان وزير الدفاع .

وقد وصف كينان الحادث فى خطاب احتجاج نشرته الصحف بقوله :

« كانت الكتيبة المنوط بها العمل تزمجر ، وكان الفلاحون يعضون على اسنانهم من الالم وهم يشاهدون البلدوزرات وهى تسوى الأشجار بالأرض وظللنا تلك الليلة ساهرين لحراسة البلدوزرات ، ولكن كانت الكتيبة باكملها فى حالة من الغضب العارم ، وكان معظم رجالها لا يريدون تنفيذ الأوامر وفى الصباح تم نقلنا من هذا الموقع .

ولم يكن باستطاعة احد منا أن يفهم كيف يستطيع اليهود ارتكاب مثل هذا الفعل المنكر . بل انه حتى أولئك الذين دافعوا عنه اتفقوا على انه كان باستطاعة السلطات بناء مساكن مؤقتة للفلاحين حتى يتم التوصل الى قرار نهائى حول المكان الذى سيذهبون اليه ، بحيث يستطيعون اخذ ممتلكاتهم معهم . وكان من المستحيل معرفة لماذا لا يسمح لأولئك الفلاحين اخذ مواقد الكيروسين والبطاطين والمواد الغذائية الخاصة بهم ، لقد دفن الدجاج والحمام تحت الانقاض وتحولت الحقول الى خرائب أمام أعيننا .

وكان الاطفال الذين اخذوا يجوبون الطرقات ، والذين سيصبحون هم انفسهم الفدائيين فى الجولة القادمة بعد تسعة عشر عاما ، يصرخون ويبكون بمرارة . (هكذا حققنا ذلك النصر الفظيع فى ذلك اليوم) » .

وكانت هناك اصوات اخرى اكثر نفوذا تدعو الى معالجة مستنيرة للاحتلال . وكما اشار ايجال آلون فى معرض تحذيره من أن الهدف يجب ان يكون هو العيش فى انسجام مع عرب الأراضى المحتلة، فان هذه هى المرة الأولى التى يصبح فيها اصحاب المشكلة الحقيقية — الفلسطينيون — تحت سيطرة اسرائيل المباشرة دون اى وسطاء من العالم العربى .

ومن اجل ممارسة تلك السيطرة قامت اسرائيل على الفور بتشكيل حكومة عسكرية الغرض منها ادارة الأراضى المحتلة وتقديم خدمات الى

السكان المحليين وتكونت الحكومة العسكرية من مجموعة خاصة من الضباط والخبراء فى مجالات مختلفة يعاونها المسئولون العرب المحليون المحالون الى المعاش من الادارة الأردنية .

وفى غياب الآخرين كان موشى ديان يركز ادارة الأراضى فى وزارته .

وهكذا تشكلت الحكومة العسكرية لتخدم فى مجالين وتخضع لسلطتين مختلفتين فكانت القيادة العسكرية تتولى مسئولية الأمن والحرب ضد الارهاب ، بينما اوكلت الشئون المدنية والسياسية للمسئول عن تنسيق الأنشطة فى الأراضى التى تم الاستيلاء عليها والذى كان مسئولا امام وزارة الدفاع . وقد تم تقسيم الأراضى الى مناطق ، لكل منها مقر قيادة فى المدن الكبيرة واستقر فى نهاية الأمر مقر منطقة الضفة الغربية فى (بيت عال) شمال القدس .

وحدث نفس الشىء بالنسبة للادارة المدنية التى قسمت الى فروع متعددة : الأمن ، والصحة ، والنقل ، والزراعة ، والتعليم ، وغيرها من الوحدات التى تقدم خدمات الى سكان الأراضى . وكان موقف السكان من الحكومة العسكرية متناقضا بسبب تلك المنافع التى كانوا يحصلون عليها ، حيث ساد شعور بالاحترام والتعاون فى مجالات مثل الزراعة والتعليم والنقل ولكن كانت هناك مقاومة شديدة ورفض تام لفكرة الخضوع لحكومة عسكرية .

وكان الجنود الذين يخدمون فى قوة الأمن فى الحكومة العسكرية من الوحدات الدائمة ووحدات الاحتياط فى قوات الدفاع الاسرائيلية . وهذا يعنى أن قوات المظلات التى تدربت أساسا لتكون قوات مقاتلة فى الخطوط الأمامية فى أوقات الحرب ، ربما تزود بهراوات البوليس وترسل فى دوريات الى مدن الضفة الغربية أو ربما يتم نقل أطقم الدبابات من مناورات الجيش أو من مهام عسكرية الى المدن للحفاظ على النظام فى الشوارع . ان أولئك فقط الذين خدموا فى بوليس الحدود هم الذين لديهم تدريب خاص للتعامل مع السكان المدنيين . وكان اسوأ ما فى الموقف هو تأثيره القاتل على احتمالات التقارب بين الشعبين .

لقد تعرف كثير من مواطنى اسرائيل وسكان الأراضى على بعضهم البعض تحت ظروف المواجهة المادية — اى كجنود فى مواجهة سكان معادين ، أو كقوى قهر فى مواجهة مثيرى الشغب — وقد ترك ذلك ندوبا غائرة لدى كلا الفريقين .

وعلى الجانب الادارى ، بدات الحكومة العسكرية عملياتها بحماس ترك السكان فى حالة من الارتباك الشديد . فقد انهمر فيض من الأوامر على رؤوس سكان الأراضى ، ففى مجال واحد فقط — وزارة العدل —

صدر ما لا يقل عن ٢٥٩ امرا . ومن بين قوائم الأرقام والاحصائيات واكوام الأوامر برز الاطار الأساسى الذى سيرشد قوات الدفاع الاسرائيلية فى تنظيم حكمها بالضفة الغربية .

واتضح ان اهداف ذلك الحكم هى كالتالى :

١ ــ الحفاظ على الأمن والعمل على تحقيق المشاركة القصوى من جانب السكان والمؤسسات المحلية فى ادارة شئونهم الادارية والبلدية والقضائية .

٢ ــ خلق اطار لاقامة علاقات اقتصادية ثابتة بين دولة اسرائيل والأراضى المحتلة .

٣ ــ فتح الجسور الممتدة عبر نهر الأردن والسماح للسكان بالاحتفاظ بعلاقاتهم الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والعائلية مع العالم العربى .

وكان السؤال الذى يثيره كل هذا النشاط هو: ما هى المدة التى يحتمل ان يستمر فيها الحكم الاسرائيلى فى الأراضى ؟ وسرعان ما اصبح واضحا للجانب الاسرائيلى ان الاحتلال سيستمر لمدة طويلة . ولكن السكان المحليين رفضوا قبول مثل ذلك الاحتمال . وخلال زيارتى الأولى لمدينة رام الله عندما حاولت ان اعطى احد التجار شيكا بقيمة مشتريات لم يفعل شيئا سوى ان ابتسم وسأل سؤالا ببراءة أو بتعمد :

« كم من الوقت تنوون البقاء هنا ؟ » ومما يثير السخرية ان هذا السؤال ما زال موضوع الساعة حتى يومنا هذا واصبحت الاجابة عليه موضع مناقشة حادة فى اسرائيل .

وثمة نقطة اخرى اصبحت واضحة فى وقت مبكر للغاية فى اللعبة وهى أن الاحتلال لن يكون تجربة سارة بالنسبة لكلا الجانبين .

ففى خلال المرحلة الأولى لما بعد الحرب كانت العلاقات بين اليهود والعرب تشبه الدراما التى تغيرت فيها الأدوار بسرعة مذهلة ، ففى البداية كانت الادوار تنحصر فى دورين : المنتصر المتعجرف والمهزوم المسحوق . ولكن تدريجيا حل مكان الذهول السائد فى الأراضى روح المقاومة واعمال العنف . وكان القطاع الشمالى من الضفة الغربية هو أول جهة تتكون فيها مجموعات ارهابية على الرغم من ان بعض الجماعات الأخرى كانت قد بدات تتكون فى جبال الخليل . وكانت تلك المجموعات اكثر حذرا من تلك التى تكونت فى الشمال حيث كانوا يشعرون على عكس سكان نابلس ورام الله والمراكز الشمالية الأخرى ان دفعهم للأمور الى ابعد مما يجب سيدفع الاسرائيليين بالتالى الى ضربهم بقوة وربما ينزلون انتقامهم على منطقة الخليل كلها .

ن سكان اسرائيل لم ينسوا احداث عام ١٩٢٩ الدامية عندما قتل المتظاهرون العرب فى الخليل سبعة وستين من اعضاء الجالية اليهودية فى المدينة وجرحوا كثيرين آخرين والحقوا خسائر فادحة بالممتلكات اليهودية . ومن المشكوك فيه ان تكون جراح عام ١٩٢٩ قد اندملت ، ولذلك فقد كان لدى قادة الخليل اسباب قوية لفرض قيود شديدة على اهلهم .

لقد ترك الجيش الأردنى خلفه فى فراره المذعور من الضفة الغربية ، كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة وقام الأهالى بسرعة بالاستيلاء على البنادق والطلقات المتروكة وقاموا بتخبئتها فى مخابىء مؤقتة فى الحدائق وافنية المنازل ، وفى الكهوف القريبة وفى الحقول . ولكن قوات الدفاع الاسرائيلية كانت تعلم كذلك بأمر الأسلحة وشكلت حملة لتطهير المنطقة من الأسلحة واسفرت الحملة عن اكتشاف مئات البنادق وآلاف الطلقات ولكن سونكى البنادق اختفت ولم توجد قط . وفى الوقت الذى لم تستطع حملات الجيش التفتيشية التخلص من كافة الأسلحة غير القانونية فقد اصبح من الصعب بمكان على المتمردين تسليح انفسهم واضطرت الخلايا الارهابية الى تهريب الأسلحة عبر الجسور الأردنية حيث كان الحراس اليقظون من قوات الدفاع الاسرائيلية يقومون بتفتيش كل شخص وعربة تدخل أو تخرج من الضفة الغربية بدقة .

وهكذا كان من المحتم ان تسيطر الجوانب العسكرية للاحتلال على أية خطوط اتصال ضعيفة ربما تكون قد نشأت بين شعب اسرائيل وسكان الأراضى المحتلة . وقد اندفع الاسرائيليون المحبون للاستطلاع بمجرد ان سمح لهم بذلك الى المناطق المحتلة ليتفرجوا على المحال او ربما ليستمتعوا باستنشاق الهواء ولكن منذ البداية انسدل ستار رقيق بين شعب اسرائيل وسكان الأراضى المحتلة على مستوى التعامل بين الأشخاص . وسواء كان ذلك بسبب حاجز اللغة أو الصعوبة التقليدية فى اقامة علاقات جديدة فان الاسرائيليين لم يتمكنوا من الحصول على أية معلومات عن الأراضى المحتلة الا عن طريق وسائل الاعلام ولم تكن الصحف تنشر كثيرا من المعلومات الواقعية وكان معظم ما تنشره يتعلق بالموضوعات العسكرية ذلك لأن الصحفيين كانوا يستطيعون بسهولة الوصول الى العسكريين . وكانوا يستطيعون استغلال مصادر معلوماتهم . وكما كان متوقعا نتج عن ذلك تحريف . وفى الواقع ، فقد كان من السهل رؤية المادة الصحفية المقدمة الى القارىء الاسرائيلى بعيدة عن الحقيقة . وكان معظم الصحفيين يلاقون متاعب حتى فيما يتعلق بتحديد اللفظ المناسب بالنسبة لسكان الأراضى (استخدم قليلون كلمة : فلسطينيين) وفضلت الأغلبية استخدام (عرب الضفة الغربية أو عرب غزة) . وعندما كانوا يكتبون عن الاضطرابات المدنية أو الاضرابات كانوا يستخدمون كلمات مثل (تحريض وعصيان وعداء) لوصف الأسباب وراء اى حادث وفى احدى المرات اشار احد مراسلى التليفزيون الاسرائيلى الى سيدات غزة اللائى قمن بايواء الارهابيين باستخدام كلمة (عاهرات) . ومن الواضح انه لم يكن يعرف أن تلك الكلمة تعد من اقذع

الشتائم فى اللغة العربية . ولحسن حظنا فان سكان قطاع غزة لم يكونوا قد تعودوا حينذاك على مشاهدة الانباء فى تليفزيون اسرائيل .

وربما كان للتغطية التليفزيونية للأراضى المحتلة آثار خبيثة للغاية بسبب الرسالة الحية التى تنقلها الشاشة الصغيرة . فقد اعتاد التليفزيون الاسرائيلى ، فى بدء ارساله ، أن يرينا لقطات مقربة لرجال عرب يجلسون فى المقاهى يمضون اوقاتهم فى الثرثرة ممسكين بأيديهم بحبات المسابح وتتدلى من شفاههم السجائر التى يلفونها بأيديهم .

فلا عجب اذن أن ترتبط صورة الضفة الغربية لدى الاسرائيليين بصورة نساء مكتنزات تحملن لفافات فوق رؤوسهن وشباب غاضب بل ان الحكومة العسكرية فى رام الله وجدت من الضرورى فى احدى المرات توبيخ الصحفيين الاسرائيليين على الأسلوب المتعالى الذى كانوا يسلكونه فى تعاملهم مع سكان المدينة .

وعندما دخلت قوات الدفاع الاسرائيلية مدن الضفة الغربية واجهت زعامة محلية تقليدية اثبتت مهارتها فى اجراء حوار مع الحكام الجدد . وكان معظم العمد من الارستقراطية الأردنية ومن التجار الأغنياء الذين كانوا على علاقات وطيدة مع النظام الهاشمى خلال التسعة عشر عاما من الحكم الأردنى للضفة وقد اثبت (المعسكر الموالى للأردن) ، كما اصبحوا يعرفون فى الأراضى المحتلة ، بأنهم على قدر كبير من الحكمة والشجاعة فى تعاملاتهم مع الادارة الاسرائيلية . ويتعين كذلك القول بأن معظم الحكام العسكريين قد اختيروا بعناية وأن بعضهم اكتسب اعجاب واحترام السكان المحليين . وعلى سبيل المثال وصفت الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان الكولونيل شاؤول جيفولى الحاكم العسكرى لمدينة نابلس بأنه (سيد مهذب) وليس حاكما عسكريا .

ويمكن معرفة شخصية القيادة المحلية فى الضفة الغربية من القصص الدرامية لاستسلام مدينتى نابلس والخليل اللتين تعدان أكبر مدينتين فى الضفة الغربية بعد القدس . ففى يوم ٧ يونيو عام ١٩٦٧ كان القناصة ما زالوا يضربون القوات الاسرائيلية من فوق أسطح المنازل وكانت القوات الاسرائيلية تقوم بتعقبهم بدأب فى محاولة لتصفية الجيوب الأخيرة للمقاومة عندما قام حمدى كنعان عمدة نابلس مرتديا ما يشبه الحلة الرسمية حاملا شاؤول جيفولى الحاكم العسكرى لمدينة نابلس بأنه (سيد مهذب) وليس استولى على المدينة فقد كان يعرف ان الاستمرار فى المقاومة أمر عقيم . وكان يأمل فى ان يؤدى تقدمه للاستسلام الى تجنب اراقة الدماء بغير ضرورة .

وقد بدا أول اجتماع بين العمدة الفخور بنفسه ، المتأنق والمتماسك لنفسه والكولونيل يورى قائد اللواء المسلح بالتصادم بين الرجلين . فقد

رفض القائد الذى كان يرتدى الزى الرسمى الذى غطاه التراب ان يصافح يد العمدة التى كان يمدها له بالسلام .

واكد يورى لكنعان ان القوات الاسرائيلية لا تنوى الحاق اى اذى بالسكان المدنيين ، ولكنه اردف يقول : طالما ان جنوده يتعرضون لضرب النيران فانهم لن يلقوا بأسلحتهم. واحتج كنعان قائلا: انه لا يستطيع السيطرة على السكان فى الفوضى السائدة ولكنه اعرب عن استعداده لمساعدة القوات الاسرائيلية على استعادة النظام ، وعند هذه النقطة استقل العمدة احدى سيارات الجيب العسكرية وامسك ميكروفونا حتى يستطيع ابلاغ سكان نابلس ان حظر التجول قد فرض على المدينة . ويشبه هذا الموقف الذى وقفه عمدة نابلس الموقف الذى اتخذته رئاسة البلدية فى القدس بعد سقوط المدينة .

ففى نفس اليوم — يوم ٧ يونيو — كانت كتيبة مسلحة بقيادة الليفتنانت كولونيل زيفى اوفير تزحف الى مدينة الخليل حيث كان هو ورجاله يتوقعون مقاومة شديدة من السكان . فمنذ ايام الانتداب البريطانى تميزت العلاقات بين سكان الخليل واليهود بالعدواة . وكان الزعيم الذى لا ينازع فى المدينة والمنطقة المجاورة هو الشيخ محمد الجعبرى ، وكان اوفير يعرف ان مهمته الأولى هى العثور على العمدة وارغامه على توقيع اعلان بالاستسلام .

وعندما وصل اوفير ورجاله الى منزل الشيخ وجدوا سيدا مهذبا متقدما فى العمر يرتدى كالعادة طربوشه الشهير (كما لو كان سيفقد هيبته وسلطته بدونه) وكانت زوجته تقف بجواره وهى تمسك بذراعه وترتجف من الخوف. وقد أخبرنى الجعبرى بعد ذلك بعدة شهور انه كان هو ايضا يرتجف خوفا من الانتقام الرهيب الذى كان يتوقعه من الجنود الاسرائيليين ردا على مذبحة اليهود فى عام ١٩٢٩ فى مدينة الخليل .

وكان الناس فى المدينة يتطلعون الى الشيخ المسن للدور النشط الذى من المعتقد انه لعبه فى التحريض على الاعتداء على اليهود ، وعلى الرغم من عدم وجود أى دليل مؤكد على اعتقادهم هذا . وكان الجعبرى يعرف ما الذى يعتقده اليهود فيه .

ولكن كان الكولونيل أوفير يفكر بطريقة مختلفة ، وبدون أية ضجة وحتى بدون تبادل التحية التفت أوفير الى الجعبرى وقال له : انك العمدة وانا الضابط الذى تولى زمام مدينتكم وانا اطالبك بالاستسلام غير المشروط لقوات الدفاع الاسرائيلية وذلك بتوقيع اعلان الاستسلام . ووافق الجعبرى على الفور ، ولكنه طلب ان تجرى مراسم التوقيع فى مبنى البلدية وان يدعى رئيس البلدية وقاضى المدينة للحضور .

ومنذ ذلك الحين وجد اوفير الذى اقام مقر اقامته فى فندق بارك تعاونا كاملا من الجعبرى وموظفيه من أجل اعادة الحياة فى المدينة الى طبيعتها .

وكان حمدى كنعان والشيخ الجعبرى نموذجين نمطيين للقيادة الفلسطينية التى ظهرت فى الضفة الغربية خلال فترة الحكم الأردنى . وقد شرح موشى ديان الذى كان يملك فهما عميقا لشخصية هذه القيادة ونظرتها التقليدية فى ايجاد اسلوب للتعايش معهما . ففى يوم ١٧ يونيو ، على سبيل المثال ، اجتمع ديان بالشخصيات العامة الهامة فى نابلس وأمر بعد ذلك الاجتماع الحكومة العسكرية بتقليل ساعات حظر التجول واعطاء السكان حرية اكبر فى تصريف شئونهم . كذلك امر العسكريين برفع الحواجز فى المدينة والتوقف عن ازالة منازل عائلات الارهابيين المعروفين وجامل ديان اعيان المدينة عند الاستماع الى شكواهم وكان اجتماعه بهم مليئا بالابتسامات .

وفى الحقيقة ، فقد استحوذ على اعجاب الحاضرين عندما قال:انه اذا لم تسر الأمور فى المدينة فى يسر فانه سيشنق القائد العسكرى فى الميدان العام . وابتسم وجهاء المدينة بسرور عندما احمر وجه القائد العسكرى ولكن ديان الذى اقام صلة وطيدة مع قيادة البلدية حصل على ما اراد .

وقد كانت سياسة الجسور المفتوحة وجها آخر لرغبة ديان فى اقامة نظام قادر على العمل فى الأراضى المحتلة . وكان يعرف الضرر الذى يمكن ان ينتج عن فصل السكان عن روابطهم الثقافية والعائلية والاقتصادية فى العالم العربى .

وكفائدة جانبية ساعدت تلك السياسة على الاسراع فى اعادة الخدمات الأساسية وذلك باشاعة شعور بالهدوء فى المنطقة . وبدا ان توفير حرية العبور الى الضفة الشرقية ادى الى تخفيف حدة القلق وتلطيف معاناة الاحتلال . وبالاضافة الى ذلك فقد عزز من فرص الأردن للمحافظة على تأثيرها فى الضفة الغربية .

لقد ادت الهزيمة المخزية الى تقليل رصيد الأردن لدى سكان الأراضى المهزومة الى ادنى مستوى . ففى شوارع مدن الضفة الغربية كان الناس يسخرون علانية من الملك حسين ويصفونه « بالملك الصغير » وكانوا يسبونه بقولهم (حفيد الخائن عبد الله) وبدا الملك فى محاولة لتحسين صورته المشوهة باغداق الأموال على الضفة مستغلا سائقى العربات والذين كانوا يقومون برحلات منتظمة عبر الجسور فى توصيلها . وقد استمرت سياسة الجسور المفتوحة حتى بعد ان ادى ضم القدس الى انهاء — شهر العسل — بين الحكومة العسكرية والسكان المدنيين بصورة مفاجئة .

وبدا الزعماء المحليون الذين اصبحت علاقاتهم مع الحكومة العسكرية تتسم بالحذر ، فى احياء علاقاتهم مع عمان . واستمر المحامون المضربون

ومديرو المدارس وغيرهم من الأعضاء الآخرين فى الادارة المدنية باستلام مرتباتهم من الأردن . وعندما وصلت الخدمات البلدية فى نابلس الى حافة الانهيار بسبب الصعوبات المالية وافق موشى ديان على السماح لحمدى كنعان بالعبور الى عمان لاستعادة — دين — مستحق للمدينة لدى الأردن .

ويمتلك كنعان وهو رجل أعمال ناجح مصنعا لصناعة الصابون فى نابلس . وخلال حديث طويل له معى منذ عامين فى متجره المتواضع فى القطاع التجارى تحدث عن الدوافع التى كانت تقف وراء تصرفاته حينذاك (لم يكن لى خيار وكان يتعين على ان اسير فوق سلك رفيع لاننى كنت مقتنعا بأن التوصل الى حل للمشكلة الفلسطينية عن طريق الأردن هو الاختيار الأفضل المتروك امام شعبى) . ولم يكن يساور كنعان ادنى شك فيما اذا كان من الصواب قبول اموال من الحكومة الأردنية وقال : لقد ابلغت رئيس الوزراء الأردنى أن الأموال ستخدم مصالحنا القومية لانها ستكون بعيدة عن متناول الحكومة العسكرية . وكما ذكر كنعان فان رئيس الوزراء قبل هذا المنطق وشجعه على (سكب الدنانير من اجل اذكاء السنة لهب العصيان المدنى والثورة) .

ان الارتباط بين ضمان الأردن لمرتبات الموظفين المدنيين فى الأراضى وانتشار العصيان المدنى هو ارتباط واضح تماما . فعلى سبيل المثال دعا اتحاد المدرسين الفلسطينيين اعضاءه الى عدم العودة الى الدراسة بعد العطلة الصيفية . كذلك جرى تحذير التجار الذين لم يكونوا يستفيدون بصورة مباشرة من اية معونة تأتى عبر نهر الأردن — حذروا من بيع اية بضائع الى الاسرائيليين .

ولكن على الرغم من أن الزعامة التقليدية اوقدت الشرارات الأولى للعصيان ضد الاحتلال الا ان جيل الشباب سرعان ما اتهمها بالفشل وكان هؤلاء الشباب فى فورة حماسهم يريدون توجيه السخط الشعبى فى اتجاهات أخرى باختيار طريق الارهاب .

وعندما بدا تشكيل الخلايا الارهابية الأولى قام رجل قصير يتنقل على دراجته البخارية بين نابلس وجنين بمهمة تحويل تلك الخلايا الى شبكة ارهابية . وسرعان ما بدا يجنى ثمار مجهوداته ، حيث كان مقدرا لهذا الرجل أن يصبح فى يوم ما رجلا مشهورا على مستوى عالمى باعتباره رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ولكن ياسر عرفات استطاع حينذاك مراوغة الحكومة العسكرية بالرغم من تصميمها على سحق اية بادرة تمرد . وقامت القوات الاسرائيلية خلال السنوات الأولى للاحتلال بالقبض على مئات الأشخاص واجرت نحو ١٠٠ر١ محاكمة ، وكان من بين اولئك الذين صدرت ضدهم أحكام بعض اعضاء الحزب الشيوعى (الذى كانت الحكومة الأردنية تعده حزبا غير مشروع) ، واعضاء الحزب القومى العربى ، واتباع الجبهة

الوطنية لتحرير فلسطين التابعة لجورج حبش وغيرهم من الشخصيات العامة المناوئة . وقد تمت عمليات القاء القبض وفقا لقوانين الطوارىء التى وضعها البريطانيون فى عام ١٩٤٥ .

وأمر ديان — فى محاولة لاظهار نواياه الطيبة للتصالح مع كنعان — بالغاء الاجراءات التى اتخذت ضد العمدة على الفور ثم بدأ الرجلان فى مناقشة المصدر الحقيقى لخلافهما واساس صراع القوى بينهما : اى الأموال الأردنية التى توزع فى نابلس . وخلال المناقشة التالية قال كنعان : انه يدفع من جيبه الخاص الأموال التى يحصل عليها رجال البوليس المحليون لأن « قلبه ينفطر لمنظر الحراس الذين يعانون من الجوع » وانتهت مناورة استقالة كنعان بنصر لديان . وتراجع العمدة فى النهاية عن موقفه وذهب تحت مراقبة ضابط الحكومة العسكرية اليقظة الى جسر دايما واعاد مبلغ ٦٢٫٠٠٠ دينار الى مسئول اردنى كبير كان فى انتظاره هناك .

وهكذا انتهى الموضوع من الوجهة الرسمية ولكن زعماء وسكان الأراضى استخلصوا منه درسا واضحا . لقد أصبح واضحا أمامهم الآن المعنى الكامل لسياسة الجسور المفتوحة واستخلصوا ما يشجعهم من الحادث وهو انه فى وقت الشدة سيجدون دائما الصرح القوى الذى يستندون اليه وهو المملكة الأردنية .

وفى الوقت نفسه استمر كبار المسئولين فى الحكومة العسكرية ينظرون بجفاء الى اعمال العصيان المدنى وكانت الادارة تؤمن بشعار مؤداه : « ان العرب تخيفهم القوة وان الحزم سيعمل على تهدئتهم » تلك كانت باختصار وبساطة هى « سياسة القبضة القوية » التى نفذتها اسرائيل فى الأراضى المحتلة . ولو توخينا الانصاف فانه لا يجب اتهام الداعين الى تبنى هذا الاتجاه بالرغبة الدفينة فى اثارة الاضطراب أو تحريك السخط ، ولا يمكن القول بأن سياسة القبضة القوية تدل على الخبث أو الافتقار الى الحساسية بل انها تعتبر بدرجة أكبر عرضا من اعراض قصر النظر المزمن وقصور التفكير الذى يفضل تجاهل الحقائق . ولنأخذ على سبيل المثال حادثا وقع يوم ٢٠ اغسطس عام ١٩٦٧ عندما اطلقت النيران على بعض الاسرائيليين المسافرين بالقرب من قرية ابو ديس على الطريق من القدس الى اريحا ، وادى اطلاق النيران الى اصابة ثلاثة من جنود الأمن .

وقامت قوات الدفاع الاسرائيلية ردا على هذه العملية بتفجير عدد من منازل القرية وتداعت ثلاثة ابنية أخرى من جراء الهزات الناتجة عن التفجير . ولم يؤد الانتقام الذى تم بهذه الصورة وهذا العنف الا الى خدمة مصالح الذين بداوا الهجوم ، وذلك باثارة المشاعر فى الأراضى المحتلة . ان سياسة الانتقام من جانب اسرائيل ربما تكون قد ردعت مالكى العقارات ولكنها اثارت ثائرة الشباب لدرجة انه أصبح من المشكوك فيه ما اذا كان

العام الدراسى الجديد سيبدأ فى موعده . وكان رد فعل ديان ازاء ذلك الاحتمال هو هز كتفيه كما لو كان يقول :

(اذا ارادوا أن يتعلموا فانهم سيذهبون الى المدرسة واذا لم يريدوا ان يتعلموا فانهم لن يذهبوا) وسواء اكان مخطئا ام مصيبا فان الدافع وراء قوله هذا هو افتراض ان عرب الضفة الغربية يحتاجون الى حكومة قوية ومناخ هادىء وهو الشىء الذى ينسحب على الحكام العسكريين .

فقد كانوا يحتاجون ليد تمتد للمساعدة ويد تستطيع أن تضرب بلا رحمة، تلك كانت على ما يبدو النقطة التى كان ديان يحاول تأكيدها عندما اعاد الى اذهان العرب مغزى المثل العربى الذى تناوله الشاعر فى قوله : اذا رأيت انياب الليث بارزة . فلا تظن ان الليث يبتسم) وعندما كان ديان يتظاهر بعدم الاهتمام كانت الصحف تصف موقفه هذا بسياسة التسامح ، وعندما كان يشدد قبضته على الأراضى فسرعان ما كان الكتاب يصفون ذلك بسياسة القبضة القوية . وقد وصف الشيخ الجعبرى تلك السياسة بذلك التشبيه الدقيق :

« ان ديان يصفعك على وجهك ثم يقوم على الفور بالتقاط قبعتك ووضعها على رأسك بعناية » واستطيع أن أقول انا نفسى ، لم افهم قط سيكولوجية او فاعلية أسلوب « الترغيب والوعيد » ان الله سبحانه وتعالى نفسه يتردد أحيانا فى اتباع مثل هذا النهج فما الذى يدعو ديان الى توقع ان ينجح فى انتهاج هذا الاسلوب ؟ والأمر الأكثر اهمية هو اننى كنت قلقا ازاء الدلالات الأخلاقية لمثل تلك السياسة . ان الشعب الذى يلجأ الى سياسة (الترغيب والوعيد) من أجل اخضاع شعب آخر لارادته سيكون محكوما عليه ان يصبح أمة من المفتشين والمراقبين . وان اية أمة تحاول اخضاع أمة أخرى لا يمكن ان تتوقع أن تكون حريتها ذاتها آمنة .

وادركت فى غضون شهور قليلة من الحرب التى هزت مشاعرى هز عنيفا — وهى الحرب التى خاضتها بلدى دفاعا عن نفسها ضد أولئك الذين يريدون تدميرها . ان انتصارنا لم يكن (حاسما وسلسا وجليلا) وفقا لما يردده الشعار الشعبى .

ومثلما كانت لعمليات الابعاد عن القدس تأثير مشكوك فيه ، فان الاجراءات الأخيرة بدت ذات قيمة محدودة . وكانت مدينة نابلس أول مدينة فى الضفة الغربية تشهد حوادث احراق اطارات السيارات ، ومنذ ذلك الحين كانت السنة الدخان الأسود ورائحة احتراق المطاط بمثابة صوت النفير الذى يدعو الى الثورة ضد الحكم الاسرائيلى .

وقررت الحكومة العسكرية ردا على المقاومة المتزايدة معاقبة عمدة مدينة نابلس حمدى كنعان — (الرجل المتكبر) كما وصفه الحاكم العسكرى —

فاغلقت متجريه . وفوق ذلك طلب من كنعان اعادة الأموال التى حصل عليها من رئيس وزراء الأردن . وردا على ذلك ابلغ كنعان الحكومة العسكرية بانه سيستقيل من منصبه وسيقوم كذلك بحل المجلس البلدى . وهكذا اصبح نفس الرجل ، الذى وصف قبل ذلك بانه خائن لتعاونه مع الحكومة العسكرية ، بطلا قوميا بين عشية وضحاها ومثلا اعلى على القيادة الوطنية فى الاراضى . وهنا ايضا سار مجرى الأحداث فى نابلس فى نفس الاتجاه الذى سارت فيه الاحداث التى وقعت فى مدينة القدس ، فقد سارع موشى ديان الذى شعر بحاسته المرهفة بوجود جو من التوتر الى نابلس فى محاولة لوقف التدهور السريع فى الموقف . وتم عقد اجتماع خاص للمجلس البلدى وران على القاعة صمت مشوب بالتوتر فى الوقت الذى القى ديان بنظرة حوله فى وجوه رجال المجلس العابسة . وفى هذه المرة تجاهل تبادل المجاملات وشرع فى العمل على الفور وبدا حديثه بأسلوبه الذى لا يبارى :

« اذا اردت ان تستقيل يا سيد كنعان فلتفعل ذلك دون ابطاء ولكننى آمل أن تدرك ان اول من سيعانى من استقالتك هم سكان مدينتك . انك تهجر السفينة فى احلك اللحظات » . (واشتكى كنعان من معاملته على يدى الحاكم العسكرى وطالب بان يعرف لماذا تم اغلاق متجريه) .

حقيقة ان قوات الدفاع الاسرائيلية هزمت ثلاثة جيوش عربية واستولت على بعض اراضيهم ولكنها لم تحرر الناس الذين يعيشون هناك . لقد بدا الصراع الحقيقى منذ ذلك تلك اللحظة واصبح اول سؤال يتعين مواجهته هو : من يحكم الضفة الغربية ؟

ان الحكومة العسكرية تستطيع ان تشير الى بعض الانجازات البارزة فى عملها للسكان المحليين خاصة فى مجال الزراعة والصناعة . وهناك ابطال مجهولون مثل المسئول عن المكتب الزراعى — ايتان يزرائيلى — الذى ادت مجهوداته الى انقاذ المحصول الذى كان معرضا للدمار بسبب الحرب . ومع ذلك فقد استمر الاضطراب فى الغليان . وبمجرد ان استعاد الأردنيون رباطة جأشهم بداوا فى استخدام محطة اذاعتهم فى اثارة العصيان المدنى فى الضفة الغربية ، وذلك بالدعوة الى اضراب عام . وفى جنين لم يكن لتلك الادعاءات تاثير واضح . فمن المؤكد انها لم تساعد على استتباب الهدوء .

وعلى اية حال فانه عندما قامت لجنة الارشاد القومى فى القدس فى يوم ١٩ من سبتمبر ، بتوزيع منشورات تدعو الى اضراب عام كانت الصحوة من الحجم والتأثير مما يصعب معه تجاهلها . وقد فشل الاضراب فى القدس — وذلك يرجع بلا شك الى ابعاد رئيس اللجنة الشيخ عبد الله الصايح — ولكن لا يمكن قول الشىء نفسه عن الضفة الغربية . فقد اغلقت المتاجر فى نابلس ابوابها ، ومكث كثير من التجار فى منازلهم . ووجد العمدة كنعان نفسه فى مازق ، فهو يريد ان يحافظ على هيبته بين ناخبيه ولكنه كان قلقا من رد الفعل المحتمل من جانب السلطات الاسرائيلية . ولذلك فقد ابلغ الحاكم

العسكرى بقوله : اننا سنضرب ولكننا لن نقوم بمظاهرات فان سكان نابلس يودون الاعراب عن معارضتهم للاحتلال الاسرائيلى ، واثارة الراى العام فى العالم وفى الأمم المتحدة .

ومع ذلك فلم يمض وقت طويل حتى خرجت الأحداث عن سيطرة العمدة ففى شهر سبتمبر عام ١٩٦٧ احرزت مدينة نابلس قصب السبق على القدس الشرقية فى الضفة الغربية بأسرها . فقد لقى احد الكونستبلات المحليين الذين انضموا الى البوليس الاسرائيلى حتفه فى الشارع الرئيسى مما ادى الى أن تسود حال من الخوف فى المدينة ، دعت السكان الى الاختباء وراء الأبواب المغلقة — وفى الحقيقة فان ذلك كان بمثابة اعلان السكان لحظر التجول من تلقاء انفسهم . لقد انطلقت طلقة الارهاب الأولى فى نابلس — وهو العمل الذى برره رجل الشارع بانه « القصاص العادل من الخائن » .

وقد استمرت وزارة الدفاع ودوائر معينة داخل الحكومة العسكرية فى اعتقادها بانه من الممكن (تأديب امة) وكان السؤال الوحيد هو اى نوع من العقوبات او الاجراءات ستكون اكثر الوسائل فعالية لتحقيق ذلك .

وتراوحت الاقتراحات بين فرض عقوبة جماعية وعمليات ابعاد أو اغلاق الجسور ومنع السفر الى الاردن . وفى احدى المرات امر موشى ديان الحكومة العسكرية باغلاق عشرين متجرا فى نابلس (بما فى ذلك متجر كنعان) وبوقف تشغيل خمسة أوتوبيسات ووقف تراخيص العمل بالنسبة لأولئك الذين لعبوا دورا نشطا فى الاضراب . غير أن الأمر كان قد بدأ يتخذ فعلا صورة الفعل ورد الفعل . وزادت حدة العداوة السافرة بين الحكومة العسكرية والزعماء المحليين ، فان اى عمدة مجبر على ان يفعل ما يتوقعه منه ناخبوه — هذا اذا لم يرد أن يوصم بلقب خائن . وعندما استدعى كنعان لمقابلة الحاكم العسكرى رفض الذهاب وقال بفظاظة لنائب الحاكم العسكرى الذى أحضر له الاستدعاء « اذا أراد الحاكم العسكرى أن يرانى فليأت الى هنا » ورد الحاكم العسكرى على ذلك بانتهاج تكتيك معروف ، فاستدعى المنافس السياسى للعمدة ، أى نائبه الحاج معزوز المصرى وابلغه بالاجراءات التأديبية التى ستتخذ ضد المدينة .

وما كان للسلطات الاسرائيلية أن تدهش من كون نابلس مسرحا للمواجهات المتكررة مع الحكومة العسكرية . اذ أن المدينة اصبحت مركزا اجتماعيا وسياسيا هاما خلال فترة الحكم الأردنى . وكانت مقرا لعدد من الأحزاب السياسية وكانت تفخر بأن بها مجموعة من المثقفين الناجحين . وعلاوة على ذلك كانت نابلس قبل شهور قليلة من نشوب حرب الأيام الستة مسرحا لمظاهرة ضخمة ضد الملك حسين وانفجرت الاضطرابات فى انحاء المدينة بأسرها وأسفرت عن قتل عشرين من السكان . ورد الملك بفرض حظر للتجول لمدة عشرين يوما ولكنه لم يستطع أن يقهر روح التحدى فى المدينة حتى كادت الشرارة التى اندلعت هناك أن تهدد باشعال الموقف فى

الضفة الغربية كلها . وها هى اسرائيل ، الآن ، تظن أن حكومتها العسكرية تستطيع النجاح فيما فشل فيه الملك حسين . الا ان الموقف كان قد تصاعد بالفعل الى أسوا ما كان عليه ايام الملك حسين ، فالى جانب الاحتجاج السياسى ظهرت أولى بوادر النشاط السرى . وكانت الحكومة العسكرية تعرف ان هناك شبابا يتدربون على اعمال التخريب وان مطاردتهم ستؤدى فقط الى زيادة حدة التوتر فى المدينة . وكان الامر الذى انقذ الموقف — مؤقتا على الأقل — هو اجتماع آخر بين موشى ديان والعمدة حمدى كنعان — وكان كلاهما — وهما سياسيان محنكان يعرفان انه لا فائدة من مواصلة سياسة المواجهة بينهما . وكايماءة على تراجعه عن حافة الهاوية ، اعلن كنعان بدء العام الدراسى . وكان جزاؤه انتقاد الأردن له نقدا شديدا وموجة من السخرية ضده من شباب نابلس الذين رفضوا (استسلامه) ووجهوا الى اهاليهم وذلك بارهاب التجار المحليين الذين يتاجرون مع الاسرائيليين .

ويمكن القول بأن معالجة اسرائيل لمشكلة الارهاب المنظم فى الضفة الغربية حددت الى حد كبير شكل علاقاتها مع جميع السكان هناك . لقد اصبح الارهاب سلاح ذو حدين ، ففى كل مرة كان يقع فيها هجوم ضد السكان المدنيين فى اسرائيل كانت الحكومة العسكرية ترد بتوجيه ضربة عنيفة الى سكان الأراضى — وكانت العقوبات التى تفرضها اليمة . واعتقدت الحكومة العسكرية التى كانت تعمل وفقا لقوانين الطوارىء الدفاعية الصادرة خلال فترة الانتداب — انها تستطيع تهدئة التمرد بنسف منازل المخربين المقبوض عليهم وعائلاتهم . تلك هى الخلفية وراء صراع ديان وكنعان الخفى.

كان ديان يعضده الثقل الكامل لقوة الحكومة ولكن كان كنعان يسيطر على سكان نابلس . وفى النهاية خسر كلاهما ورسمت هزيمتهما المشتركة نمط العلاقات التالية بين الحكومة الاسرائيلية والزعامة الفلسطينية . لقد خسر وزير الدفاع تأثيره على كنعان عندما تبنى الاستراتيجيات التأديبية التى اوصى بها ضباط ديان . وفشل العمدة من جانبه فى جهده اليائس للسير بين قطرات المطر ، كان يريد أن يحافظ على شعبيته بين ناخبيه وأعلن تأييده لنضالهم ولكنه كان مرغما للخضوع لأوامر الحكومة العسكرية ، ولذا فقد خسر ثقتهم. وخرج كنعان من مأزقه خاسرا من وجهة نظر الطرفين وقد تعلم عمد الأراضى المحتلة الحاليون درسا اساسيا من تجربته : لقد أصبحوا حذرين للغاية الا يقعوا تحت اغراء تنفيذ ارادة نظام حكم المحتل خوفا من أن يفقدوا هم ايضا احترام ناخبيهم .

ويبدو ان كنعان كان مخلصا فى رغبته فى اقامة نمط من التعايش السلمى مع الحكام الجدد للضفة الغربية . وكان يكن احتراما شديدا لموشى ديان ، وفى سبتمبر عام ١٩٦٨ أصبح اول شخصية عامة فى الضفة الغربية يقوم بدعوة وزير الدفاع الى بيته للغداء — منتهزا الفرصة للحديث عن القهر الذى يتعرض له الفلسطينيون . ومع ذلك فقد وجد العمدة نفسه فى النهاية فى طريق مسدود . وقد هدد بالاستقالة ما يقرب من عشر مرات خلال عام ونصف

العام متعللا بالارهاق وضآلة نفوذه . ودعا الى مؤتمرات صحفية للتحذير من الاضطرابات العنيفة التى ستهز الأراضى ما لم تتراجع الحكومة العسكرية عن سياسة القبضة القوية التى تتبعها . وكان يمكن أن تكون الحكومة اكثر اهتماما بتحذيراته لولا موجة الارهاب ضد الأهداف المدنية . والذى حدث هو ان كل هجوم كان يؤدى فقط الى تقوية عزم الحكومة على سحق آخر بادرة للعصيان — وبدأ ناخبو كنعان فى تجنبه ورفض خطه المعتدل على الرغم من انهم ظلوا يعتبرونه وسيطا لدى السلطات . وباختصار كان مفيدا فى ارسال برقيات الى وزير الدفاع والاحتجاج على اعمال القمع والوحشية .

ولكن كنعان لم يستطع قط التخفيف من معاناة اهالى نابلس او تغيير اجراءات القمع التى اتخذت ضدهم ، وهكذا بدا منطقيا تماما ان يتوصل الى ان المخرج الوحيد امامه هو الاستقالة .

وربما تكون قوات الدفاع الاسرائيلية قد وضعت فعلا وفى ملفاتها خططا عسكرية مفصلة حول الاستيلاء على أراضى العدو فى حال نشوب حرب شاملة ولكننى اشك فى أن تكون اية سلطة فى اسرائيل قد فكرت فى السؤال الموازى لذلك وهو كيفية ادارة تلك الأراضى بعد هزيمتها .

لقد كانت حرب عام ١٩٦٧ مفاجأة لاسرائيل مثلما كانت مفاجأة لسكان المناطق التى استولت عليها . ففى خلال ايام معدودة تغيرت خريطة الشرق الأوسط بطريقة يصعب تصديقها . ولم تكن لدى القيادة الاسرائيلية فرصة قط لوضع استراتيجية شاملة لاستغلال الانتصار العسكرى فى وضع أسس سلام آمن وشامل بل على العكس ساد شعور بالارتباط من أعلى مستوى سياسى الى القادة فى الميدان . وكان ذلك الارتباك واضحا للغاية فى كثير من القرارات التى اتخذتها الحكومة العسكرية . لقد افترضت اسرائيل انه بمجرد انتصار الجيش فى ميدان المعركة فان الكرة ستكون فى الملعب الآخر .

وفوق هذا فانه خلال الشهور القليلة الأولى بعد الحرب اعطت الحكومة الاسرائيلية انطباعا واضحا بأن اهتمامها فى الأراضى يتمثل اساسا فى استخدامها اداة للمساومة وعندما تأتى أخيرا المكالمة التليفونية المرتقبة من العواصم العربية فى محاولة لاسترداد تلك الأراضى . وقد اعترف رفائيل فاردى وهو ميجور جنرال قوات الاحتياط والقائد الأول فى الضفة الغربية انه لا كبار الضباط فى الحكومة العسكرية ولا أولئك المسئولون عن اتخاذ القرارات السياسية كانوا مدركين للتيارات المتلاطمة فى الأراضى المحتلة قبل الحرب ، وكنتيجة لذلك فقدت الحكومة الاسرائيلية فرصة ذهبية لاستغلال الشعور السائد فى سبيل مصالحها فى المنطقة .

وقد لعب الملك حسين لعبة مزدوجة فى حكمه للضفة الغربية ، حيث كان يعمل على كسب ود الارستقراطية الفلسطينية فى الوقت الذى كان يعمل فيه على اثارتهم باظهار تفضيله لعاصمته عمان على القدس . وبنفس الطريقة

فانه فى الوقت الذى كان يرعى فيه اتباعه فى الضفة الغربية لم يخف رغبته فى تحويل الفلسطينيين الى اردنيين — وهو هدف كان يسعى الى تحقيقه عن طريق ارغام كثير من الفلسطينيين على العمل فى حكومته وفى صفوف الخدمة المدنية فتم تعيين المسيحيين العرب من منطقة بيت لحم كقناصل فى بعض المدن الكبرى فى امريكا اللاتينية . كذلك تم تعيين بعض الشخصيات البارزة — مثل انور نسيبة — فى مناصب وزارية . وشيئا فشيئا بدا الفلسطينيون فى تسمية انفسهم (اردنيون من اصل فلسطينى) على الرغم من انه كانت هناك ايضا معارضة لذلك الاتجاه وتصميم على المحافظة على حق الشعب الفلسطينى فى ان يكون له شخصية محددة .

واليوم وبعد اربعة عشر عاما من الحرب يعتقد عدد من خبراء الشرق الأوسط ان الاستيلاء على الضفة الغربية اوقف مسار عملية مرغوب فيها من وجهة النظر الاسرائيلية — بينما كانت قوة دفعها تتزايد . لقد كانت المشكلة الفلسطينية — تحت وصاية الملك حسين — تتحرك بسرعة نحو الحل ، لكن الحرب تدخلت وايقظت مشاعر الفلسطينيين الوطنية وسعيهم الى الاستقلال السياسى . وباستمرار الاحتلال المحت اسرائيل للملك حسين انه اذا فشل فى التوصل الى نوع ما من التسوية ، فانها ربما تسعى لايجاد حلول اخرى لمشكلة الضفة الغربية . ولم تستبعد قط فكرة اقامة شكل من اشكال الحكم الذاتى فى الضفة الغربية ترتبط باسرائيل بشكل من اشكال الاتحاد الفيدرالى . وتوحى فكرة الحكم الذاتى المحلى بوجود تعاون بين السلطات الاسرائيلية والسكان المحليين الذين كان من المتوقع ان يديروا شئونهم بأنفسهم . ومجرد بحث هذه الفكرة يوحى بوجود علامات مشجعة بانها ربما تنجح بالرغم من حالة عدم الاستقرار السائدة . وكان احد الأسباب وراء مثل ذلك التفاؤل هو المثل الذى ضربه عمدة الخليل الشيخ محمد الجعبرى .

ومنذ عام ١٩٦٧ وحتى منتصف السبعينات كان هناك عمدتان يمثلان التباين الشديد للآراء السائدة فى الضفة الغربية . فعلى جانب من الصورة يقف حمدى كنعان يحكم مدينة يموج سكانها بالتمرد ، وعلى الجانب الآخر يقف محمد الجعبرى الذى رسخ حكمه الذى استمر عشرين عاما وتدعمت مكانته ومكانة عائلته فى المدينة وفيما حولها . وكان الجعبرى واحدا من اكثر الأشخاص ولاء للملك حسين فى الضفة الغربية وقد اسندت اليه مسئوليات وزارية منذ الخمسينات .

وعندما بدا نفوذ المعسكر المؤيد للناصرية ، بقيادة عائلة القواسمة ، فى النمو خلال العشر سنوات التالية ، نجح الجعبرى فى الاطاحة بمنافسيه السياسيين — الذين كانوا ايضا منافسين لحسين — وعمل على تدعيم مركزه . وفى عام ١٩٧٢ ايد الجعبرى فكرة اعادة تشكيل مملكة عربية أردنية موحدة ، التى كانت تعنى توحيد ضفتى نهر الأردن ، ولكن بدل موقفه بعد حرب يوم كيبور . ولم يعد يؤمن كما كان يؤمن كنعان بأن الأراضى المحتلة

ستعود الى الأردن على الفور . ووجد موشى ديان فى الجعبرى حليفا اهلا للثقة فى سعيه لاقامة نوع من الحكم الذاتى فى الأراضى . وكان ديان يتحدث عنه فيما بعد باعتباره : « واحدا من اكثر الزعماء العرب وعيا وحكمة » .

وقد عرف عمدة الخليل ، بحكمته الثاقبة ، انه لا يستطيع تنفيذ سياسته دون اكتساب حلفاء اولا ، ولذلك حاول الحصول على تأييد عزيز شحادة رئيس الغرفة التجارية فى رام الله وزوج ابنته انور الخطيب ، الحاكم السابق لمدينة القدس . وعندما وسع قاعدة مؤيديه لم يتردد الجعبرى فى التنديد بانتشار الارهاب . وفى شهر يناير عام ١٩٦٨ دعا سكان الخليل الى « تخليص انفسنا من الذين يلحقون بنا الأذى والذين لا نجنى من وراء اعمالهم اية مكاسب » .

وكان رد كنعان على الجعبرى أن اعلن من نابلس « اننى لو كنت شابا لكنت التحقت بمنظمة فتح » . واصبح واضحا ، من استمرار الجدال ، ان هناك اتجاهين متضادين بدآ فى الظهور بالأراضى . فكثيرا ما كان يقف احد العمد او شخصية عامة ليعلن عن تأييده للحكم الذاتى فى الأراضى الأمر الذى سرعان ما يصفه المعلقون السياسيون او ضباط الحكومة العسكرية « بأنه شخص معتدل » — وهو ما يجعل الأمور صعبة بالنسبة له . وفى نفس الوقت فمن المؤكد ان الملك حسين لم يكن مهتما بتأييد هذا الفريق بل انه فى الواقع اكد مرارا للمبعوثين المرسلين نيابة عن الحكومة الاسرائيلية انه لن يبحث اى حل يتعلق بالمشكلة الفسطينية حتى تنسحب اسرائيل من الأراضى المحتلة. وفى احدى المرات اقترح رشاد الشوا عمدة مدينة غزة على الملك بناء ميناء يخدم الأردن فى مدينة غزة بمساعدة اسرائيل ، وحتى ذلك الاقتراح قوبل بالرفض التام .

ان من اكثر الأشياء اثارة للسخرية المريرة فى تلك الفترة هو انه فى الوقت الذى كانت بعض الدوائر فى اسرائيل تتحدث فيه عن الحاجة الى تشجيع الحكم الذاتى فى الأراضى اتخذت قرارات من شأنها تخريب اية خطوة فى سبيل زيادة حجم الحكم الذاتى . بل ان اولئك الذين كانوا يؤيدون انتهاج سياسة احتلال اكثر ليبرالية بدا انهم يشعرون بحيرة نتيجة للمشاكل اليومية فى الأراضى . فكيف يستطيع المرء أن يوفق بين الرغبة فى توسيع نطاق الحكم الذاتى مع فرض الرقابة على الكتب المدرسية القومية فى الضفة الغربية ؟ أو توفيق هذه الرغبة مع الغاء الترتيبات القائمة المتعلقة بالأماكن والآثار التاريخية ونقل مسئولية الاشراف على تلك الأماكن الى الحكومة العسكرية ؟ واذا كانت اسرائيل تريد حقا خلق قاعدة لنشاط اقتصادى مستقل فى الضفة الغربية فلماذا لا تسمح اذن للبنوك الكبرى بفتح ابوابها ؟ واخيرا فهناك سؤال ما فتىء يطارد كثيرا من الاسرائيليين حتى يومنا هذا : لماذا لا تسمح الحكومة بقيام نشاط سياسى مستقل فى الأراضى ؟ ان مثل هذا الاجراء كما يرى كثيرون كان سيؤدى الى خلق زعامة محلية مستعدة وقادرة على التوصل الى تسوية مع اسرائيل ، وبدلا من ذلك ادى حظر النشاط

السياسى الحر والعلنى الى فتح الطريق امام المنظمات الفلسطينية التى تكونت خارج الأراضى ـ أى منظمة التحرير الفلسطينية ـ تشديد قبضتها .

وفى الوقت الذى اقترب فيه موعد اجراء الانتخابات الاسرائيلية فى عام ١٩٧٣ ارتفع حجم المناقشة العلنية حول تلك الموضوعات بدرجة كبيرة ، وانبعثت أصوات من الطرفين المتضادين فى المجال السياسى ، تطالب بالتفكير بجدية فى مستقبل الأراضى . فمن جهة كانت هناك دعوة بضم الأراضى من جانب واحد على أساس الحقوق التاريخية وعلى أساس الاقتناع بأن الاعتبارات الأمنية تجعل من المستحيل التفكير فى التنازل عن الأراضى لأى دولة أو نظام يكون معاديا لاسرائيل . أما الجانب المعارض وهم الذين يطلق عليهم فى معرض السخرية بهم : « القلوب الدامية » . هؤلاء « انبياء يوم الحساب » الذين يرون أن للاحتلال تأثيرا ضارا على النسيج الأخلاقى والاجتماعى للمجتمع الاسرائيلى ، ويتحدثون عن الأراضى المحتلة باعتبارها سرطانا ينخر فى القوة الأخلاقية لدولة اسرائيل ، ويسوقون آلاف الحجج ليظهروا أن تمسك اسرائيل بالأراضى لا يخدم امنها فى شىء بل على العكس فانهم يحذرون من الأخطار الجسيمة التى يمكن أن تواجه مجتمعا يصبح معتادا على السيطرة على سكان اجانب أو بعبارة الطف « على قمع شعب آخر » .

ومهما كانت قيمة مثل هذا النقاش فان التقارير الصحفية الواردة من الأراضى تؤيد مقترحى الانسحاب . ان عبارة « حكومة عسكرية ليبرالية » ، تنطوى على تناقض واضح فى الفاظها مهما تكن حسن النوايا . ان العرب رغم انهم لقوا الهزيمة على أرض المعركة الا انهم رفضوا الخضوع وتوقيع وثيقة استسلام ، وبتزايد حدة تعبيرهم عن التحدى زادت كذلك حدة فعل الحكومة العسكرية واختبارها للاجراءات التأديبية .

وباختصار فان القضية الفلسطينية التى اعتقد كثيرون انها فى طريقها الآن لأن تصبح «أثرا تاريخيا»قد برزت مرة أخرى الى الذروة ، وابتدا العالم بأسره يتابع الأحداث فى المنطقة . والأكثر من هذا أن الاضطرابات فى الأراضى قد أصبح لها تأثير مباشر على البلاد العربية المجاورة ، وبدا بعض الفلسطينيين يتحدثون عن رسالة كبرى لايقاظ العالم العربى بأسره من سباته . وتنبأ الكاتب الفلسطينى انيس القاسم بأن « الوقت سيجىء عندما يحكى التاريخ عن تأثير الانتشار الفلسطينى على الصحوة العربية الحديثة ، وسيعلن التاريخ أن الفلسطينيين اخذوا بيد كثير من البلاد العربية من العصور الوسطى حتى القرن العشرين » .

ان التاريخ ربما يحكى عن آثار مذهلة للصراع فى الشرق الأوسط ولكن بالنسبة للوقت الراهن فهناك شىء واحد مؤكد وهو أن موقفا اعتبر فى بادىء الأمر موقفا مؤقتا قد طال أمده وان كان كل يوم يمر على الحكم الاسرائيلى فى الأراضى يساهم فقط فى زيادة الشعور باليأس ويدفع العناصر المتشددة فى كلا الجانبين الى مواقف أكثر تطرفا .

تلك هى الحقائق التى لن يكون التاريخ رقيقا عند اصدار حكمه عليها.

الفصل الرابع

غزة (عش الدبابير)

وصل التوتر ، الذى ظل يتراكم فى الأراضى المحتلة منذ صيف عام ١٩٦٧ ، ذروته فى ١٩٧٠ ، وهو عام التمرد بالنسبة للشعب الفلسطينى فى المناطق المحتلة وما وراءها . الا أن قطاع غزة ، على الرغم من كل الاضطراب الذى كان يسود الضفة الغربية ، كان المكان الذى يبدو أن الأحداث به فاقت قدرة اسرائيل على استيعابها فضلا عن السيطرة عليها . الا أن الشىء الأكثر أهمية هو ما حدث فى غزة وأعطى الاسرائيليين لمحة مخيفة لما تخبئه الأيام لكلا الطرفين .

فعلى النقيض تماما من الضفة الغربية التى يقطنها سكان من البدو والحضر ذو أصول عميقة فى المنطقة كان قطاع غزة يقطنه فى الغالب لاجئون لم يعرفوا قط معنى العيش فى سلام وسعادة . ويبلغ عرض القطاع بأكمله أقل من خمسة أميال وطوله ثلاثون ميلا من الشمال الى الجنوب ومع ذلك استوعب فى عام ١٩٤٨ ما يقرب من ١٥٠ر٠٠٠ نسمة معظمهم ممن فروا خلال القتال من المنطقة الغربية للساحل الفلسطينى متوقعين العودة الى بيوتهم قبل مضى وقت طويل ، وعندما أتت الرياح بما لا تشتهى السفن استقر اللاجئون فى مخيمات ، وعاشوا خلال الثمانية عشر عاما التالية تحت الادارة المصرية ، وعلى خلاف الأردن ، التى قامت بضم الضفة الغربية فى عام ١٩٥٠ من جانب واحد ، فان مصر لم تضم قط قطاع غزة الى حدودها ولكنها ادارت المنطقة على نمط أسلوب الوصاية . ولم تفعل مصر أى شىء للتخفيف من معاناة اللاجئين مثل ازالة الأحياء الفقيرة أو رفع الفقر المطبق عن المخيمات وكانت الحوارى الضيقة تتحول الى انهار من الطين فى الشتاء وتفوح منها الرائحة الخانقة فى أيام الصيف الملتهبة . فلا غرو أن المخيمات أصبحت تشبه قبل حرب الأيام الستة بوقت طويل « أعشاش الدبابير » التى تموج بالسخط ، ولكن المصريين قاموا بسحق أية بادرة تمرد بقسوة وأحكموا قبضتهم على السكان من اللاجئين . وعندما احتلت القوات الاسرائيلية المنطقة فى عام ١٩٦٧ وجدوا أن عدد السكان قد ارتفع من نحو ٢٠٠ر٠٠٠ نسمة فى عام ١٩٤٨ الى ما يقرب من ٣٥٠ر٠٠٠ نسمة ـ ومن المعتقد أن سبب ذلك يرجع الى أسباب طبيعية فقط مما جعل غزة من أكثر الأماكن كثافة سكانية فى العالم. وكانت الأغلبية الساحقة للسكان تعيش فى مخيمات . وتحت الاحتلال

الاسرائيلى ، مما زاد من تعاسة اللاجئين،وشعورهم بالاضطهاد القومى ، وادت تلك العوامل مجتمعة الى حدوث انفجار مدو ، وفى عام ١٩٧٠ سلح مئـات من الشباب انفسهم ببنادق كارل جوستاف وكالاشنكوف ، وكانوا يمطـرون بها اى اسرائيلى يعترض طريقهم بوابل من الرصاص . وسيطرت منظمـة التحرير الفلسطينية بزعامة احمد الشقيرى على المنطقـة ولقيت استجابة شديدة فى دعوتها للتجنيد بين شباب القطاع الذين تتملكهم مشاعر المرارة ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت غزة تغص بالفدائيين .

لقد سمعت وقرات قدرا كبيرا عن الموقف فى مدينـة غـزة التى اعلنت تحديها ، ولكنى كنت اتجنب حتى عام ١٩٧٠ الاقتراب من القطاع لاننى كنت افتقد الشجاعة على مواجهة البؤس الذى لا يوصف الموجود هناك . بل ان العنف كان مشروعا بدرجة اكبر . ففى شهر يونيو من ذلك العام قتل الارهابيون اربعة من الجنود الاسرائيليين وكان قصف عربات الاتوبيس وقذف العبوات الناسفة على الزوار الاسرائيليين من الامور الشائعة ، وقامت قوات الدفاع الاسرائيلية التى صممت على استعادة حكمها فى القطاع بعمليات بحث مضنية للقبض على العصابات الارهابية وزعمائها . واسفرت احدى العمليات عن قتل الدكتور فائق عبد الحى الحسينى ، زعيم منظمة القوميين العرب . وكان الحسينى الذى يمت بصلة القرابة لياسر عرفات يلعب دورا سياسيا نشطا فى قطاع غزة منذ منتصف الستينات وكان يعد صيدا ثمينا جدا . ومع ذلك وعلى الرغم من يقظة الحكومة العسكرية ، استمر النشاط السياسى تحت قيادة ابراهيم ابو ستة ، اللاجىء من بير سـبـع ، الذى كان فى يوم ما السكرتير السياسى لأحمد الشقيرى .

ولم يكن ابو ستة معروفا بنقائه السياسى ففى سنة ١٩٦٧ سـمح له بالعودة من مصر الى قطاع غزة بعد ان تعهد للحاكم العسكرى الاسرائيلى انه لن يشترك فى نشاط سياسى . وبعد ذلك بثلاث سنوات خلال اول اجتماع له مع وردخاى جور ، قائد القوات الاسرائيلية فى القطاع ، لم يأل جهـدا فى اظهار سخطه . ووقف كما لو كان يحاضر رئيس أركان المستقبل قائلا :

« يجب تقسيم البلاد بين اليهود والعرب ، لذلك فاننى لا افهم كيف تستطيع التحدث عن سياسة ليبرالية او حكم مستنير اذا كنتم تمضـون فى ازالة المنازل التى عاش فيها المقاتلون العرب من أجل الحرية . ما هو ذنب الاب وما هى جناية الأم ؟ ولهذا تم ابعاد ابو ستة مرة اخرى الى معسكر حربى فى قلب سيناء هذه المرة . وكانت المرة الأولى التى اقابله فيها فى عام ١٩٧٤ . فقد تصادف ان كان اخى سعيد هو الجندى الاسرائيلى الذى كان يقوم على حراسته فى المعسكر وقال لى : لقد اتهمت بتحريض السـكان على الاضراب وهذا صحيح . كيف كنت تتصرف انت تحت نير الاحتلال ؟

وتعهد ابو ستة مرة اخرى للاسرائيليين بتجنب القيام بنشاط سياسى وسمح له بالعودة الى منزله الحبيب عند ساحل غزة . ولكنه كان يدرك

مغزى العمليات السياسية المصرية الجارية حوله وكان فى بعض الاحيان غير قادر على التزام الصمت . وقال لى ذات مرة بصراحته المعهودة :

« اذا لم اتكلم فاننى اكون خائنا لاهلى ، ولذا تكلمت فان الحـكومة ستوقع بى العقاب ، ولأن اهلى اكثر اهمية لى من الحكومة ، وحيث اننى استطيع خداع قائد المنطقة بقليل من الدهاء ، فاننى افضل مواجهة عقاب الحكومة عن مواجهة عقاب أهلى » .

ويبدو ان وجهة النظر تلك كان يشاركه فيها الكثيرون فى غزة لانه فى ١٩٧٠ وصلت حالة خرق القانون الى نسبة لا تحتمل فلم يكن الاسرائيليون الذين يعملون فى الخدمة المدنية او الذين يخدمون فى الجيش يستطيعون السفر عبر طرق قطاع غزة او السير خلال مخيمات اللاجئين دون التعرض للاعتداء عليهم . وقد اقترح موشى ديان ذات مرة ترك السكان المحليين ليتولوا شئونهم الخاصة وكانت نصيحته هى (اتركوهم ليحيلوا حياتهم جحيمـا) ولكن زملاءه الوزراء وجدوا من العسير التفكير فى أن يكون قطـاع غزة بعيدا عن متناول الاسرائيليين . وكلما تأخرت اسرائيل فى معالجة مشـكلة غزة زادت جراة الارهابيين ومؤيديهم . وكما كانت الحال فان شباب القطاع لم يكن يجد اى ضير من تقديم المساعدة الى الرجال المطلوب القبض عليهم او ايوائهم .

كان ذلك هو المناخ العام فى الأراضى المحتلة عندما بدات خدمتى فى الجيش فى عام ١٩٧٠ . وكان هدف المنظمات الارهابية هو شل الحكومة العسكرية . وقد نجحوا فى ذلك تقريبا فى غزة ، حيث وصلت الحياة فى ١٩٧٠ بهذه المنطقة المزدحمة الى حافة الفوضى .

وعندما تم كشف الخلايا الارهابية فى الجزء الشمالى من الضفة الغربية وتم وقف نشـاطها التقط اهـالى غـزة العصى . وسرعـان ما انفجـرت الطلقات التى يشيب لها شعر الراس فى الحوارى الضيقة لمخيمات اللاجئين . وخلال ١٩٧٠ وحدها قبضت قوات الدفاع الاسرائيلية على نحو ١ر٠٠٠ شاب فى قطاع غزة ، اعترف نحو ٣٧٠ منهم بالاشتراك فى الأعمال الفدائيـة واقر ١٢٥ آخرين أنهم قدموا العون للارهابيين . واعتبرت السلطـات أكثر من نصف المقبوض عليهم — ٦٣٣ — مشبوهين واطلقت سراحهم . ولم اكن افهم تماما من قبل المعنى القـانونى الدقيق لذلك اللفظ . وعندما شـاهدت الاعتقالات خلال احدى المظاهرات ، سألت ضباط الحكومة العسـكرية ببراءة لمـاذا يؤخذ كل أولئك الناس الى السجن ، وكانت الاجابة — من وجهة نظرهم بسيطة : يتم التحقيق مع المشتبه فيهم ثم يفرج عنهم اذا ثبت انهم لم يرتكبوا اى تصرف غير قانونى ووفقا لذلك المنطق كان كل عربى فى قطاع غزة (مشتبها فيه) حتى ينجح (فى اختبار) التحقيق .

وربما تكون أكثر النتائج المؤلمة لذلك العنف فى المخيمات هى الضريبة

القاسية التى دفعها السكان المحليون . ففى عام ١٩٧٠ قتل ما لا يقل عن ١٠٦ من سكان المنطقة ، منهم ٩٤ على ايدى الارهابيين ، و ١٢ بأيدى الجنود الاسرائيليين . وفى النهاية قررت الحكومة انه يجب وضع نهاية لهذه الفوضى . وفى يوم ٣ يناير عام ١٩٧١ تلقى قائد قطاع غزة وشمال سيناء البريجادير جنرال مناحيم افيرام اشارة البدء . وكان أول اجراء اتخذه هو طرد عمدة غزة رجب العلمى بسبب تشجيعه الاتجاه المعادى للسلطات ورفضه التعاون مع قوات الدفاع الاسرائيلية .

وكانت التهمتان الأساسيتان الموجهتان الى العمدة هو رفضه ادانة الأنشطة الارهابية فى المدينة ، ومعارضته ربط غزة بالشبكة الاسرائيلية الرئيسية للكهرباء . وكان قد اعتاد كذلك على الاحتجاج ضد « الاضطهاد الذى يتعرض له عرب غزة » وهكذا كان الهدف من ابعاده هو استعراض للقوة ولكن السلطات لم تتوقف عند ذلك الحد وجاءت نقطة اللاعودة مع خطوات تدعيم وجود قوات الدفاع الاسرائيلية فى المنطقة . ففى يوم ١١ من يناير دخل بوليس الحدود « البريهات الخضراء » الى غزة لاعادة النظام وكان هدفهم الأول هو مخيم الشاطىء للاجئين الذى كان مشهورا بانه مرتع النشاط الارهابى . وقد فرض حظر التجول الشامل على المخيم واحضرت المعدات الثقيلة لهدم المبانى وتوسيع الحوارى لتحويلها الى طرق تستطيع استيعاب السيارات .

وعندما تم شق الطرق وصلت القوات وبدأت عمليات تفتيش من منزل الى منزل . وغنى عن القول بأن عشرات الأشخاص اعتقلوا ولم تنشر وسائل الاعلام الاسرائيلية شيئا عن ذلك الاجراء فى حينه (على الرغم من انها اذا كانت قد فعلت ذلك فان الراى العام كان بلا شك سيؤيد الحاجة الى « عقاب القطاع ») .

ولكن الصحفيين الذين قاموا بزيارة المنطقة فيما بعد خرجوا بانطباع ان سكان مخيم الشاطىء يجلسون على بركان من الغضب . واتهمت السيدات الجنود بضرب رجالهن وتدمير ممتلكاتهم وبارتكاب أعمال وحشية اخرى .

وعندما طلب من قائد القطاع الرد على تلك الاتهامات الفظيعة كان كل ما استطاع قوله هو « ان الوصول للحقيقة يحتاج الى جهود مئات المحققين لمدة عام بأكمله — وحتى بعد ذلك فانه من المشكوك فيه امكان التوصل الى القصة الحقيقية » ولم ينقطع طوفان الشكاوى التى كانت تصل الى قيادة الأركان العامة . ولم يكن الضحايا فقط هم الذين سجلوا احتجاجاتهم — فقد ارسل اربعة جنود الى قيادة الأركان العامة خطابا يشرحون فيه بالتفصيل التجاوزات التى ارتكبتها وحداتهم مما دعا الليفتنانت جنرال حاييم بارليف رئيس الأركان الى دعوتهم لاجتماع خاص لسماع

روايتهم عن الأحداث . وفى يوم ١٩ فبراير نشرت صحيفة « ها آرتس » اليومية انه كنتيجة للاحتجاج العنيف تم توجيه اللوم الى اثنين من كبار الضباط لسلكهما فى قطاع غزة . وكشفت المحاكمات التى اجريت للجنود الاسرائيليين فعلا عن وقوع عمليات سلب واعتداء ووحشية صاحبت عمل البوليس فى مخيم الشاطىء وتم طرد عضوين من بوليس الحدود بسبب استخدامهما القوة دون مبرر .

وكانت غزة لا تزال تئن من الجراح التى اصابتها عندما قرر بعض الشباب المسلحين الذين ما زالوا مطلقى السراح القيام بسلسلة من الأعمال المثيرة لاثبات انهم لم يفقدوا قدرتهم على الضرب . واستطاعوا خلال اكبر عملية قاموا بها ، نسف مركز البريد الرئيسى فى مدينة غزة ونتج عن الانفجار اصابة واحد وستين شخصا بجراح ، اربعة منهم باصابات خطيرة . ومما زاد الطين بلة ، ان الأبرياء تعرضوا للعقاب مرة اخرى فى محاولة قوات الدفاع الاسرائيلية المكثفة لتطويق الارهابيين . وخلال اختبارات القوة المتكررة بين المعسكرين المسلحين فقد كثيرون من الأبرياء حياتهم فى محاولة كلا الجانبين اخضاع السكان . وكان الارهابيون يعتمدون على القصاص العاجل .

فقد قتل احد سائقى التاكسى من مخيم النصيرات لرفضه مساعدة ارهابى جريح ، وقتلت امرأة من نفس المعسكر على باب منزلها فى وضح النهار لتعاونها مع السلطات العسكرية . وعبر احد جيرانها عن رايه فى الموضوع بالقول : هذا هو مصير الخائن .

وفى حادث آخر تم اعدام شابين من غزة على الفور اشتبه فى انهما ينقلان أسرار الى اليهود .

وفى شهر ابريل عام ١٩٧١ قتل احد العاملين فى مستشفى الشفاء الحكومية لرفضه مصاحبة أعضاء من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لعلاج جرحاها الذين كانوا يختبئون فى بيارات الموالح . وقد شاهد اطلاق النيران عشرات من الأشخاص ولكن لم يجرؤ اى منهم على منع القاتل من الهرب . وكان سكان قطاع غزة يشعرون بأنهم وقعوا بين (مطرقة) القمع (وسندان) الارهاب . وكان المتحدثون باسم قوات الدفاع الاسرائيلية يصدرون فى كل يوم نشرات جديدة حول الاشتباكات المسلحة بين القوات الاسرائيلية وارهابيى غزة . وهكذا ادى سفك الدماء المتزايد واعمال القتل التى لا ترحم الى تحويل الحياة فى قطاع غزة الى شىء غير محتمل .

وخلال تلك الأيام العصيبة من عام ١٩٧١ كنت امضى فترة تدريب للضباط وارسلت وحدتى الى قطاع غزة للقيام بمناورات وعندما جمعنا الضابط المشرف على التدريب لاطلاعنا على كيفية التعامل مع السكان

المحليين اكد متعمدا (ليس كل اهالى غزة ارهابيون) ، وحذرنا من عدم مراعاة اخلاقيات قوات الدفاع الاسرائيلية .. وكنا قد سمعنا بطبيعة الحال عن العنف فى غزة « والتجاوزات » التى ارتكبها الجنود الاسرائيليون ، ولذلك فقد ادركنا ما كان يقصده من كلامه هذا .

وعندما حان الليل صعدنا الى العربات المثقلة بالأسلحة والذخيرة وسرنا عبر الأزقة المظلمة وبجانب البساتين الكثيفة الى حدود مخيم المغازى للاجئين . وقامت وحدتنا بتطويق المعسكر فى انتظار انبلاج الفجر . ثم قام مناد بالسير فى الأزقة معلنا عن بدء حظر التجول وحذر من انه محظور على اى شخص الدخول او الخروج من المخيم (وان اى شخص لا يطيع هذا الأمر ستطلق عليه النار فى الحال) .

ثم دخلنا المخيم وفتشنا المنازل منزلا بعد آخر بأسلوب واحد ومنتظم . فكان الجنود يدفعون بالباب المتداعى ويندفعون الى داخل كل منزل من المنازل التى هى اشبه بالأكواخ . وكانت تجرى عملية تفتيش واستجواب للرجال ثم يتم تفتيش الدواليب تفتيشا كاملا . وكان اى مكان يصلح لأن يكون مخبأ يخضع لتفتيش دقيق . وفى احد المنازل قابلنا سيدة عجوز اخذت تتمتم قائلة (ربنا ينتقم منكم) وطلب منى قائد الفرقة ترجمة ما قالته السيدة فقلت له : انها تقول (ربنا يرحمنا) خوفا من ان يؤذيها اذا عرف ماذا تقول حقيقة . وبدلا من ذلك ضحك فى فتور . وكنت اشعر بالنفور يتزايد داخلى ازاء ماكنا مضطرين للقيام به . وخلال ساعات النهار قمنا بتمشيط البيارات وكانت لدينا اوامر صريحة (باطلاق النار على اية حركة مثيرة للشك بعد الساعة السادسة مساء) . وكان اى فلاح عجوز لا تسعفه قدماه الواهنتان على حمله الى منزله فى الموعد المحدد ربما يدفع حياته ثمنا لذلك العجز .

ونظرا لكونى جنديا فى الخدمة الفعلية فقد اضطررت للاحتفاظ بمشاعرى لنفسى ولم اتحدث قط سواء داخل الوحدة او فى المعسكر عن تأثير تلك التجربة على . ولكن عندما عدت الى منزلى فى اجازة اعترفت لوالدى بأننى لا اريد المضى فى دورة تدريب الضباط . واستطاع ان يقنعنى بالعدول عن موقفى بأن اوضح لى اننى لا استطيع على اى حال من الأحوال تجنب القيام بالواجبات التى يتعين على الجيش ان يقوم بها . وحتى لو كان الأمر كذلك فانه لم يكن بمقدورى ان انسى انه وراء الشعارات المخدرة مثل « اخضاع السكان » العقاب الجماعى — تكمن حقيقة قاسية مؤلمة . وفى شهر اغسطس من عام ١٩٧٢ تم طرد اربعة آلاف عائلة من معسكر جباليا للاجئين . واقيم معسكر اعتقال فى ابو زنيمة فى صحراء سيناء للتحفظ على مائة عائلة ممن القى القبض على ابنائهم باعتبارهم ارهابيين . كذلك وضع عشرات من المسجونين تحت الحجز الادارى فى سجن غزة ولم يقدموا قط الى المحاكمة . وفى اسرائيل نفسها ازداد عدد الأشخاص المستعدين للدفاع عن سياسة مواجهة القوة بالقوة والذين يوافقون على انه يجب ان

يترك للحكومة العسكرية حرية الحركة (لاخضاع السكان الذين يقومون بايواء القتلة) .

واصبحت (الاعتبارات الأمنية) فى مقام التقديس واوشكت ان تصبح المقياس الوحيد الذى يقاس به كل شىء آخر . بل ان عددا من المثقفين الاسرائيليين انضموا الى الاجماع العام للراى فى اسرائيل الذى يؤكد ان اية دولة فى حالة حصار لا يجب أن تحكمها المقاييس التقليدية . ولم يكن هناك كثيرون يملكون القوة الداخلية التى تمكنهم من النظر بجدية الى حقيقة الأمور والاعتراف بالتأثير السىء والوحشى للاحتلال على المجتمع الاسرائيلى.

من يستطيع ان يقرر ما هى حدود الاعتبارات الأمنية ؟ هل يمكن ان نبرر الاعتداء على المدنيين الأبرياء فى مقابل القبض على اعداء الدولة الذين يلجأون الى مخيمات اللاجئين ؟

هل حقا تتطلب الاعتبارات الأمنية لدولة اسرائيل القيام بعمل ضخم على الأراضى اللبنانية ؟ كانت هذه الأسئلة تتصارع داخلى بلا نهاية وكانت تقض مضجعى ولكننى اكملت دورة الضباط ولحسن حظى تم تعيينى فى الشمال .

استمرت ثورة غزة مدة ثمانية عشر شهرا ، وواصلت قوات الدفاع الاسرائيلية عمليات بحثها ودورياتها يوميا . وفى نهاية الأمر ادت لعبة شد الحبل بين الطرفين الى شل حركة الحياة تماما فى المنطقة . وعندما وصلت البطالة الى نسبة غير معقولة اذعنت الحكومة وسمحت للزعامة فى غزة باعادة تشكيل مجلس محلى . وعين رشاد الشوا رئيسا لمجلس محلى غزة ، وعادت الحياة الى طبيعتها ببطء . ولكن من المؤكد ان الشىء الوحيد الذى بقى من ذلك العام ونصف العام من العنف الرهيب هو شعور سكان غزة بالسخط الدفين . وباستطاعة المرء أن يرى ذلك فى اعين الأهالى حتى اليوم .

وعندما قمت بزيارة مخيم الشاطىء للاجئين مع فريق من العاملين فى التليفزيون الاسرائيلى فى ١٩٧٥ كنت استطيع ان اقرأ الغضب المتأرجح فى النظرات المصوبة الينا — وأصر الحاكم العسكرى أن تصحبنا حراسة من قوات الجيش خلال الليل للمحافظة على سلامتنا . ولم اكن اخشى من جانبى أن نتعرض لأى اذى فى مخيم الشاطىء ولكن الشتائم كانت تنهال علينا باستمرار وخلال سيرنا عبر الأزقة المظلمة ذات الروائح النفاذة .

وكانت عشرات من النساء اللاتى يجلسن امام بيوتهن الطينية المتداعية يوجهن الفاظا موجعة الينا ولم يدعنا أى شخص فى المخيم للدخول الى منزله. واعتقد ان ذكرى العديد من الأشخاص الذين حصدهم الاسرائيليون ما زالت عالقة بالأذهان ، وكذلك ذكرى كل أولئك الذين قتلوا خلال تبادل اطلاق النار بين المشتبه فيهم وبين الجنود الاسرائيليين الذين يطاردونهم .

ولم يكن سكان مخيم الشاطىء وغيره من المخيمات يلقون ترحيبا فى مدينة غزة او فى الضفة الغربية — او حتى من العرب الاسرائيليين حيث انهم كانوا يعدون من الطبقات الدنيا من الفلسطينيين . وعندما رشح ابراهيم أبو ستة نفسه لمنصب عمدة غزة احتجت القيادات المنبثقة من الاهالى الأصليين للمدينة احتجاجا صاخبا « انه لاجىء من بير سبع ويتعين عليه ان يتطلع الى العودة الى مدينته وليس للاستقرار فى غزة » . وقد روعى كمواطن فى بلد حاول دوما اعادة تأهيل العناصر الضعيفة من سكانه ، موقف الارستقراطية الفلسطينية ازاء اللاجئين .

فمنذ عام ١٩٦٧ بذلت اسرائيل جهدا من أجل تحسين مصير اولئك الأشخاص البؤساء وذلك ببناء احياء جديدة لهم خارج مخيماتهم . ولكن المبالغ المخصصة لذلك العمل الهائل كانت محدودة ، ولم تكن كافية على اية حال لمواجهة معدل المواليد المرتفع للسكان اللاجئين .

وكانت هناك — غزة — اخرى تختلف تماما عن المخيمات والبؤس المتفشى فيها . وكان خير من يمثل غزة تلك الاخرى ، هو رشاد الشوا الذى ظل عمدة للمدينة لما يقرب من عشر سنوات . كان الشوا طويل القامة عريض المنكبين ومتأنقا وكان يذكر من يراه بالرئيس المصرى جمال عبد الناصر .

وكان الشوا سياسيا ذكيا ذلق اللسان ترجع خبرته العملية الى ايام الانتداب البريطانى عندما كان يعمل كرئيس حى خلال الثلاثينيات وكان الشوا صريحا تماما فى اعجابه بموسولينى ، وكان كثير من معاونيه يتعاطفون صراحة مع النازى . ولكن الشىء الذى اخفاه عن رؤسائه — موظفى الانتداب البريطانى — هو انه كان يعمل أيضا كحلقة اتصال للشيخ عز الدين قاسم رئيس العصابات العربية الذى كان يعمل فى المنطقة المحيطة بمدينة جنين .

وبعد حرب عام ١٩٤٨ عرف عن الشوا انه مؤيد لجماعة الاخوان المسلمين التى كانت تعارض النظام المصرى ، وكان يتبنى موقفا مؤيدا للهاشميين . وقد عمل الشوا قائدا للفدائيين الذين استخدموا قطاع غزة كقاعدة نشروا منها الفزع والدمار فى الجزء الجنوبى من اسرائيل . وقامت القوات الاسرائيلية التى دخلت القطاع فى عام ١٩٥٦ باعتقاله خلال حملة سيناء ، وظل تحت التحفظ طوال مدة ذلك الاحتلال . وكانت هناك أطراف كثيرة فى غزة — بما فى ذلك العصابات الارهابية المنتشرة فى المدينة — تؤيد ترشيحه عمدة للمدينة . وكان من المعتقد انه ذو نفوذ واسع لدرجة انه عندما قامت قوات الدفاع الاسرائيلية بتشديد حصارها حول الجماعات الارهابية طلب زياد الحسينى قائد العصابات ، من الشوا التدخل لدى السلطات العسكرية ومعرفة ما اذا كان يمكن ان تفتح منفذا الى الأردن امام الفدائيين الفلسطينيين المختبئين فى البساتين . وقام مئات من الشخصيات المحلية المحترمة بتوقيع التماس يحثونه فيه على قبول منصب العمدة وظل

يحتفظ بتلك الوثيقة فى خزانة خاصة فى فيلته المترفة فى وسط غزة والتى لا تبعد كثيرا عن ميدان جمال عبد الناصر .

وفى احدى ليالى شهر اكتوبر عام ١٩٧١ اصطدم زياد الحسينى — الذى كان قريبا لفائق الحسينى قائد القوميين العرب وياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية — بمجموعة من الجنود الاسرائيليين فى غزة ونجح فى الافلات من مطارديه ، واستطاع بما بقى فيه من قوة الوصول الى باب بيت الشوا . كانت ذقنه شعثة وملابسه ممزقة وكان يحمل مدفع كلاشينكوف فى يده .

وكان الحسينى يبدو أضخم واكثر ازعاجا مما هو فى الحقيقة ، ودفع العمدة على ان يقدم على حمايته حتى ينقضى الحظر ، وسمح الشوا للقائد الارهابى بالدخول الى المنزل وخبأه فى الدور الأرضى من فيلته .

ولد زياد الحسينى فى غزة عام ١٩٤٣ وانهى دراسة الثانوية فى المدينة ثم قدم طلبا للالتحاق بكلية البوليس فى القاهرة ولكنه لم يقبل . وبعد تردد تم تجنيده فى جيش التحرير الفلسطينى بقيادة أحمد الشقيرى . وبعد ان عاد الى القطاع برتبة ملازم فى صفوف جيش الشقيرى أدمن الشراب والحشيش . ويتذكره معارفه فى غزة بأنه رجل مسرف ومتقلب . وعندما تشكلت الجماعات الارهابية فى المنطقة حصل على رتبة نقيب ، وسرعان ما اصبح قائدا ذا سلطة واسعة .

ان من العسير فهم لماذا كان رجال الحسينى يتطلعون اليه ، خاصة انه كان حريصا على الا يتولى اى دور نشط فى العمليات العسكرية . ومع ذلك كان الشوا الداهية يعرف كيف يستغل صلته بالحسينى احسن استغلال . فعندما كان العمد الراديكاليون فى الضفة الغربية يتهمون الشوا بالاعتدال المفرط كان يتعمد تذكيرهم بأن قادة الجماعات الارهابية فى القطاع — بما فيهم الحسينى — قد ايدوا انتخابه عمدة للمدينة .

وظل الحسينى مختبئا فى قبو منزل الشوا لمدة خمسة وثلاثين يوما ثم انتحر . وعندما انتشرت قصة انتحاره تشكك اهالى غزة فى رواية الشوا صراحة واشتبهوا فى ان يكون الشوا وابنه قد قتلا الحسينى الهارب الذى طلب ملاذا فى منزلهما . وكان ايريل شارون الذى كان يشغل حينذاك منصب قائد القيادة الجنوبية لقوات الدفاع الاسرائيلية يعتقد ايضا ان الشوا مذنب ليس بسبب موت الحسينى ولكن بسبب ايوائه رجلا مطلوب القبض عليه . ودعا شارون الى اقصاء العمدة من منصبه وتدمير فيلته . وحضر الشوا الذى كان ممتقعا ومضطربا أمام الحاكم العسكرى المحلى وطلب الادلاء بوجهة نظره حول الحادث أمام وزير الدفاع مباشرة .

وكان واضحا أن الشوا يعرف ما يفعله ، اذ استمع ديان اليه وقرر — بعد التشاور مع رئيس الوزراء — انقاذ الشوا ومنزله .

وبوفاة زياد الحسينى تبعثرت وتلاشت تدريجيا آخر الجماعات الارهابية فى غزة . فقام خمسة من رفاق الحسينى بالهرب من مخيم جبالية للاجئين واختبأوا فى مدرسة الفالوجا للبنات التى لا تبعد كثيرا عن منزل الشوا ، ولكنهم قتلوا جميعا عندما اقتحمت قوات الدفاع الاسرائيلية المبنى فجر يوم ٢٦ يونيو عام ١٩٧٢ .

والقى عشرون آخرون بأسلحتهم ، واخليت بيارات الموالح من سكانها المؤقتين ، ولم ينضم مجندون جدد الى الخلايا الارهابية . ولمدة قصيرة ، تراكمت الاحصائيات الجافة حول عدد القتلى والجرحى ، وابعاد الصراع الداخلى ، ومصير آلاف اللاجئين الذين هاجروا من قطاع غزة منذ عام ١٩٦٧ ـ تراكمت فى اكوام على مكاتب المسئولين فى الحكومة العسكرية ، على الرغم من ان ذلك الهدوء كان قصير الأمد .

وفى الوقت نفسه ، استأنف الشوا القيام بواجباته وحاول انعاش الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى المدينة المثخنة بالجراح ، ولكن العمدة النشط لم يقصر نشاطه على القيام بالشئون البلدية فقط . فكان يجتمع بانتظام مع الزعماء الاسرائيليين ويسافر الى بيروت وعمان لابلاغ الملك حسين وياسر عرفات بتلك الاجتماعات . وفى الحقيقة أصبح المبعوث الرسمى لهذا الثالوث غير المعقول .

ومن الصعب تخيل من هو اقدر على القيام بهذا الدور سواه ، وخلال عملى بدات انا ايضا اقدر جاذبيته التى لا تقاوم ، وكان هناك دائما قدح من القهوة الساخنة ينتظر الزائر الى فيلته ، مع حديث يكشف ظواهر وبواطن القضية الفلسطينية .

وفوق ارفف الكتب فى غرفة المعيشة كان المتصفح الفضول يجد مجلد ابن جوريون حول استعادة الدولة اليهودية جنبا الى جنب مع اعمال هتلر وموسولينى .

وكان حديثنا حول الموضوعات العامة يبدا بانطباعاته الساحرة حول الأشخاص الذين قابلهم والأحداث التى لعب فيها دورا . وكان الشوا يؤكد مرارا وتكرارا ان مشروع التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة فى عام ١٩٤٧ يجب ان يكون اساس المفاوضات المستقبلة بين الاسرائيليين والفلسطينيين ، وكان عندما يخاطب الاسرائيليين يتكلم بأسلوب قاطع ، يقصد به اظهار ثقته الشديدة بنفسه . ولكنه كان كثيرا ما يتحدث معى بعبارات تكشف عن وجهة نظر اكثر تعقيدا بكثير عن الموقف (من وجهة نظر عرفات فان اقامة دولة فلسطينية مستقلة ليس الا مرحلة مؤقتة وبالنسبة للدول العربية فانها بمثابة كرة طائرة ، ولكنها بالنسبة لنا تعنى الوجود ذاته) .

لم يكن دهاء الشوا السياسى كافيا دائما لحمايته من الأذى .

وحكى لى بتأثر شديد كيف حاول القتلة اغتياله فى سبتمبر عام ١٩٧٢ .

وبدا ان الانباء حول اتصالاته مع المسئولين الاردنيين المنشورة فى الصحف الاسرائيلية قد اثارت غضب المتطرفين المحليين . وقال الشوا حول محاولة اغتياله :

كنت عائدا الى منزلى فى الساعة الثانية والربع مع ثلاثة من الرفاق حين القيت عبوة ناسفة على السيارة والحمد لله لم تنفجر وعندئذ بدا القتلة فى اطلاق نيران الرشاشات وحطموا النافذة الأمامية ولحسن الحظ خرجت من السيارة دون ان اصاب بخدش .

كان رشاد الشوا يحاول خلال العشر سنوات الأخيرة شق طريقه بين اربعة عناصر قوية : الأردن ، اسرائيل ، مصر ، ومنظمة التحرير الفلسطينية . وعندما امرته الحكومة العسكرية بتقديم الخدمات البلدية الى مخيم الشاطىء للاجئين نظر الى الموضوع على أنه عمل سياسى يغير من الوضع الراهن ورفض ذلك .

وضغطت عليه لمعرفة سبب عدم ترحيبه بمساعدة اشقائه المحتاجين ولكن الشوا اكتفى بأن ابتسم لى مثل أب متسامح وشرح بعناية :

« ان علينا ان نترك المخيمات على ما هى عليه كتذكرة للعالم وكتذكرة لاسرائيل والدول العربية ، يجب على اللاجئين ان يفهموا أن هدفهم الوحيد هو العودة الى بيوتهم فى اسرائيل ، وقد حظى الشوا فى هذا الصدد بتأييد حتى معارضيه السياسيين من امثال (ابو ستة) . ولكن قائد المنطقة لم يأخذ بتفسيرات الشوا وكانت نتيجة تلك المواجهة هى طرد العمدة وتعيين ضابط اسرائيلى لادارة شئون المدينة .

لم تكن تلك حركة بارعة لأن طرد العمدة كان بمثابة اشارة البدء لتجدد أعمال العنف فى القطاع . ومرة أخرى دفعت الحكومة العسكرية وبوليس الحدود بقوات للقبض على العصابات الارهابية . ومرة اخرى أدى الصراع بين العنف والقوة الى شل الحياة الاقتصادية فى المدينة واصبحت مدينة غزة مرة أخرى مدينة مقهورة ومعذبة . وعندما استتبت الأمور استعاد الشوا منصبه كعمدة للمدينة وعاد الى مهمته فى اعادة الأمور الى نصابها .

وحتى يومنا هذا ما زالت الاضطرابات الداخلية وتسوية الحسابات امورا شائعة الحدوث فى قطاع غزة ولكن لم يعد يلوح فى الأفق أى تهديد بحدوث فوضى شاملة . ففى خلال الغارة التى شنتها قوات الدفاع الاسرائيلية على أهداف تابعة للارهابيين فى ربيع عام ١٩٧٣ تم الحصول على مجموعة ثمينة من الوثائق من مقر الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين فى بيروت .

وكان من بين الوثائق قوائم تفصيلية بأسماء اعضاء المنظمــة فى قطاع غزة قادت قوات الدفاع الاسرائيلية الى الخلايا المتبقية فى المنطقـــة . كانت آخر جرائم القتل التى ارتكبها الشباب المتمرد هو اغتيال ديب حربيــدى رئيس المجلس المحلى لمخيم الشاطىء للاجئين . وكانت جريمته هى التعاون مع قوات الدفاع الاسرائيلية فى محاولتها تخفيف معاناة سكان المخيم باعادة بناء المخيم بعد الضرر البالغ الذى حاق به خلال عمليات البوليس . وكان شجاعا بدرجة كافية لانتقاد الشوا لموقفه السلبى ازاء السلطات الاسرائيلية . وقد دفع حياته ثمنا لتلك الجراة على الرغم من ان المجموعة التى اعدمتــه اعتقلت بعد ذلك بشهر واحد .

وحاول الشوا عندما استانف عمله كعمدة لغزة ان يعيد النظام الى المدينة التى تحولت الى خرائب . وقد سالته لــماذا قبل العودة الى المنصب بعد طرده منه بطريقة غير لائقة واجابنى بقوله : (لانقذ الشخصية العربية لغزة وان لا ادع ضابط يهودى جاهل يدير امورنا) . ان تلك العبــارة تحمل بين طياتها الكثير من الملامح الأساسية للموقف ازاء اسرائيل فى الأراضى المحتلة ، فقد داب الأهالى فى الضفة الغربية وغزة على استعمال كلمات (يهود) و (اسرائيليين) و (صهاينة) بالتبادل «اتخذت كلمة صهاينة دلالات سلبية للغاية » وعندما اعلق على هذا ينكرون انه يوجد اى اختلاف بين الكلمات الثلاث قائلين ان (كل يهودى هو اسرائيلى) ومن الصعب عــدم ملاحظة نغمة معاداة السامية فى تلك العبارات . وحتى أوضح بدرجة اكبر مدى التعقيد الحقيقى للمشكلة ، كنت أتتبع هــذا التعليق بســؤالهم عن مشاعرهم تجاهى . ويرفض بعض الفلسطينيين ارتباطى بدولة اسرائيل باعتباره تملقا محضا وافتقادا لأسس احترام النفس . ولكن معظمهم يفهمون أن السؤال لا تجيب عليه التفسيرات الساذجة أو النظرية ــ على الرغم من اقرارهم بالحيرة ازاء وضع شخص اسرائيلى عربى ومشاعره .

وعقب التجربة الوحشية التى حدثت أوائل السبعينات رأت الحكومة العسكرية اخيرا أن الأولوية العليا أمامها هى تحسين الرخاء الاقتصــادى لسكان غزة وسارت عملية ادماج العمال من قطاع غزة فى اقتصــاد دولة اسرائيل الى الأمام بسرعة كبيرة . وقد رايت (غزة الجديدة) منذ ثلاث سنوات مضت عندما ذهبت لتصوير فيلم عن الحالة الاقتصادية للقطــاع . وخلال مقابلة اجريتها مع الشوا سالته : اين يعمل عمال مدينته وكرد على سؤالى ، دعانى الى اصطحابه فى جولة فى المدينة فى الساعة الخامسةصباح اليوم التالى . وذهبت ومعى فريق العمل الى ميدان فلسطين فى الفجــر وكان المنظر الذى بدا امامنا لا يصدق .

فقد كان آلاف العمال الذين تزاحموا فى الميدان يخلقون فى الميــدان مناخا اشبه بالكرنفال حيث كان كل واحد منهم مشغولا فى اعداد افطــاره المكون من الفطائر الحلوة المقلية بالسلى ومغطاة بالسمسم ، وأرغفــة العيش المحشوة بالحمص المطبوخ والكبد البتلو المقلى والمتبل ، والقهــوة

الساخنة وزجاجات من مشروب السحلب . كانت تلك ســوق العمل التى يديرها مقاولو العمال المحليين الذين يقومون بتوفير الأيدى العاملة للمزارع الاسرائيلية وغيرها من المشروعات .

ان مثل هذا المنظر كان امرا لا يصدق منذ خمس سنوات ســابقة ولم تعد القوات الاسرائيلية تطارد قطاع غزة بالحــراب . بدات القوانين الاقتصادية تمارس تأثيرها على نسيج العــلاقات بين دولة اسرائيل والمنطقة المحتلة . والآن أصبح كل جانب معتمدا على الآخر واى اضطراب مفاجىء فى العلاقة سيكون له نتائج خطيرة بالنسبة للعمال ومستخدميهم على الســـواء . وبالنسبة لغزة ــ ولعشرات الآلاف الذين مازالوا يسكنون فى مخيمات اللاجئين الذين يراودهم امل ضئيل فى مستقبل اكثر اشراقــا وبالنسبة لأطفالهم ــ فان كل هــذا ليس الا مسكنا وليس عــلاجا . ان الارهــاب قد خمد ولكنه لم يختف . ويبدو ان الفقر واليأس يتوالدان فى المخيمات مثل البعوض الذى لا يمكن مقاومته .

وبالنظر الى تاريخ المخيمات فى العنف ــ وهى اســتراتيجية يمكن وصــفها « بسياسة اليأس » فان هناك سببا قويا يدعو الى الخوف من ان وقوع الانفجار التالى ليس الا مسالة وقت فحسب .

الفصل الخامس

خروج حسين

ودخول منظمة التحرير الفلسطينية

كانت الضفة الغربية التى رايتها فى عام ١٩٧٠ عندما كنت جنديا فى الجيش ، يسودها حال من الاضطراب الشديد ، حيث كان الفلسطينيون منجرفين فى تيار تصادم مع الأردن ولبنان،وكذلك مع اسرائيل ، ومتجهين نحو ازمة تهدد بشل حركتهم القومية . وكانت هناك رياح جديدة قد بدأت تهب على الأراضى المحتلة ، فكان من الواضح منذ الوهلة الأولى أن الزعماء التقليديين فى الضفة الغربية على الرغم من مهارتهم السياسية قد فشلوا فى نظر مواطنيهم وبدا يحل مكانهم تدريجيا شباب ممن هم أصغر سنا واقل استعدادا للتوصل الى حلول وسط مع سلطات الاحتلال . كذلك لم يكن لدى اولئك الزعماء الجدد اى حساسيات ازاء العودة الى الأساليب الراديكالية فى العمل بما فى ذلك الارهاب . وكان أحد أعراض التحول فى الجو السائد هو بزوغ نجم مجموعة من العمد الذين لم يكونوا يعدون فى الماضى من الشخصيات السياسية البارزة فى المنطقة وابتعدت دائرة الضوء عن نابلس والخليل ، وبدأ عبد الجواد صالح ، عمدة البيرة ، ونديم زارو ، عمدة رام الله ، يشكلان اسلوب العلاقات بين الحكومة العسكرية واهالى الضفة الغربية . فقد القى صالح بثقله فى حملة لصالح الفلاحين الذين ابعدوا عن منطقة اللاطرون .

ولم يكن مثل زملائه فى مدن الضفة الغربية الأكبر يؤمن بما يسمى بفوائد التعايش السلمى او بسحر المجاملة العربية التقليدية . وخلال حديث مع موشى ديان قال له بصراحة :

« اننى لست رجلا متدينا ولا اصلى فى الجامع ولكن اذا صليت فاننى سأفعل ذلك سبع عشرة مرة فى اليوم وليس خمس مرات كما يأمر الاسلام ، وفى كل مرة سأدعو الله ان يخرجكم من هنا » . اما زارو فكان رجلا مشاكسا تبدو كراهيته لاسرائيل بلا حدود . ونسبت اليه احدى الصحف فى حديث أجرته معه قوله : ان قوات الدفاع الاسرائيلية « تشبه قوات النازى » . ولتصورى مدى صبره وتصميم الفلسطينيين على تخليص

انفسهم من ايدى (آسريهم) اعتاد ان يذكر مثلا بدويا قديما يقول : « ان البدوى ينتظر أربعين عاما للأخذ بثأره وعندما تأتيه الفرصة يشعر بانه تسرع » . ومن الواضح انه لم يكن كافيا ، بالنسبة للجيل الذى يمثله رجال مثل صالح وزارو ، حل المشكلة الفلسطينية بل كانوا ايضا يريدون الثأر . ان رجلا مثل عمدة رام الله ربما يكون قد قدر بدقة مدى جلد شعبه ، ولكنه كان اقل حنكة فى تقدير مدى صبر الحكومة العسكرية . وفى شهر اكتوبر عام ١٩٦٩ تم ابعاده وسبعة آخرين من الثوريين — بما فيهم مفتى رام الله .

وكان اتساع قاعدة المعارضة للحكم الاسرائيلى اشارة اخرى على ان رجالا مثل كنعان والجعبرى ، قد بدأوا يفقدون مكانتهم . فقد بدا المتعلمون والزعماء الدينيون بل وحتى التجار فى الانضمام الى صفوف حركة المقاومة . وعندما توفى أول شاب فلسطينى فى أحد السجون الاسرائيلية انفجرت مشاعر الغضب فى شوارع الضفة الغربية ، واثبتت المنظمات النسائية مرة اخرى انها أسرع وانشط فى اظهار رد فعلها . ولكن فى الحقيقة فان الشىء الذى دق ناقوس موت الزعامة التقليدية كان سلسلة من التطورات التى حدثت خارج الضفة الغربية احدثت انقلابا فى التفكير السياسى وانماط الموالاة داخل الضفة الغربية .

وكان التاريخان الهامان فى هذه العملية هما سبتمبر عام ١٩٧٠ واكتوبر عام ١٩٧٣ . ويذكر التاريخ الأول فى الميراث الفلسطينى « بأيلول الأسود » الذى يسجل التمزق العنيف للتحالف الضمنى بين الملك حسين والمنظمات الفلسطينية الموجودة خارج الأراضى المحتلة . فبعد أن أدت الحملات المنظمة التى قامت بها قوات الدفاع الاسرائيلية للامساك بأعضاء المنظمات الارهابية الى ترك تلك المنظمات بلا حول ولا قوة فى الضفة الغربية ، حيث بدأت المنظمات فى اقامة قواعد لها فى مخيمات اللاجئين فى الدول العربية المجاورة — خاصة فى الأردن ولبنان . ومن هناك قامت بشن حرب استنزاف استمرت ثلاث سنوات ضد قوات الدفاع الاسرائيلية .

وقد بدأت بالفعل حملة التخريب التى قاموا بها بعد تسعة أيام من وقف اطلاق النار فى عام ١٩٦٧ وكانت تتركز بصفة أساسية على طول وادى الأردن . ويذكر مسئولون اسرائيليون ٥٨٤٠ حادثا من الأعمال العدوانية التى بدأت من الأردن ما بين شهرى يونيو عام ١٩٦٧ وسبتمبر عام ١٩٧٠ . وكان كلا الجانبين يقوم بنصب الشراك للآخر ، وانفقت قوات الدفاع الاسرائيلية مبالغ طائلة من أجل تطوير أساليب اكتشاف المتسللين فى نفس اللحظة التى يعبرون فيها الحدود .

ومع ذلك فان عمليات اطلاق النيران والهجمات على المدنيين الذين يعيشون فى مناطق الحدود أسفرت عن مقتل ١٤١ اسرائيليا واصابة ٨٠٠ آخرين . لقد كانت مواجهة عنيدة ومكلفة .

وكان الملك حسين فى باديء الأمر ، مجرد عامل سلبى فى هذه الحرب ، ولم يذهب الى ابعد من السماح للفلسطينيين بالعمل من الأراضى الأردنية . ولكن سرعان ما استدرج جيشه الى القتال وكان يشترك بصفة مستمرة فى تبادل القصف مع قوات الدفاع الاسرائيلية فى بيت شيعان وأودية الأردن . وفى ظل هذا المناخ الملائم ازدهرت المنظمات الفلسطينية فى الأردن بدرجة كبيرة لدرجة انه فى صيف عام ١٩٧٠ اصبحت قواتها مصدر خوف للملك ، مما كان له ما يبرره ، وخاصة بعد ان جرى اختطاف ثلاث طائرات تجارية وارغمت على الهبوط فى الأردن . وبدا المراقبون المحنكون يتساءلون بصوت عال عما اذا كان الملك حسين ما زال سيدا فى مملكته . وعلى اية حال فان الملك حسين قد مر فى تلك الآونة بتغيير راديكالى فى موقفه تجاه المنظمات الفلسطينية واحتمالات التوصل الى تسوية لمشكلة الشرق الأوسط . ففى شهر يوليو عام ١٩٧٠ اعلن عن قبول مبادرة سلام أمريكية عرفت بمشروع روجرز ، الأمر الذى اعتبره الفلسطينيون صفعة على الوجه . وصرح الملك ايضا فى حديث لصحيفة نيويورك تايمز اجراه « جوزيف كرافت » بأنه يرحب بقبول تغيرات معينة فى حدود عام ١٩٦٧ فى مقابل انسحاب اسرائيلى كامل .

اما فيما يتعلق بالقدس فقد اوضح انه لا يستطيع أن يتخلى عن سيادته على القطاع العربى ، ولكنه قال : انه مستعد للتفكير فى خيار مثل وضع المدينة تحت اشراف دولى .

كان وقع تلك الكلمات على الآذان الفلسطينية يشتم منه رائحة الخيانة. واكد حسين ذلك الشعور باقالة رئيس وزرائه بهجت التلهونى وتعيين عبد المنعم الرفاعى الذى بدأ رئاسته للوزارة باتخاذ اجراءات صارمة ضد الفدائيين الفلسطينيين . وحدثت المواجهة فى شهر سبتمبر عندما استخدمت وحدات الجيش الأردنى قوتها ونفوذها ضد قوات الصاعقة التى تؤيدها سوريا وقوات فتح التابعة لياسر عرفات وبينما استمر القتال ـ الذى هدد فى احدى مراحله بجر سوريا الى جانب الفلسطينيين وكذلك جر اسرائيل الى القتال لدعم الملك حسين ـ توارى مؤيدو الملك فى الأراضى المحتلة بسبب القصص المرعبةالتى كانيرويها المسافرون العائدون منالأردن عن اضطهاد الفلسطينيين . وفى اسرائيل اعرب الناس عن رضائهم علانية عن قيام حسين بذبح الفلسطينيين . ولكن لا احد يستطيع القول بأن هؤلاء الناس كانوا يتصفون بالفطنة السياسية . فربما يكون الملك قد فقد الضفة الغربية. ولكن لم تكن اسرائيل هى التى ظفرت بها ـ بل الذى ظفر بها كانت منظمة التحرير الفلسطينية .

لقد كان للحرب الاهلية المريرة التى حدثت فى سبتمبر عام ١٩٧٠ أثرا اعمق من الضرر الذى لحق بمكانة حسين فى الضفة الغربية فقد اعطت تلك الحرب قوة دفع قوية للتحول فى تفكير السكان هناك وفى صورتهم الذاتية . فبعد اراقة الدماء لم يعد بمقدور الأردن الاستمرار فى ان تكون رمزا « للصدر

الحنون » الذى كانت تمثله لأهالى الأراضى المحتلة ، وفر معظم الفلسطينيين الذين غادروا الضفة الغربية بعد حرب الأيام الستة الى لبنان بحثا عن ملاذ لهم . ولم يكن نظام الحكم فى بيروت سعيدا بذلك ولكنه كان من الضعف بحيث لم يستطع أن يفعل الكثير ازاء نمو المنظمات الفلسطينية على اراضيه (وهو الأمر الذى ادى فى النهاية الى نشوب حرب اهلية اخرى اطول واكثر دموية فى المنطقة) . وفوق ذلك اكدت احداث (ايلول الاسود) بقوة اكبر دعوى منظمة فتح بأن الفلسطينيين ليس لهم مكان يذهبون اليه ، فان لبنان يحاول طردهم وتقوم الأردن بذبحهم . وعلى الرغم من ان العالم العربى بأكمله كان يضج بالاحتجاج الغاضب فان أحدا لم يحرك ساكنا لمساعدتهم . فقد كانت المؤسسة العربية وخاصة الدول الغنية المنتجة للبترول تشعر بتهديد من جراء روح الثورة التى يجلبها معهم الفلسطينيون اينما يذهبون . وقد احجم الملك حسين عن الضرب على التمرد الفلسطينى طالما كان يستطيع السيطرة على ذلك التمرد وتحويله ليخدم اهدافه ، ولكنه فى عام ١٩٧٠ فقد السيطرة ، وبزغ نجم ياسر عرفات ـ الذى كانت الارستقراطية الفلسطينية تعتبره ذات يوم منافسا خطيرا ـ ليصبح المرشح لقيادة التمرد ، بصفته حلا وسطا لا بديل له .

فى المدى البعيد لم تؤد هذه الموجة الأخيرة من اليأس بين الفلسطينيين الا الى دعم قوة فتح ، حيث زاد الاقتناع بفلسفتها المزدوجة التى تنادى بالنضال المسلح والعمل السياسى معا .

ومع ذلك فان الحكومة فى اسرائيل استمرت فى عدم فهم مغزى (ايلول الاسود) . وفى الجيش كنت أسمع المحاضرين يتحدثون عن احتضار النضال الفلسطينى) ، وكنت أعتقد ، للحظات اننى ربما اكون مخطئا فى تفكيرى ، وانه ربما تستطيع سياسة قوية وحازمة أن تسحق فعلا روح شعب بأكمله.

ولكن سرعان ما وقع الزلزال الذى كان له فى الحقيقة دوى ايقظنا جميعا بعنف من سباتنا .

كنت قد سرحت من الجيش قبل شهور قليلة فقط من حرب كيبور . وكنت فى منزلى فى دالية الكرمل عندما نشب القتال يوم ٦ اكتوبر عام ١٩٧٣ . ولم يجتح الذعر القرية ولم تندفع النساء الى (مغارة اليأس) للصلاة ، ولكن دالية الكرمل مثلها مثل بقية اسرائيل أذهلتها الأنباء على الرغم من انه كانت هناك علامات قوية على أن ثمة شيئا على وشك الحدوث . فعلى سبيل المثال ، استدعى جارى (معين) الذى كان صديقا حميما لأخى (وليد) ، للانضمام الى وحدته قبل الحرب بليلة واحدة وقالت لنا والدة (معين) فيما بعد أن زوجها رد على المكالمة التليفونية التى تستدعى ابنها الى قاعدته. واراد والده التحايل على الاستدعاء فقال:ان ابنه قد خرج.وقد لام معين ـ الذى كان يتلقى دورة تدريب للقادة فى ذلك الوقت ، اباه على تلك الكذبة. وقال انه يعد نفسه ليصبح ضابطا فى قوات جيش الدفاع وانه اذا كان الجيش يستدعيه فلابد من ذلك لأنه يحتاج اليه .

وغادر منزله بمجرد جمع حاجياته . ذلك كان الاتجاه المميز فى قريتنا : اختفى الغضب من الحكومة لاهمالها الدروز تماما ، وتوجه الجميع فى شعورهم بالاندماج مع الدولة فى وقت محنتها .

لقد كان كل فرد فى اسرائيل يؤمن حتى بعد ظهر ٦ اكتوبر عام ١٩٧٣ بان اى زعيم عربى لن يجرؤ على اثارة قوات الدفاع الاسرائيلية لما تتمتع به من قوة مخيفة . وكان الوزراء وكبار الضباط شديدى الثقة بالنفس ، وكانت الجماهير تقاسمهم تلك الثقة ، ولقد ظل ذلك الشعور سائدا فى التقارير الأولى التى استمعنا اليها من جبهات القتال ، فقال مراسل التليفزيون الاسرائيلى فى الجولان مؤكدا :

ان مدرعاتنا ــ القبضة الفولاذية لقوات الدفاع الاسرائيلية ــ ستلقن سوريا ثمن وقاحتها . وأظهرت الأيام التالية كيف كان قادتنا مخطئين للغاية فى تقديراتهم . فعلى الجبهة الشمالية ، على سبيل المثال تراجعت القوات الاسرائيلية نتيجة للهجوم السورى واخذت تقاتل من أجل بقاء الدولة ذاته .

وارسلت وحدتى الى الحدود الشمالية مع تعليمات باغلاق الحدود أمام اى متسللين مسلحين ربما يحاولون استغلال الموقف بمهاجمة المراكز المدنية القريبة . وحاربت وحدة درزية أخرى فى مرتفعات الجولان ، وتناثرت مئات من الدروز بين اسلحة الجيش المقاتلة . وفى اليوم الخامس للقتال حصلت وحدتى على دليل بأن هناك مجموعة المخربين قد تسللت الى قطاعنا . واستطعنا معرفة مكانهم بعد بحث قصير وتبادلنا معهم اطلاق النار . وقتلنا منهم اثنين واخذنا ثالثا اسيرا . وقد اعترف أثناء التحقيق معه أنه جندى عراقى انضم الى صفوف فتح وعندما سئل:لماذا اتى للقتال فى هذه الجبهة ؟ اجاب بقوله دون أدنى تردد (لأموت من أجل فلسطين) .

وقد وصلت انباء الى القرى الدرزية حتى قبل انتهاء القتال تفيد بأن الخسائر جسيمة . واسرع السياسيون يذكرون الدروز بأن ذلك هو ثمن (ميثاق الدم) بينهم وبين اليهود ، ومساهمتهم فى الدفاع عن الوطن . ولكن نساء الدروز لم يجدن العزاء فى تلك العبارات المنمقة ، وأعلن الحداد بارتدائهن السواد . وكان الحزن ثقيلا بوجه خاص فى منزل جارنا ، لأن (معين) سقط قتيلا فى المعركة التى نشبت أمام احدى النقاط الاسرائيلية المتطرفة على قمة جبل الشيخ التى استولى عليها العدو . لقد تمزق اربا بينما كان يقوم بتغطية رجل مفرقعات كان يزرع متفجرات فى محاولة لاستعادة الموقع وكان (معين) قد تطوع للقيام بالمهمة .

عندما استرجع التفكير فى تلك الأيام فاننى لا استطيع مقاومة عقد مقارنة بين الحالة النفسية التى سادت فى أعقاب عام ١٩٦٧ وتلك التى سادت فى اعقاب عام ١٩٧٣ .

ففى يونيو عام ١٩٦٧ اجتاحت اسرائيل موجة من السعادة الغامرة وكانت الاناشيد والأغانى تتردد حول العودة الى شرم الشيخ والاستيلاء على ممر متلا كما لو كانت تلك أماكن حملها اليهود فى قلوبهم لمدة الفى عام . اما فى عام ١٩٧٣ فقد بذلت القوات الاسرائيلية جهدها فى صد الجيوش المصرية والسورية المهاجمة وكسبت المعركة بالنقاط على جبهة القتال . ولكن كان الثمن باهظا ، ولم تكن هناك ترانيم تعبر عن البهجة هذه المرة . بل على العكس وقعت البلاد فريسة للحزن لعدة شهور بعد الحرب . وعلى الرغم من كل ذلك فانه من الواضح اننا لم نكسب فى عام ١٩٦٧ ، ربما كسبنا شيئا اكثر اهمية فى عام ١٩٧٣ . لقد تحدثت مؤخرا مع احد كبار ضباط القوات الاسرائيلية الذى يعتقد ان حرب « يوم كيبور » ربما تكون قد انقذت دولة اسرائيل والشعب اليهودى . وقال وهو يشرح وجهة نظره تلك « ان الحرب اعادتنا الى عقولنا وفى الحقيقة فان مصر وسوريا شنتا هجومهما فى الوقت المناسب تماما . فان تأخر ذلك الهجوم ربع ساعة فسيجعل رضا اسرائيل السياسى والعسكرى عن نفسها كبيرا لدرجة اننا كنا سنقع مغشيا علينا . وربما كان شعب اسرائيل منقسما حول افضل سبيل لحل مشكلة الشرق الأوسط ، ولكن بعد عام ١٩٧٣ لم يستطع كثيرون منهم انكار وجود المشكلة الفلسطينية بل ان عدد الذين لا زالوا غير مدركين لمدى خطورة تلك المشكلة اصبح لا يذكر تقريبا .

لم يكن هناك شك فى أن الحرب بددت بعض الأحلام . فعلى سبيل المثال ، ادت الحرب الضروس من أجل الجولان بالاضافة الى جسارة الجيش المصرى وعزمه الأكيد خلال الأيام الأولى من الحرب ، الى تبديد الأساطير الراسخة حول قدرات العرب القتالية . وبعد الحرب مباشرة تحدثت مع ميرون بينفيتشى رئيسى السابق الذى كان يشغل وقتذاك منصب نائب عمدة القدس . وكان يؤمن بأن هناك فائدة ما لتلك الحرب ، فقال : لقد استعاد العرب كبرياءهم ونزل الاسرائيليون المتعجرفون بضع درجات ، وبذلك سنستطيع تبادل الحوار كأنداد لامن مركز قوة أو من عقدة نقص . وتوصل آخرون أقل تفاؤلا الى نتائج مختلفة تماما .

فهم يعتقدون أن فرصة التوصل الى تسوية أصبحت أبعد مما كانت عليه سابقا ، ويقولون : انه اذا كان باستطاعة مصر بناء جيش قوى بهذا الشكل فانه من المحتمل ان يحاول السادات استغلال أضعف فرصة لتدمير اسرائيل .

وبالنسبة لهم فان الدرس الحقيقى المستفاد من الحرب هو ضرورة ان تظل اسرائيل قوية ومتصلبة فى موقفها فى هذا العالم المملوء بالتشاؤم والشك وتصارع القوى .

وبينما أخذت اسرائيل تجتر آلامها خلال شتاء ١٩٧٣ ــ ١٩٧٤ الطويل الذى تميز بالبرودة الشديدة باستمرار جزء كبير من قوات الجيش الاسرائيلى

فى حال تعبئة على خطوط وقف اطلاق النيران ، وبتعرض الاقتصادللمتاعب، كان من الصعب تجاهل الشعور بالتفاؤل الذى ساد الأراضى المحتلة . فعلى اية حال لم يترك الجنود العرب احذيتهم فى الكثبان الرملية حتى يستطيعوا الفرار أسرع كما ان المصريين استطاعوا ان يمزقوا اسطورة « قوة الطيران الاسرائيلى التى لا تقهر » . فحتى طائرات الفانتوم أمكن مواجهتها والتغلب عليها . ومرة اخرى ترددت التكهنات تعلن عن بزوغ عصر جديد من التطور فى العالم العربى على اساس ان تلك الحرب فيها نهاية التخلف الذى طبع ذلك العالم بطابعه فى الماضى .

« ان الأمريكيين يرتبون كل شيء (ففى سنة ١٩٥٦ أرسلوا البريطانيين والفرنسيين ليوجهوا ضربة قاصمة لمصر ، وفى ١٩٦٧ ساعدوكم لضرب المصريين والسوريين وانتم اليوم لديكم بلد كبير للغاية وشعر الأمريكيون بأنه يجب تقليل حجمكم وهكذا قرروا مساعدة المصريين لضربكم » ان الاعتقاد بأن واشنطن تمسك بكافة الخيوط فى الشرق الأوسط ما زال اعتقادا سائدا على نطاق واسع على الرغم من ان الأحداث الأخيرة فى ايران كان يجب ان تنهى هذه النظرية البعيدة الاحتمال . وبدلا من ذلك ، فقد قيل لى ان الخطة الأمريكية الكبرى انما واجهت بضعة « مآزق » هينة فقط .

واضحى مثل هذه المجادلات السياسية اللفظية بمثابة البدعة هنا ، وذلك لمدة محدودة بعد الحرب واستمعت الى كثير من السخف الذى يكفينى بقية حياتى . وسألتنى زميلة صحفية غادرت اسرائيل واستقرت فى فرنسا ـــ ولم تستطع تفهم الحزن الذى اعانيه ، وسألتنى بدهشة :

(هل كنت سعيدا حقا عندما عبرت القوات الاسرائيلية قناة السويس؟ ما الذى يعنيك ؟ ان نصرا مصريا سيؤدى بكل تأكيد الى تقوية مركزك) .

ان اكثر التحاليل سطحية للحرب لا يمكنها الا ان توضح أن لا احد خرج من تلك الحرب وهو اكثر قوة . فان اراقة الدماء ، والفواجع المتبادلة لا تبدو بالنسبة لى من (عوامل التقوية) .

واذا كان احد قد استفاد من الحرب فهم الفلسطينيون . فهم قد عانوا من عام ١٩٦٧ الى ١٩٧٣ على ايدى اسرائيل والدول العربية على حد سواء ، وعشية الحرب كان يبدو ان منظماتهم فى طريقها الى التفكك ثم جاء الزلزال وانقذهم .

لقد خرجت منظمة التحرير الفلسطينية من حرب عام ١٩٧٣ منتصرة بطريق الخطأ ـــ أو لكى نكون أكثر دقة كنتيجة لسوء تقدير الملك حسين الذى لا يصدق.وكان عيزرا فايتسمان وزير الدفاع السابق فى وزارة مناحيم بيجين قد قال لى فى احدى المرات فى غضون الأربعة عشر عاما الماضية ارتكب الحاكم الأردنى ثلاثة أخطاء لا يمكن اصلاحها :

كان الخطأ الفادح الأول فى عام ١٩٦٧ عندما صدق تقارير مصر المتفائلة حول الموقف على الجبهة وقرر دخول الحرب وكان الثمن الفادح الذى دفعه لقاء ذلك الخطأ فى التقدير هو فقد الضفة الغربية ، وفى ١٩٧٣ اخطأ ثانية ولكن على العكس تماما وذلك بالتصميم على عدم الاشتراك فى الحرب ضد اسرائيل كشريك كامل ولانه لم يكن شريكا فى النزاع فان حسين لم يعرض عليه اتفاق لفصل القوات والذى كان سيعنى انسحابا جزئيا للقوات الاسرائيلية من الضفة . وكانت غلطته الثالثة فى رفض دعوة الرئيس انور السادات له بالاشتراك معه فى زيارته التاريخية للقدس فى نوفمبر عام ١٩٧٧ .

وقد استعاد السوريون فى عام ١٩٧٤ مدينة القنيطرة كجزء من اتفاق فصل القوات مع اسرائيل ، وبعد ذلك بعام استعاد المصريون ممرات سيناء كجزء من اتفاق مؤقت تم التوصل اليه عن طريق المفاوضات بين الرئيس السادات وحكومة اسحاق رابين ـــ وخرج حسين وحده صفر اليدين . ولكن خطاه فى ١٩٧٣ كانت له نتائج أخطر بالنسبة للأردن ، فنتيجة لفشله فى القيام بدور نشط فى حرب يوم كيبور تضاءلت الى حد كبير القوة المعنوية لمطالبته بتمثيل الشعب الفلسطينى .

وتستطيع منظمة التحرير الفلسطينية الآن ان تقوم بمحاولتها لفرض هيمنتها بثقة كاملة اذا لم يعد ، بعد حرب عام ١٩٧٣ كثيرون ممن يعترضون على حقها فى التحدث نيابة عن كافة الفلسطينيين ـــ سواء اولئك الذين يعيشون تحت الحكم الاسرائيلى أو أولئك الذين شتتوا فى الدول العربية .

واكتسبت منظمة التحرير الفلسطينية بعد حرب ١٩٧٣ كثيرا من الأنصار حتى بين العرب الاسرائيليين .

وربما يكون صحيحا كما كان يرى فايتسمان أن الملك حسين هو الملوم وحده لفقد الضفة الغربية من الناحية المادية والناحية السياسية . ولكن ذلك لا يعنى أن اسرائيل تخلت عن محاولتها لاشراك الأردن فى البحث عن حل للمشكلة .

ففى شهر يناير عام ١٩٧٤ على سبيل المثال اجتمع ايجال آلون سرا مع الملك حسين فى ميناء العقبة الأردنى على البحر الأحمر . وخلال تلك المحادثات طالب الملك حسين اسرائيل بأن تتنازل عن الضفة الغربية وتعيد (القدس العربية) الى السيادة الأردنية محذرا من انه اذا رفضت اسرائيل الاذعان لمطالبه فانه سيكون مضطرا للاستسلام لمطالب الفلسطينيين . وحاول وسطاء آخرون التوسط بين الجانبين .

وقد اقترح رشاد الشوا عمدة غزة ـــ مشروع اريحا ـــ الذى يدعو اسرائيل الى الانسحاب الى منطقة « أدوميم » مما يضع مدينة اريحا تحت

السيطرة الأردنية مرة اخرى . وكتب الشيخ محمد الجعبرى عمدة الخليل الى الملك معربا عن تأييده الكامل للمشروع . واعلنت اسرائيل انها مستعدة لبحث مقترحات اخرى . ولكن حسينا رفض التزحزح عن موقفه وكان من الممكن التنبؤ بالنتيجة لأن مآل المواقف المتشددة دائما هو حال من الجمود .
وفى شهر اكتوبر عام ١٩٧٤ وضع موشى ديان — الذى لم يعد وزيرا للدفاع ولكنه ما زال عضوا بالكنيست عن حزب العمل — توقيعه على عريضة وزعها حزب ليكود المعارض وكانت العريضة تندد (بعودة يهودا والسامرة الى الحكم الأجنبى) وتطالب بقوة بأن تؤكد اسرائيل (حق اليهود فى الاستيطان فى المنطقة) وعلى الجانب العربى وجد الملك حسين — الذى لم يحقق شيئا لمملكته او للفلسطينيين — نفسه بعيدا عن دائرة الضوء .
وأصبح الطريق الى الرباط مفتوحا على مصراعيه أمام ياسر عرفات وتوصل مؤتمر الرباط الذى عقد فى شهر ديسمبر عام ١٩٧٤ الى عدة قرارات ذات دلالات حاسمة بالنسبة للقضية الفلسطينية وطالبت الوفود المشتركة فى مؤتمر القمة العربى العالم بأسره وعلى قمته الزعماء العرب ، الى اقرار ما يلى:

١ — ان الشعب الفلسطينى له الحق فى العودة الى وطنه ، وفى حق تقرير المصير وفى اسناد السلطة الوطنية الى منظمة التحرير الفلسطينية بصفتها الممثل الوحيد للفلسطينيين .

٢ — ان لمنظمة التحرير الفلسطينية الحق فى تحمل مسئوليتها الوطنية والدولية داخل اطار مسئوليات العالم العربى .

٣ — ان تجتمع الأردن وسوريا ومصر ومنظمة التحرير الفلسطينية للاعداد ووضع صيغة لتنظيم العلاقات فيما بينها .

٤— ليس للدول العربية حق التدخل او اتخاذ قرارات فى موضوعات تتعلق بمستقبل الشعب الفلسطينى .

كان مؤتمر الرباط انتصارا دبلوماسيا ساحقا لمنظمة التحرير الفلسطينية وهزيمة مؤلمة للأردن . وواصل عرفات ، الذى حفزته الانجازات التى حققها فى الرباط ، تدعيم مركزه بعمل اتسم بدرجة عالية من الدراما .
تصادف ان كنت موجودا فى منزل الياس فريج عمدة بيت لحم عندما اذاع تليفزيون الاسرائيلى فيلما عن خطاب عرفات أمام الجمعية العامة للأمم تحدة . لقد لفت مشهد ذلك القائد حامل البندقية انتباه الدبلوماسيين من فة انحاء العالم الذين صفقوا له طويلا وبشدة ، وكان ذلك نصرا ساحقا دى منظمة التحرير الفلسطينية فى الأراضى المحتلة .

بل ان حتى فريج ، الذى كان يعتبر معتدلا ، صفق بيديه فى سرور ا اعلان عرفات العدائى ، أن لشعبه الحق فى العودة الى (فلسطين بية) ودعا عرفات الى اقامة كيان وطنى فلسطينى كأساس لدولة

« علمانية — ديمقراطية » تقام داخل حدود فلسطين ابان فترة الانتداب .
وحذر عرفات من وقوع مواجهة نووية محتملة فى الشرق الأوسط ودعا دول العالم الى « تحرير انفسكم من الصهيونية » .

رأيت بعد يوم من القاء عرفات لخطابه أمام الأمم المتحدة تأثير ذلك الخطاب على سلوك الزعماء المعتدلين فى الضفة الغربية .

فهناك الياس فريج الذى جلس فى مكتبه فى مبنى بلدية بيت لحم كما لو كان فى انتظار وصول مراسلى الصحافة الأجنبية — خاصة مراسلى التليفزيون .

كان مثل رجل تعثرت قدماه بكنز مدفون وكان لايطيق صبرا على ابلاغ المشاهدين فى كافة انحاء العالم برايه .

وكما كان متوقعا وصل مراسلو التليفزيون ووجهوا اليه الأسئلة المناسبة ، وتمهل فريج كما لو كان مترددا فى الرد وصوب نظرة ذات مغزى فى اتجاه المبنى الذى يضم الحكومة العسكرية ، وفكر مليا فى رد فعل الأردن ازاء تعليقاته (وهو شىء هام للغاية بالنسبة له) وكانت اجابته تعكس التقدير المناسب لكل عامل من تلك العوامل وقال : ان الأردن والعالم العربى قد اعترفا بحق عرفات فى تمثيلنا وصفق له العالم بأكمله .

ان هذا يوم هام للغاية بالنسبة للقضية الفلسطينية « ولم استطع من جانبى أن أسمح له ببساطة أن ينعم بنشوة انتصار عرفات فسألته « ما هو من وجهة نظرك مفهوم عرفات للدولة الديمقراطية ؟ فرد فريج على السؤال بابتسامة شيطانية وقال : اننى آمل فقط فى أن تقوم دولة ديمقراطية وعلى أية حال فانكم ، أى العرب الاسرائيليين ، تريدون هذه الدولة أيضا » .

كان فريج يدرك تماما أن أفكار عرفات لن تكون مقبولة من جانب اسرائيل حتى لو كانت تلك « الدولة العلمانية الديمقراطية » ستبنى على على انقاض دولة يهودية .

ان عودة مئات الآلاف من اللاجئين العرب الى اسرائيل سيتضمن طرد مئات الالاف الذين جاءوا الى هناك منذ عام ١٩٤٨ . هل يعتقد احد حقيقة أن هناك اية فرصة لاجراء حوار مع اسرائيل وفق تلك الشروط ؟ وهل يستطيع احد لوم اسرائيل لرفض الفكرة كلية ؟

كانت المشكلة هى أن مثل تلك الأسئلة توحى بوجود استعداد لاجراء حوار عقلانى ، ولكن العقلانية بدت مستحيلة فى فترة ما بعد مؤتمر الرباط .

ولا يستطيع المرء فى تلك الظروف التقليل من الأثر الذى خلفه ظهور عرفات لأول مرة فى الأمم المتحدة على المناخ السياسى فى الأراضى . وادارت الأجيال الشابة ظهرها لكل من ينادى بالاعتدال او الحل الواقعى .

وآثر الشباب الذى واجه سياسة (القبضة القوية) للحكومة العسكرية روح قومية عنيدة ، اللجوء الى الارهاب لمواجهة حركات الاستيطان التى كانت تقوم بها طائفة « جوش ايمونيم » الدينية الاسرائيلية . واستهوت التصريحات الراديكالية قلوب الكثير من الشباب الفلسطينى وذلك لسبب سيط هو ان شوقهم الى بلد مستقل ذى سيادة امتزج بتعطش الى الانتقام لوحشى . وفى الوقت الذى تصاعدت فيه المشاعر ارتفع جدار العداء ين الشعبين ، وفى الحقيقة من الذى يتوقع من اليهود أن يكون رد فعلهم تزنا مثل تلك المشاعر التى عبر عنها الكاتب الفلسطينى المقيم فى بيروت اصر الدين النشاشيبى ؟ وكان « محمود ابو زولف » رئيس تحرير صحيفة القدس) قد عرفنى بالنشاشيبى منذ عامين مضيا فى مكاتب الصحيفة . تذكرت عند مقابلتنا اللهجة الحماسية لبعض فقرات كتابه « بطاقة يارة » المنشور فى بيروت عام ١٩٦٧ .

« فى كل عام تخفق قلوبنا وتردد : سوف نعود ثانية ، سوف نعود ى بلدنا ، نخلع أحذيتنا ثم نربت على ترابها المقدس بأصابع أرجلنا ، وف نملأ أرواحنا بهوائها وأرضها ، نتجول عبر بيارات برتقالها ، ورمالها ائها ، سوف نتبل الحبوب والفاكهة ونستظل بظل اول شجرة نقابلها ارك قبر اول من سقط فى الحرب المقدسة ، نبحث عن وجودنا . أين تنا ؟ فى ميدان القرية ، فى المئذنة ، فى أشجار النخيل الحبيبة ، فى الجدار م فى المبنى الذى احترق دون أن يترك اثرا — ان حياتنا هناك ، اسألوا حبة رمل . من المؤكد انكم مازلتم تذكرون — حيفا — بيسان — حقول اكه الحلوة المذاق والخضروات والناصرة ورنين الأجراس والأرض فى الجزار ، ابراهيم باشا ونابليون والقلعة والقدس وحواريها — محبوبتى س — وطبرية وشواطئها وأمواجها ذات الحواف الذهبية ، المجدل لتى هناك » .

من السهل فهم شوق النشاشيبى لتلك المناظر الضائعة الباهتة ولكن فى العودة ينتهى عند نغمة اخرى تماما عندما يغرس فى أعماق ابنه الثأر .

« لتدع جحيم عام ١٩٤٨ يغرق فى سيل دماء أولئك الذين منعوهم من بلادهم . ان الوطن غال ولكن الثأر ما زال اغلى . اننا سندخل هم فى تل أبيب ونقطعهم اربا بالبلط والبنادق والأيدى والأظافر نان .

الوقت الذى اخترتم فيه الام قبة ودير ياسين وناصر الدين ونغنى لعودة المظفرة والثأر .

وهكذا تجرع الشباب جيدا الرسالة التى كانت توصلها له الكتابات من هذا النوع ، وما أن حل عام ١٩٧٤ حتى زاد النشاط الارهابى مرة اخرى .

وفى نفس الأسبوع الذى بدأت فيه عملى فى تليفزيون اسرائيل ، تسلل الارهابيون الى مدينة كيريات شمونة بالقرب من الحدود اللبنانية واحتجزوا أطفال احدى المدارس كرهائن . واستطاعت القوات الاسرائيلية انقاذ الأطفال ، ثم قامت بعمل انتقامى وذلك بهدم اثنين وعشرين منزلا فى جنوب لبنان والقاء القبض على ثلاثة عشر شابا .

وكان ذلك على ما يبدو بلا جدوى حيث قام الارهابيون بعد وقت قصير بتصعيد عملياتهم وقاموا بمهمة انتحارية فى احدى دور السينما بتل ابيب حيث القى شابان بعبوات ناسفة على الجمهور مما ادى الى اصابة واحد وخمسين شخصا بجروح ، ولكنهما فقدا حياتهما خلال تلك العملية . وهكذا سارت الأمور ضربة وضربة مضادة هجوما وهجوما مضادا — كما لو كان ممكنا بالنسبة للفلسطينيين طرد اسرائيل من الأراضى بمتفجرات مصنوعة فى المنازل او كان ممكنا بالنسبة للقوات الاسرائيلية ضرب الفلسطينيين بالقنابل لاخضاعهم .

اننى أعتقد أحيانا أن الأصوات الشديدة للعبوات المتفجرة جعلتنا نصاب بالصمم حتى لم نعد نسمع صرخة اليأس القادمة من الأراضى المحتلة وتردد صدى الصرخة عبر الجبال والأودية فى هذه الأرض ، ولكننا لم نصغ اليها ، وربما بسبب اليأس أسأنا استخدام قوتنا وذلك بأن مارسناها بعنف. وخلال تلك الأيام الكئيبة من عام ١٩٧٤ جاء صوت ايجال آلون معبرا عن التعقل والمنطق وأوصى آلون الذى كان يشغل منصب وزير الخارجية حينذاك بأن تعود اسرائيل الى « الخيار الأردنى » باعتباره أفضل وسيلة لحل النزاع ، وحذر مواطنيه لكى يتعرفوا على خطورة المشكلة الفلسطينية . ولكن صوت آلون لم يجد آذانا صاغية — كانت صرخة اخرى فى البرارى . بل ان عرضه على المنظمات الفلسطينية التفاوض بشرط أن تعترف بحق اسرائيل فى البقاء لم يحظ حتى بمجرد الرد عليه . وكانت الأراضى المحتلة — تلك الشوكة المغروسة فى جنب اسرائيل — تشتعل من جديد عند اقل شرارة .

كنت أرى ذلك يحدث مرارا وتكرارا منذ عام ١٩٧٤ ، آلافا من الشباب يخرجون الى الشوارع للتظاهر ضد الاحتلال اللانهائى ، وكانت الشعارات الوطنية تلهب حماسهم فيقومون برفع علم « فلسطين » ويسيرون فى شوارع رام الله وهم يهتفون بصوت كالزئير :

« بلادى ، بلادى ، بلادى ، لك حبى وفؤادى . فلسطين يا ارض الفداء » رايت نساء واطفالا فى معسكر العمارى للاجئين يقومون بتحويل

اطارات السيارات الى متاريس مشتعلة ، ورايت فتيات يقمن الحواجز من الحجارة وتقوم فتيات اخريات يخفين وجوههن بكوفياتهن بامطار الجنود الاسرائيليين بوابل من الحجارة . كنت أرى مرارا الشارع الرئيسى فى رام الله مسدودا بعشرات من الاطارات المحترقة وكان الدخان الأسود المتصاعد الى عنان السماء كما لو كان يدعو الشباب للانضمام الى صفوف المتظاهرين بينما النساء كن يقمن بعملية المراقبة من شرفات المنازل لتحذير المتظاهرين من اقتراب الدوريات الاسرائيلية .

كان لدى الحكومة العسكرية اوامر ثابتة بشأن مواجهة مثل تلك المواقف ، وكان يقال للصحفيين ان الجيش ليست لديه نية تفريق المتظاهرين طالما انهم لا يقومون باغلاق الطرق الحيوية وبمنع المواطنين الآخرين من الذهاب الى اعمالهم .

ولكن السياسة شىء والواقع فى الشوارع شىء آخر ، فكان الصبر ينفد فى بعض الأحيان ويقوم الجنود بتفريق الجموع والقاء القبض على المتظاهرين بمساعدة القنابل المسيلة للدموع والهراوات . وكان جنود آخرون يجوبون الشوارع فى سيارات نصف مجنزرة وسيارات الجيب ويحملون معهم اى شخص يعترض طريقهم وكانت فرق خاصة من — اللحامين — تقوم بفتح اقفال المحال المغلقة عنوة .

وفى احدى المرات فى مدينة نابلس رايت مجموعة من الجنود يجرون طفلا يبلغ الثامنة او التاسعة من عمره من شعره وعندما صرخت فيهم — لماذا — ؟ — صدمتنى اجابتهم ربما اكثر من عملهم نفسه (حتى يرى اصدقاؤه ويأخذوا حذرهم) .

وقد بدا فى الآونة الأخيرة أن المتظاهرين أصبحوا يتوقعون بدرجة اكبر الى المواجهة العنيفة مع القوات الاسرائيلية او أصبحوا — على الأقل — اقل خوفا منهم . واتذكر على وجه الخصوص ذلك اليوم الذى اصطحبت فيه الميجور (جنرال دانى مات) منظم الأنشطة فى الأراضى المحتلة فى زيارة مدرسة الطيرة الثانوية فى رام الله . وعندما وصلنا كانت الطرق المؤدية الى المدينة مسدودة بمتاريس من الحجارة وضعت لتوها . وكانت الفتيات اللائى كانت وجوههن مقنعة بالأوشحة مصطفات فى الطريق واخذن يقذفن (مات) ومرافقيه بالحجارة . ورفع احد الضباط بندقيته واطلق طلقة تحذير فى الهواء املا فى تفريقهن ، ولكن الفتيات لم يرتدعن فقام الضابط بتصويب بندقيته مباشرة فى اتجاههن متوعدا فصرخت احدى الطالبات قائلة : (اقتلنى اجعلنى منتهى حورانى اخرى) — مشيرة بذلك الى احدى الفتيات التى لقيت مصرعها خلال المظاهرات التى قامت فى مدينة جنين فى عام ١٩٧٤ . واستمر الجنرال مات الذى كان يتمتع بشخصية مؤثرة فى السير تحت وابل من الأحجار منتصب القامة ومتماسكا وقد اعترف بعد ذلك بقوله :

ان الضابط لا يمكنه ان يتذلل او يتراجع ولكن الحقيقة هى اننى كنت طوال الوقت اختلس النظر الى الفتيات خوفا من ان تصيبنى احداهن) اما ناظرة المدرسة التى كانت ترى ان من واجبها توجيه التعليمات فقط ، فلم يبد انها خافت من تهديدات قائد المنطقة لها بانه سيجعلها مسئولة عن السيطرة على الحماس الوطنى .

لقد اهدرت مئات من ايام العمل فى الضفة الغربية نتيجة للاضرابات والمظاهرات وكان معظم الناس يفضلون حظر التجول الذى تفرضه السلطات عن الاضرابات التى يدعو اليها مواطنوهم وذلك لانه عندما يتم فرض حظر التجول فانهم لن يضطروا الى اتخاذ القرار الحرج حول الاختيارين : ما اذا كان من الأفضل لهم ان يمكثوا فى منازلهم ويخاطروا بالتعرض للعقاب من جانب الاسرائيليين ، أو يذهبوا الى اعمالهم والتعرض لغضب جيرانهم . وكان الأهالى بمجرد اعلان حظر التجول يهرعون الى منازلهم لاغلاق ابوابها ونوافذها فى وجه الجنود الاسرائيليين الذين يقومون بتمشيط الشوارع بحثا عن المشتبه فيهم . وبذلك كانوا يستطيعون التفاخر بانهم وطنيون يرزحون تحت عبء الاحتلال .

وكانت المدينة او القرية تغلق امام الصحفيين كلما فرض حظر التجول ، ومع ذلك ففى مدينة نابلس سمح لى فى احدى المرات بمرافقة قوات الدفاع الاسرائيلية خلال فترة حظر التجول ورايت بنفسى كيف كانت تسير عمليات التفتيش من منزل الى آخر . لم يكن الجنود دائما حريصين فى سلوكهم خلال تلك العمليات ومن المؤكد انهم لم يتورعوا عن اهانة الأهالى أو معاملتهم بخشونة وكان الشخص الذى يعرف اللغة العربية فقط هو الذى يستطيع فهم السباب المقذعة التى كانت النساء يتفوهن بها عندما كان الجنود الاسرائيليون يأخذون معهم أزواجهن وابناءهن واخوانهن . ومضيت أؤدى عملى فى صمت فان الكلام لم يكن مطلوبا . واخذت اصور واسجل ، وشاهد المواطنون ، فى تلك الليلة ، بمنازلهم المريحة فى انحاء اسرائيل ما كان يجرى فى نابلس . وكنت واثقا ان ذلك لم يكن شيئا سارا بالنسبة لهم وكنت واثقا كذلك من ان ما صورته كان يقول لهم أشياء كان يتعين عليهم مواجهتها .

وكان من المؤلم بالنسبة لأى اسرائيلى مشاهدة تدهور العلاقات بين الشعبين اللذين يشاركان ، على مضض ، بعضهم البعض،الحياة فى تلك الأراضى ولكنى كنت أعتقد دائما ان موقفى يجعلنى اكثر عرضة للهجوم من اى شخص آخر . ففى شهر نوفمبر عام ١٩٧٤ عندما ابعد خمسة من زعماء الجبهة الوطنية الفلسطينية ، بما فى ذلك حنا ناصر عميد كلية بيرزيت ، من الضفة الغربية ذهبت الى الكلية لتسجيل رد الفعل ازاء هذا الحدث . وعندما وصلت كانت المشاعر فى حال من الفوران الشديد ، بل ان الطلبة لم يسمحوا حتى بمرورنا عبر الأبواب . والتفت نحوى احد الرفاق اليهود من حركة (دائرة اليسار الجديد) كان من بين المتظاهرين ، وصرخ فى قائلا :

(عربى فاشستى ، لقد بعت نفسك . ان الثورة سوف تتعامل معك) شعرت للحظات اننى افقد السيطرة على نفسى وخشيت ان اضربه بلا وعى. ان ذلك الشخص الديماجوجى ، الوفى فى نظر نفسه ، الذى يثير العنف ضد شعبه ذاته يدعونى « انا » بيهــوذا .

تركت بيرزيت وسرت بعيدا وانا العن اليهود والعرب على حد سواء ويبدو ان الاحباط كان يطاردنى فى كل مكان فى ذلك اليوم . ففى خلال عودتى الى القدس تقابلت مع الحاكم العسكرى للضفة الغربية الذى كان يقــوم بجولة فى المنطقة بصحبة حرس من بوليس الحدود ، الذى تصادف ان رئيسه كان ابن عم لى ، وكان اسمه خليل من دالية الكرمل . وكان من الواضح اننى فى حال نفسية سيئة ، وعندما ابلغتهم بما حدث فى بيرزيت كانت ردودهم نمطية . اذ كانت نصيحة خليل لى هى : انس المسألة يا رفيق ، لاتدع نفسك تتورط . وهنا اضاف الحاكم العسكرى قائلا :

« ان اصدقاءك ، سيتعلمون درسا اليوم » وكان من الواضح ان ما اسماهم بأصدقائى هم المتظاهرون الفلسطينيون .

لو كنت قد استمعت جيدا الى الرسالة التى حملها هؤلاء الطلبــة لاستطعت ان اميز الشعارات التى يطلقها الزعماء الارهابيون والأيديولوجيون مثل نايف حواتمة ، وجورج حبش ، واحمد جبــريل ، فقد كانت العبــارات مثل : الثورة والنضال الشعبى واعادة الكرامة العــربية هى التى تسيطر على هتافاتهم . وكانوا على خلاف مع من هم اقل منهم تعليما ، يميزون بين اليهودية والصهيونية ، مؤكدين أن الدول العربية ليس لها مثيل فى التاريخ من حيث كرمها فى معاملة اليهود ، اما الصهيونية فهم يعتبرونها حركة عنصرية امبريالية هدفها المعلن هو اقامة امبراطورية تمتد من النيل الى الفرات .

ولسبب ما كان لدى شعور بانه من السهل التعامل مع أولئك الشباب الذين كانت آراؤهم اكثر ذكاء من آراء آبائهم وكان هناك بلا شك فى سلوكهم علامات تمرد صحى مراهق كما بدا واضحا من الطريقة التى كانوا يتفاخرون بها عن اعتقالهم . ولكن كانت الأعمدة الحقيقية للمعارضة العنيدة ، هى الزعماء الأكبر سنا الذين لا يقذفون بالحجارة أو يرددون الشــعارات فى الشوارع ، والذين كانوا يتفاوضون احيانا مع السلطات ، ولكنهم كانوا مع ذلك يشعلون نيران العصيان . لقد كانوا رجالا من امثال عبد الجواد صالح ، ودكتور وليد قمحاوى من نابلس وعبد المحسن ابو ميزر من القــدس ، الذين لم يجدوا اى حرج فى ابداء عدائهم تجاه اسرائيل .

كنت جالسا فى احد الايام فى عام ١٩٧٦ فى مقهى زعترا بالقــرب من بوابة دمشق فى القدس العب الطاولة مع أحد مرتادى المقهى بينمــا كنت اصغى فيه الى احاديث الجالسين حولى ، عندما دخل ابو ميزر . وكنت اعرف ابو ميزر منذ اعوام ، وكنت اراه دائما رجلا ذا كبرياء وشــخصية

متماسكة واتذكر جيدا الأحاديث التى كنا نتبادلها حول مستقبل المنطقــة ، عندما كنت اعمل خلالها مع حكومة المدينة . وكان يعتقد آنذاك انه لن يمضى وقت طويل قبل ان تنسحب اسرائيل من الأراضى . ولكن كان من الواضـح ان صبره قد نفد فى عام ١٩٧٦ . ومر بجانبى عندما توقف فجأة،وقال بلهجة ملؤها التأنيب : قل لرؤسائك اننا لن نهدأ حتى يغادر آخر الصــهاينة الأراضى .

اثارتنى لهجته المليئة بالوقاحة الشديدة اكثر من اى شىء آخر ، وطلبت منه الاعتذار عما بدر منه وفى النهاية تطلب الأمر اجراء ــ مصالحة ــ قام بها احد المحررين العرب فى القدس ــ لرأب الصدع بيننا . وكانت الحكومة العسكرية تعرف ان عبد الجواد صالح وأبو ميزر لهما يد فى تنظيم المظاهرات، وقامت فى النهاية ــ وفقا لسياسة ــ القبضة القوية ــ بابعادهما عن الضفة الغربية وانضم ابو ميزر السياسى البليغ والمتحدث اللبق ، الى صــفوف منظمة التحرير الفلسطينية وسرعان ما اصبح واحدا من مفكريها الأيديولوجيين البارزين .

وقد ادى التأثير المتراكم من مثل تلك المواجهات مع الطلبة والزعماء الشعبيين فى الضفة الغربية ، الى ايقاظى من غفلتى . فقد بدات عملى فى التليفزيون الاسرائيلى معتقدا اننى اذا قدمت الحقيقة السافرة عن الحياة فى الأراضى فاننى قد أستطيع حمل الاسرائيليين على ادراك ان تعصــبهم الأعمى للمنطق التقليدى انما كان يقوض بالفعل أمن دولة اسرائيل . وكنت اريد يائسا أن اعتقد أن نقل الأحداث بأمانة قد يستطيع على نحو ما راب الصدع الغائر بين الشعبين ، واحياء الأمل فى احتمال التوصل الى سلام عن طريق الاحترام والاعتراف المتبادلين . وبعد عام من العمل توقفت عن الاعتقاد فى الحلول السهلة وليس فى الحاجة الى ايجاد حل ما لمشــكلة الأراضى على وجه السرعة قبل أن يكتسح التطرف آخر ذرة من الاعتدال على كلا جانبى المتاريس .

الفصل السادس

جيل جديد من الزعمـــاء

مع حلول عام ١٩٧٥ كانت العلاقات بين الحكومة العسكرية واهـالي الاراضى المحتلة على شفا انهيار كامل وانقطعت كافة قنوات الاتصـال ، وسرعان ما اصبح العنف هو الوسيلة الرئيسية للاتصال بين الجانبين . وكان من المحتم أن تترك القوة المتزايدة لمنظمة التحرير الفلسطينية والمناخ العاصف السائد فى الشوارع بصمتها على هيكل القوى فى الضفة الغربية .

والحقيقة انه بحلول عام ١٩٧٦ كانت هناك ثورة بمعنى الكلمة فى القيادة السـياسية المحلية .

كان بزوغ ورسوخ اقدام الطبقة الجديدة من العمد فى الضفة الغربية، عبرة كلاسيكية عن الديناميكيات الدقيقة للاحتلال ، وكيف يمكن لمجموعة مقهورة ، من المفترض انها بلا حول ولا قوة ، أن تتغلب على سلطة حاكمة من المفترض انها تملك قدرة غير محدودة . فالسكان الذين يعيشون تحت الاحتلال يميلون الى التكيف بسرعة مع الظروف الجديدة ويكتسبون درجة عالية من سعة الحيلة بينما حكامهم ، وهم فى هذه الحالة الحكومة العسكرية يتمسكون بافكار واساليب عمل بالية مثلهم فى ذلك مثل الراى العام داخل اسرائيل . ويمكن ارجاع فشل سياسة اسرائيل فى الضفة الغربية ، الى حد كبير الى مثل هذا القصور فى التفكير .

ولو كانت الحكومة الاسرائيلية اكثر فطنة وخيالا من الناحية السياسية فلربما استطاعت السيطرة على الموقف بصورة اكثر براعة . ولكن فى الحقيقة فان الحكومة قامت فعلا بتمهيد الطريق امام مجىء قيادة وطنية قومية فى الضفة الغربية .

وقد واجهت الحكومة العسكرية خلال ثمانية أعوام من الاحتلال موقفا معقدا للغاية حيث كان معظم سكان الأراضى تربطهم رابطة بالمنظمات الارهابية بل ان رجلا مثل الشيخ الجعبرى وهو معارض قوى لمنظمة التحرير الفلسطينية كان له ابن مرتبط بمنظمة فتح .

وقد تصاعدت حدة المظاهرات ـــ سواء كان ذلك كنتيجة مباشرة لتلك

الروابط ام لا ـــ من مجرد تجمعات صغيرة من الراديكاليين الى تدفقات شعبية ضخمة ووجدت الحكومة العسكرية نفسها غير قادرة على الاحتفاظ باللامبالاة فى مواجهة مشهد الاطارات المحترقة ، فدخل الجنود الاسرائيليون ، بعـد انفجار موجة من التحدى للسلطات فى نابلس ، الى مدرسـة قدرى طوقان الثانوية وبداوا فى ضرب التلاميذ فى الفصول . وفى حومة الاحداث ، بـدا الجانبان سلسلة من الأحداث وردود الأحداث ، فاسـتقال مجلس بلدية نابلس احتجاجا على الحادث وحذت حذوه مجالس مدن اخرى وبدا ان كل استقالة كانت بمثابة شرارة تشعل موجة جديدة من الاضطرابات التى سرعان ما امتدت الى الخليل حيث اقتحم الجنود الاسرائيليون مبنى البلدية وذلك اثناء مطاردتهم للمتظاهرين ، والحقوا خسائر ببعض الممتلكات . وانضم الجعبرى الذى اعتبر الحادث تحديا لكرامته الى قائمة العمد المتمردين ـــ على الرغم من ان الشيخ المسن كان حريصا على تأمين خط الرجعة الى منصبه ـــ ودعا الى اجتماع لأعيان المدينة واعلن ، والدموع تملأ عينيه ، انه سوف يذعن لارادة الأهالى وكان من السهل التنبؤ ـــ فى الخليل على الأقل ـــ بنتيجة تلك المسرحية : فقد اثار (الأهالى) ضجة يطالبون بشـدة بعودة عمدتهم وعاد الجعبرى الى منصبه .

وفى البداية كان الافتراض المفضل لدى دوائر الحكومة العسكرية هو ان الشيوعيين وراء موجة الحماس الوطنى ووفقا لذلك المنطق جرى تقديم بشير البرغوثى وهو احد زعماء الحزب الشيوعى فى الأراضى وضابط كبير فى الجبهة الوطنية الفلسطينية الى محاكمة عسكرية فى رام الله ، وغنى عن القول ان الاضطرابات لم تهدأ . بل على العكس فان الجبهة الوطنية اصبحت تشمل كل المنطقة تقريبا ، واثبت جيل الشباب الوطنى الثائر انه قادر تماما على استخدام وسائل الاتصال ، وخاصة الصحف ، لصالحه .

واذا كانت الحكومة الاسرائيلية قد انزعجت نتيجة لتلك التطورات فانه يجب القول بأن منظمة التحرير الفلسطينية لم تكن اقل قلقا ازاء ما يحدث فى الأراضى ، وحاولت استغلال الموقف لأهدافها الخاصة . وصدر قرار من مقر المنظمة فى بيروت بتعيين (مستشار موثوق به) لـكل شخصية هامة فى الأراضى ، يقدم لها النصح ، وهكذا تضمن (استقامة) تصرفاتهم . ان المغزى من وراء ذلك الاجراء لم يكن الخوف من عجز هذه الشخصيات عن التصرف ، بقدر ما كان شكا صحيا له ما يبرره فى أن الزعماء الجدد فى الأراضى اذا ما حصلوا على فرصة ضئيلة ربما اصبحوا مستقلين تماما وربما غطوا على نفوذ منظمة التحرير الفلسطينية ذاتها داخل الأراضى المحتلة .

وكان من الأمور المثيرة للدهشة أن حكومة اسرائيل ، قررت ابان هذه الفترة من الهياج المتصاعد ، اجراء انتخابات العمد فى الأراضى ، وتم تحديد شهر ابريل عام ١٩٧٦ لذلك . وكلما اقترب موعد الانتخابات أصبح واضحا بصورة متزايدة ان هناك جبهة واحدة بدأت تلتحم فى انحـاء مدن الضـفة الغربية . ونجح الشباب واعضاء الجماعات الوطنية القـائمة فى تشـكيل

ما اسموه بالتكتلات الوطنية . وكانت منظمة التحرير قد عارضت خلال انتخابات العمد التى جرت عام ١٩٧٢ ، مثل ذلك النشاط ، بل انها أمرت انصارها بمقاطعة صناديق الانتخاب ، ولكن فى هذه المرة خالفت المنظمة سياستها واعلنت انها تؤيد الكتل الجديدة . وكان بسام الشكعة الوجه الجديد على الساحة السياسية والذى لم يكن حجمه قد عرف بعد ، على راس قائمة المرشحين عن الجبهة الوطنية فى نابلس التى تعد أكبر مدن الضفة الغربية واكثرها نفوذا . واردت أن اتحدث مع الشكعة لأعرف المزيد عنه ، ولكن عندما تحدثت معه تليفونيا لتحديد موعد لاجراء حديث صحفى معه رفض طلبى قائلا : اننى لا افهم الصحافة والى جانب ذلك فان لى تجربة مريرة مع الصحف الاسرائيلية) . ومع ذلك فاننى لم أستسلم بسهولة وحيث اننى لم استطع مقابلته شخصيا فقد وجهت الأسئلة اليه عن طريق التليفون ، كان حديثنا قصيرا ، ولم يبد على الشكعة انه سيكون اكثر ثرثرة فى المستقبل . بدات الحديث معه قائلا : —

— يقول الناس انك تؤيد عرفات ؟

— دعهم يقولون ذلك .

— وانك سوف تكسب الانتخابات لأن عائلة المصرى تؤيدك .

— دعهم يقولون ذلك .

— لماذا تهاجم الحكومة العسكرية بهذا العنف ؟

وكانت اجابته على ذلك السؤال مباشرة وشاملة :

— اعطنى سببا واحدا يدعونى لحب الحكومة العسكرية .

— لماذا لا ترحب باجراء مقابلة مع التليفزيون الاسرائيلى ؟ .

ويبدو ان محدثى المتحفظ شعر عند هذا الحد بأننى قد تماديت كثيرا وقام باغلاق سماعة التليفون .

واثرت محاولات الشكعة للتهرب منى فضولى . لذلك ذهبت الى نابلس واستطعت ان اقابله فى سوق الخضار حيث كان هو وبعض المرشحين الآخرين يقومون بالدعاية . وبدا لى أنه رجل متواضع ، معسول اللسان حلو المعشر . ولكنه بمجرد أن اكتشف من أكون ، تعمد تجاهلى فالتفت نحو الدكتور حاتم ابو غزالة ، احد المرشحين فى قائمة الشكعة الانتخابية ، وكان معروفا بصداقته الشخصية لجورج حبش وشرعت فى محادثته ولكن سرعان ما اتجه الشكعة ناحيتنا وطلب من الدكتور ان يمتنع عن الادلاء بأية تصريحات الى الصحافة .

وكان بسام الشكعة ، قبل الانتخابات ، رجل اعمال ينحدر من عائلة غنية تمتلك مصنعا للصابون فى نابلس وتمتلك عقارات ضخمة ولها كذلك

روابط تجارية واسعة النطاق فى الضفة الغربية وغيرها — ومنذ عام ١٩٥٢ ولزهاء عشرة اعوام كان عضوا فى حزب البعث السورى ولكن اصبحت له بعد ذلك اراء مستقلة وكان قد قام بزيارة مصر فى عام ١٩٥٣ لاعجابه بالثورة المصرية وزعيمها جمال عبد الناصر . وعاد الشكعة الى الضفة الغربية بعد الوحدة بين مصر وسوريا — الجمهورية العربية المتحدة — ولكنه فى عام ١٩٥٩ انتقل ثانية ولكن الى سوريا هذه المرة حيث عاش هناك حتى عام ١٩٦٢ وقد اتم الشكعة تعليمه الثانوى ولكنه لا يستطيع التحدث باية لغة سوى اللغة العربية .

وبسبب اصرارى العنيد وافق الشكعة اخيرا على مقابلتى بشرط الا يظهر على الهواء . وعندما وافقت على ذلك الشرط تحدث بصراحة عن مشاعره كفلسطينى قائلا :

— اننا نملك ارضا فى منطقة نيتانيا — بساتين فاكهة كنا نزرعها قبل عام ١٩٤٨ ، وانا اتوق للعودة اليها . وبدا حتى فى تلك المحادثة الأولى ، انه يلمح الى الطريق الذى سيسلكه فى المستقبل ، فقد اكد لى أن « الزعماء المحليين كانوا — حتى تلك اللحظة — مثل البهلوان الذى يحاول السير بين قطرات المطر دون أن يبتل — بين الأردن واسرائيل . ومنظمة التحرير الفلسطينية والحكومة العسكرية . اننى لست لاعب اكروبات وسأعبر عن ارائى دون خوف ، ومضى يقول « قبل عام ١٩٦٧ ولفترة بعد الحرب رفض كثيرون فى المنطقة قبول دولة اسرائيل كحقيقة من حقائق الحياة . وانا اشك فى ان يظلوا على هذا الراى حتى اليوم » وشعرت بأن ايماءة ما قد خرجت من هذا الحديث مع هذا الرجل الذى من المحتمل ان يصبح العمدة الجديد لمدينة نابلس . وكان الشكعة صريحا فى اعلان ايمانه بالفكر الوطنى الفلسطينى ، ولكن عندما تطرق الحديث الى حلول للمشكلة الفلسطينية تحدث بطريقة عملية عن تقسيم ارض فلسطين التى كانت قائمة خلال الانتداب الفلسطينى الى دولتين .

وتعرضت مدينة الخليل قبل انتخابات عام ١٩٧٦ لفترة من الاضطرابات الخطيرة . وفى الواقع ، فقد انقلبت الأوضاع تماما فى تلك المدينة المعروفة بطبيعتها الدينية المحافظة وبالتقاليد الراسخة ، فقد سحبت تأييدها الذى كانت تمنحه بلا منازع للشيخ الجعبرى . وتصاعد القلق لدى الحكومة العسكرية، عندما برز اسم الدكتور احمد حمزة النتشة ، الماركسى المتعصب ، بمرشح محتمل لمنصب العمدة . وتوسل شيمون بيريز ، وزير الدفاع ، وكبار الضباط فى الحكومة العسكرية الى الشيخ الجعبرى لاعلان ترشيحه . ولكن الرجل العجوز قد رأى الكتابات على الحائط ولم يكن مستعدا للمخاطرة بالتعرض لهوان الهزيمة . ثم استبعد الدكتور النتشة من السباق تماما عندما قررت السلطات فى ٢٧ مارس ١٩٧٦ ابعاده هو والدكتور عبد العزيز الحاج المرشح لمنصب عمدة مدينة البيرة بتهمة التحريض على الاضرابات وتنظيمها . ولم يعد ثمة شك لدى أهالى الخليل فى أن الحكومة العسكرية

تفعل كل ما فى وسعها لتأمين انتخاب الجعبرى . وربما لذلك السبب نفسه، فان أسلوب الأبعاد جاء بنتيجة عكسية . فبعد ازاحة النتشة فقد الذين رشحوا بدلا من الجعبرى اية فرصة كانت لديهم فى الفوز . وقد بذل البروفيسور آمنون كوهين مستشار قائد المنطقة للشئون العربية محاولة اخيرة لاقناع الشيخ نفسه بدخول الانتخابات ولكنه تشبث بموقفه وعندما ادرك كوهين انه فشل فى ذلك ، وجه اهتمامه الى مرشحين آخرين ، وذلك بمساعدة نزيه حجازى ، الموظف فى التليفزيون الاسرائيلى والمقيم فى الخليل الذى اجرى الاتصالات الضرورية له .

كان فهد القواسمة المرشح الذى كانت لديه افضل فرصة للفوز بسبب صلته بالجبهة الوطنية ، رجلا ضـئيل الحجم ولكن الاتزان والثقـة كانـا يشعان منـه .

وكان اجداد القواسمة قد هاجروا الى فلسطين من العراق منذ نحو سبعمائة سنة وتعد عائلة القواسمة الآن فى منطقة الخليل ثانى عائلة بعد عائلة الجعبرى من حيث الحجم والنفوذ . وكان من المحتم ان تمتد المنافسة بين العائلتين الى الساحة السياسية وقد قرر الشيخ محمد الجعبرى بعد ان استشار قلبه وعمل حساباته تاييد البلاط الأردنى بينما كان تأييد عائلة القواسمة الحماسى لمصر معروفا تماما ففى عام ١٩٤٨ ذهب القواسمة الى القاهرة لدراسة العلوم الزراعية ومن يومها لم تعد له حظوة لدى البلاط الملكى فى عمان . وقد عاد الى القاهرة للمرة الثانية بعد عشرين عاما للحصول على درجة الدكتوراه فى العلوم الزراعية ثم عاد الى الخليل فى عام ١٩٧٢ . وقد تركت هاتان الفترتان الطويلتان من الاقامة فى مصر اثرا واضحا على سلوكه الشخصى وميوله بل حتى على اللهجة العربية التى يتحدث بها .

كان القواسمة رجلا انيقا رشيقا لديه استعداد فطرى للتغلب على معارضيه السياسيين والايدلوجيين بالحيلة والذكاء . وقد تقابلت والقواسمة بعد اعلان ترشيحه مباشرة وكانت الحكومة العسكرية قد عينته منذ عودته مديرا لادارة البحوث الزراعية والتنمية فى الضفة الغربية . وكانت علاقته الوطيدة مع الحكومة العسكرية واضحة لتوها . وقد ابدى كذلك فهما عميقا لخصائص الحياة العامة فى اسرائيل وكثيرا ما كان يضرب امثالا من الحياة السياسية الاسرائيلية لتوضيح وجهات نظره .

وعندما سألته على سبيل المثال عن رد فعله ازاء أبعاد الدكتور النتشة اجاب بقوله :

هناك آلاف من الأشخاص فى اسرائيل يعـارضون سياسـات رئيس الوزراء رابين ، هل يحلم احد بابعادهم عن البلاد » ؟

وبالمثل كان راى القواسمة حول موضـوع الاستيطـان اليهودى فى الأراضى آنذاك : « على اى الأحوال ، دعوهم يأتوا الى هنا ويستوطنوا معنا جنبا الى جنب ولكن نحن ايضا لنا مئات الشقق والبسـاتين والأراضى فى

اسرائيل — فى حيفا ويافا ، ونحن مستعدون لاعادة ممتلكاتكم اليكم على شرط ان تعيدوا لنا ممتلكاتنا » وقد اتسمت اجابته حول سؤال عن موقفه من منظمة التحرير الفلسطينية بنفس هذا المنطق والرجاحة الأخاذة فى الراى فقال : ان العالم باسره يعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية بل ان هناك الكثيرين فى اسرائيل ذاتها يعترفون بها . لماذا اذن يتعين على ان اعارضها ؟.

لم يكن القواسمة والشكعة يعرفان بعضهما ، وقد تقابلا لاول مرة بمحض الصدفة فى شهر مارس عام ١٩٧٦ فى احد شوارع القدس ومع ذلك كان هناك تشابه وثيق فى آرائهما : كان القواسمة من مؤيدى مشروع التقسيم الذى اعلنته الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ باعتباره حلا معقولا للنزاع . وعلى الرغم من رايه السلبى فى المستوطنين بكيريات اربع — وهى مستوطنة يهودية جديدة خارج الخليل — الا انه كان يفسر اعتراضه بقوله : « لـو انكم ارسلتم اسرائيليين آخرين غير متعصبين فما كنتم نجحتم فى كسبنا الى جانبكم . اننا متعطشون الى التقدم ولكنكم ارسلتم الينا اشخاصا لايمكننا أن نقيم معهم اية جسور للاتصال » . وعندما ذكرته (بالاثم) الذى ارتكبه هو نفسه باعطاء السكان الأول لكيريات اربع مسكنا مؤقتا فى بارك اوتيل (الذى تمتلكه عائلة القواسمة) خبط راسه بيده واعترف قائلا :

انى اعترف باننى مذنب ، انهم يعاملوننا مثل الأشخاص المتخلفين . ففى عام ١٩٧٥ هاجم المستوطنون احدى مظاهراتنا مستخدمين الكلاب واخذوا يضربوننا بالسياط ويتجولون فى السوق وهم يحملون البنـادق فى ايديهم . بل انهم ارغموا القاضى رجب التميمى تحت تهديد السلاح على هدم حواجز الطرق المقامة من الأحجار ، وتركنى هذا الحوار مع فهد القواسمة وليس لدى ادنى شك فى ان انتخابه سيكون فاتحة عهد جديد فى تـاريخ الخليل تحت الحكم الاسرائيلى .

وكان النجم البازغ فى مدينة حلحول المجاورة هو محمد ملحم ، الشاب الوسيم الذى تلقى تعليما أمريكيا والذى وعد بأن يسلك طريقا جـديدا فى علاقته مع الحكومة العسكرية . وفى رام الله دعمت الانتخابات من مكانة المرشح الوحيد كريم خلف الذى كان نموذجا نمطيا لمجموعة العمد الجدد فى اشياء اخرى كذلك . فقد كان خلف وهو محام ، قد شغل لبعض الوقت منصب المدعى العـام للمنطقة ، وكانت آراؤه الأيديولوجية قريبـة من ايديولوجيات الجبهة الوطنية الفلسطينية والحزب الشيوعى ، على الرغم من انه لم يكن منتميا الى اى منهما .

وكان سريع الغضب متهورا وله ذوق رفيع فى ملابسه مع ميل الى المغامرة مما اكسبه شهرة بأنه انسان مستهتر . ولم يكن «خلف» يلتزم دائما بالحقائق فى الانتقادات اللاذعة والمتكررة التى يوجهها الى اسرائيل . ولكن لا يبدو ان شيئا من تلك النقائص قد قلل من شأنه ، ولقد لعب دورا هاما فى انتخاب ابراهيم الطويل فى مدينة البـيرة الغربية ، وبشـارة داود فى بيت جـالا .

وقد ابرزت انتخابات العمد عام ١٩٧٦ اتجاها كان واضحا فى الاراضى المحتلة منذ عدة سنين . كان معظم المرشحين من الشباب الذين تبنوا اسلوبا سياسيا جديدا وكانوا صرحاء فى تأييدهم لمنظمة التحرير الفلسطينية . وقد ادرك الاسرائيليون المطلعون مغزى هذا التحول . وكانت الصحف قد دابت منذ عدة سنوات على التحذير من تسلل نفوذ منظمة التحرير الفلسطينية الى الأراضى ، بيد ان الحكومة بدت عاجزة عن وقف هذا التسلل . وعندما كان بيريز ، وزير الدفاع ، يقوم بجولة فى قطاع غزة سألته عما اذا كانت الحكومة العسكرية ستسمح لأنصار منظمة التحرير الفلسطينية بخوض الانتخابات فقـال : ــ « هناك انصار المنظمة وانصار حسين وشيوعيون فى الأراضى . ان الانتخابات ستكون ديمقراطية تماما ولن نتدخل الا اذا حضروا الى صناديق الانتخابات حاملين البنادق » .

وكانت الحملة الانتخابية فى عام ١٩٧٦ حملة هائلة جرت بطريقة كان من الصعب تخيلها قبل ذلك . وقد حاولت الحكومة العسكرية حصرها فى نطاق يمكن السيطرة عليه ، وذلك باصدار تحذيرات الى الزعماء المحليين ومنع الملصقات التى تحمل العلم الفلسطينى أو تحمل رسالة تحريض كما قامت بتفريق المظاهرات الشعبية التى تؤيد أنصار منظمة التحرير الفلسطينية. ولكنها كانت معركة خاسرة ذلك ان كل بوصة توافرت على مساحة حائط غطتها الملصقات المؤيدة لمنظمة التحرير الفلسطينية ومرشحيها . ولـم تكن هناك اية كلمة عن الحاجة الى تحسين الخدمات البلدية فى نابلس ورام الله والخليل بل ان الدعاية الانتخابية لم تتناول سوى القضـايا السيـاسية الأشمل .وقد تجاهل ممثلو منظمة التحرير الفلسطينية كافة الممنوعات فى نضالهم من اجل احراز انتصار ساحق على مؤيدى النظام الهاشمى . ففى نابلس خرج مئات من الشباب فى مظاهرات صاخبة فى حى القصبة لاعلان ولائهم لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وفى الخليل خرجت مجموعات التلاميذ الى الشوارع وغطى تلاميذ مدرسة طارق بن زياد الجدران بشعارات تأييد للقواسـمة .

وهكذا ظهرت الشعارات بالخط العريض فوق الحائط ليقراهـا كافة اعضاء القيادة المحنكة ، ووصلهم مغزى الرسالة عاليا وواضحا . وقـال لى حكمت المصرى من نابلس الذى كان فى يوم ما رئيسا للبرلمان الأردنى ، وكأنه ينـوح :

« اذا كان الجعبرى قد سقط فى الخليل فان من الأفضل عدم ذكر كلمة « الاردن » بعد اليوم . حتى انا أؤيد منظمة التحرير الفلسطينية اذ ان بسام الشكعة ، على اى حال ، هو زوج ابنتى » .

كان المعسكر المؤيد للاردن يتحدث بمرارة وبطريقة غير رسمية عن الاهمـال الاسرائيلى الذى سمح لمنظمة التحـرير الفلسطينية باستقطاب

الجماهير ، بل ان بعض النقاد ذهبوا الى حد الزعم بأن الحكومة الاسرائيلية قد سمحت عن عمد بانبثاق القيادة الجديدة من أجل تبرير زعمها بأن :

« ليس أمامنا احد نتكلم معه » وكان مؤيدو حسين مقتنعين بأن الملك وحده يعرف كيف يتعامل مع المتهورين وكان بسام الشكعة فى أعين العناصر المحافظة التى عاشت تحت رعاية حسين اكثر راديكالية من عرفات .

ومع ذلك فمهما كانت الأخطاء التى ارتكبت فانه لايمكن اصلاحها الآن. فقد اكتسحت الجبهات الوطنية المجالس البلدية فى كل الضفة الغربية تاركة الحكومة العسكرية تخوض فى سلسلة من المناقشات المحمومة حول ما يجب عملـه .

وكانت الصيغة الجديدة التى تبنتها وزارة الدفاع والتى تركتها تتسرب الى الصحف ، والتى غلفتها برقة افتقدت اليها فى الواقع ، هى :

انه يجب اشراك ممثلى الشعب فى الأراضى فى اية مفاوضات تجرى للتوصل الى سـلام ، وانه يمكن اعتبار العمـد شخصيات بديلة لمنظمة التحرير الفلسطينية .

ولم يكن ثمة اى اعتراض من حيث المبدأ ، على وجود ممثلين عن السكان المحليين يعترفون علانية بأنهم من انصار منظمة التحرير الفلسطينية ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجلسوا الى مائدة المفاوضات كممثلين رسميين لتلك المنظمة.

بيد انه عندما زال تدريجيا التأثير المذهل للانتخابات بدات الحـكومة الاسرائيلية تدرك أن العمد الجدد لم يكونوا جبهة واحدة كما كانت تعتقد، وحاولت الحكومة العسكرية استغلال خلافاتهم باثارة المنافسة التقليدية بين نابلس والخليل . وعند فحص الأمر بدقة أكبر بدا القواسمة معتدلا نسـبيا وغير مستعد تماما لاحراق كل جسوره مع الأردن ، وقد قام بزيارة الى عمان بعد انتخابه مباشرة وتلقى وعودا بمساعدة ضخمة من أجل تنمية الخليل . وهكذا ووفقا لسيناريو الحكومة العسكرية وبما أمكن استخدام فهد القواسمة عمدة الخليل والياس فريج عمدة بيت لحم ورشاد الشوا عمدة غزة لموازنة العمد الأكثر راديكالية فى السامرة .

واستوعب القواسمة الدور الذى وضعته له السلطات الاسرائيلية ولم يبد انه يعترض عليه . وقد حدث فى احدى المرات عندما كنت مدعوا على العشاء فى منزله انه تعمد كيل المديح للحاكم العسكرى ــ الليفتنانت جنرال يهوشا بن شهال بينما كان يلمح انه يتطلع الى أن يصبح الزعيم غير المتوج للضفة الغربية ــ وكان القواسمة يؤمن بأنه مناسب للدور ، وأنه يملك كافة المتطلبات الضرورية ، فهو مقبول من جانب منظمة التحرير الفلسطينية كما ان الأردن ستؤيد محاولته لتولى القيادة وان اسرائيل مهتمة كذلك بمناصرته

كرد على امثال بسام الشكعة ، وكان يبدو وكأن العمدة الجديد تداعبه فكرة انه افضل الرجال من وجهة نظر الجميع .

ونمت صداقتى الشخصية الوثيقة مع فهد القواسمة عبر السنين وكنت معجبا به لأسباب كثيرة ليس اقلها اعجابى بقدراته واخلاصه فى تصريحاته تاييدا للسلام والتقارب . ولذلك سررت عندما علمت ان دوائر معينة فى الحكومة العسكرية قد اصبحت ايضا تعجب به ولنفس الاسباب تقريبا . وقد اثبت القواسمة انه بارع فى التلاعب بالعناصر المتصارعة وكان حريصا دائما على الا يسد امام نفسه الخيارات المختلفة . وعلى الرغم من ان ولائه لمنظمة التحرير الفلسطينية ليس محل نقاش ، الا انه ابلغنى اكثر من مرة انه لن يتردد فى قطع علاقاته مع المنظمة ، اذا ما توقف عرفات عن خدمة مصالح الفلسطينيين الحقيقية . وربما تكون رسالة مماثلة قد تسربت الى الحكومة العسكرية . فعلى الرغم من ان علاقة العمدة بمنظمة التحرير الفلسطينية كانت معروفة تماما لدى السلطات فان احدا لم يكن يعتبر ذلك عائقا امام تنمية علاقة ذكية فعالة معه (ولو عدنا بذاكرتنا الى الوراء لنتأمل تلك الفترة لأدركنا ان حالة التسامح تلك انما كانت بمثابة احد اعراض (شهر العسل) ، لأنه عندما ساءت علاقات القواسمة مع الحكومة العسكرية وتم ابعاده فى شهر مايو عام ١٩٨٠ كان احد الاسباب الرئيسية التى ذكرت تبريرا لنفيه هو علاقته بمنظمة التحرير الفلسطينية) .

وسرعان ما ادرك بسام الشكعة من الموقع الممتاز الذى يحتله فى نابلس نية الحكومة العسكرية فى تمزيق التحالف بين العمد الجدد ، وعلى العكس من القواسمة اختار الشكعة النضال بدلا من الاغراق فى الأوهام وفى شهر اغسطس لعام ١٩٧٦ عندما قررت السلطات الاسرائيلية فرض الضريبة التصاعدية الاسرائيلية فى الأراضى المحتلة اعلنت نابلس ، مدينة التجار ورجال الصناعة ، اضرابا عاما استمر لمدة خمسة عشر يوما ، وتحول الاضراب الذى تزعم فيه الشكعة مجتمع رجال الأعمال فى تحديهم للسلطات الاسرائيلية تحول الى نضال سياسى كلاسيكى . وابرز الشكعة فى خطاب وجهه الى ناخبيه الدلالات الشريرة للاجراء الاسرائيلى معلنا « ان فرض الضريبة التصاعدية اخطر من تقسيم اسرائيل » وفى الوقت الذى امتدت فيه السنة لهب الثورة الى طولكرم وجنين وعنابته ورام الله ، بدا ان الزعامة الجديدة فى السامرة بدات حركتها التى طال انتظارها . وبقى على الحكومة العسكرية ان ترد .

كان الحاكم العسكرى لنابلس مصمما على انهاء الاضراب وتحطيم الهيبة الشخصية للعمدة باذلاله ، ولكن عندما تحدث احد الضباط مع الشكعة تليفونيا وامره بأن يمثل امام مقر الحكومة العسكرية اجابه الشكعة بغضب (اذا اراد الحاكم ان يرانى فليأت الى هنا) وبهدوء وبثقة مضى الحاكم فى تنفيذ ما يريده ، فقام فى المساء بارسال عربة قيادة محملة بالجنود الى منزل العمدة

وفى هذه المرة وافق الشكعة على الحضور . وفرك العاملون فى مقر الحاكم العسكرى ايديهم فى سرور وهم يعلقون على ذلك بقولهم له :

— لقد قلنا لك هذا . ان هذه هى اللغة الوحيدة التى يفهمها .

كان اللقاء بين العمدة والحاكم العسكرى لنابلس لقاء متوترا وصارما فقد اتهم الحاكم العسكرى الشكعة بالتحريض على الاضراب وطلب منه اتخاذ الاجراءات الكفيلة بانهائه على الفور وزعم الشكعة فى معرض دفاعه عن نفسه — وفى شىء من الدهاء — ان الاوامر قد صدرت اليه بأن يقتصر عمله على المسائل البلدية وليست لديه اية نية فى التدخل فى الموضوعات السياسية .

لم تكن نتائج المواجهة حاسمة — فيما عدا انها اوضحت انه لن يكون هناك تعاون بين الرجلين المسئولين عن ادارة المدينة . وبالاضافة الى ذلك فان الحكومة العسكرية كان باستطاعتها — قياسا بمسلك الشكعة — ان تتوقع حدوث مواجهات مع آخرين من بين العمد الجدد .

لم يمض وقت طويل حتى دخل فهد القواسمة المعسكر الراديكالى وبدات الشروخ تظهر فى واجهة الود السائد بينه وبين الحكومة العسكرية . وكان مصدر هذا التوتر هو وقوع خلاف مع المستوطنين اليهود فى كريات اربع الواقعة خارج الخليل مباشرة . فقد صمم المستوطنون على اعادة الوجود اليهودى بصفة دائمة الى قلب الخليل وصمم القواسمة بنفس القدر على الا يكون هو اول عمدة يسمح للاسرائيليين بالاستيطان داخل نطاق سلطته . وقاد المستوطنون حملة من اجل طرد العمدة واظهروه باعتباره عدوا لدودا لاسرائيل (ووفقا للقانون الأردنى الذى كان مطبقا فى الأراضى كان القائد العسكرى للمنطقة يملك حق عزل العمدة) . وبدات خطوط المعركة تتضح وتعلم عمدة الخليل انه ليس من السهل ان يكون افضل الرجال من وجهة نظر الجميع .

تحول القواسمة الذى اصابه اليأس فى النهاية من انتهاج خط معتدل نحو زملائه الأكثر راديكالية فى الشمال ، ولكن الحكومة العسكرية لم تكن هى وحدها التى يحدوها الشعور بالقلق ازاء الموجة المتزايدة من التطرف . فلقد اصبح الملك حسين وياسر عرفات يشعران بالقلق ازاء الاستقلال البين لزعماء الضفة الغربية — وخاصة عمدتى نابلس ورام الله — وحاولا وقف نمو زعامة محلية ربما يأتى اليوم الذى تهزأ فيه من سلطة المنظمات الفلسطينية . ان السياسات فى الشرق الأوسط لا تخلق فقط علاقات وثيقة بين الغرباء ولكنها تؤدى ايضا الى انقلابات غريبة فى المواقف السياسية . ففى عام ١٩٧٨ قام عرفات بزيارة الملك حسين وبعد ذلك بقليل اجتمع فاروق قدومى رئيس الدائرة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية مع محمد ملحم

عمدة حلحول وحاول اقناعه بأن من مصلحة كافة الاطراف المعنية تهدئة العاصفة التى تجتاح الأراضى المحتلة .

اذا كان زعماء منظمة التحرير الفلسطينية قد شعروا بالقلق ازاء فقد سيطرتهم الراسخة على مجريات الأحداث فى الضفة الغربية ، فان شعورهم هذا قد جاء متأخرا اكثر من اللازم . ففى اول اكتوبر عام ١٩٧٨ تحدث معى محمد ملحم تليفونيا وابلغنى ان كافة العناصر السياسية فى جميع انحاء الضفة الغربية ستجتمع بعد ظهر ذلك اليوم فى بيت حانينة ، ولم يطلعنى على اية تفاصيل . وطلب منى ان احتفظ بسرية تلك المعلومات فى الوقت الراهن خوفا من ان تتدخل السلطات وتمنع عقد الاجتماع . وعندما اجتمعوا فى مبنى اتحاد العمال فى بيت حانينة قرر المجتمعون اقامة هيئة جديدة يطلق عليها اسم لجنة الارشاد القومى (يجب عدم الخلط بينها وبين اللجنة التى تكونت تحت نفس الاسم فى القدس عام ١٩٦٧) وكان هدفها المعلن هو امداد السكان بالخطوط العريضة للتعامل مع السلطات الاسرائيلية . ومن اجل الحصول على أعرض قاعدة ممكنة من التأييد الشعبى لمنظمتهم الجديدة ، وجه المحركون الأوائل الذين نظموا الاجتماع الدعوة الى ممثلين من كافة مستويات المجتمع وكافة الأحزاب السياسية فى الأراضى . وكان واضحا من الترتيب العام للجنة الجديدة ان هدف المجتمعين هو اعطاء دفعة للحوار بين المملكة الهاشمية ومنظمة التحرير الفلسطينية . وفى الحقيقة فان عرفات الذى كان فى الجزائر لحضور جنازة الرئيس هوارى بومدين ، أنهى زيارته بمجرد وصول انباء ذلك التطور اليه وسافر الى عمان مباشرة آملا فى ان يعيد الأمور الى نصابها مرة اخرى .

وبينما كان الاجتماع منعقدا كنت انتظر خارج مبنى اتحاد العمال على امل الحصول على بعض المعلومات وكنت اعلم أن تشكيل اللجنة سيكشف الكثير عنها . وعندما حصلت اخيرا على بعض التفاصيل حول البناء التنظيمى ادركت ان لجنة الارشاد القومى كانت تعكس بدرجة أساسية المناخ الجديد السائد فى الضفة الغربية . فقد تم تقسيم الضفة الغربية الى ثلاث مناطق فرعية على اساس جغرافى وتم توزيع مقاعد اللجنة على هذا الأساس . ومثل القطاع الشمالى بسام الشكعة ، عمدة نابلس ، ووليد حمد الله ، عمدة عنابته ، وحلمى حنون ، عمدة طولكرم ومثل القطاع الأوسط كريم خلف ، عمدة رام الله ، وابراهيم الطويل ، عمدة البيرة ، وبشارة داود ، عمدة بيت جالا وسميحة هلال ممثلة التنظيمات النسائية . اما المنطقة الجنوبية فقد مثلها فهد القواسمة ومحمد ملحم من الخليل وحلحول على التوالى . كذلك اشترك فى اللجنة ممثلون عن اتحادات العمال ، ومنظمات الطلبة وثلاث صحف هى : الشعب والفجر والطليعة . وكان هناك ممثلون عن قطاع غزة وهما زهير الريس المحامى والدكتور حيدر عبد الشافى رئيس الهلال الأحمر . وعلى الرغم من وجود بعض المؤيدين لحسين بين اعضاء اللجنة فقد بدا انهم مجرد مجموعة رمزية .

وعكست اللجنة المحركة للمنظمة الجديدة بالمثل صورة للاحزاب السياسية فى الأراضى . فقد كانت تتكون من كريم خلف ممثلا عن الجبهة الديمقراطية وبسام الشكعة كمعبر عن حزب البعث ومؤيد ايضا لجبهة النضال العربى بزعامة احمد عبد الرحيم ، والدكتور حيدر عبد الشافى كمؤيد للجبهة الوطنية لتحرير فلسطين بزعامة جورج حبش ، وفهد القواسمة كمؤيد لمنظمة فتح بزعامة عرفات ، وكشخصية يمكن من خلالها ايضا الابقاء على حوار مع الملك حسين . وانشأت اللجنة فروعا فى كافة المدن الكبرى فى الضفة الغربية وعينت العناصر المحلية النشطة لادارة شئونها .

واصبح واضحا بمرور الوقت ان اجتماعين عقدا قبل انشاء لجنة الارشاد القومى بوقت قصير ، قد لعبا دورا اساسيا فى تكوينها . ففى يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٧٨ اجتمع عدد من الاكاديميين والشخصيات العامة فى القدس وتوصلوا الى نتيجة مؤداها « انه لايمكن التوصل الى سلام دائم فى هذه المنطقة دون تأكيد السيادة الفلسطينية ـ العربية على القدس ، والضفة الغربية وقطاع غزة تحت زعامة منظمة التحرير الفلسطينية ، الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى » .

وشمل الموقعون على ذلك الاعلان عددا من الشخصيات البارزة التى لم توقع من قبل قط بأسمائها على مثل تلك الاعلانات الواضحة ـ وكان من اهم تلك الشخصيات : انور نسيبة ، وزير الدفاع السابق فى الحكومة الأردنية . وكان أحد منظمى ذلك الاجتماع ابراهيم الدقاق الذى كان على صلة بالشيوعيين والذى كان ايضا من بين منظمى اجتماع اول اكتوبر فى بيت حانينة ـ اما الاجتماع الآخر فهو الاجتماع الذى عقده الحزب الشيوعى فى سبتمبر عام ١٩٧٨ وأسفر عن نشر وثيقة تعبر عن موقفه يطالب فيها باقامة دولة فلسطينية مستقلة فى الضفة الغربية وقطاع غزة وفقا لحدود ٤ يونيو عام ١٩٦٧ .

ولم تتسرع الحكومة العسكرية فى اتخاذ قرار فسمحت للجنة الجديدة بالعمل حتى ترى الى أين ستمضى . الا ان القراءة المتأنية للبيان الرسمى الذى نشر عقب الاجتماع التأسيسى لم تترك ادنى شك فى الشكل السياسى للجنة . فقد اعلنت الوثيقة « ان السلام لا يمكن أن يتحقق دون انسحاب اسرائيلى كامل من الأراضى العربية المحتلة ودون اعطاء الفلسطينيين حق العودة الى وطنهم وتقرير مستقبلهم واقامة دولة مستقلة فى بلدهم ووطنهم تكون القدس عاصمتها .

والأمر المثير للدهشة هو أن مؤسسى لجنة الارشاد القومى قد تجاهلوا تماما عند اعلان تلك الصيغة الأحداث المثيرة التى وقعت فى المنطقة قبل ذلك بعام . ففى نوفمبر عام ١٩٧٧ اتخذ الرئيس المصرى السادات خطوته التاريخية بزيارة القدس وبدأ حوارا قصد منه وضع مصر واسرائيل على

طريق معاهدة سلام رسمية . وقام السادات بوضع اكليل من الزهور على قبر الجندى المجهول الاسرائيلى وقام بتحية ذكرى ستة ملايين من ضحايا الهولوكست واضعا بذلك اساسا للمصالحة واحترام المشاعر . وملأ الأمل قلوب محبى السلام فى المنطقة واعتبروا هذا العمل الشجاع بمثابة انفراج لا يمكن الغاؤه ، ولكن اولئك الذين اقاموا فيما بعد لجنة الارشاد القومى نظروا بتشاؤم الى عملية السلام الاسرائيلية ــ المصرية وذلك على الرغم من ان بعض زعماء الضفة الغربية قد تورطوا ، على ما يبدو ، فى تأييد سياسة لم يكونوا سعداء بها تماما . وقد اعترف لى فهد القواسمة بأن السادات ربما يكون يضر بمصلحة الفلسطينيين الآن ولكن من المؤكد أن زيارته ستكون مفيدة بالنسبة لنا على المدى البعيد » .

وقد قمت بتغطية زيارة السادات بانفعال لم استطع اخفاءه وشعرت بيداى ترتعشان وانا اقوم بتصويره أثناء ادائه الصلاة فى المسجد الاقصى وتأثرت من مشهد رجال الأمن المصريين والاسرائيليين وهم يعملون فى توافق . وخلال تلك الأيام الثلاثة المشحونة بالمشاعر ساعدت ايضا زميلا من شبكة التليفزيون المصرى بأن دبرت له الاجتماع مع فهد القواسمة فى مكتب العمدة فى الخليل ، ووافق القواسمة على التحدث مع المصريين ولكنه رفض الظهور أمام الكاميرات مفسرا ذلك بلهجته المصرية :

« انك تريد ان تصورنى بوساطة عاملين فى التليفزيون الاسرائيلى ثم تقوم بتحميض الفيلم فى معاملهم لاظهارى أمام شعبكم بمظهر من يؤيدهم » .

ولكن كان بسام الشكعة وكريم خلف اكثر وضوحا فى موقفهما حيث قاما بشجب زيارة السادات من البداية . وخشيت من رد الفعل هذا لان الفلسطينيين سيجعلون الفرصة تفلت من بين ايديهم مرة اخرى . وفى شوارع رام الله اندفع الناس الى الشوارع فى سعادة تلقائية غامرة ازاء وصول السادات واعربوا صراحة عن نواياهم الطيبة تجاه الرئيس المصرى ، ولكن زعماءهم حرصوا على الالتزام بموقف المعارضة المتشددة .

ومضى عام بين زيارة الرئيس السادات وتشكيل لجنة الارشاد القومى. وخلال ذلك العام ادى مؤتمر كامب ديفيد الى وضع اسرائيل ومصر على الطريق الصحيح للتوصل الى اتفاقية سلام . وكان رد الفعل السريع للجنة الجديدة هو القيام بسلسلة من الاعمال التى تهدف فقط الى الانتقاص من ذلك الانجاز ، واضعاف فرص تنفيذ اتفاقيات كامب ديفيد . وكان التفاهم الذى تم التوصل اليه فى كامب ديفيد موجها بوضوح الى حل المشكلة الفلسطينية على ثلاث مراحل على أن يتم فى ظرف ٥ سنوات من تحقيق المرحلة الأولى : منح « الحكم الذاتى الكامل » لسكان الضفة الغربية وغزة وبمجرد اقامة (سلطة الحكم الذاتى) ــ المجلس الادارى ــ فان المفاوضات ستجرى لتقرير الوضع النهائى للضفة الغربية وغزة .. وعقد معاهدة سلام بين اسرائيل والأردن فى نهاية الفترة الانتقالية .

وحددت الاتفاقيات ان الأطراف التى ستشارك فى تلك المفاوضات هى : « مصر ، واسرائيل والأردن وممثلو السكان فى الضفة الغربية وغزة » ــ وكان ذلك بكل الوضوح هو المحك . فبالاضافة الى اعادة الأردن الى الصورة باعتبارها طرفا شرعيا فى المفاوضات فان اتفاقيات كامب ديفيد قد حصرت منظمة التحرير الفلسطينية بالفعل فى عبارة شرطية هى « ان وفود مصر والأردن ربما تشمل فلسطينيين من الضفة الغربية وغزة او فلسطينيين آخرين وفقا للاتفاق المتبادل الذى يتم التوصل اليه » .

وقد اوضحت اسرائيل فى مناسبات لا تحصى انها لن توافق قط على الجلوس والتفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية . وهكذا وبغض النظر عن فوائد اتفاقيات كامب ديفيد بالنسبة لسكان الأراضى المحتلة فان لجنة الارشاد القومى لم ترغب فى أن يكون لها ضلع فيها .

واتضح التأييد الشعبى للجنة الجديدة بما لا يدع مجالا للشك عندما تجمع ، بعد وقت قصير من انشائها ، ثلاثة آلاف شخص ــ من بينهم شخصيات معروفة بتأييدها للأردن مثل حكمت المصرى ــ فى نابلس للقيام بمظاهرة احتجاج عاصفة . وحملت سيارات الاتوبيس المتظاهرين من كافة انحاء الضفة الغربية بما فى ذلك طلبة من بيرزيت ، ورام الله وبيت لحم . وقد قدموا عرضا مؤثرا حيث قوبل العمد بتصفيق مدو وبتصاعد الحماس أخذ الآلاف يرددون صيحات المعركة لمنظمة التحرير الفلسطينية واخذت الجموع تلوح بالاعلام الفلسطينية المصنوعة فى المنازل . وشعر الاسرائيليون الذين كانوا يشاهدون المظاهرة بالانزعاج ، على اقل تقدير وسمعت المصور الذى يرافقنى يتمتم بصوت مشوب بالذعر : « اين نحن ؟ لماذا لا يوجد اثر للحكومة العسكرية هنا ؟ » .

وعندما اتجه بسام الشكعة نحو المنصة ران الصمت على الجماهير واعتلى المنصة ووقف والعلم الفلسطينى على يمينه وخريطة لفلسطين تمتد من الأردن الى البحر المتوسط على يساره ، ودعا الفلسطينيين الى بذل اقصى وسعهم لاحباط اتفاقيات كامب ديفيد . وكانت الحشود تنفجر مرددة الهتافات فى كل مرة يذكر فيها اسم منظمة التحرير الفلسطينية . ويتبعه فهد القواسمة بالسخرية من الولايات المتحدة ، وبذل كريم خلف جل جهده فى محاولة لاثارة الجماهير وذلك باقتباس ابيات من قصيدة لكمال ناصر الذى قتل خلال عملية قامت بها القوات الاسرائيلية فى بيروت : « اخى اللاجىء .. لا تيأس .. ان العودة الى وطننا واجب مقدس ، العودة الى تلال يافا والقدس » .

وذكرت فى تقريرى المسجل عن الحادث ، انه بالرغم من ان المظاهرة حدثت على بعد مئات الياردات فقط من مقر الحاكم العسكرى ، فان الاسرائيليين الموجودين شعروا كما لو كانوا فى بيروت او دمشق . وبعد اذاعة التقرير مباشرة بدأ الاستوديو يتلقى مكالمات من مواطنين غاضبين

وهدد بعض المتكلمين بقتلى ، ولكن معظم الكلمات اعربت فقط عن الغضب ازاء قيام التليفزيون الاسرائيلى باذاعة مثل (هذه الدعاية عن منظمة التحرير الفلسطينية) .وقد رد مدير التليفزيون شخصيا على الكلمات قائلا : ان واجب الصحفى الاول هو نقل الأحداث سواء وجدها المشاهدون مستساغة ام لا .

وعلى الرغم من انطباعات اولئك الذين كانوا فى مسرح الاحداث فان الحكومة العسكرية لم تكن غير مبالية بالمظاهرة . ففى رام الله على سبيل المثال قام الحاكم فيما بعد باستدعاء كريم خلف الى مكتبه وطلب منه تقديم تفسير لعباراته الملتهبة .

وانكر خلف اية نية فى اثارة الجماهير واحتج قائلا انه تحدث بالفعل عن السلام ولكن رفيق حلبى قام بنقل اقواله فى غير سياقها . وعندما سمعت بذلك اتصلت بخلف وطلبت منه انا الآخر تقديم ايضاح لى ولم يفعل العمدة شيئا سوى ان ابتسم فى خبث وقال وهو يضحك : « لو لم تكن موجودا هناك لكنت بحثت عن شخص آخر لألومه » . وفكرت انه على الأقل كانت لديه الشجاعة ليكون امينا معى .

واستمرت الاحتجاجات متأثرة بالمظاهرة التى قامت فى نابلس ، فقامت مظاهرات اخرى فى بيرزيت وبيت لحم وكانت كل مظاهرة تحمل رسالة واضحة تفيد بأن المعارضة صلبة لعملية السلام الاسرائيلية — المصرية . ويبدو أن سكان الأراضى قد اسكرهم احساس جديد بالقوة نتيجة لسلسلة الانتصارات غير الدموية التى حققوها. وسرعان ما اصبحوا يهزاون بالحكومة العسكرية لضعفها . وقد قال لى ابراهيم الطويل عمدة مدينة البيرة متفاخرا خلال احد لقاءاتنا « اننا نحن وليس اسرائيل ، الذين ندير الأراضى المحتلة » .

وكانت منظمة التحرير الفلسطينية تقوم فى الوقت نفسه بمراقبة نمو الشعور فى الضفة الغربية بانزعاج متزايد . وخوفا على مصالحها الخاصة استمرت المنظمة فى تعيين « مستشارين » ليكونوا كالظل لقيادة لجنة الارشاد القومى . ولكن تلك المراقبة لم تكن ذات قيمة — او على الأقل فانها لم تمنع اللجنة فى ابريل لعام ١٩٧٩ من شجب الحوار الأردنى — الفلسطينى . بل ان اللجنة حاولت تنظيم انقلاب يمنحها السيطرة على شركة كهرباء القدس الشرقية واخراج مديرى الشركة المؤيدين للأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية . وقد تم استدعاء انور نسيبة رئيس مجلس الادارة الى الاردن وتلقى مباركة لجنة مشتركة من الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية ونجح مؤقتا فى احباط مناورة « جبهة الرفض » فى لجنة الارشاد القومى . ولكن تلك المكائد اتت ثمارها ، فبعد ذلك بوقت قصير اجرى عرفات اتصالات برشاد الشوا وحكمت المصرى وفهد القواسمة على امل التوصل معهم لتحالف يؤدى الى ابعاد خلف والشكعة .

ولكن الرد كان صفعة وجهها كثير من سكان المناطق المحتلة لياسر عرفات حيث طلبوا منه بوضوح تام الكف عن التدخل فى الشئون الداخلية للأراضى والاقتصار على تمثيل الفلسطينيين امام العالم .

وكان يبدو بحسب الظواهر ان التوترات داخل الحركة الفلسطينية تقدم لاسرائيل فرصة الايقاع بين الفصائل المختلفة الممثلة داخل لجنة الارشاد القومى . ولكن الأحداث فى الأراضى ومسلك حكومة مناحم بيجين ادتا الى توحيد سكان الضفة الغربية اذ ان الغضب الذى اشتعل نتيجة بناء مستوطنة آلون موريه قلب كافة التنبؤات .

وقد استغرقت مسالة مستوطنة آلون موريه عدة شهور، بل فى الواقع عدة سنوات، حيث ترجع جذورها الى فترة حكم اسحاق رابين غير ان المسالة بلغت الذروة فى النصف الأخير من عام ١٩٧٩ بعد ان انتقلت اول مجموعة من المستوطنين الى شمال قرية رجيب العربية الواقعة على بعد ثلاثة اميال ونصف من نابلس . وكان من المقرر ان يتم بناء المستوطنة ذاتها على ارض مملوكة للدولة ولكن الحكومة قامت بمصادرة بعض الأراضى الزراعية المملوكة لفلاحين من قرية رجيب وذلك لفتح طريق للوصول الى المستوطنة . وفى حركة مفاجئة قام فلاحو القرية باقامة دعوى امام (المحكمة الاسرائيلية العليا) وكسبوا الدعوى . وقبل ان تنتهى المسالة كانت اصداؤها قد انتشرت الى ابعد من القرية وتخطت مجرد كونها تساؤلا حول اين تستقر احدى المجموعات الاستيطانية . وكانت مستوطنة آلون موريه عاملا اساسيا فى دعم الراديكالية فى انحاء الضفة الغربية .

وبعد عشرة ايام من وصول المستوطنين الى آلون موريه فى يوم ١٧ يونيو عام ١٩٧٩ قام بسام الشكعة بأول تحرك له ساعيا الى قيادة مسيرة احتجاج شعبية تبدأ من نابلس الى قرية رجيب غير انه لم يذهب بعيدا . فقد اقام الجنود الاسرائيليون حاجزا بجانب مبنى البلدية حيث اوقفوا زحف طابور المتظاهرين الطويل . وبتصاعد التوتر على طول الخط الذى يفصل الجنود عن المتظاهرين بدا الخوف يساور الشكعة من ان تتحول المظاهرة الى حمام دم ، فاكتفى بتقديم احتجاج الى الحكومة العسكرية ثم حول الجموع الى مبنى البلدية حيث القى خطابا ملتهبا قال فيه ان الاحتجاج يجب الا يتوقف عند حد الالتماسات وانه لابد من عمل كل ما فى الامكان لهدم المستوطنة فى رجيب . وفهم بعض الشباب من الجموع ان كلماته تعنى الدعوة الى العنف ، وشرعوا فى مواجهة الجنود الاسرائيليين وهم يرددون صيحات : (الله اكبر وفلسطين بلدنا) واجبرت القنابل المسيلة للدموع والهراوات الشباب على التراجع وتفرقت المظاهرة .

وقد كان الأثر المباشر لذلك الحادث هو ان بسام الشكعة اصبح الزعيم بلا منازع للجنة الارشاد القومى . بل ان المعتدلين فى الضفة الغربية اصبحوا يؤيدونه ، وعندما ذهب الى عمان لاعلان تعهده بالتعاون

مع الأردن ، لم يجد الملك حسين مفرا من ان يعامله معاملة تليق بمسئول كبير. وفى الحقيقة فان الشكعة اثبت انه اكثر من مجرد (بريق خاطف) فى السماء الفلسطينية وقد بلغت مكانته الذروة بعد المواجهة الشهيرة بينه وبين الميجور جنرال (دانى مات) منسق الأنشطة فى الأراضى المحتلة .

وفى شهر نوفمبر عام ١٩٧٩ ، اى بعد أسابيع قليلة من اصدار المحكمة العليا حكمها فى صالح المدعين من قرية رجيب والذى يرغم مجموعة آلون موريه على اخلاء المستوطنة طلب مات من الشكعة الاجتماع به فى جلسة عمل روتينية . وكان قائد الضفة الغربية البريجادير جنرال بنجامين ابن اليعازر خارج البلاد فى ذلك الوقت وحاول نائبه اثناء (مات) عن مقابلة العمدة لأن الشكعة كان يبدو فى قمة قوته وشعبيته ، ولكن (مات) لم يتراجع واستدعى الشكعة الى مكتبه .

وكما كان متوقعا ، فى ضوء المناخ السائد فان الرجلين اشتركا فى مناقشة حيوية تخللتها عبارات سخرية متبادلة . وتحدث الشكعة عن الحلقة المفرغة من العنف فى المنطقة وحذر قائلا انه :

« طالما واصلت اسرائيل الاعتداء على لبنان والفلسطينيين فانه ستكون هناك اعمال مقاومة فلسطينية ضد اسرائيل » .

وعندما سأل مات العمدة عما اذا كان يرى فرقا بين قاتل سياسى والرجال الذين ينتظرون المثول امام المحكمة لقتلهم تسعة وعشرون من المدنيين الأبرياء فى سيارة اتوبيس على الطريق الساحلى فى مارس عام ١٩٧٨ اجاب الشكعة بقوله « ان الرجال الذين اشتركوا فى حادث الطريق الساحلى فعلوا ما فعلوه بسبب الاحتلال ، ولأنهم يريدون استقلالهم بل انه حتى القانون الدولى يغفر لهم ذلك ويعتبرهم اسرى حرب » .

وسأله مات متحديا (وهل توافق انت على ذلك) ؟

ورد الشكعة قائلا : « لا ، اننى لا اوافق على القاء طفل فى النار ، ان ذلك مبالغة ولكنى لم اكن هناك ولا استطيع القول عما اذا كان ذلك هو ما حدث حقيقة » .

وقال مات ان الارهابيين قد تفاخروا بذلك فى المحكمة ورد عليه الشكعة قائلا : وفقا لما سمعته ، فانهم فعلوا ذلك بدافع من الشعور بالواجب لأنهم كانوا يريدون اطلاق سراح أشقائهم . واذا كانت مثل هذه الأحداث تقع فان ذلك يعتبر مجرد رد على اعمال اخرى . انظر الى اسرائيل ، انها بلد ترد بوحشية فى جنوب لبنان ، على سبيل المثال وطالما استمر الاحتلال واعمال القتل فانك تستطيع ان تتوقع احداث كثيرة مثل تلك .

وواصل مات ضغطه على العمدة كما لو كان يحاول الحصول منه على اعتراف فسأله : وانت هل توافق على ما فعلوه ؟

واجاب الشكعة بقوله : « اننى افترض ان هناك فرصة لأن تسفر تلك الأعمال عن نتائج بسبب الموقف الذى نعيش فيه . وطالما تنكر دولة اسرائيل حقوق الشعب الفلسطينى وتتبنى سياسة القوة فلا ريب فى انها ستؤدى الى ردود فعل من ذلك النوع » .

لقد تسربت تفاصيل هذا الحوار الى الصحف واثار كما كان متوقعا احتجاجا عنيفا . وعندما زرت الشكعة لمعرفة رد فعله قال لى فى لهجة مندهشة انه لم يتعاطف قط مع العمل الارهابى على الطريق الساحلى ، والأكثر من ذلك أعرب عن شكه فى ان يكون هناك دافع ابعد وراء افشاء ما دار فى الاجتماع لأنه كما أشار « هذه هى المرة الأولى التى يقوم فيها الجيش بتسريب تفاصيل محادثة سرية وخاصة بين رجل عسكرى وعمدة من الأراضى » .

وفى ٨ نوفمبر عام ١٩٧٩ ذهبت الى نابلس ثانية وطلبت من العمدة اجراء حديث معه ، وفى هذه المرة وافق الشكعة على طلبى فورا .

كان يشعر بالعاصفة الدائرة حوله وكان يعرف انه من الأفضل له ان يدلي بروايته حول ما دار فى اجتماعه مع الجنرال مات — وعلى وجه السرعة . وبعد لقائنا اجتمع الشكعة مع أعيان نابلس ودعا كذلك عمد الضفة الغربية الآخرين الى حضور الاجتماع .

وحضر ذلك الاجتماع عدد من العمد على الرغم من حظر الحكومة العسكرية القاطع لمثل تلك الاجتماعات مما يعتبر دليلا على مشاعر العداوة العالقة فى الجو وعلى التحدى الشجاع الذى تبديه الزعامة فى الضفة الغربية . ان الشكعة لم ينكر قط معارضته القوية للاحتلال ، بل انه قد هاجم « الدولة الصهيونية » ولكنه الآن يبذل كل قوته لاقناع الجميع بأنه ، بالرغم من تفهمه لدوافع الرجال الذين ارتكبوا حادث الطريق الساحلى لم يعرب قط عن تأييده للعمل .

وكان البرنامج التسجيلى الذى اعددته يتضمن فيلما عن الاجتماع الشعبى ومقتطفات من احاديثى مع الشكعة وكريم خلف عمدة رام الله . ولدهشتى الشديدة الغى مدير هيئة التليفزيون الخبر على اساس ان تليفزيون دولة اسرائيل ليس موجودا ليكون منبرا للذين يوافقون على قتل الأطفال اليهود .

وحاولت اقناعه بأنه فهم الخبر من جانب واحد وأن الشكعة قد كذب بشدة التصريحات التى نسبت اليه فى الصحف وان اى صحفى يحترم نفسه

من واجبه ان يوفر طريق الخلاص لرجل يزعم انه قد اسيء فهمه والا فاننا سنكون كمن يوافق على الحكم فى القضايا بناء على الأقاويل ٠٠وكنت اعرف طوال الوقت اننا نناقش شيئا أكثر من مجرد أسلوب معالجة قضية الشكمة فان القضية الهامة هى كيف يكون شكل تغطية تليفزيون اسرائيل لاحداث الأراضى المحتلة . واصر مدير التليفزيون على موقفه ولم يذع التقرير قط ، ولكن زملائى فى ادارة الأنباء ولجنة صحفيى التليفزيون وافقوا بالاجماع على اظلام شاشة التليفزيون طوال المدة التى كان سيستغرقها ارسال البرنامج كاحتجاج على قرار المدير .

واعتقد على المستوى الشخصى الضيق انه كان يمكن اعتبار تلك التجربة انتصارا من نوع ما . فقد ابرزت تساؤلات حول دور ومسئوليات الصحافة المرئية ولا تعد مثل هذه الموضوعات أشياء تافهة — خاصة فى بلد مثل اسرائيل التى يدمن شعبها الأنباء (تذاع النشرة الاخبارية المسائية فى وسط أوقات الذروة فى المشاهدة) . ولكن لم يكن ذلك قط ما كنت اسعى الى تحقيقه . فمن وجهة نظرى فقد تم تحويل الانتباه عن المسألة الأساسية عن طريق فتح جبهة جديدة وبدلا من حمل الجمهور على التفكير فى مدلولات (صفعة الشكمة) فان هذا الجمهور وقع فى شراك مناقشة حول ما اذا كان يمكن او لا يمكن السماح للسيد الشكمة بالدخول الى حجرات معيشتهم من خلال شاشات التليفزيون .

وكنت ارى ان مثل هذه المناقشات لم تكن لتغير شيئا من الموقف الخطير فى الأراضى .

وفى الوقت نفسه ظلت كرة الثلج تتضخم حتى قررت الحكومة الاسرائيلية ، بناء على توصية الجيش ، ابعاد عمدة نابلس وتم اعتقال الشكمة تمهيدا لتنفيذ قرار الابعاد . واستمرت تتفاقم وتتصاعد الى ان قدم كل عمد الضفة الغربية استقالاتهم معبرين عن احتجاجهم ومرة أخرى نجحت الحكومة العسكرية فى خلق الوحدة حيث فشلت جهود الجميع من قبل — بدءا من منظمة التحرير الفلسطينية التى تعمل من خارج الأراضى الى العمد انفسهم . وبدأت المسيرة الحتمية تتجه الى نابلس وضمت فى هذه المرة رجالا مثل رشاد الشوا بل وحتى الياس فريج الذى كان — بوجه عام — معتدلا قويم الخلق . وتوهجت لجنة الارشاد القومى بالانتصار ، وتحولت شوارع المدينة الى مرجل من الجنون الوطنى . وتساءل العمد المتجمعون فى ادانتهم (للحكم الاسرائيلى الاستبدادى) . لماذا لم يبعد الحاخام مائير كاهان واتباعه بسبب حملة التحريض التى يقودونها ، ولحثهم على طرد العرب من الأراضى ؟ .

رفع بسام الشكمة دعوى ضد قرار الابعاد وتم تحويل الموضوع الى محكمة الدعاوى العسكرية . وفى ذلك الوقت عاد قائد الضفة الغربية الى اسرائيل واستشعر ان عددا قليلا من الأشخاص قد بداوا يغيرون رأيهم حول

الموضوع . فقد بدا عيزرا فايتسمان ، وزير الدفاع ، الذى ايد قرار الابعاد فى اول الأمر والذى حصل على تأييد رئيس الوزراء ايضا — بدا يخشى ان يكون لذلك الموضوع تأثير عكسى على عملية السلام . وحاول الشوا والقواسمة وفريج التوسط بين فايتسمان والشكمة دون جدوى .

واتضح حينئذ ان وزارة الدفاع كانت تبحث عن طريق لا يريق ماء وجهها ، وتقرر انه اذا قدم العمدة اعتذارا علنيا فان امر الابعاد سيلغى . ولكن الشكمة الذى امده التأييد الجماعى بالشجاعة لم يكن مستعدا ليلعب دور النادم ، وطلب اعطائه فرصة ليشرح دوافعه امام اللجنة العسكرية للدعاوى . ولحسن الحظ فان القانون السارى فى الضفة الغربية كان يسمح للقائد العسكرى بالغاء امر الابعاد واستخدم فايتسمان هذا الشرط كباب للهروب . وكان السيناريو يقتضى ان يوصى الجنرال بن اليعازر بانهاء المسألة ثم قام فايتسمان بطريقة شكلية متعمدة ، بعرض توصية القائد على اللجنة الوزارية لشئون الأمن التى وافقت بدورها عليه والغت قرار الابعاد . وفى الوقت نفسه قررت اللجنة العسكرية للدعاوى أن الشكمة لم يدل بالتصريحات التى نسبت اليه فى الصحف ولم يخلف الحادث شيئا سوى الضجيج .

فى يوم ٥ نوفمبر عام ١٩٧٩ ذهب بسام الشكمة الى مكتب الجنرال اليعازر . وكان الحديث المتبادل بينهما قصيرا ورسميا ، بدأه اليعازر بقوله « اتمنى لك أطيب التمنيات وعودة مثمرة الى العمل ، وآمل فى الا يكون لأحداث الأيام القليلة الماضية تأثير عكسى عليك ، وعليك ان تقصر عملك مستقبلا على شئون البلدية والا تتورط فى مسائل سياسية » . ورد عليه الشكمة بقوله « شكرا يا سيدى ، وأنا أعرف دوركم فى هذا الموضوع وانا اشكرك ثانية عليه » وعندما قال تلك الكلمات جاشت عيناه بالعاطفة ثم غادر الشكمة مكتب اليعازر متوجها الى منزله حيث كان فى استقباله ناخبوه بمشاعرهم الفياضة .

كان المشهد فى نابلس يسوده الهرج والمرج حيث كان الآلاف فى انتظار عودة زعيمهم الشجاع . وعندما وصل الشكمة بدأت الجموع فى الاحاطة به ووصلت الجماهير الى حالة من الهستيريا حيث حملوه على اكتافهم الى باب منزله ، وقال لى ابراهيم الطويل وهو يمتع عينيه بالمشهد : اننى سعيد اليوم لأن الشكمة تعرض للقبض عليه . ان الوصول الى هذه الوحدة الجماهيرية والابتهاج كان سيستغرق منا ثلاثة أعوام من الكفاح . اننا نستطيع أن نقول اليوم اننا انتصرنا » . وعندما لمحنى الشكمة من على بعد نادانى من وسط الجموع وعانقنى بحرارة ، ثم أعلن أمام عمدتى البيرة والخليل عن الاكتشاف المذهل الذى توصل اليه : ان لك أقارب فى سجن الرملة ! ثم انفجر من الضحك بسرور . ولكنى لم اكن انا نفسى مسرورا ، أولا لأن عناق الشكمة لى سجلته عدسات عدد من المصورين الاخباريين واضطررت بعد ذلك الى تعقبهم ومطالبتهم بعدم نشر الصور ، فقد كان

موقفى محفوفا بالمخاطر بما فيه الكفاية دون نشر صورة رفيق حلبى بين احضان بسام الشكعة لاثارة الجناح المتطرف ، اما فيما يتعلق « باقاربى فى سجن الرملة » فلم اكن واثقا مما اذا كان يقصد بذلك الحراس ام السجناء، فان عددا من اقاربى كانوا يعملون كحراس فى عدد من السجون الاسرائيلية. ولكن على ما اتذكر كان هناك بعض من افـراد اسرة الحلبى من مرتفعات الجولان من بين السجناء . وعلى اية حال ولتتويج اليوم الملىء بالاحـداث غير العادية قام الشكعة الذى تملكه الانفعال بدعوتنا الى وليمة حقيقية احتفالا باطلاق سراحه ودعا العاملين فى التليفزيون الاسرائيلى ليكونوا بين ضـيوفه .

ولم اره فى مثل تلك الروح العالية سواء قبل ذلك او بعده .

لقد انقذ بسام الشكعة مرتين من مصير الابعاد اولها عندما سـار فى مظاهرة ضد مستوطنة الون موريه ثم بسبب مناقشته مع دانى مات والتى جرت كنتيجة لذلك الحادث . والآن وبعد ان تراجعت الحكومة العسـكرية عن موقفها فان عمدة نابلس اصبح اكبر من مجرد شخصية محلية ، واكبر من مجرد شخصية وطنية لقد اصبح رمزا وقوة يحسب حسابها فى الضفة الغربية . كان الشكعة يؤمن بأن هناك صلة مباشرة بين موضوع آلون موريه وتفجر الشعور الوطنى فى الأراضى . ولكننى لم استطع قبول رايه بأن الزيادة السريعة فى الاستيطان اليهودى فى المناطق ذات الكثافة السـكانية العالية فى الضفة الغربية هى السبب الوحيد للانفجار الذى وقع فى الضفة الغربية . فعلى اية حال فقد كانت هناك مظاهرات لا تحصى قبل موضـوع مستوطنة الون موريه . وقد امتزج الغضب الشعبى الذى فجرته مسالة المستوطنة مع توجيهات منظمة التحرير الفلسطينية ، والحالة المعنـوية العالية للسكان ، لخلق الظروف المثالية لاشعال نيران الاحتجاج .

وبعد مسالة الون موريه فان اى زعم بأن الحياة العادية يمكن ان تستمر فى الضفة الغربية لم يكن سوى تفكير مبنى على الهوى .

ان الحكومة العسكرية ربما تكون قادرة على ادارة الشئون العـامة باللجوء الى اصدار المراسيم واستعمال العنف ولكنها لا تستطيع ان تتوقع الحصول على تعاون السكان المحليين وزعمائهم وقد تحدث معى الحـاج معزوز المصرى العمدة السابق لمدينة نابلس فى شوق الى (الأيام الماضية الجميلة) وقال متحسرا انه « فى عهد ديان ما كان ذلك ليحدث » . وربمـا يكون محقا فان ديانكان سيقوم بلا شك بجولات فى المدن ويقابل الزعماء المحليين ويسيطر على الاسرائيليين الذين يعيشون فى الأراضى .

ولكن كان من الصعب الاعتقاد بان اى شخص يمكن أن يتقدم بمفرده الآن ويتعامل مع الموقف مثل ما كان ديان يفعل عندما كان يلاطف ويمـازح الزعامات المحلية التقليدية ولكن الزعماء من امثال بسام الشكعة هم نوع

مختلف من الرجال — متشددون لا يلينون وعنيدون — وعلى اسرائيل انتتعلم مواجهة الأشياء كما هى وليس كما كانت تحب ان تكون عليه .

وكنت مع بسام الشكعة عندما كان فى القمة ، عندما اشتعلت الجموع المجنونة فرحا بعودته . وفى يوم ١٨ يونيو عام ١٩٨٠ رايته فى اســوا لحظات حياته ، فقد انفجرت عبوات ناسفة فى سيارة الشكعة وكريم خلف مما ادى الى اصابة العمدتين .

وعندما قمت بزيارة خلف فى مستشفى رام الله ذكرنى متعمدا :

« لقد اخبرتك بأنهم سوف يحاولون الخلاص منا . انهم يعارضـون السلام ويعارضون ايضا اى شخص يقف ضد اتفاقيات كامب ديفيـد » . واتجهت الى نابلس يخالجنى شعور بالاسى ازاء هذا الهول ومشـاعر الكراهية المتزايدة وطلبت مقابلة الشكعة الذى كان يصارع الموت . طلب الشكعة من اطبائه السماح لى بالدخول ولكن بدون آلة التصـوير ، وعندما سالته (لمـاذا) ؟ اجاب بمرارة : « ان الاسرائيليين قد اصابونى ولن اسمح لاى شخص بالشماتة لمنظرى وقدماى مبتورتين » . اصابتنى الرجفـة وانا احاول اقناعه بأن هناك مئات الالوف فى اسرائيل الذين يعارضون اراءه الا ان الهجوم على حياته روعهم . ولكننى كنت استطيع ان ارى انه كان مصمما على رايه .

وكانت الحجرة التى يرقد فيها الشكعة لا توحى بثقة كبيرة . فان المعدات الطبية كانت قليلة وقديمة . وحاولت اقناعه بالانتقال الى مستشفى الهداسـا فى القدس مؤكدا له انه سـيلقى هناك افضـل رعاية طبيـة ممكنه . ومرة اخرى رفض العمدة قائلا : — ليس فى اسرائيل . اننى لن احط من قدر اطبـاء نابلس . اننى فى حال افضـل هنا بين اهلى . لو ذهبت الى هناك فان الالاف من نابلس والضفة الغربية سوف يتدفقون على المستشفى وسيؤدى ذلك فقط الى اثارة مزيد من الاحتكاك والمشـاكل غير الضرورية .

واعرب الميجور جنرال دانى مات عن صدمته واسفه عند سـماعه بنبأ الهجوم على العمدتين . ووصف الجنرال بن اليعازر الحادث بأنه حادث مؤسف وشرير . وقال انه يخشى ان يؤدى الحادث الى تدمير اية فرصـة لاعادة السلام والهدوء الى المنطقة . وهو ما حدث بالفعل ، ذلك لان الهجوم على عمدتى الضفة الغربية وجه ضربة قاضية لصورة اسرائيل فى الأراضى . واستمر البحث عن مرتكبى الحـادث ، ولكن لم يتم القبض على احـد حتى الآن .

وفى الحقيقة فان تأكيد مستر بيجين بأن كثيرا من قضايا القتل فى أنحاء العالم لم تحل قط هو تعليق ليس فيه اى سلوان . والأسوأ من ذلك ان

الاقتراحات القائلة بأن المجرمين ربما يكونون من العرب قد اثارت غضب السكان فى الأراضى الذين ما زالوا يؤمنون بأن الهاربين من العدالة يختفون بين المستوطنين فى الضفة الغربية .

ورجعت الى الأستوديو فى ذلك اليوم وانا اشعر بانهيار . والشىء الذى لم اكن اعلمه هو ان الكابوس بالنسبة لى قد بدا لتوه . فبعد اذاعة الفيلم التسجيلى الذى اعددته بدأ الأستوديو يتلقى مكالمات تليفونية تهدد بأن « اليوم الشكعة ، وغدا رفيق حلبى » . كذلك تلقت زوجتى وابنتى الكبرى رسائل مماثلة . وبالطبع لم تكن تلك المرة الأولى التى نتعرض فيها للتهديد .

فقد حدث خلال موضوع مستوطنة الون موريه ان ايقظنى بوليس القدس فى الساعة الثانية صباحا ليحذرنى بأن لديهم ما يدعوهم الى الاعتقاد باننى فى خطر . وعرضوا على وضع سيارة داورية خارج العمارة التى أسكن فيها ولكننى رفضت عرضهم على الرغم من اننى وعدت ان اكون حذرا وأن اقوم بالابلاغ عن اى شىء مريب الاحظه . وفى اليوم التالى نشرت الصحف ان منظمة تطلق على نفسها (الذراع العسكرى لجماعة جوش امونيم) قد اخذت على عاتقها مسئولية تنفيذ حكم الاعدام الذى اصدرته ضدى — محكمة ثورة — ولسبب ما لم استطع اخذ هذا الأمر مأخذ الجد .

ولكن فى هذه المرة ، لم اكن بتلك الشجاعة ازاء تهديدات القتل وقام موظفو الأمن فى محطة التليفزيون بتعيين حارس شخصى يلازمنى وامرونى بألا أبقى فى المنزل فى الليل. وتم وضع سيارتى تحت حراسة خاصة فى موقف تابع للاستوديو . واضطررت الى استخدام التاكسى فى تنقلاتى . وظللت بلا نوم ليالى كثيرة لأننى كنت اقضى كل ليلة فى منزل صديق مختلف . وعندما وصلت انباء الجحيم الذى أعيش فيه الى الصحافة ، انهالت على عروض بالمساعدة والتشجيع والتأييد ، حتى هدأ خوفى فى النهاية وبدا يتخلله شعور بالعرفان بالجميل وشعرت اكثر من ذى قبل بارتباطى بالمهمة التى شعرت بها فى عام ١٩٧٤ عندما بدات هذا العمل .

ونصحنى بعض الأصدقاء — أصدقاء حميمون ، محبون ، يهتمون بى حقيقة ويخافون على — بأن اترك عملى وابتعد عن دائرة الضوء ولكن بعد ان فكرت فى الأمر مليا عرفت اننى لا استطيع ان اهرب من المعركة .

اننى لست من الطينة المصنوع منها الأبطال وانه سيكون محض تظاهر بالشجاعة ان اقول اننى لم اكن خائفا حقيقة . فما زلت حتى الآن اقوم تلقائيا بفحص بئر السلم والباب الأمامى لشقتى وسيارتى كما لو كنت اعمل لدى جورج سميلى بدلا من يوسف لبيد .

ولكن الذعر ليس شعورا بالخوف فحسب بل انه يثير ايضا الشعور بالغضب وهذا الشعور الاخير هو ما كنت اتعلق به عندما كانت الأمور تصل الى احلك درجاتها . لقد كنت ومازلت مقتنعا باننى بخدمتى للصحافة الحرة الموضوعية فاننى اخدم مصالح بلدى وسكان الأراضى . وهكذا صمدت فى وجه تلك العاصفة — وعلى نحو ما زلت صامدا حتى الآن — ولم احاول ان اطيل التفكير فيها وفى الحقيقة فان الاستسلام للعاصفة كان سيصبح امرا مميتا .

الفصل السابع

النضال من اجل الخليل

ربما تكون مسألة ايلون موريه — التى سأعود الى تناولها فيما بعد على هذه الصفحات قد سببت تغيرا فى الممارسات السياسية الداخلية الخاصة بالضفة الغربية بدرجة أكبر من التغيير الذى أحدثته فى خريطة المستوطنات فى الأراضى المحتلة ، بيد أنها لم تكن أول ، أو حتى أكبر ، عملية استيطان يهودى تتم فى منطقة كثيفة السكان . ومن هذا المنطلق فليس هناك وجه للمقارنة بظاهرة (كريات أربع) الواقعة خارج الخليل تماما ، والتى تعتبر أكبر المستوطنات اليهودية اكتظاظا بالسكان فى الضفة الغربية وأقرب هذه المستوطنات الى الكيان الحضرى المتكامل .

واذا كان من الممكن ان نصف شيئا ما بأنه هو محك التعايش العربى — اليهودى فى الأراضى المحتلة ، فان ذلك الشىء سيكون هو خبرة الثلاثة عشر عاما الماضية فى الخليل — وهذا هو السبب فى ان الموضوع يستحق فحصا دقيقا .

ان تاريخ الاستيطان اليهودى الحديث فى الخليل لم يكن أبدا تاريخا سعيدا ففى موجة أعمال العنف التى كانت أشبه بالمذبحة والتى اجتاحت فلسطين عام ١٩٢٩ كان الثمن الذى تم دفعه فى الخليل هو افدح الأثمان على الاطلاق : — فقد تم قتل ٦٧ من يهود المدينة البالغ عددهم سبعمائة شخص ، كما اصيب ستون آخرون حيث اقتحم مثيرو الشغب المنازل ، ودمروا الممتلكات بوحشية وانتهكوا قدسية المعابد ومحتوياتها . وبعد ذلك بسبعة أعوام ، وخلال الاضطرابات المدنية التى فجرت الثورة العربية فيما بين ١٩٣٦ ، و ١٩٣٩ ، قام مسئولو الانتداب البريطانى باخلاء بقية يهود الخليل ، تاركين المدينة خالية من اليهود بصفة أساسية وذلك على مدى الثلاثين عاما التالية — وفى ضوء هذا التاريخ المشين ، فان سكان الخليل كان لديهم سبب قوى للخوف من قيام الجيش الاسرائيلى المنتصر فى عام ١٩٦٧ بأعمال انتقامية ضدهم . وبينما لم يحدث شىء من هذا القبيل، فانه بعد اشهر قليلة فقط ، وبالتحديد فى ربيع عام ١٩٦٨ ، فوجىء سكان الخليل بحدوث أمر كان أبعد ما يكون عن توقعاتهم ، فقد وصلت مجموعة

من العائلات اليهودية واعلنت عن اعتزامها تجديد الوجود اليهودى فى الخليل .

ان الدعوة الى اعادة التوطن فى منطقة الخليل يمكن ان نرجعها الى الأيام التالية مباشرة لحرب الأيام الستة . فعلى الرغم من ان اسرائيل كانت تعتقد ان الأراضى المحتلة سرعان ما سيتم اعادتها للدول العربية ، الا ان الحزب القومى الدينى طالب بأن تسمح الحكومة التى يتزعمها حزب العمل بأن يتوطن اليهود فى الخليل وفى المنطقة المعروفة باسم منطقة « اتزيون » الواقعة فى نصف المسافة بين الخليل وبيت لحم تقريبا . وكانت منطقة « اتزيون » عبارة عن مجموعة من اربع كيبوتزات سقطت فى يد الفيلق العربى قبل ساعات من انشاء دولة اسرائيل فى مايو عام ١٩٤٨ .

وبعد حرب عام ١٩٦٧ ، جعل حزب العمل — نصير الاستيطان الجماعى فى اسرائيل — عملية اعادة هذه الكيبوتزات احد المبادىء الأساسية فى برنامجه السياسى ، وخصوصا لأنها بنيت على ارض مملوكة لليهود ولا توجد تجمعات عربية كبيرة بالقرب منها . ولكن الخليل كانت مسألة اخرى ، وقد قاوم حزب العمل فى البداية الضغوط عليه من اجل السماح لليهود بالتوطن هناك . وكانت النتيجة هى ان مجموعة من (الرواد) لها اسلوبها الخاص بها قررت ان تأخذ الأمور على عاتقها هى وان تؤسس وجودها فى الخليل كأمر واقع (وهو اسلوب استعارته فيما بعد جماعة جوش ايمونيم — وطبقته بنفس النجاح .

وتدهورت الأمور بشكل مطرد فى الخليل . ولم يكن من الصعب تحديد اسباب ذلك . فعلى عكس مدينتى نابلس ورام الله فى شمال الضفة الغربية، واللتين توجد بهما طبقة تجار مزدهرة ونخبة متقدمة من اهل الفكر ، كانت مدينة الخليل مدينة فقيرة نسبيا ذات نسبة كبيرة من العمال اليوميين، وطريقة تقليدية فى الحياة ، وطابع دينى ملحوظ . وكان معظم المستوطنين من بين اليهود (المتدينين) المتشددين من ذوى النزعة الوطنية المتطرفة ، الذين انجذبوا الى المدينة بسبب ارتباطها المقدس بالآباء اليهود الأقدمين . ولم يكن ثمة ما يدعو الى ان يقوم الشقاق على اساس الدين وحده ، طالما أن اليهود والمسلمين عاشوا معا فى سلام لعدة قرون فى انحاء العالم العربى . وكما سنرى ، فمثلما حدث فى ١٩٢٩ ، ١٩٣٦ فان العامل القومى كان أحد العناصر الهامة فى المعادلة التى أدت منذ اليوم الأول تقريبا الى وجود موقف متفجر الا ان فى هذه المرة بدلا من ان يستفز الفلسطينيون اليهود ويهاجمونهم ، انعكست الآية بشكل واضح .

وقد بدات الملحمة الحزينة عشية عيد الفصح فى عام ١٩٦٨ عندما وصل ثلاثة وسبعون من المتدينين اليهود — من بينهم نساء واطفال — الى الخليل للاحتفال بليلة عيد الفصح . ونزل هؤلاء اليهود فى فندق (بارك هوتيل) — الذى تملكه عائلة قواسمة — واعلنوا على الفور انهم بهذه

الاشارة الرمزية كانوا يعبرون عن اعتزامهم تجديد الرابطة بين الشعب اليهودى وبين مدينة الآباء — وكان معنى ذلك أنهم قد أتوا ليبقوا . كان موشى ديان وزير الدفاع نزيل المستشفى فى ذلك الوقت ، وكان المجور جنرال شلومو جازيت ، القائم على تنسيق الأنشطة فى الأراضى يعيش فترة الحداد لمدة سبعة أيام فى أعقاب وفاة والده .

وهكذا ، فعلى الرغم مما تضمنه هذا التصرف من جانب المستوطنين من تحدى واضح للحكومة فان احدا لم يتحرك لايقافهم .

وكان على راس جماعة المستوطنين حاخام شاب يسمى موشى ليفنجر توفرت لديه حماسة دينية للمطالبة بحق الشعب اليهودى فى مدينة الخليل المقدسة . وكان خصمه فى الصراع على مستقبل مدينة الخليل هو العمدة الشيخ محمد على الجعبرى وهو رجل حكيم وسياسى بارع ، قد قرر ان يتعامل مع الموقف بالطرق الدبلوماسية . فبدلا من أن يواجه الجعبرى المستوطنين مباشرة ، كتب الى موشى ديان يطلب منه أن يتحمل مسئولية سلامتهم وامنهم معبرا له عن الأمل فى ان يتمكن كل يهود الخليل من العودة قريبا الى المدينة التى غادروها فى عام ١٩٣٦ — مثلما يأمل كل عرب فلسطين فى ان يستطيعوا العودة قريبا ايضا الى منازلهم وقراهم التى غادروها فى عام ١٩٤٨ .

وكان الجعبرى يعرف انه مس وترا حساسا . وكذلك فعل (العائدون) وكان الشيخ قلقا فعلا ازاء مسالة وصول المستوطنين . وخشى الجعبرى — كرجل متدين ايضا — من ان يحاول هؤلاء المستوطنون أن يعتدوا على الامتيازات الخاصة للمسلمين فى كهف البطارقة ، الذى يعتبر مقدسا للمسلمين ولليهود على السواء . وعلى الرغم من ذلك فانه لم يرفض صراحة اجراء أى اتصال مع القاطنين الجدد فى المدينة ، بل انه دعاهم الى مقابلته. وفى المقابلة ، كرر العمدة ، وهو يحتفظ بابتسامة المجاملة على وجهه. مرة أخرى رايه بالنسبة لعودة اليهود والعرب الى منازلهم — على نمط فلسفة « العين بالعين » — ، والمح للمستوطنين بشكل عام الى انه يكون من الأفضل بالنسبة لهم أن يغادروا المدينة . فسر المستوطنين — ببراءة أو بغير ذلك — أدب الجعبرى معهم على أنه علامة على الترحيب بهم فى الخليل ، وعبروا عن هذا التفسير بشكل واضح . ونفى الجعبرى بدوره مثل هـذا التفسير قائلا انهم اساءوا فهمه .

ولم تكن بداية مبشرة لأى من الجانبين ، ومن هنا تحركت الأمور من سىء الى اسوأ . وقد تصرف الحاخام ليفنجر منذ البداية مثلما يتصرف لورد فى ضيعته الخاصة ، ولكنه فى مايو بالغ فى تماديه باقتحامه مكتب الجعبرى فجأة ومخاطبته العمدة بلهجة تهديدية . قال ليفنجر : ان المستوطنين يريدون أن يعيشوا فى سلام فى الخليل وأنهم مستعدون لقبول الجعبرى كعمدة ، ولكنه أكد ان هناك شيئا واحدا يحتاج الى توضيح : — انهم يعتزمون البقاء

سواء رضى العمدة أم لا . وفى اليوم التالى تعلم الجعبرى شيئا آخر عما يمكن ان يتوقعه من المستوطنين . فعندما لاحظ وجود اثنين من اليهود يتسكعان بالقرب من الكرم المجاور لمنزله دعاهما الى الدخول يستضيفهما ولكنهما رفضا .

اسرها الجعبرى فى نفسه وبعدها وضع حراسة على منزله .

ومع استمرار تكشف خيوط هذه الدراما ، بدأ سكان الخليل يشتركون فيها ، فارسلوا عريضة الى ديان يحتجون فيها على سلوك المستوطنين . وكان ديان ميالا الى تسوية الخلاف مع سكان الخليل ، ولكن فيما يتعلق بهذه النقطة وجد نفسه فى مواجهة تكتل قوى مؤيد للاستيطان فى داخل الحكومة. ووجد انه غير قادر على أن يحل المشكلة بالسبل المباشرة ومن ثم لجأ وزير الدفاع الى أسلوب اكثر حذقا وشرع فى وضع العراقيل فى طريق المستوطنين. امرهم ديان بأن ينتقلوا من (بارك هوتيل) فى مدخل المدينة الى مقر الحكومة العسكرية بدعوى أن من الأسهل الاطمئنان على سلامتهم هناك . وشعر المستوطنون بأنهم مقيدون وغير مرتاحين فى مقرهم الجديد واعتقد ديان ان الظروف المعيشية السيئة ربما تؤدى الى رحيلهم . ولكنه أساء تقدير ما لديهم من عزيمة وروح ريادية — وقد يفضل البعض ان يسميه بالتعصب وقوة روحية ملحوظة .

وكان من الواضح انهم ليسوا على وشك مغادرة الخليل طواعية . بل على العكس ، اراد المستوطنون أن يثبتوا اقدامهم فى المدينة عن طريق فتح محال ومشروعات أخرى . وعندما تم رفض طلباتهم مضوا فيما اعتزموا القيام به وافتتحوا كشكا بجوار كهف البطارقة ، زينوه بلافتات مكتوب عليها « بوفيه المستوطنين » . ومع ذلك فان رد فعل الحاكم العسكرى ازاء ذلك كان سريعا، فقام بتفكيك الكشك فى الوقت الذى وقف فيه السكان المحليون وهم ينظرون فى رضاء .

ان الاسهام الرئيسى الذى قدمته مجموعة الحاخام ليفنجر بالنسبة لمستقبل الاستيطان اليهودى فى الضفة الغربية ، تتمثل فى الدرس الخاص بأن العناد المحض ينتصر دائما فى النهاية . فقد قررت الحكومة فى النهاية ، تحت الضغط المستمر من جانب المستوطنين وانصارهم فى الحزب القومى الدينى ، أن تبدأ فى اقامة مشروع اسكانى على مشارف الخليل . وهكذا اصبح لدينا « كريات أربع » ، وهى مستوطنة طالما زرتها — وان كان من قبيل المبالغة أن اقول اننى أكون موضع ترحيب هناك . وفى الواقع فان أول دعوة الى تنحيتى عن منصبى فى التليفزيون جاءت من مستعمرة كريات أربع « التى كان لها الفضل» فى التنديد بى كمنشق سياسى — وذلك عندما علق احد أعضاء مجلس ادارة هيئة الاذاعة بسعادة ونتيجة لأحد التقارير المصورة التى أعددتها ، بأن رفيق حلبى يتناول المسائل التى يمكن اعتبارها بمثابة (دعارة سياسية) وقد شرح هذا العضو المحترم كلمة (دعارة) لمندوب صحيفة (يديعوت أحرونوت) المسائية اليومية بقوله :

الدعارة تعنى الجنس بدون حب . والدعارة السياسية تعنى عرض موضوع «حيازة الارض فى اسرائيل بدون ذكر الدوافع الصهيونية» . وعندما تعرض المستوطنون فى كريات اربع لضغط شديد بقدر كاف ، اعترفوا بان حقهم فى شراء ارض بالاراضى المحتلة ليس اكثر شرعية من حق العرب فى شراء ارض فى دولة اسرائيل . واننى لأتساءل : كيف سيعمل عضو المجلس المحترم على تنقيح ذلك الاعتراف للاستهلاك العام ؟ .

اننى اذكر هذه الأمور العرضية لمجرد ان اوضح ان تاسيس «كريات اربع » بدلا من ان يحل قضية ، بدا انه انما يخلد هذه القضية ويزيدها خطورة . ولم يضع انشاء المساكن للاسرائيليين ، الذين ارادوا أن يعيدوا تأكيد روابطهم مع مدينة الخليل ، حدا للمهاترات العدوانية أو السلوك المتعجرف للمستوطنين والذى حكم منذ البداية بالفشل على اية فرصة للحوار بين يهود وعرب مدينة الخليل .

ولذلك لم يكن العنف الذى سرعان ما هدد بأن يسيطر على العلاقات فيما بين الشعبين من قبيل المفاجأة . وعندما أراد الشيخ الجعبرى أن يرفع العلم الأردنى فوق الخليل عام ١٩٧٥ احتفالا بالعيد الخامس والعشرين لاعتلاء الملك حسين العرش ، اتصل بى متحدث باسم مستوطنى « كريات اربع » محذرا بقوله :

اذا استمر العمدة فى انتهاج هذا الأسلوب فسوف يكون هناك حمام من الدماء فى هذه المدينة . واردت أن أذيع شيئا حول هذه التطورات فى الخليل ، حتى على الرغم من أن البريجادير جنرال ديفيد هاجوئيل ، قائد الضفة الغربية ، كان يضغط على بشدة لأتخلى عن الفكرة وكان مؤدى النتيجة التى توصل اليها مدير الاذاعة فى النهاية هى أن القيام بوصف الحالة بين الجانبين على الهواء ، ربما يؤدى الى توجيه اللوم الى التليفزيون وتحميله مسئولية اثارة المشاعر السيئة ! وعلى أية حال ، فان ذلك هو ما قاله لى عندما أمر بعدم بث التقرير ، ولم يكن لى فى الأمر حيلة .

وكان التماثل — أو ربما يكون من الأفضل أن نقول التكافؤ — فى ديناميات الاثارة أحد العناصر المزعجة بصفة خاصة فيما يتعلق بامكانية حدوث العنف فى مدينة الخليل . ففى مواجهة الحاخام ليفنجر والياكيم هاتزينى فى كريات أربع كان هناك كل من الشيخ بيوضى فى المجلس الدينى بالمدينة، والذى كان عضوا فى جماعة الاخوان المسلمين ، والشيخ حامورى وكان الشيخ الجعبرى قد استطاع المحافظة على سيطرته على الناخبين ، ولكن مع اقتراب انتخابات عام ١٩٧٦ ساد القلق بشأن مدى النجاح الذى يستطيع فهد القواسمة تحقيقه فى هذا الصدد بيد أن القلق سرعان ماتلاشى عندما برهن قواسمة على انه عمدة نموذجى فى نظر الحكومة العسكرية .

لقد كرس نفسه تماما للشئون البلدية ، محتفظا بتعليقاته على المسائل السياسية الأعم فى أضيق الحدود ، وحاول أن يدخل نغمة جديدة فى العلاقات

بين الشعبين فى مدينته . وكما لاحظنا من قبل ، فان هذا الاسلوب جلب عليه احترام كبار الضباط فى الحكومة العسكرية ، الذين تحدثوا عنه كرجل حكيم وشجاع ومتفان ومصمم على خلق روح التوافق بين السكان فى كل من كريات اربع والخليل . وقد وقف عيزر فايتسمان وزير الدفاع ، خلال احدى زياراته للمدينة ، امام كاميرات التليفزيون وأمعن فى اطراء قواسمة بوصفه رجلا (يمكن التعامل معه) .

وبطبيعة الحال ، كان هناك ثمن لابد من دفعه من اجل الغزل بين قواسمة والسلطات الاسرائيلية،وظل وضع العمدة متقلقل طوال عامه الأول فى السلطة . وفى البداية اتهمته بعض الدوائر فى الخليل بأنه تآمر مع الحكومة العسكرية على ابعاد الدكتور أحمد حامزى النتشة عن الساحة بحيث يستطيع قواسمة أن يحصل على منصب العمدة المرموق . والأسوا من ذلك أنه لم يقاطع الصحافة الاسرائيلية — كما طلبت منه منظمة التحرير الفلسطينية أن يفعل — بل أنه عرف بأنه كان يتزاور عائليا مع الليفتنانت كولونيل يهوشوا بن شاحال الحاكم العسكرى المحلى .

ولذلك فان خيبة الأمل كانت أكبر عندما بدأ القواسمة يظهر الجانب الوطنى من شخصيته ، فقد هاجمه (الذين صدهم) فى الحكومة العسكرية واتهموه بالسير فى ركاب بسام الشكعة ولكن عادة ما تم التعبير عن الشكوى الرئيسية ضد قواسمة بعبارة مفادها أنه « كان يرقص على حبال عديدة وانه لابد وان يسقط فى النهاية) .وكانت جرائم العمدة تتمثل فى التعاون مع القنصلية الامريكية ، والاحتفاظ باتصالات سرية مع الأردنيين ، والمجاهرة بالولاء لعرفات — بينما كان أثناء كل ذلك يبذل أقصى جهده للاحتفاظ بعلاقات طيبة مع الحكومة العسكرية .

وكان هناك أكثر من حقيقة واحدة تبرهن على هذا الاعتقاد ، ولكن من الصعب أن نعرف لماذا كانت الحكومة العسكرية مستاءة الى هذا الحد . فقبل كل شىء ، اذا أخذنا فى الاعتبار نغمة الحملة الانتخابية ، فانه من المؤكد أن أحدا لم يكن ليعتقد أن فهد القواسمة كان بسبيله الى أن يصبح خادما مطيعا للسلطات الاسرائيلية كما أنه باحتفاظه بروابطه مع العاهل الأردنى استطاع القواسمة الحصول على اعتمادات مالية كبيرة لتنمية مدينته .

وباحتفاظه بروابطه مع منظمة التحرير الفلسطينية ، عزز من موقفه فى الخليل،مما مكنه من ممارسة قيادة فعالة فى المدينة ومن التأثير على الحركة الفلسطينية ككل . وفى نفس الوقت بذل قواسمة قصارى جهده للابقاء على علاقة ودية مع الحكومة العسكرية ، وهو ما أدى الى حصوله على ملايين الجنيهات الاسرائيلية فى شكل منح من اجل تنمية الخليل ، وأسهم فى خلق مناخ هادىء وبناء فى المدينة . ولقد بدت هذه الاستراتيجية ذكية للغاية .

ولكنها لم تكن استراتيجية هينة . فعلى الرغم من المحاولات التى قام بها فى بادىء الأمر لتسوية المشاكل الكثيرة التى كانت تعترض العلاقات

المتبادلة بين المجتمعين فى مدينته ، وجد قواسمة نفسه يزداد معاداة للمستوطنين المتطرفين وقد شكا باستمرار من انهم يثيرون المتاعب ويفسدون المناخ الذى يسود المدينة . ومن الغريب ان الحكومة كانت تتبنى علىما يبدو وجهة نظر مماثلة حيث وقع قائد الضفة الغربية فى ٢٣ سبتمبر ١٩٧٦ أمرا يحد من حركة الحاخام ليفنجر بسبب قيامه بأعمال التحريض وتعكير صفو السلام . فعلى مدى الأشهر التى سبقت ذلك ، قام الحاخام واتباعه بدخول الخليل لتأكيد وجودهم . وقامت مجموعات مسلحة من كريات أربع بالغناء والرقص خارج كهف البطارقة والمبنى المعروف باسم بيت هاداساه فى ليالى الجمعة ، مثيرين بذلك الشك والاستياء . واذا طلب الجنود من هؤلاء المتظاهرين ان يمتنعوا عن مثل هذه التصرفات ، فان ليفنجر كان يرد معلنا ان قوة الجيش لا تخيفه . وكان هذا ينطوى على استفزاز كاف . ولكن النقطة الفاصلة جاءت عندما عقد ليفنجر واتباعه صلاة عامة عند أنقاض معبد افراهام افينو اليهودى ، فى تحد وقح لقرار قائم ، ينص على منع اقامة الصلوات هناك لأن الأنقاض كانت تقع فىقلب الخليل العربية بجوار سوق الخضروات .

واستدعى الحاكم العسكرى الحاخام ليفنجر الى مكتبه وأطلعه على القرار ، ولكن يبدو أن هذا لم يؤثر فى الحاخام . وعلى أية حال ، فانه لم ينزعج لهذا الاستدعاء وقام بكل بساطة بتمزيق القرار فى وجه الحاكم وقال:
— اننى لن أقبل هذا القرار لأنه غير قانونى . — « وبعد أن خلص ليفنجر نفسه من هذا الحكم القضائى ، قام هو وواحد من اتباعه ، هو البروفيسور بن — زيون تاجبر بالفرار من السلطات » واختفيا فى احدى الشقق فىكريات أربع . وتساءل العمدة قواسمة علنا عمن كان يريد المدينة هل هو الجيش أم المستوطنون وأشار الى انه اذا كان هو الذى هرب من الحكومة العسكرية لتم اعلان انه شخص (مطلوب القبض عليه) ولصدرت الأوامر الى قوات الدفاع الاسرائيلية باطلاق النار عليه بمجرد رؤيته . وعلى اية حال فان الهاربين ظلا مختفيين لمدة ثلاثة أيام ولم تبذل الحكومة العسكرية خلالها جهدا كبيرا فى مطاردتهما أو القبض عليهما ، على الرغم من أن كل طفل فى كريات أربع كان يعرف أين يوجد الحاخام ؟ حتى أنا اجتمعت به فى ذلك الوقت . وزعم أنه يريد مقابلتى ليرانى لأنه عرف أننى لن أخبر أحدا عن محادثتنا — وقد حضرت المقابلة أيضا عضو الكنيست جيئولا كوهين التى انتهرت الفرصة لكى تتجسر قائلة « انه فى بلدنا لا يستطيع حاخام محترم أن يصلى فى معبد فى مدينة الآباء » .

وفى أعقاب اذاعة التقرير الذى اعددته عن الاجتماع فى نشرة أخبار تلك الليلة بدأ بعض الوزراء يتذمرون من ازدراء ليفنجر الوقح للقانون ومن عجز الحكومة العسكرية الواضح عن معالجة الموقف . وفى الخليل ذاتها ، اعتبرت المسألة كلها مسألة تدعو الى السخرية ، لكنها رغم ذلك أثارت الاستياء . وأخيرا اضطرت الحكومة العسكرية الى أن تتصرف ، وتلقى الجنود أوامر باقتحام المخبأ الذى يوجد به الحاخام . وتجمع مئات الجنود

فى كريات اربع حيث قوبلوا بمقاومة شديدة . ورغم ذلك فان الجنود عمدوا الى الامتناع عن استخدام القوة وتحملوا كل الاهانات التى وجهها اليهم (المدافعون) عن كريات أربع . ووقفت على أحد الجوانب واندهشت لرؤية امراة تصب دلوا مليئا بالمياه من شقتها فى الدور الثانى فوق رأس قائد القوة بينما راح المستوطنون الآخرون يضربون ويركلون رجاله — الذين ظلوا عازفين عن استخدام القوة . تم تسجيل العملية كلها فى فيلم ولكن لم نكد ننتهى من التصوير الا وبدأت الحكومة العسكرية تمارس الضغط علينا حتى لا نذيع أى جزء منه على أساس ان ذلك ربما يضر بالروح المعنوية العامة — وكانت هذه أسوأ ذريعة يمكن أن يسوقها الجيش ، لأنه تصادف انها كانت واحدة من الذرائع التى أبغضها . وبدلا من ان يقلل التسجيل من المعنويات العامة ، فانه أثار الغضب على سلوك المستوطنين الذى ينطوى على تحد لقوات الدفاع الاسرائيلية . وعلى الرغم من ذلك فان الحاخام ليفنجر لم يعتقل بل تم بدلا من ذلك التوصل الى حل وسط يقوم الحاخام بمقتضاه بالتوجه الى مقر الحكومة العسكرية لاستجوابه واطلاق سراحه فى نفس اليوم .

وثبت أن مسألة ليفنجر كان لها أثر بعيد المدى على حالة المجتمعين الموجودين فى الخليل . وكما كان متوقعا ، فان تساهل الحكومة العسكرية مع قاطنى كريات أربع كان شيئا محزنا جدا لعرب الخليل . فقد لاحظوا أن المستوطنين تم السماح لهم بأن يفعلوا ما يحلو لهم مع الافلات الكامل من العقوبة . فى حين أن العرب تتم مهاجمتهم عند أبسط خرق للقوانين . وقد توصل المستوطنون من جانبهم الى نفس النتيجة لأنهم بعد أن فرضوا أمرا واقعا بمجرد وجود كريا أربع بدأو يفكرون فى التوسع . وفى البداية حاولوا ان يستولوا على أثنين من التلال المجاورة وبعد ذلك بدأوا فى الضغط من اجل تجديد الاستيطان « اليهودى » فىقلب الخليل وكانوا واضحين بالنسبة لرغبتهم فى ايجاد تغييرات فى مواعيد الصلاة بالنسبة للطائفتين (المسلمين — اليهود) فى كهف البطارقة ، وأعلنوا صراحة اعتزامهم العودة للسكن فى المبانى اليهودية فى مدينة الخليل القديمة وطالبوا الحكومة بترميم معبدافراهام افينو اليهودى ، بالقرب من سوق الخضروات الصاخب .

وبعد أسابيع قليلة ، وفى اكتوبر ١٩٧٦ ، اضيف عامل دينى محدد الى مقومات المواجهة عندما اتهم المسلمون المتعبدين من كريات أربع باتلاف الأشياء ذات الطابع الدينى ونسخة من القرآن الكريم فى احدى الحجرات بكهف البطارقة . وقد فجر هذا الاتهام ، الذى جاء فى أعقاب الاحباط الذى شعر المسلمون به ازاء حكاية ليفنجر ، موجة من الغضب العارم بينهم . وفى اليوم التالى قام حشد من الطلبة باقتحام الكهف وبتدنيس بعض متعلقات الطقوس اليهودية ، وأنا لست متدينا ، ولكن عندما وصلت الى الخليل ورأيت آثار الهياج الذى قام به المتعصبون الدينيون من كلا المعسكرين ، امتلأت بالامتعاض وأعتقد أن بعض هذا الاحساس لابد وأنه ظهر فى التقرير الذى أعددته لأن المستوطنين هاجمونى لأننى أعطيت كلتا الحادثتين نفس الأهمية ؛

وحتى صحيفة (دافار) اليومية الناطقة باسم الهستدروت (الاتحاد القومى للعمال) طالبت بفصلى فى مقالة جاء فيها أن (صراعا ظهر بين هويتى القومية والدينية من جهة وبين الأنباء التى كنت اقوم بتغطيتها من جهة اخرى وردا على مثل هذا النقد ، ربما لا تكون هناك جدوى من تكرار اننى لست مسلما ، وان الحقائق يتم الاحتكام فيها الى العقل ،والعقل نادرا ما يثبت وجوده بمجرد ان تلتهب العواطف الدينية .

وبالاضافة الى الدور الذى لعبته مسالة ليفنجر واحداث كهف البطارقة فى التحول الذى حدث فى المناخ السائد فى الخليل فان لها اثرا ايضا فى ابعاد العمدة الجديد عن موقفه المعتدل نحو دائرة الضوء كشخصية وطنية فلسطينية .

وقد احتقره مستوطنو كريات اربع بسبب معارضته لمخططاتهم فى الخليل ، وشوهوا سمعته علنا عندما بدأ جمع الأموال لتشييد مسجد بالقرب من حيهم . واعلن قواسمة انه لا يفهم لماذا يجب ان يتم السماح لليهود بالصلاة فى الخليل وان يعقدوا الاجتماعات فى كهف البطارقة ، بينما يتم منع المسلمين من الصلاة بالقرب من الحى اليهودى . وفى ذلك الوقت ، بدأت علاقات قواسمة مع الحكومة العسكرية تتداعى ، ومع ذلك ظل زملائه من العمد الآخرين يشكون فيه ولكننى اعتقد ان قواسمة كان متمتعا بالقدرة على السير فوق الحبال المشدودة وكان معتزا بقدرته على الاحتفاظ بتوازنه وعندما تم القبض على بسام الشكعة بعد محادثته الشهيرة مع (دانى مات) اتصل قواسمة بى تليفونيا وتساءل عما اذا كنت اعتقد ان هناك اية فائدة من الاتصال بعيزرا فايتسمان لطلب اطلاق سراح الشكعة .

وشكا قواسمة قائلا :

(ان الشكعة دائما يوقعنا فى الورطة .. صدقنى اننى الشخص الوحيد الذى بمقدوره ان يقول ما يريد ويظل بعد ذلك قويا) . وكانت لدى شكوكى بالنسبة لقوة قواسمة ، اذ كان قد بدا فى ذلك الوقت ، ان المعتدلين فى الضفة الغربية وفى الحكومة الاسرائيلية على السواء لا اعتبار لهم .

وكنت اراقب الموقف لمدة اربع سنوات بينما كان عمدة الخليل يتحول تدريجيا عن الوسط ليدخل فى المعسكر الراديكالى . وكانت مأساة (بيت هاداساه) هى التى اوجبت تغيره هذا وجسدت ما يبدو اليوم انه صدع لا يقبل الاصلاح فى العلاقات بين الطائفتين فى الخليل .

وكان قد تم تشييد مبنى (بيت هاداساه) فى عام ١٩٦٣ بالأموال التى تبرع بها اربعة من اليهود من شمال افريقيا . وفى بداية هذا القرن اشترى الدكتور (بن زيون جيرشون) هذا المبنى وفتح فيه عيادة تقوم بخدمة يهود وعرب الخليل . وخلال حوادث الشغب فى عام ١٩٢٩ قامت مجموعة بمهاجمة

المبنى واغتيال د. جيرشون ، وزوجته ، وواحدة من بناته (ايستر) . وتوجد ابنة اخرى له تعيش فى مدينة (كيريات — تيفون) بالخليل ، وفى منتصف السبعينات ، عندما اصبح التساؤل عمن يسيطر على المبنى بمثابة مسالة عامة ، قامت هذه الابنة باخبار احد مراسلى صحيفة (معاريف) انها تريد العودة الى الخليل لتعيد فتح العيادة لخدمة كل سكان المدينة كما كان يفعل والدها ، ورفض الحاكم العسكرى المحلى طلبها لأسباب امنية .

ولم تكن ابنة الدكتور هى الوحيدة التى تهتم بالمبنى . فقد حاول اعضاء جماعة (جوش ايمونيم) مرات عديدة أن يستولوا عليه ومن ثم يعيدوا الوجود اليهودى فى قلب الخليل العربية ، ولكن محاولاتهم تم احباطها فى كل مرة. ومع ذلك فان مافشل الرجال فى تحقيقه ، نجحت مجموعة من نساء كريات اربع ، تحت قيادة الحاخامة ميريام ليفنجر ، فى تحقيقه وبسهولة . لقد اقتحمن المبنى بكل بساطة يوم ٩ ابريل عام ١٩٧٩ ،ولايزال على السلطات ان تقوم باخراجهن من المبنى .

وتستشيط ابنة الدكتور غيظا ازاء (اولئك الذين احتلوا المبنى بشكل غير قنونى وسمح لهم بالبقاء فيه بلا ازعاج — بل انه حتى نفقاتهم تدفع عنهم — بينما كنت اود انا أن أواصل مهمة أبى فى خدمة سكان الخليل — والمساعدة فى خلق حياة طبيعية بقدر الامكان للعرب واليهود ، ولا يسمح لى بدخول المبنى) انه من الواضح ان النقمة والسخط لايمكن أن يتغلبا على فعالية القوة الوحشية .

ولقد ذهبت الى بيت هاداساه عدة مرات ولاحظت الخصائص القيادية لزوجة الحاخام ليفنجر . لقد ولدت فى الولايات المتحدة وتتمتع بقدر كبير من الذكاء وهى تتحدث بصراحة وليس من السهل ان يتم استفزازها أو اثارتها . وقد استولت هى والمجموعة التى معها على بيت هاداساه كخطوة اولى نحو هدفهن المتمثل فى استئناف الوجود اليهودى فى الخليل التىتعتبرها مدينة يهودية يتصادف وجود سكان عرب ايضا بها .

وفى داخل جماعة جوش ايمونيم وغيرها من الدوائر التى تفكر على شاكلتها ، تعتبر اولئك المتعديات اللاتى يتربعن فى بيت هاداساه بمثابة (بطلات) وكانت ميريام ليفنجر متحفظة نسبيا عندمـا قالت لى ان وجود مجموعتها فى المبنى يعتبر بمثابة « عظمة فى حلقوم الحكومة » — ولقد اعلنا بتصرفنا هذا ان « الخليل لن تصبح ابدا خالية من اليهود مرة أخرى » ووضعت سارة نهشون احدى رفيقاتها الأمر فى شكل تحذير اكثر وضوحا بقولها : « ربما يكون هنا حمام دماء ، ولكننا لن نغادر بيت هاداساه » وقد ثبت ان قولها هذا كان فى الواقة نبوءة صادقة الى حد بعيد .

وكانت الحكومة العسكرية تعارض بحزم عملية الاقتحام لبيت هاداساه ولم يؤيد هذا العمل الا اثنان فقط من اعضاء مجلس الوزراء . ومع ذلك

لم يكن هناك احد على استعداد لاصدار الأمر بارسال جنود لاخراج النساء من المبنى . وقام اريل شارون ، وهو احد الوزيرين اللذين ايدا العملية ، بزيارة الخليل ليظهر تأييده الصريح لمنتهكى القانون .

وزرت انا ايضا بيت هاداساه ، ولكن الحاكم العسكرى منع طاقم المصورين التليفزيونين الموجود معى من دخول المبنى . وقد ساعدنا احد الصبية العرب على التغلب على هذه العقبة بتوجيهنا الى شارع جانبى يطل على المكان واستطعنا ان نرى اطفال محتلات المبنى وهم يلعبون على السطح تحت اشراف مسز ليفنجر نفسها . ناديت عليها وردت هى بان النسوة والأطفال روحهم المعنوية عالية واضافت : — (لن نبــرح المبنى الى أن يتأكد وجودنا فى الخليل) . وعندما سألتها كيف تبرر تصرفها الذى ينطوى على تحد للقانون ويناقض الرغبات المعلنة للحكومة ، ابتسمت مسز ليفنجر بسعادة وقالت بلهجة بها اثومة :

اننى احترم قانونا واحدا فقط : — وصايا الله القادر . لقد شاء الله ان تكون هذه ارض اسرائيل وهى تنتمى الينا ، ونحن لا نعمل اكثر من تنفيذ مشيئته المقدسة .

ليست ثمة حاجة الى القول بأن فهد القواسمة كانت لديه أفكاراخرى. فبعد اجتماع طارىء للمجلس البلدى الذى شجب عملية الاستيلاء على المبنى اخبر قواسمة الصحافة بأنه اعتزم التظاهر امام بيت اسرته فى حي تالبيوت فى القدس بأن ينصب خيمة ويحتلها الى ان يتم اخراجه منها بالقوة . ورغم أن كل شخص كان يعرف ان العمدة انما كان يحاول اتخاذ موقف درامى فحسب ، فان الحكومة العسكرية ، لكى تؤمن جانبها ، اتخذت اجراءات لضمان الا يستطيع التوجه الى مكان احتجابه المتوقع . ان اشارته ربمــا كانت اشبه بمبالغات عديمة الجدوى ومضحكة لرجل لا حول له ولا قوة، ولكن ساورتنى المخاوف من الأمر الذى دفع رجلا دمثا مثل فهد القواسمة الى اتخاذ مثل هذا الموقف والذى لايمكن ان يبشر بالخير لأى من الجانبين فى الخليل .

ان الناس فى الخليل ليسوا ميالين الى الخروج الى الشوارع مثلما هى حال بنى جلدتهم فى نابلس او رام الله . والأخطر من ذلك هو ميلهم الى كظم مشاعرهم الى ان ينفجروا يوما ما فى نوبة من العنف . وعندما تم ارسال الجنود الاسرائيليين لحراسة النسوة فى بيت هاداساه ، زاد غضب وحنق سكان الخليل درجة اخرى . وقال قواسمة للصحافة ، وقد استشاط غيظا بعد هذه الاهانة الموجهة لناخبيه ، : — « اننا سنوافق على اعــادة بيت هاداساه وكل الممتلكات اليهودية الباقية فى المدينة اليهم بشرط ان يعيدوا الينا نصف ممتلكاتنا فى اسرائيل .

اننى لست مسئولا عن سلامة اليهود فى بيت هاداساه ان وجودهم هناك يعد استفزازا » .

وظلت مدينة الخليل تجيش بغضب شديد لعام كامل ، بينما ساور قادتها القلق بشان تصاعد العداء . وبعد ذلك بدا العنف . وجاء الفــوران الأول فى ربيع عام ١٩٨٠ ، عندما تم قتل طالب يتبع مدرسة دينية يهودية محلية وهو يهوشوا سالوما فى سوق الخليل . كان سالوما فى طريقه عبر السوق المحلية عندما اطلق شخص ، خرج من احد الأزقة ، النار عليه من مسافة قريبة . وردت الحكومة العسكرية بسرعة . وغادر مستأجرو المبــانى المجاورة فى حالة ذعر ، وارسلوا اطفالهم للاقامة مع اقاربهم خارج السوق، فى الوقت الذى فرض فيه الجيش حظر التجول فى المدينة بكاملها وشرع فى عمليات التفتيش والاعتقال وتم اعتقال عشرات الرجال فى الميدان المركزى وجرى استجوابهم ليلا وشكا أهل الخليل من الاهانات التى تعرضوا لهــا. ولكن الحكومة العسكرية كانت مصممة على الامساك بالقاتل بأسرع مايمكن. وظل ضباطها على اعتقادهم بأن العقاب الجماعى هو وسيلة فعالة للسيطرة على الوضع دون الالتفات الى ان الابرياء سيقاسون ايضا نتيجة لذلك . ولقد قضيت يوما مع اسرة تعيش فى السوق وحاولت ان أجمع تقريرى عن شكل الحياة فى ظل حظر التجول . كادت الشوارع فى المدن الأخرى تصبح مهجورة تماما ، ولكن فى الخليل لم يسر الحظر سوى على العرب الذين حبسوا فلقد كان سكان كريات اربع يتجولون بحرية دون اية محاولة لمنعهم . وفى الأيام التى تلت عملية القتل اجتاح سكان كريات اربع الخليل للأخذ بالثار عن طريق التدمير العشوائى للممتلكات العربية . كانت المناظر المؤسفة التى قمنا بتصويرها تتحدث عن نفسها ولم يكن الأمر بحاجة الى تعليق .

وفى وقت ما خلال حظر التجول اذاعت شبكة الاذاعة الاسرائيلية (كول يسرائيل) خبرا مفاده ان فهد القواسمة اعتبر قتل طالب المدرســة الدينية بمثابة انتقام لمصرع اثنين من المتظاهرين العرب فى حلحول التى تقع على مسافة ثلاثة أميال شمال الخليل . وكانت تلك الحادثة التى وقعت قبل ذلك بعام ، تتلخص فى انه تصادف وجود عربة قيادة تحمل جنودا اسرائيليين ومركبة تنقل مستوطنين من « كريات اربع » فى مكان مظاهرة لتلاميذ المدارس فى حلحول . وبينما اطلق الجنود النار لتفريق المظاهرة . قام (عيلان تور) احد المستوطنين ، باطلاق النار ايضا فأصاب تلميذين وارداهما قتيلين . وقد حوكم بعد ذلك وتمت تبرئته من تهمة القتل وقضت المحكمة بأنه اطلق النار دفاعا عن النفس . والآن كانت اذاعة (كول يسرائيل) تنسب الى فهد القاسمة تصريحا يشير الى وجود صلة مباشرة بين حادث « حلحول » ومقتل « يهوشوا سالوما » وعلى الفور ثارت كل دولة اسرائيل ، وطالب عدد من اعضاء الكنيست بطرد العمدة . واسرعت الى منزل القواسمة لأجده غارقا فى النوم .

واخبرته بما اذاعه الراديو فوافق على الفور أن يرد على هذاالادعاء. ودعا طاقم التليفزيون الى قاعة الاستقبال الفسيحة فى (بارك هوتيل) وكانت

هناك صورة زيتية كبرى للعمدة معلقة على الحائط تنم عن التغير الكبير الذى حدث فى حال (القواسمة) ومكانته . وفى مواجهة هذه الخلفية بدأت الكاميرا العمل وبدأت حديثى مع قواسمة .

سألته : « ما هى الصلة بين حادثة حلحول ومقتل يهوشوا سالوما »؟

قال : لا توجد أية صلة .

قلت : اذن لماذا قلت لمراسلى الاذاعة انه توجد صلة ؟

قال : لقد أساءوا فهمىماقلت ... قلت لهم اننى أعارض العنف وشجبت عملية قتل المتظاهرين فى حلحول ، ولقد روعنى بنفس القدر مقتل سالوما .

ان العنف أسلوب لا يمكن تبريره وحتى اذا تم قتل بعضنا ، فاننا لن نرد بهذا الأسلوب . ولكن كل هذه الحوادث يجب النظر اليها بالمنظار الصحيح » .

وبينما كنا نتحدث بعد الحديث الذى أجريته معه ، قال قواسمة بلهجة بين الجد والمزاح : « اعتقد أنه يجب أن اشترى شقة فى عمان فهم بالتأكيد سيطردوننى الى هناك » . وعندئذ علت وجهه ملامح الجد وقال : « اننى متعب والأمور تزداد خطورة ، وسوف يطلب اليهود ثأرهم ، وسيرد العرب بنفس الأسلوب » .

وبدا أن مقتل « يهوشوا سالوما » قد أخرس صوت كل المعارضة الاسرائيلية للنساء الموجودات فى بيت هاداساه ، وتزايد عدد الأصوات المؤيدة للاستيطان اليهودى الشامل فى قلب الخليل . وكمؤشر على المدى الذى وصلت اليه الأمور كان الناس يقولون بكل الجدية أن الاستيطان اليهودى فى الخليل هو (الرد الصهيونى المناسب) على عملية القتل . وكانت مناقشات الحكومة حول الموضوع أبعد ما تكون عن الاجماع ، ولكن رغم ذلك تقرر أن تتم استعادة مبنيين مملوكين لليهود فى وسط الخليل وتهيئتهما لسكنى اليهود . وفسر عرب المدينة هذا القرار على أساس انه يعنى بداية (تهويد) الخليل . وكان للاسرائيليين بالفعل مواطىء أقدام أخرى فى المدينة ، حيث كانوا يملكون أحد المعارض الفنية ومعبدا يجرى ترميمه ، ومطعما للمستوطنين ، وبيت هاداساه . وكانت اضافة مبنيين آخرين وكذلك افتتاح مدرسة رياضية ، بمثابة نذير شؤم لعرب الخليل .

بمجرد أن تم اعلان القرار عدت الى الخليل لأحصل على رد فعل العمدة . وجدت القواسمة فى فناء المدرسة العليا مع كل أعضاء المجلس البلدى ، وتصادف أن كنت أول شخص يخبره عن قرار الحكومة بشأن اعادة توطين اليهود فى قلب الخليل فانفجر العمدة قائلا دون أن يخفى غضبه :

« انهم يحاولون تقويض السلام . ولن أظل صامتا بينما هم يحاولون اسقاط مدينتى . اننى أفضل أن يتم طردى أو اعتقالى أو محاكمتى — أى شىء فيما عدا تهويد مدينة الخليل العربية » .

وفى صباح اليوم التالى ، أى فى ٢٤ مارس ١٩٨٠ ، تجمع مئات من المواطنين ومن أعضاء المجالس البلدية فى منطقة الخليل بالاضافة الى عمد بيت لحم وحلحول وبيت ساحور فى قاعات مجلس مدينة الخليل لعقد اجتماع للاحتجاج . وكان أول المتحدثين أحد أعضاء مجلس مدينة الخليل الذى حدد اللهجة بالنسبة للمتحدثين الآخرين ، وذلك بدعوته الى الجهاد — الحرب المقدسة — لتحرير الخليل وكل فلسطين . واختار القواسمة الذى كان يعلم تماما بوجود أعداد كبيرة من ممثلى جميع وسائل الاعلام ، كلماته لتليق بذلك فقال :

« حتى اذا وضعونا فى السجون ، فان هذا سيكون أفضل لنا من البقاء هنا لنشهد شعبنا وهو يطرد من أرضه .

واذا حكموا علينا بالسجن فربما شفع لنا ذلك عدم قدرتنا على عمل شىء فانها ارادة الله . ولكن أن نبقى هنا لنتمتع بحرية نسبية ونلتزم الصمت ازاء ما تتخذه حكومة بيجين من خطوات ، فان هذا ما لا نستطيعه مطلقا . اخوتى .. اننا لا نخاف السجون والمعتقلات ، ولا يرعبنا شبح الطرد ، لأن هذا سيكون أسهل فى تحمله من أن نقف ونتفرج على الاستيطان اليهودى لمنطقة الخليل » .

انفجر أعضاء المجالس المجتمعين فى عاصفة من التصفيق المدوى متأثرين بكلمات زعيمهم . وبدا أن قواسمة قد شجعته هذه الاستجابة فاستمر قائلا : « اخوانى : اننا لن نتصدى لهذه الاجراءات بالكلمات . اننا سوف نقاوم هذا القرار بالأفعال وبكل وسيلة متاحة لدينا . وسوف نبرهن لكل من يريد أن يفهم ، على أن شعب الخليل مستعد للنضال وانه يناضل منذ أن بدأت المشكلة الفلسطينية » ومضى القواسمة يصف الحكام الحاليين لمنطقة الخليل « بأنهم وحوش متغطرسون لا يعتقدون الا فى القوة » .

وقال : (لكن مثلما انهارت الامبراطورية البريطانية ، وانهار النازيون ، فان هؤلاء المتغطرسين الوقحين سيلقون نفس المصير » .

ولمح المراسل المجاور لى الى أن هذه ربما كانت أعنف كلمات تفوه بها فهد القواسمة على الاطلاق .

وبمجرد أن تخلى قواسمة عن حاجز الاعتدال الذى كان يقيه ، سادت روح التطرف . فقد اختتم الشيخ رجب البيوضى التميمى قاضى مدينة الخليل خطبته الشديدة اللهجة بهذه النبوءة : « سوف يأتى اليوم الذى يرفرف فيه

علمنا فوق يافا وحيفا وعكا ، وسوف يلقى اليهود مصيرهم » . حتى الياس فريج عمدة بيت لحم انضم الى الآخرين فى شجب قرار الحكومة . وانتهى الاجتماع بالدعوة الى ارسال برقيات احتجاج الى الأمم المتحدة ، ووزير الدفاع الاسرائيلى ، والحكومة العسكرية .

وتوجه فريج الى قواسمة بعد ذلك قائلا : لقد اجتزت الحد هذه المرة . وبنفس الحماس والانفعال الذى كان عليه وهو يغادر الصالة ، توقف عمدة الخليل عندما رآنى وسألنى بابتسامة خبيثة قائلا : حسنا ، هل يجب ان اشترى شقة فى عمان ام لا ؟

فى تلك المرة لم أرد على الابتسامة لأن صديقى فهد قواسمة كان قد تجاوز الحد فى نظرى أيضا ، رغم أن ذلك تم بطريقة ربما لا يكون الياس فريج قد أدركها تماما . ان مقارنة قواسمة اليهود بالنازيين — حتى لو ضمنيا فقط — كان أمرا لا يغتفر ، بغض النظر عن الكيفية التى تمت بها هذه المقارنة .

ودوت أصداء ما التقطناه من صور لكلمة القاضى اللاذعة وغيرها من الخطب فى اجتماع الخليل فى كل بيت فى اسرائيل ، وصدمت العديدين ، وفى الخليل كان الناس لا يزالون فى حال ابتهاج وثقة فى النفس ، وعلى الرغم من التأنيب الذى وجهه الحاكم العسكرى للخليل ، والتحذيرات التى وجهها قائد الضفة الغربية ، فان قواسمة عقد اجتماعا كبيرا فى منزله ناقشت فيه الوفود من جميع المجالس المحلية فى مرتفعات الخليل اقتراحا خاصا ، بأن يقدموا استقالة جماعية .

وكنت أنا الاسرائيلى الوحيد الموجود ، وفوجئت بشدة الاستجابة للاقتراح .

وبينما كانت المناقشات جارية دخل مأمون السعيد ، عضو لجنة التوجيه القومى ومحرر صحيفة الفجر ، ومعه رسالة من أهم شخصيات منظمة التحرير الفلسطينية فى الولايات المتحدة لمنع العمد من الاستقالة قبل أن تتاح لمنظمة التحرير الفلسطينية الفرصة لبحث الأمر . وقبل القواسمة هذه الفكرة ، ولكن الشباب الأصغر سنا فى الحجرة طلبوا منه أن يقودهم على الأقل فى مسيرة شعبية الى « بيت هاداساه » .

وابتسمت عندما خطر ببالى أن الشباب فى الخليل لم يفهم فهد القواسمة. ان المظاهرات والمصادمات لم تكن هى اسلوبه . لقد شهدته وقد حمل على أعناق الجماهير عندما تم اطلاق سراح بسام الشكعة من السجن ، ولا أستطيع أن أقول انه كان مرتاحا فوق الأعناق . كان قواسمة يعلم ان اية مظاهرة سيتم تفريقها فى دقائق ، وهو لا يريد أن يكون مسئولا عما يمكن أن يسفر عنه أى صدام مع الجنود الاسرائيليين .

تم عقد اجتماع مماثل فى اليوم التالى فى مبنى الاتحاد الأكاديمى فى الخليل وهناك طلب قواسمة من مستمعيه ان يقاطعوا اليهود ، مهددا باعتبار كل عربى ينتهك هذه المقاطعة خائنا . كانت الدعوة الى مقاطعة المشروعات اليهودية قد رددها من قبل فى الخليل اكثر من شخصية منها الشيخ الجعبرى ولكن كانت الحقائق الاقتصادية تتغلب فى كل مرة على الحمية الوطنية . والآن ايضا قوبلت هذه الدعوة الجديدة بآذان صماء .

احس قواسمة ايضا بخيبة الأمل من جراء التصرفات التى تمت فى مدن الضفة الغربية الاخرى . فقد عقدت اجتماعات لتأييد الخليل فى نابلس ، ورام الله وتم ارسال رسائل تشجيعية لمدينة الخليل فى الجنوب . ولكن بشكل اجمالى قوبل مصير الخليل بنوع من اللامبالاة فى الشمال . حتى محاولة قواسمة حث لجنة التوجيه القومى على عمل شىء كانت محاولة عقيمة الى حد كبير .

ولما وجد عمدة الخليل نفسه واقفا بمفرده، جند كل طاقاته لحماية وحدة مدينته واصرارها على القتال . ووجد فهد قواسمة ، الذى كان — معتدلا — قبل ذلك ، نفسه يلعب دور الزعيم المتطرف الذى يسعى الى احياء جذوة المقاومة الخامدة فى الضفة الغربية . واتخذ فى اجتماع دعا اليه فى ٢ ابريل ١٩٨٠ موقفا حادا بوجه خاص وقال : ليس امامنا خيار الا ان نقاوم الحكومة. ويجب ان يكون مفهوما ان العين بالعين ، والكلمة بمثلها ، والقوة بالقوة ، ان عدونا ليس فى الخليل ولكنه فى أنحاء الضفة الغربية ويجب ان نواجهه ونسعى للتغلب عليه . وفى محاولة لتحويل مشكلة الخليل الى قضية تعنى بالضفة الغربية ككل ، دعا قواسمة الى القتال حتى الموت ضد الاستيطان اليهودى فى أنحاء المنطقة قائلا :

سوف نحارب بكل قوتنا ، ومن اعماق أرواحنا ، بأجسادنا وبدمائنا ضد المستوطنات فى الخليل وفى كل مكان آخر على أرضنا العربية .

لقد قطع المهندس الزراعى المتحفظ ، الذى انحدر من الخليل شوطا طويلا منذ تلك الأيام الأولى التى كانت رغبته الوحيدة فيها هى ان يغمس نفسه فى الشئون البلدية للخليل . فقد القت به اجتماعاته مع الشخصيات القيادية الاسرائيلية ومحادثاته مع ياسر عرفات والملك حسين ، الى دائرة الضوء . وأصبح الشخص الذى كان غامضا مجهولا ذات يوم ، زعيما شعبيا مشهورا ، ورجلا يسعى اليه كل شخص ابتداء من حركة السلام الآن الاسرائيلية، وحتى ممثلى الحزب الشيوعى الاسرائيلى ، اى من اليسار الى اقصى اليسار . واصبح يستضيف ممثلين من حزب العمل الاسرائيلى وطلبت منه وزارة الخارجية الاسرائيلية ان يستقبل زائرين قادمين من الخارج .

حتى القنصلية الأمريكية فى القدس ارسلته فى جولة يلقى خلالها محاضرات فى الولايات المتحدة حتى بدا احيانا أن رابطة (النداء اليهودى

الموحد) هى المنظمة الوحيدة التى لم تستخدمه لاغراض تتعلق بالعــلاقات
العــامة .

بيد أن قواسمة كان يتمتع بقدرة طبيعية على معرفة الحدود التى يجب
الا يتخطاها . فمن منطلق ولائه لمنظمة التحرير الفلسطينية رفض قواســمة
ابة طلبات تدعوه لمقابلة الدبلوماسيين الأمريكيين الذين يزورون المنطقــة ،
رغم انه كان يشبع غروره الى أقصى حد ان يهتم ممثلو دولة عظمى بمقابلته .

وبدات الاجتماعات تستنفد الغرض منها وبدا الهدوء يعــود الى
الخليل . ولكنه كان الهدوء الذى يسبق العاصفة فقد حدث الانفجار التالى
فجأة وان لم يكن امرا مستبعدا . ففى ليلة الجمعة الموافق ٢ مايو ، انتشر
فى انحاء اسرائيل خبر مروع : لقد شن الارهابيون هجوما مميتا على بيت
هاداساه . وعندما وصف المراقبون السياسيون عملية الاستيلاء على مبنى
هاداساه بأنها ستكون نقطة تحول فى العــلاقات بين العرب واليهــود فى
الخليل ، كان من الواضح انهم كانوا يتكلمون عن دراية .

وقد وقع الهجوم الارهابى بينما كانت مجموعة جنود ممن يشتركون
فى برنامج خاص تابع لقوات الدفاع الاسرائيلية يسمح للشباب المتدين بتمضية
جزء من خدمتهم العسكرية يدرسون فى المدارس الدينية ، يصطحبون النساء
والأطفال فى طريق العودة الى بيت هاداساه بعد صلوات ليلة الجمعة فى
كهف البطارقة .

وكانوا يقتربون من بيت هاداساه وهم يغنون ويرقصون عبر الشوارع،
عندما فتح ثلاثة من سكان الخليل كانوا يتربصون بالقرب من المبنى النار
والقوا القنابل اليدوية على المجموعة . كان أحد الثلاثة موجودا فوق سطح
ورشة نجارة تخص عائلة حرباوى ، التى يذكر لها انها انقذت اليهود من
الجماهير أثناء الاضطرابات فى عام ١٩٢٩ . وبعد ان فعل الارهابيــون
فعلتهم ، فروا مخلفين وراءهم اشلاء المذبحة وكانت المحصلة مؤلمة : خمسة
من القتلى وستة عشر جريحا .

كنت فى منزلى فى دالية الكرمل عندما علمت بنبأ الهجوم . واهتزت
زوجتي لسماع النبأ وناشدتنى الا اذهب الى الخليل ، ولكنني لم اســتطع
مقاومة احساسى بالمسئولية المهنية . وفى الساعة الرابعة صباحا كنت
اقطع الطريق نحو الجنوب . كانت المنطقة محوطة بالحواجز ، والمدينــة
تخضع لحظر التجول . وفى مكاتب الحكومة العسكرية علمت أن البلدوزرات
كانت تقوم بازالة المبانى الموجودة حول بيت هاداساه والتى آوت الارهابيين
خلال الهجوم .

علمت بعد ذلك كيف تطور رد فعل الحكومة الاسرائيلية فى ظرف ساعات
معدودة . كان وزير الدفاع اول من سمع بالهجوم بينما كان فى حفــل فى

تل ابيب . وعلى الفور اتصل بقائد الضفة الغربية العميد بنيامين بن اليعازر ،
الذى اوصى بأن يتم اتخاذ تصرف على الفور .

قال بن اليعازر لعيزرا فايتسمان « انها صدمة وانا اقترح ان نعالج
المشكلة بتوجيه صدمة مضادة وان نقوم بالطرد الفورى لقواسمةوللقاضى».
لم يرفض فايتسمان الاقتراح لكنه لم يوافق عليه أيضا . عندئذ توجه العميد
بن اليعازر الى الخليل وبالقرب من منطقة « اتزيون » جنوب بيت لحم ،
التقى بأحد اعضاء الكنيست وهو شارلى بيتون ، من قائمة الشيوعيين الجدد
(راكاح)،الذى كان يحاول‌ان يصل الى‌الخليل لكى يوفر الحماية لقواسمة.
وكان البوليس قد قطع على الفور خطى التليفون لكل من قواسمة والقاضى .

كان فايتسمان لا يزال فى تل أبيب ، عندما تلقى مكالمة تليفونية اخــرى
مفادها هذه المرة ان وزير الزراعة اريل شارون فى طريقه الى الخليــل .
وكان هذا هو الذى حسم الأمر . تلاشت أية تحفظات لدى وزير الدفاع قد
تمنعه من الذهاب الى الخليل : فاذا كان شارون ذاهبا ليظهر على مسرح
الأحداث ، فان على وزير الدفاع أن يكون هو السابق الى هناك . وطــار
فايتسمان الى الخليل .

وفى الوقت نفسه تجمع فى الخليل كل من رافائيل ايتان رئيس الأركان
وموشى ليفى القائد المسئول عن القيادة المركزية ، ودانى مات منسق الأنشطة
فى الأراضى المحتلة . وقد أراد الجنرال ليفى ان يتم بحث الجوانب القانونية
لأمر الطرد قبل ان يتقرر اى شىء بينما كان دانى مات يضغط من اجل نفى
كل اعضاء لجنة التوجيه القومى على الفور . لكن بن اليعازر كان حريصا
على الا تتحول عملية الهجوم على بيت هاداساه الى قضية عامة ، وتمسك
باقتراحه الذى يقضى بأنه اذا كان لابد من عملية طرد فيجب ان تقتصر على
قواسمة والقاضى ، ومحمد ملحم عمدة حلحول الذى كان له نشاط واضــح
فى لجنة التوجيه القومى وكان معروفا بأنه وراء الموجة الأخيرة من المظاهرات
فى منطقة الخليل . وبعد وصول فايتسمان الى الخليل ، اتصل تليفونيــا
برئيس الوزراء بيجين ليخبره بمسألة طرد الشخصيات العامة ، وحصــل
على موافقته ، وتم اخطار وزير العدل أيضا بالقرار ، وعندما تمت اضافة
اسم محمد ملحم الى القائمة تم اخطار كل الأطراف المعنية .

احضر ثلاثة من ضباط مكتب بن اليعازر قواسمة وملحم والقــاضى الى
مقر الحكومة العسكرية فى الخليل حيث اخطروا بأنهم سيتوجهون الى تل ابيب
للاجتماع مع بن اليعازر ثم نقلوا الى طائرة هليكوبتر كان ينتظر بها قوة من
المظليين وذكرت زوجة قواسمة فيما بعد انه خلال رحلة الطيران تذمر محمد
ملحم قائلا:ان‌الأمر فيما يبدو مريبا،وبالفعل هبطت الطائرة‌الهليكوبترفى‌احد
المطارات فى شمال اسرائيل وتم عصب اعين الرجال الثلاثة ونقلهم الى مركبة
عسكرية عبر الحدود الى جنوب لبنان الذى يسيطر عليه المسيحيون .
ومن هناك شقوا طريقهم الى بيروت .

سمع اهل الخليل عن عملية الطرد فى الصباح التالى وكان هذا ايضا هو الوقت الذى سمح لى فيه بدخول المدينة فتوجهت مباشرة الى بيت هاداساه . وقد بدا المكان اشبه بمنطقة قتال . كان شباب (كريات اربع) يهيمون فى الشوارع والأسلحة فى ايديهم ينسفون المركبات العربية بشكل عشوائى . لم يبد ان هناك شىء يمكن ان يمنع هؤلاء الراغبين فى الانتقام. تبدد ذلك الصباح كل الكلام النبيل عن التعايش بين اليهود والعرب فى الخليل .

فى الهواء الجبلى الصافى درت حول منزل قواسمة المغلق ومضيت فى طريقى الى القدس بقى على ان اقوم بتغطية احداث الساعات القليلة السابقة، ووجدت نفسى فى حيرة. كيف اتناول موضوع طرد قواسمة؟ هل يجب ان انقل تصريحاته عن السلام والتوفيق وان انقل مقارنته الطائشة بين اليهود والنازيين ؟ وفى تعليقى على التقرير المصور الذى اعددته أشرت الى المستوطنين فى الخليل — كيف لا اشير اليهم ؟ — وقبل ان الم شتات نفسى ارتفعت صيحات الاحتجاج مرة اخرى وزعم الناس انه مجرد ذكرى لكريات اربع والمستوطنين الاسرائيليين فى الخليل ، يعتبر بمثابة اعطاء مبرر ضمنى للارهابيين ، او يبدو على الأقل وكأننى اتفهم دوافعهم . واستأنف المعنيون بالأمن حملاتهم العنيفة ضدى ، واصبحت التهديدات بالتليفون اكثر وضوحا . ولكن الهجوم جاء ايضا من جانب مواطنين مسالمين عادة بدوا غير قادرين على السيطرة على انفعالاتهم . وبالصدفة البحتة رددت على مكالمة تليفونية لسيدة طلبت قسم الأخبار كان من الواضح انها لم تميز صوتى لأننى بمجرد ان قلت « حجرة الأخبار » صرخت فى سماعة التليفون قائلة : (كيف تسمحون لذلك العربى بتقديم تقرير عن موتانا ؟) حاولت الا اجعل حديثها يثيرنى فقد كنت أعرف الألم والخوف اللذان يكمنان خلف مثل هذا النوع من الانفعالات. ومع ذلك ، فان اعتقادى فى امكانية تحقيق تصالح فى المنطقة اصيب فى الصميم فى تلك الليلة .

قررت الحكومة العسكرية — التى لم تقتنع بطرد العمد — انه لابد ان تتعامل بحزم مع كل سكان المناطق المحتلة وبدات بمنع العمد الباقين من الادلاء بأحاديث للصحافة . ولكن الخليل تحملت الجانب الأعظم من وطأة الحنق الاسرائيلى ، وكانت احدى الضربات العنيفة الموجهة ضد المدينة هى تمديد حظر التجول . وادت القيود المفروضة الى التأثير بشكل ضار على التجارة بالاضافة الى تعرض المدينة لنقص الغذاء فى حين مضت قوات الدفاع الاسرائيلية فى بحثها الذى لا يكل عن الارهابيين . وتم اعتقال مئات من المشكوك فيهم وتعرضوا لاستجوابات صارمة . وطاف الجنود بكل مبنى فى المدينة وتمركزت وحدة مسلحة فى بيت هاداساه مما حوله الى منشأة عسكرية بحق ، ومرة اخرى كانت المناظر المألوفة عبارة عن البلدوزرات التى تدمر المنازل والمحال المجاورة لبيت هاداساه ، كما لو كانت هذه المبانى — وفق منطق لا يمكن فهمه — هى ذاتها المسئولة عن الجريمة . ومرة اخرى

وجدتنى اثور على ما ينطوى عليه كل هذا من ظلم مطلق . فاذا كان اصحاب هذه المبانى مسئولين عن جريمة ما ، فلماذا لم يتم اعتقالهم وتقديمهم للمحاكمة مثل اى شخص آخر ؟ واذا كانت الحكومة العسكرية مدققة الى هذا الحد فيما يتعلق بمراعاة حرفية القانون ، فلماذا لم تقم بطرد النسوة اللاتى قمن باحتلال بيت هاداساه ؟ ان السبب ، كما شرحه لى احد ضباط الحكومة العسكرية فى الخليل ، هو ان اخلاء بيت هاداساه ، كان سيتم تفسيره على انه انتصار لمنظمة التحرير الفلسطينية وهو ما لا تستطيع اسرائيل ان تسمح به ابدا .

فى اليوم الثالث من حظر التجول ، اجريت مراسم الجنازة لأحد الضحايا فى المقبرة اليهودية القديمة ، فى الخليل ، وهى المقبرة التى تم استردادها بعد حرب الأيام الستة وكان هناك مئات اليهود فى شوارع الخليل . ولكن لم يوجد شخص عربى واحد . وبعد الانتهاء من الطقوس ، نفس الشباب عن غضبهم من جديد بتخريب الممتلكات العربية وتوجهوا الى منزل الشيخ محمد على الجعبرى وحطموا نوافذه كما حطموا سيارة ابنه . وكان هناك ، فى خلال ذلك اليوم ايضا ، عنف من نوع آخر فى الخليل . فقد قام بعض مثيرى الشغب بضرب (نعيم مور) المصور الصحفى الاسرائيلى معتقدين خطأ انه هو (رفيق حلبى — المراسل العربى للتليفزيون .

وفى الأشهر التالية جاب فهد قواسمة نصف العالم كطريد ، ولكنه صمم على العودة الى الخليل . لقد احب مدينته واخبرنى مرارا انه يفضل الحياة فى كوخ فى الخليل على الحياة فى فيلا فخمة فى بيروت او عمان . ان ذلك هو السبب فى ان الطرد يمثل اكثر العقوبات المتاحة لاسرائيل وحشية. وربما احرز قواسمة شهرة عابرة ، ولكنه بعد ان اجرى اجتماعات فى البلاط الملكى ، والقى سلسلة محاضرات فى اوربا والولايات المتحدة ، لم يعد هناك احد — على ما يبدو — يهتم بورطته .

لقد كان فهد قواسمة « لوردا » فى مدينته ، ولكن خارج الخليل كان مجرد واحد من الآلاف الموجودين فى صفوف منظمة التحرير الفلسطينية .

وفى ١١ مايو عام ١٩٨٠ حاول قواسمة ان يدخل الى الضفة الغربية من جديد عبر احد الجسور الأردنية ، وكان فى صحبته الطريدان الآخران، وعددا من اتباعهم وكذلك المناضل المنفى عبد الجواد صالح ، واعترضهم الجنود الاسرائيليون . وبعد ذلك نشب عراك بالأيدى بين الحراس الاسرائيليين وبين المتعاطفين الاسرائيليين الذين اتوا لتأييد المطرودين. وربما كانت الحادثة ذات اثر طيب على معنويات المطرودين الأربعة ، ولكن على الرغم من ذلك فقد تمت اعادتهم الى الأردن .

بعد فشل هذه المحاولة ، قرر قواسمة وملحم ان يسلكا سبيلا اكثر

تقدما . فقد رفعا دعوى استئناف ضد امر الطرد امام المحكمة الاسرائيلية العليا على اساس انه لم تتم مراعاة الاجراءات المعتادة عند تنفيذه . وطلب العمدتان ان يسمح لهما بالمثول امام مجلس الاستئناف العسكرى ، وفقا للوائح التى تتناول مسائل الطرد . وعلى الرغم من ان المحكمة رفضت التماسهما الخاص بالعودة ، الا انها ايدت حقهما فى الادلاء بأقوالهما امام المجلس . وهكذا وجدت نفسى اقف على جسر اللنبى ، يوم ١٤ اكتوبر سنة ١٩٨٠ انتظر عودة قواسمة وملحم الى الضفة الغربية . واجتاز عمدة الخليل المطرود الجسر بخطا وئيدة وقد غمره الانفعال وطلب ان يسمح له بالصلاة . واحتفظ ملحم برباطة جأشه حتى انه اعلن انه عاد الى الضفة الغربية وينوى الا يغادرها من جديد ابدا . كان ذلك هو كل ما سمعته من كل منهما ، اذ سرعان ما قام الجيش باعتقالهما ونقلهما الى قاعة كبار الزوار بالمحطة النهائية للحيلولة بينهما وبين الصحفيين والفضوليين . وقد انكر كل من قواسمة وملحم امام مجلس الاستئناف ، كل التهم الموجهة ضدهما واقسما على انه لا صحة للتصريحات التى تم نشرها ونسبها اليهما .

وتمسكا بانهما يفضلان اقامة دولة فلسطينية الى جانب دولة اسرائيل وليس كبديل لها . ولكنهما اكدا معارضتهما للاستيطان الاسرائيلى فى الاراضى المحتلة على اساس ان المستوطنات تثير الخصومة وتتسبب فى اندلاع العنف. وعندما سئلا عن مقالة نشرتها صحيفة لبنانية نقلت عنهما دعوتهما الى تدمير اسرائيل ، اجاب قواسمة قائلا : لقد شوه الصحفى ما قلناه . انه اراد ان يحسن سمعتنا فى العالم العربى ، وانتم تعرفون الصحافة العربية .

ورفض المجلس العسكرى دعوى العمدتين ، فعادا الى المحكمة العليا لبحث قضيتهما على أسس فنية . وحاولت ان احصل على رد فعلهما على الحكم السلبى الذى اصدره المجلس ، ولكن الحراس لم يسمحوا لأحد بالاقتراب منهما . واخيرا ارسلت مذكرة الى القواسمة عن طريق المحامى وبعد ان اعدت الى ذهنه اننى اعد كتابا طلبت منه ان يرسل الى كلمات قليلة عن رؤيته السياسية الحالية . ولم يرد قواسمة على المذكرة ابدا ، ولكننى كنت افهم تماما سبب صمته نظرا لموقفه الحساس .

تمكنت فى نهاية الأمر من رؤية العمدتين عندما بدات المحكمة العليا فى النظر فى دعواهما : سأل القاضى موشى لانداو عما اذا كان هناك فى قاعة المحكمة من يجيد التحدث بالعربية والعبرية . رفعت يدى وقامت المحكمة بتعيينى لكى أترجم لصاحبى دعوى الاستئناف . كان « ملحم » مثالا للتوازن طوال الوقت .

وفى الواقع بدت معنوياته طيبة بشكل فريد وهو يمازح ويسأل عن عمر نائب المدعى العام وحالته الاجتماعية . وكانت حالة قواسمة على النقيض

من ذلك فقد كان يعض اظافره بشكل متواصل ويوجه الى سيلا من الأسئلة المحيرة : « هل من الممكن ان يغير بيجين رايه ؟ ما الذى يجب على عمله ؟ اين يجب ان اتجه ؟ » .

كان من المؤلم ان اراه فى مثل هذه الحالة ، ولم يكن بمقدورى ان اخفف من قلقه وعلى الرغم من ذلك فقد كان مقتنعا بنزاهة المحكمة التى لا شك فيها .

سألته عما اذا كان قلقا بشأن نتيجة القضية وكان رده بالنفى القطعى واضاف بلهجة اهدا كما لو كان يريد أن يؤكد ثقته فى هذه النقطة : ان المحكمة العليا ستقول كلمتها — وعلى اية حال فاذا طردونى من جديد فسوف اقتلك .

شكا ملحم من معاملتهما فى السجن الذى كان عليهما أن يمكثا به على مدى نظر الدعوى ، وتبرم من نقص السجائر ومن عدم السماح لهما بدخول كافيتريا السجن، وشكا بشكل عام من معاملتهما كما لو كانا مجرمين عاديين. ولكن افكار قواسمة كانت فى واد آخر . فقد فكر فى ان يوقع تعهدا باطاعة القانون ولوائح الحكومة العسكرية . وبعد ذلك ، همس لى قواسمة تحت تحديق الحراس قائلا : هل توجد اية فرصة لأن يسمح لنا حزب العمل بالعودة اذا ما تولى السلطة ؟

انتابنى الصمت ، ولكن ملحم قتل هذا الصمت عندما طلب منى ان انقل تحياته لأصدقائه فى اسرائيل . وان اؤكد لهم انه لم يغير وجهات نظره فيما يتعلق باقامة دولة فلسطينية تتعايش مع دولة اسرائيل .

قال قواسمة مقاطعا ، كما لو كان الحديث عن التعايش قد ذكره بشىء : « كيف حال الحاخام ليفنجر » ؟

قلت : بخير ، وفى محاولة لاخراجه من يأسه العصبى رحت أسأله عن شعوره ازاء رد الفعل المتحفظ فى الضفة الغربية على طردهم . ولكن كان ملحم هو الذى اجاب قائلا : ان التحفظ كان الرد الصحيح من وجهة النظر التكتيكية . ورأيت ان قواسمة لم يوافق على ذلك ، ولكن بدلا من ان يعطى متنفسا لغضبه لزم الصمت المطبق .

واخيرا تحدث مرة اخرى حين سأل عما اذا كانت هناك اية فرصة للاتفاق على ان يكون الطرد لفترة محددة — فترة من الوقت للتهدئة — تسمح للحكومة العسكرية بأن تحفظ ماء وجهها . هذه المرة كنت انا الذى لزم الصمت الساخط بينما اقتصر ملحم على ان يبعد عن الرد فى شكل ابتسامة ساخرة ، دونت موجزا لمحادثتنا مع بعض الاقتباسات،

وطلبت من الاثنين ان يوقعا على هذه (المذكرات) قائلا : « لكيلا تنكرا هذه المرة ما قلتماه » ابتسما الاثنين ووقعا المذكرة .

عندما انتهت جلسات المحكمة . كان هناك حشد من سكان منطقة الخليل ينتظر الرجلين خارج مبنى المحكمة وقد حياهما الناس بالهتافات والغناء . ورفعت المحكمة العليا الجلسة للتداول فى الحكم ، وخلال فترة انتظار الحكم بقيت مدينتا الخليل وحلحول هادئتين ، رغم ان مدينتى نابلس ورام الله كان ينتابهما هياج كبير . وفى احدى المناسبات لجأ الجنود الاسرائيليون الى استخدام الأسلحة لتفريق مظاهرة قام بها مئات من الطلبة .

وفى ٤ ديسمبر ١٩٨٠ انعقدت المحكمة العليا لكى تعلن عن قرارها بالنسبة لدعوى الاستئناف المقدمة من قواسمة وملحم . اتفق القاضيان مع رأى الأغلبية الذى يرى ان قرار الطرد سليم من وجهة النظر القضائية وذلك على الرغم من انهم اتفقوا على ان الاجراءات القانونية لم تراع اثناء عملية الطرد .

وقد وجد القاضى (حاييم كوهين) ، وفقا لرايه المخالف ، أن عملية الطرد تتناقض والقانون الدولى ولذلك لابد من ابطالها . وبعد ذلك ، قال القضاة ، فى ملحق غير عادى أضيف الى قرارهم ، انه على الرغم من سلامة أمر الطرد فى ضوء الشروط القانونية الدقيقة ، فانه توجد اسباب لاعادة النظر فيه من وجهة نظر مدى ملاءمته السياسية .

وفهم الناس ووسائل الاعلام ان تعليق المحكمة هو بمثابة توصية للتغاضى عن امر الطرد ، بيد ان رأى الحكومة كان مختلفا . ففى جلسة خاصة لمجلس الوزراء فى اليوم التالى ، طالب المجلس بطرد العمدتين من جديد وبدون اى تأخير وذلك من اجل الأمن والسلامة العامة . وبعد ساعات قليلة من اجتماع مجلس الوزراء كان قواسمة وملحم قد تم طردهما من جديد الى لبنان . وقضيا الليل فى القطاع الذى يسيطر عليه المسيحيون وبعد ذلك انتقلا الى بيروت . ولم يعد امامهما اى سبل قانونية أخرى .

ان النضال من اجل السيطرة على الخليل مستمر ، وليس من المحتمل ان يضعف . ومع ذلك فان رئيس اللجنة الادارية « لكريات اربع » أخبرنى، منذ اشهر قليلة فقط ، انه لا يزال يعتقد ان من الممكن اصلاح العلاقات وتحسين نوعية الحياة فى مدينة الخليل . وكل ما استطيع ان اقوله هو :

« طوبى لمن لم يفقد ايمانه » .

الفصل الثامن

معتدلون وراديكاليون

ابتدعت وسائل الاعلام — فى معرض محاولاتها شرح ما كان يحدث فى الأراضى المحتلة — مفاهيم ، او شعارات ، مختلفة لتستعين بها فى جعل الموقف المعقد اصلا ، اكثر ايجازا ووضوحا للقارىء وللمشاهد . وكان من بين هذه الطرق المختصرة التى تقرب الأمور الى الفهم ذلك المفهوم المزدوج الخاص بالمعتدلين والراديكاليين الذى ترك استخدامه بواسطة وسائل الاعلام الانطباع بأنه كان من الممكن التمييز بوضوح بين هذين المعسكرين فى الضفة الغربية وقطاع غزة . وحتى سنوات قليلة مضت كان هذا المفهوم صحيحا بدرجة معقولة . فأولئك الذين عبروا عن التأييد الصريح للأردن وطالبوا بحل المشكلة الفلسطينية بالتفاهم مع المملكة الهاشمية كانوا من المعتدلين . اما الراديكاليون — او الأشرار من وجهة نظر اسرائيل — فقد كانوا أولئك الذين ايدوا منظمة التحرير الفلسطينية — من خلال احدى المنظمات او غيرها . ومن الصعب جدا اليوم ان نجد اية شخصية عامة فى الضفة الغربية على استعداد لمهاجمة سياسات منظمة التحرير الفلسطينية ، ولم يعد التقسيم الصارم الى معتدلين وراديكاليين ينطبق على الواقع . ومن المحتمل ان يكون الموقف الحقيقى اقرب الى الوصف الذى قدمه جميل حمد ، الصحفى من بيت لحم ، والذى يوافق على ان هناك معسكرين فى الضفة الغربية ولكنه يصنفهما على انهما : « مؤيدو » منظمة التحرير الفلسطينية و « اعضاء » منظمة التحرير الفلسطينية .

وعلى الرغم من ذلك ، فانه سيكون من التضليل ان نصف الموقف السياسى فى الضفة الغربية على انه متجانس تماما نظرا لانه توجد اختلافات محددة فى الأسلوب وفى تقييم اهمية الأمور بين جمهور الموالين لمنظمة التحرير الفلسطينية الذين يشكلون الأغلبية الساحقة . بل ان الاختلافات تعبر الحدود التقليدية للحياة الاجتماعية واحيانا تفرق بين العائلات . وفى بعض الأحيان يبدو الأمر وكأن الشخصيات العامة تتعمد توزيع اتباعها على كل المعسكرات الموجودة .

فقد كان للمرحوم الشيخ محمد على الجعبرى ، الذى كان يتعاون تماما مع السلطات العسكرية الاسرائيلية . ابن اسمه (وحيد) كان

يشغل منصب المدير العام لوزارة المواصلات فى عمان — ويعتبر من المؤيدين المتحمسين لتوحيد ضفتى نهر الاردن وكذلك له ابن آخر هو (برهان) الذى راس فى عام ١٩٧٨ وفد الضفة الغربية المؤيد للرئيس المصرى انور السادات ، ولكنه انضم سرا الى منظمة التحرير الفلسطينية وكان احد جنديها . ولو اخذنا مثالا من نوع مختلف ، نجد ان (الشيخ هاشم الخازندار) امام غزة ، والذى لقى مصرعه على عتبة بيته فى عام ١٩٧٩ بسبب تعاونه مع السلطات الاسرائيلية وتأييده للسادات ، كان له ولدان فى منظمة التحرير الفلسطينية .

وربما يكون الياس فريج ، عمدة بيت لحم ، ابرز ممثلى المعسكر المعتدل الحالى — وربما يكون من الملائم بدرجة اكبر ان نقول معسكر الراديكاليين المعتدلين . وتدل سياسته المتسمة بالحذر الواضح على الورطة التى واجهها اولئك الذين يحاولون ان يسبحوا ضد التيار (فبالاضافة الى الشجاعة ، يجب ان يتمتع الزعيم المعتدل فى الضفة الغربية برصيد وافر من البراعة السياسية لكى يكتب له البقاء) . وليس لالياس فريج اى ابناء فى منظمة التحرير الفلسطينية ، ولكنه لا يخفى تأييده لسيادة المنظمة فى الأراضى المحتلة .

وفى الوقت نفسه فان منزله على الطريق الرئيسى بين بيت لحم والخليل، كان ملتقى لعشرات من شخصيات الضفة الغربية المهتمين بتعزيز الخط المعتدل — سواء كان ذلك لاغراض تكتيكية او من حيث المبدا . وهذه الشخصيات تتراوح بين الشخصيات البارزة الموالية للاردن فى القدس ، والشخصيات اللامعة فى جنوب الضفة الغربية مثل « فهد القواسمة » ومحمد ملحم ، وحنا الأطرش ، من بيت ساحور ، وفرج العراج ، من بيت جالا .

ان احد الامثلة على الموقف الحساس الذى يجد المعتدلون انفسهم فيه ، والحيل التى يجب ان يلجاوا اليها فى بعض الأحيان ، نجده فى حادثة صاحبت ضجة بسام الشكعة ، فعندما تم اعتقال الشكعة ، انتظارا لطرده ، دعت لجنة التوجيه القومى كل العمد فى الأراضى المحتلة الى الاستقالة احتجاجا على ذلك . وساورت فريج الشكوك بشان هذه الخطوة والتقى سرا مع قواسمة الذى وافق على ان تلك الخطوة كانت غير سليمة . (ابتكر الرجلان خطة للالتفاف حول امر لجنة التوجيه القومى الصريح واتفقا على ان يتوجه قواسمة الى عمان على الفور لكيلا يكون موجودا ، واذا طلب من فريج ان يستقيل فانه سيقول ان قواسمة ذهب لبحث المسالة مع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية،ولذلك فان اى تصرف سوف يتم ارجاؤه لحين عودته . وكان فريج يتمنى ان تهدا العاصفة قبل ذلك وكانت الخطة تبدو جيدة من الناحية النظرية ولكنها فشلت فشلا ذريعا عندما خضع قواسمة لضغوط لجنة التوجيه القومى واستقال تاركا فريج بمفرده . (لم يكن امام عمدة بيت لحم اى خيار سوى الانصياع لما لا مفر منه .

ويعتبر هذا الحادث نموذجا للمواقف الحرجة التى كثيرا ما وجد فريج نفسه فيهـا) .

ويعتبر فريج فى وضع فريد فى الضفة الغربية بسبب وضع مدينة بيت لحم كمركز يؤمه وزراء وسفراء وشخصيات عامة أخرى من جميع انحاء العالم من اجل الحج .

وهم يجتمعون مع عمدة المدينة من قبيل المجاملة الدبلوماسية ولانهم يهتمون فعلا بسماع ارائه فى مشكلات المنطقة . وعلاوة على ذلك ، فان فريج كان نشطا فى اقامة اتصالات مع الدبلوماسيين الامريكيين المقيمين فى اسرائيل والزائرين لها — وهو ما سبب ازعاجا كثيرا لكل من الحكومة الاسرائيلية ، ومنظمة التحرير الفلسطينية .

كان النشاط الدبلوماسى الأمريكى احد المقومات المؤثرة فى المزيج السياسى بالضفة الغربية . وعندما تم ضم شرق القدس رسميا فى يونيو عام ١٩٦٧ ، رفض قناصل الدول التى كانت قنصلياتها فى شرق القدس ان يعترفوا بسيطرة اسرائيل على المدينة بكاملها . ونتيجة لذلك . فانهم لم يقدموا اوراق اعتمادهم لوزارة الخارجية الاسرائيلية ولم يعتمدهم رئيس اسرائيل للعمل فى الدولة . ولما اصبح هؤلاء القناصل (قناصل مرتدين) بالمعنى الرسمى ، بداوا على الفور فى العمل بطريقة تتناسب وهذا الوضع فبعد حوالى خمسة اشهر من الحرب ، بدا واحد منهم ، وهو القنصل الأمريكى فى القدس الشرقية ، فى الاجتماع مع الشخصيات العربية فى المدينة وفى مختلف انحاء الضفة الغربية . وقد اراد القنصل الأمريكى ، ضمن امور اخرى ، ان يتعرف على موقفهم بشأن اقامة دولة فلسطينية فى الأراضى المحتلة ، وكان ما سمعه منهم هو رغبتهم فى عودة الضفة الغربية الى الأردن .

والتقى القنصل الفرنسى كذلك مع اربعة زعماء من نابلس وعرض الحل الذى تقترحه بلاده وهو الانسحاب الاسرائيلى من الأراضى المحتلة ، ويعقب ذلك اشراف دولى لفترة انتقالية محددة .

ورحب الرجال الاربعة وهم : قدرى طوقان ، ووليد الشكعة ، وحمدى كنعان ، وموسى ناصر ، بذلك الاقتراح ، ولكن عندما راح القنصل يستطلع رايهم فى اقامة دولة فلسطينية مستقلة ابدوا جميعا علامات الاستهجان والرفض .

وقد ادى نشاط القناصل الى زيادة حدة الخلاف مع وزارة الخارجية الاسرائيلية فعندما حدث ان اقنع القنصل الأمريكى زملاءه بمقاطعة حفل استقبال اقامه على شرفهم تيدى كوليك فى ابريل عام ١٩٦٨،وشجع النسوة العرب على القيام بمظاهرة فى يوم استقلال اسرائيل ، بدات الوزارة تصدر

تعليمات فظة مفادها انه من الأفضل للقناصل ان يوقفوا تدخلهم فى شئون اسرائيل . ومع ذلك ، استمر القناصـل فى الاحتفاظ بروابط وثيقـة مع الشخصيات العربية فى القدس والأراضى المحتلة . وكانت القنصلية الامريكية فى القدس نشطة بين عمد الضفة الغربية ـ مما كان يحرج احيانا السفير فى تل ابيب ـ كما كانت القنصلية همزة الوصل بين كبار المسئولين الامريكيين وعمد الأراضى المحتلة .

وقد احجم العمد عن الاجتماع مع كبار الزائرين الامريكيين من امثال سيروس فانس وزير الخـارجية ، ودونـالد ماكهنرى السفير الأمريكى لدى الأمم المتحدة ، والفريد اثيرتون مساعد وزير الخارجية ، بسبب معارضة منظمة التحرير الفلسطينية للاتصالات المستقلة مع الأمريكيين ورفضها الحازم لخطة الحكم الذاتى الواردة فى اتفاقات كامب ديفيد . بيد ان رشاد الشوا والياس فريج اجتمعا مع الامريكيين فى مبادرة منفردة من جانبها وبموافقة البلاط الملكى الهاشمى . وعلى الرغم من ان الاثنين اصرا على انهما أتيا فقط للاستماع ، وانه اذا كان الامريكيين يريدون ان يسمعوا وجهات نظرهما فان عليهم ان يتصلوا بالممثلين الفلسطينيين الرسميين فى بيروت ، الا ان تأكيداتهما لم تجديا فيما يتعلق بتحسين مكانتهما لدى زملائهما العمد الآخرين، الذين نظروا الى مثل هذه الاجتماعات بالكثير من الشك . وقد تعـرض فريج . بصفة خاصة لاتهامات صريحة بالتعاون مع العدو ، بل حتى بالخيانة .

ان من يعرفون الضفة الغربية يكونون مستعدين الى حد كبير لتوفير التفاصيل الخاصة بالصراع بين الياس فريج والعمد الآخرين . فالياس فريج ليس على علاقات طيبة مع بسام الشكعة أو مع كريم خلف عمدة رام الله . وهما يستطيعان التعويل على مساندته لهما فى اوقات الأزمـة كتعبير عن التضامن ، ولكن لا ينطوى هذا بالضرورة على اتفاق فى وجهات النظر . وفى احدى المناسبات . تمادى خلف ـ الذى لا يعرف عنه القدرة على التحكم فى النفس بصفة خاصة . الى حد اهانة فريج علنا . وعندما مد الاخير يده لخلف ليصافحه ، ادار خلف ظهره له ودمدم بكلمة « خائن » ظل فريج هادئا واحتفظ « بحقه فى الرد » فى مناسبة أكثر ملاءمة .

سنحت مثل هذه المناسبة فى فبراير عام ١٩٨٠ عندما تمت دعوة عدد من العمد ، من بينهم الشكعة وخلف وفريج ، الى اجتماع فى عمان مع احد الوزراء الاردنيين ممن يعتبرون من قيادات منظمة التحرير الفلسطينية،واثناء الاجتماع توجه القائد الفلسطينى الى فريج بسؤال تعمد به ان يحرجه وقال : ـ « لماذا اجتمعت مع ماكهنرى واثيرتون وغيرهما خلال زيارتهم للضفـة الغربية فى الوقت الذى قاطعهم فيه كل زملائك ؟ . صوب فريج نظرة سريعة الى خلف واجاب فى نبرة ازدراء واضحة بقوله : ـ « ان العمد الآخرين لم يجتمعوا مع الأمريكيين لانه لم تتم دعوتهم الى ذلك . لقد جعلوا الصحف تنشر الخبر كما لو كان قد طلب منهم ورفضوا ، ولكن لم يكن الأمر كذلك .

اما بالنسبة للاجتماعات ذاتها،فما هو الفارق بين الاجتماع معماكهنرى فى القدس ، والاجتماع مع اندريو يونج (سلف ماكهنرى) فى نيويورك ؟ اننا فى كلتا الحالتين اخبرناهم بأن منظمة التحرير الفلسطينية هىممثلنا الوحيـــد » .

واصابت تصريحات فريج اللاذعة الهدف بشكل واضح ، ولم يكن من السهل مسامحته عليها فى نابلس ورام الله .

ومما يدعو للسخرية ان وجهات نظر فريج ، التى لقيت تغطية واسعة النطاق ، لم تضعف روح التمرد فى مدينته . فبيت لحم شديدة الحساسية للاضرابات التى تحدث مرارا وتكرارا فى الضفة الغربية ، وقد شارك فريج نفسه ـ والذى يملك محلا للتحف القديمة والهـدايا فى الميـدان الرئيسى بالمدينة ـ فى تلك الاضطرابات وخلال احد اضرابات الاحتجاج عام ١٩٨٠ ، حاول الجنود الاسرائيليون ان ينهوا الاضراب بفتح جميع محلات المدينة عنوة وبدأوا زياراتهم لتجار بيت لحم بالتوجه الى محل فريج وعندما رفض العمدة ان يفتح المحل قام الجنود باقتحامه بالقوة . خرج فريـج من هذه الحادثة خاسرا بكل المقاييس . فهو لم يتعرض فقط لتأنيب شديد من جانب الحكومة العسكرية بل ان خصومة فى بيت لحم وفى انحاء الضفة الغربية ابتهجوا ايضا بما اصابه من حزن ، متهكمين بقولهم انه حتى « تعاونه » مع السلطات الاسرائيلية لم يحمه من عقابها .

ولسوء حظ فريج ، كان ذلك صحيحا الى حد كبير . فعلى الرغم من شهرته كأحد المعتدلين،فانه لم يستطع الادعاء بأن موقف الحكومةالعسكرية ازاءه يكون دائما وفق مراده ، ومن المؤكد انه لم يحظ بأية معاملة خاصة من سلطات الاحتلال .

وعلى سبيل المثال فانه فى اوائل عام ١٩٨٠فرضت الحكومة العسكرية قيودا صارمة على العمد ، وأمرتهم بالا يتجاوزوا حدود مدنهم .

وفى احد أيام الاحاد حضر فريج ـ وهو مسيحى ـ قداسا فى كنيسة (مار الياس) وهى تقع على مسافة ميل واحدخارج نطاق بيت لحموبمجردان عاد فريج الى منزله استدعاه رقيب ، يعمل بالنيابة عن الحاكم العسـكرى الى المقر المحلى ووبخه بقسوة . وبعد هذا الاذلال قال لى فريج فى صوت يرتعد بالحنق والغضب : « المرة القادمة سوف يربطونى فى عمود بوابتى . اليوم وبخنى رقيب وغدا ربما يتم ذلك بوساطة حارس الحاكم العسكرى او طاهيه » ! .

حاول فريج ، وقد احس بعزلته المتزايدة ، ان يقيم لنفسه شبكة من التحالف وبدا باقامة علاقات طيبة مع نهد قواسمة . ومع ذلك فعندما بدا

نجم قواسمة فى الصعود فى الضفة الغربية وبدا يسير فى تيار عمدتى نابلس ورام الله ، تأثر التفاهم بينهما بشكل ضار .

وقد تضايق فريج بحق عندما تم طرد عمدة الخليل ، ولكنه حمل حليفه السابق مسئولية ما لحق به من ضرر . قال لى فريج : — « انه لعار حقا بالنسبة لقواسمة . لقد نصبوا له فخا فوقع فيه » . قد يكون الأمر كذلك ، بيد ان المراقبين للساحة السياسية فى الضفة الغربية يعتقدون ان فريج قد وقع فى فخ خاص به — رغم انه فخ من نوع مختلف تماما . فمن ناحية ، لا يعتبره الاسرائيليون زعيما ذا منزلة جديرة بالاهتمام ، ومن ناحية اخرى ، فقد سخر منه مواطنوه صراحة بسبب اعتداله الذى لا يوجد ما يقابله . ويعانى فريج من مجموعة من الصراعات فى مدينته .

فنائبه جورج حزبون ، وهو عضو بالحزب الشيوعى ، يتحين الفرصة التى يستطيع ان يستولى فيها على كرسى العمدة . وعلاوة على ذلك ، فان التحالف الثلاثى الذى كان يضم بيت لحم والخليل وغزة ، خسر الخليل وربما لم يعد هناك من حليف لفريج سوى رشاد الشوا .

بينما نجد ان الياس فريج هو بلا شك اكثر المعتدلين المعروفين فى الأراضى المحتلة ، الا انه ليس اكثرهم وضوحا فى مناصرته لوجهات نظره — فهناك آخرون — من المؤكد انهم يتلاشون — معروفون بأنهم خصوم لمنظمة التحرير الفلسطينية . ويدخل ضمنهم « مصطفى دودين » من الخليل والذى كان وزيرا اردنيا سابقا ، « وحسين شيوخى » وهو من الخليل ايضا وله روابط وثيقة بالحكومة العسكرية . وعلى الرغم من الحوار الجارى بين الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية ، فان هؤلاء الخصوم للمنظمة تلقوا دعما من عمان ومن جهات اخرى مرتبطة بنظام حسين . وقد عبروا عن معارضتهم فى تصريحات مختلفة ، ومن خلال اتصالاتهم مع المسئولين فى الحكومة العسكرية — وتمت مكافأتهم بتمييزهم فى مجالات مثل منح تراخيص التصدير والاستيراد للتجارة مع الضفة الشرقية ولكنهم لم يهاجموا منظمة التحرير الفلسطينية بشكل صريح ابدا خوفا على حياتهم .

وكثيرا ما سمعت الاسرائيليين يشكون من انهم لم يجدوا صوتا معتدلا على الاطلاق . وبدون شك ، فان وجود معسكر معتدل اكثر جراة واكثر صراحة سوف يؤثر بعمق فى الراى العام فى اسرائيل الى الاحسن ، ولهذا السبب وحده نجد ان ضعف المعتدلين امر يؤسف له . وعلى الرغم من ذلك ، فان المرء لايمكنه ان يلومهم على تكتمهم ، طالما ان الامور قد وصلت الى حد ان اى شخص يتجرا على التعبير عن اراء مخالفة سيدفع حياته ثمنـــا لذلك .

حقيقة ان الفلسطينيين الذين شجعوا التقارب بين مصر واسرائيل وايدوا اتفاقات كامب ديفيد كان لهم تاثير ايجابى على الراى العام الاسرائيلى ،

لكن الأحداث التى اعقبت تصريحاتهم الشجاعة ، اعطت سببا وجيهـــا لأفكار اخرى . فقد اعلن اباحة صـيد مؤيدى الرئيس السادات فى الأراضى المحتلة . واصيب حمدى القاضى وهو مسئول كبير فى وزارة التعليم فى رام الله بعيار نارى على سلم بيته .

ولقى هاشم الخازندار فى غزة نفس المصير . واصدرت « محكمة ثورية » احكاما بالاعدام ضد تجار الأراضى المحليين للتعامل مع اليهود ، وتم تنفيذ بعض هذه الأحكام . من الواضح اذن أن المرء يمكنه ان يكون معتدلا كما يشاء طالما انه يحتفظ بآرائه لنفسه .

بعد قتل الخازندار اخطر رشاد الشوا بأن اسمه هو التالى فى القائمة وكرجل داهية توجه عمدة غزة مباشرة الى بيروت واجتمع بياسر عرفات ونجح فى رفع اسمه من قائمة منظمة التحرير الفلسطينية الخاصة بالمحكوم عليهم بالاعدام . بيد ان الجانب النفسى الذى جعل (محكمة ثورية) تعلن حكما باعدام رجل مثل الشوا ليس من السهل فهمه . فعندما يتقابل ممثلو المعسكر الراديكاليين بسياسى اسرائيلى فانه يتم وصـفهم بأنهم ابطال مستعدون لتلطيخ سمعتهم بالاتصال مع احد الاسرائيليين ولكن عندما يلتقى من يسمى بأنه معتدل مع احد الاسرائيليين ، فانه يتم شـجبه باعتبـاره خـائنا .

ان الشىء المحير بالنسبة للممارسات السياسية الراديكالية والمعتدلة غير المفهومة هو ان بعض الراديكاليين اجتمعوا فعلا مع كبـار المسـئولين الاسرائيليين . فقد اجتمع موشى ديان . قبل وقت قصير من استقالته كوزير للخارجية فى حكومة مناحيم بيجين ، مع اثنين من المثلين البارزين للجناح الراديكالى هما الدكتور حيدر عبد الشافى (من غزة) والدكتور احمد حامزى النتشة من الخليل . (واجتمع فهد قواسمة الذى تم اتهامه ذات مرة بالتآمر لطرد النتشة لأغراض خاصة به ، مع وزير الدفاع عيزرافيتسمان فى عام ١٩٧٨ لكى يسمح للدكتور النتشة بالعودة ثانية الى بلده . واخبر فايتسمان الصحفيين بعد ذلك ان النتشة تعهد بعدم الاشتراك فى اى نشاط يمكن ان يعتبر بمثابة تحريض ، ورد النتشة بأنه لم يلزم نفســه بشىء وسرعـان ما استأنف نشاطاته فى الحزب الشيوعى) .

وعندما دعا ديان ضيفيه للتعبير عن وجهات نظرهما بشأن المستوطنات الاسرائيلية فى الأراضى المحتلة كانت اجابة دكتور النتشة الجاهزة هى انه وعد وزير الخارجية بأن العرب سوف لا يرضون ابدا عن وجود المستوطنات. واقسم بلا خجل قائلا : « اننا سنقوم بتوطين لاجئينا فى تلك المستوطنات بمجرد ان تقوموا باخلائها » .

بعد اجتماع ديان مع نتشة وعبد الشافى ، اعرب عن اهتمامه بالاجتماع مع متطرفين فلسطينيين آخرين . وقال لى الياس فريج الساخط :

« من المحتمل ان ديان يريد ان يذهب الى اوربا ليقول للجميع انه يجرى حوارا مع الفلسطينيين . ولا يسعنى الا ان استخلص انكم ايهاالاسرائيليون تنخدعون بسهولة بالشعارات ، وهو امر غريب » . ومثل غيره من قبل ، اتهم مصطفى دودين اسرائيل بمساندة الراديكاليين « لدرجة انك تستطيع ان تذهب لتصرخ للعالم انه لايوجد من تتحدث اليه — وهذا المنطق هو الذى مكن العمد الراديكاليين من ان يسودوا فى عام ١٩٧٦ ، وهذا هو الاسلوب الذى تصرفتم به دائما » .

تدل هذه التعليقات على خيبة الأمل التى عبر عنها المعتدلون سرا فى مناقشتهم لسوء تناول اسرائيل للموقف . وعلى الرغم من ان العديدين بعلاقة وثيقة مع عمدة القدس تيدى كوليك ، وتمنى ان ترى حكومة اسرائيل فوائد مثل هذه العلاقة وتعمل على تعزيز الروابط بين اسرائيل والاراضى المحتلة بالتركيز على التعاون الاقتصادى والسياحة والعلاقات الانسانية . وبدلا من ذلك كان هناك مشروع جديد للتنمية السكنية الاسرائيلية فى جيلوح فى منتصف الطريق بين القدس وبيت لحم .

ومع ذلك فان هناك شيئا بالنسبة لالياس فريج لايمكن اغفال الاشارة اليه — فعندما قام جاستون ثورن المسئول فى الجماعة الاقتصادية الاوربية بزيارة لكى يشجع مبادرة الجماعة الأوربية الخاصة بحل مشكلة الشرق الأوسط ، طلب عقد اجتماع مع عمد الضفة الغربية .

ووصل فريج مبكرا الى الاجتماع الذى رتبه القنصل البريطانى فى القدس الشرقية واخذنى جانبا ليتحدث الى . قال فريج مركزا على الموضوع المفضل لديه » : — يجب اقناع منظمة التحرير الفلسطينية بالاعتراف بحق اسرائيل فى الوجود فى الوقت « الذى تطالب فيه باقامة دولة فلسطينية بجوار اسرائيل » .

بعد ذلك : عندما ذكرت تصريح فريج لصحفى من صحيفة (الفجر) المحلية ، حذرنى الصحفى اننى اطمع فى اوهام . فالتصريحات الودية شىء والواقع شىء آخر وغالبا ما يكون قاسيا تماما . قال زميلى الصحفى معبرا عن وجهة النظر الاكثر انتشارا : — « لقد تحول فريج عن جبهة الرفض واستراتيجية النضال المسلح . ولابد من اعادته الى هذا الصف على الفـــور » .

وبغض النظر عن العنف البدنى ، فان الطريقة المتبولة لاعادة رجل ما الى الصـف كانت القيـام بحملة من الهجـوم الشخصى ضـده للقضاء على الثقة فيه . والمعتدلون فى الضفة الغربية حساسون للغاية بالنسبة لصورتهم العامة لاسباب ليس اقلها ان عملية تلطيخ سمعة اية شخصية بارزة تكون عادة سريعة ومن المتعذر ازالتها . فالشخص الذى

يتم تصنيفه على انه متعاون او خائن لا تكون امامه فرصة لتبرئة نفسه ولا بجدية فتيلا ان يرعوى ويبدا فى اطلاق شعارات متطرفة ، لان الثقة فيه تكون قد تلاشت بالفعل ومن بين هؤلاء المنبوذين يوجد عدد من الرجال البارزين والموهوبين الذين لا يجد اعتدالهم وخبرتهم متنفسا : — مثل — : «الاستاذ نافزنزال من كلية بيرزيت والمحامى عزيز شحاته من رام الله ، وافـراد عائلة الجعبرى من الخليل ، وعائلة المصرى من نابلس ، وعمدتى بيت جالا وبيت ساحور ، ونور نسيبه وانور الخطيب من القدس » ويدرك اى مراقب موضوعى للاحداث ان ظلما رهيبا قد اصابهم فى حين انهم لا يقلون وطنية عن الزعمـاء الأكثر تشـددا .

ومن قبيل التناقضات ان الحزب الشيوعى الذى يعتبر موقفه الرسمى قريبا من موقف المعتدلين ، هو اكثر الاتجاهات تشـددا فى التنـديد بهم . وقد استمر الحزب الشيوعى ، الذى حظر الاردن نشاطه ، يعمل فى الخفاء حتى عام ١٩٦٧ عندما تم منحه مهلة ، وسرعان ما عاد الى الظهور بشكل مؤثر . كانت الجبهة الوطنية الفلسطينية وهى الجناح العسكرى للحزب ، هى الاولى فى الظهور ، وقد نجح اعضاؤها فى القيام بعدد قليل من الهجمات الارهابية قبل ان يتم اعلان عدم شرعية الجبهة وحلها . وفى مواجهة هذه الانتكاسية خشى زعماء الحزب فى البداية على سلامتهم وامتنعوا عن عقد اية اجتماعات . ولكن بالتدريج اصبح من الواضح ان الحكومة العسكرية ليست لديها سياسة واضحة حاسمة تجاه الحزب الشيوعى . ولم يمض وقت طويل حتى استانف الاعضاء المخضرمون عملية بناء كوادر الحزب . تكونت القيادة المحنكة للحزب من شخصيـات معروفة تماما من امثـال الدكتور النتشة من الخليل ، وجورج حزبون من بيت لحم ، وابراهيم دقاق من القدس ، وبشير برغوتى من رام الله ، وخلدون عبد الخالق عبد الحق ، وهو مقابل بناء من نابلس . وتوجد معاقل هذا الحزب القوية فى القـدس ونابلس ، رغم ان له خلايا فى انحاء الضفة الغربية . وفى عام ١٩٧٨ بدا الحزب فى نشر مجلة اسبوعية باسم (الطليعة) ساعدت على نشر مذهبه وكسب العديد من الاتباع . وتوجد روابط وثيقة للشيوعيين فى الضفة الغربية مع قائمة الشيوعيين الجدد (راكاح فى اسرائيل) مما يزيد من قوتهم .

وطبقا للخط الشيوعى الرسمى ، فان الحل الممكن الوحيد لنـزاع الشرق الأوسط هو وجود دولتين تتمتع كل منهما بالسيادة هما : — دولة اسرائيل ، وكيان فلسطينى مستقل . وفى الظاهر ، يعتبر هذا قريبـا جدا مما يقترحه المعتدلون — غير ان من المعروف ان زعماء الحزب يلعبون لعبة مزدوجة:فتصريحاتهم الموجهة للاستهلاك المحلى رددت صيحة الحرب التى يطلقها الراديكاليون والتى تدعو الى تدمير الدولة اليهودية . ولكن عند مخاطبة الأجانب فانهم يكونون حريصين على الاشارة الى الخط الرسمى السوفيتى (*) .

(*) لا يعترف الاتحاد السوفيتى الا بخطوط التقسيم التى ينص عليها قرار الامم المتحدة لعام ١٩٤٧ والتى لم تطبق مطلقا كما يظهر فى خرائطه باعتبارها حدود اسرائيل .

لقد قابلت الزعماء الشيوعيين فى الضفة الغربية ودائما كنت اتأثر بفطنتهم السياسية واتزانهم . وفى فبراير عام ١٩٧٦ عندما تقدم الدكتور احمد حمزى نيتشة للترشيح لمنصب عمدة الخليل ، قمت بزيارته فى منزله هو وزوجته فرنسية المولد ، والتى تعتبر ايضا شيوعية نشطة. وعلى الرغم من ان الحكومة العسكرية طردت نتشة بتهمة الاثارة عقب ذلك على الفور. الا اننى وجدته مضيفا كريما الى اقصى حد وكانت طريقته السلسة فى الحديث مقنعة بدرجة كبيرة . ووجهة نظر نتشة صريحة وواضحة : ــ تقسيم فلسطين الى دولتين ، وتعليق الحكومة العسكرية ، ووقف الاستيطان اليهودى فى الأراضى المحتلة ، وتفكيك المستوطنات القــائمة ، ولا يمكن بالضرورة ان يضعه اى من هذه المواقف فى عداد الراديكاليين ، رغم انه من الواضح انها قوية الى حد يكفى لاثارة حنق الحكومة العسكرية وفى نفس الوقت فان ارتباطه بالحزب الشيوعى يفيده كوقاء فى مواجهة هجمات اولئك الذين قد يعتبرون آراءه ليست فعالة بالقدر الكافى .

ان قصة الصحفى (محمد خاصى) تعكس جانبا آخر من المأزق السياسى والشخصى للشيوعيين الفلسطينيين . فحتى عام ١٩٤٨ كان خاصى واحدا من زعماء الحزب الشيوعى فى الاقليم الذى اصبح قطاع غزة فيما بعد .

اتبع « الحمر فى غزة » ــ حسبما سماهم المصريون ــ بصراحة خط موسكو الرسمى فى مساندة تقسيم فلسطين الى دولتين ــ وهو موقف رفضته الدول العربية فى ذلك الوقت . ونتيجة لذلك قام المصريون باعتقال (خاصى) وتم ايداعه فى احد المعتقلات فى سيناء .

واستولت قوات الدفاع الاسرائيلية على ذلك المعسكر فى حرب عام ١٩٤٨ ، ونتيجة لتدخل زعماء الحزب الشيوعى الاسرائيلى ، تم اطلاق سراح خاصى واعيد الى اسرائيل . وقد تزوج سيدة شابة من قرية شفارام بالجليل وانضم الى الحزب الشيوعى الاسرائيلى ــ وسرعان ما اضطلع برياسة تحرير صحيفة الحزب الناطقة بالعربية (الاتحـــاد) وذلك لمـــا اشتهر به من ذكاء حاد فى المجادلات .

عندما استولت قوات الدفاع الاسرائيلية على قطاع غزة عام ١٩٧٦ وقع خاصى فى خلاف حاد مع رفاقه المحليين فى الحزب وقرر العودة الى الاقليم الذى ولد فيه . وقد وافق جهـــازالامن الاسرائيلى ــ الذى سره التخلص من هذا الوبال ، على طلبه بابتهاج ، ولكن تم منع خاصى من الاشتراك فى الممارسات السياسية فى غزة . وقبل خاصى هذا الشرط وقطع كل روابطه بالحزب الشيوعى وكرس نفسه كلية لوظيفته الجديدة كسكرتير لرشـــاد الشـــوا عمدة غزة وهو المنصب الذى شغله حتى اغسطس عام ١٩٨٠ وقد انضم ابنه ماجد الى منظمة فتح وهو الآن طالب فى القاهرة . وتحرك خاصى نفسه بشكل مطرد ليكون اقرب الى المعسكر المعتـــدل ،

وبعد زيـــارة الرئيس الســـادات للقدس اظهر تأييدا صريحا للتصـــالح . وفى الواقع ، فانه استقال من منصبه فى غزة لخلاف بينه وبين الشوا حول اقتراح السادات الخاص بتقديم الحكم الذاتى فى قطاع غزة اولا . فقد عارض الشوا الفكرة ، وكان خاصى يرى انه يجب قبولها .

لم تكن هناك مشكلة بالنسبة لى فى ان اجد لغة مشتركة مع محمد خاصى . فقد كان من السهل قيام رابطة بيننا ، بعد ان قمت بعدة زيارات له فى مكتبه بمبنى البلدية وفى بيته ، باعتباره « واحدا منا » عربيا اسرائيليا يفكر بمفاهيم اسرائيلية ويعتقدخاصى ان الوقت قد حان لكى يتعايش الفلسطينيون مع الواقع . وهو يقول : ــ « ان اية خطوة نحو السلام تستحق تأييدنـــا لأنه لا يوجد سبيل آخر . « انه رجل شجاع بشكل غير عادى ولكنه رغم ذلك يخشى على حياته . ومع ذلك ، فانه يعرف ان الحماية الاسرائيلية الصريحة له ستحرمه من ان يكون عاملا سياسيا له اى تأثير .

هذا ، ويعتبر حسين شيوخى المحامى احد المعتدلين الآخـــرين الذين اضطروا الى الاستسلام لضغوط الراى العام . وقد قابلت شـــيوخى فى مكتبه فى رام الله بعد ان اعلن تأييده لمبادرة الرئيس السادات الســـلمية واعتزامه رئاسة وفد من الضفة الغربية الى القاهرة كايماءة على تقـــدير الرئيس السادات . وكان هناك حارسان موجودان خارج مكتب شيوخى وكانت كل سيارة تتوقف فى الشارع اسفل مكتبه تجعله يهرع للبحث عن مكان يحتمى به . وتحدث شيوخى بشجن عن موقفه فقال : ــ « انه من الصعب ان تكون معتدلا اليوم ، ولكن لابد ان يلتقط شخص ما « عصا القيادة » ولذلك فقد قررت ان اصبح الفدائى الذى توجه اليه كل الســهام . وعلى الأقل ســوف يعرف من يـــأتون بعـــدى كيف يجب ان يقـــاتلوا « وضد من يجب ان يناضلوا » .كانت كلمات شجاعة ، ولكن لم يستطع شيوخى الصمود طويلا . فعندما تزايد الضغط عليه ، لجأ الى قريته فى تلال الخليل انتظارا للعاصفة واحتجب مؤيدوه عن الانظار . وفى النهاية راس برهان الجعبرى الوفد الى مصر ، رغم ان القاهرة لم تكن تتعجل استقبال هذا الوفد ، فقد كان المصريون يأملون فى انه يمكن ــ اذا اتيح مزيد من الوقت ــ تنظيم مجموعة اكثر تمثيلا وتأثيرا . وفى نهاية الأمر ، كانت النتيجة الوحيدة التى اسفرت عنها هذه الخطوة المؤيدة للسلام هى تزويد فهد القواسمة « بالرصيد » السياسى الذى يمكنه من اعلان ان الجعبرى فشل فى سعيه الى القيادة وانه لم يمثل احدا اللهم الا عائلته المهزومة .

وفى عام ١٩٨٠ بدا ان مكانة المعسكر المعتدل قد وصلت الى الحضيض . فقد انضم برهان الجعبرى الى منظمة التحرير الفلسطينية فى عام ١٩٧٨ واختفى حسين شيوخى من الساحة ، وكان الياس فريج مستمرا فى المناورة لشق طريقه (بين قطرات المطر) فى الوقت الذى يجاهر فيه ليلا ونهارا بان منظمـــة التحرير الفلسطينية هى الممثل الوحيد للشعب الفلسطينى .. لقد بدا ان الاعتدال قد انهزم .

وبقدر ما يصح مثل هذا التقييم ، بقدر ما يقع جانب كبير من المسئولية على الأردن ، فقد ارتبطت قوى الاعتدال عامة بالاتجاه الموالى للاردن وهذا أمر غير مستغرب حيث ان معظم المعتدلين كانوا تجارا لهم مصالح اقتصادية فى الأردن أو كانوا جزءا من المؤسسة السياسية الأردنية قبل حرب عام ١٩٦٧ .

ولكن كما راينا فى حالة برهان الجعبرى، مالت العلاقات بين المعسكرات المختلفة فى الضفة الغربية الى ان تكون معقدة ومائعة ، كما ثبت أن المواقف تتغير بسهولة وتثير الدهشة . وعلاوة على ذلك ، فان هذا الوضع ليس قاصرا على الضفة الغربية . فالحوار السياسى الذى بدا بين الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية فى عام ١٩٧٨ على سبيل المثال ، سحب السجادة من تحت اقدام المعتدلين فى الضفة الغربية واضعف الرابطة بينهم وبين البلاط الهاشمى .

هذا وقد حظى احتمال حل المشكلة الفلسطينية من خلال (الخيار الأردنى) بانبعاث جديد مؤخرا فى اسرائيل. ومما لاشك فيه أن أصحاب هذا الحل ، وبصفة خاصة فى حزب العمل الاسرائيلى — يرون فيه سبيلا طيبا لكى تتخلص اسرائيل من السكان الفلسطينيين الخاضعين لحكمها ، والذين أصبحوا يشكلون عبئا كبيرا عليها ، وفى نفس الوقت لكى يتم اشراك الملك حسين فىمفاوضات السلام كضمان لعدم اقامة دولة فلسطينية مستقلة . وكان لابد من الناحية الظاهرية ، أن تؤدى العودة الى سياسة مغازلة الأردن ، الى تعزيز وضع العناصر المعتدلة بالضفة الغربية . بيد ان رواد الاعتدال درسوا الخريطة السياسية الاسرائيلية بامعان ويبدو انهم يحفظون عن ظهر قلب جميع خباياها ، وهو ماقادهم الى القيام ببعض الانحرافات المفاجئة .

فانور الخطيب ، الذى يجسد الدعوة الى الاندماج مع الأردن ، راح يتملق رئيس الوزراء مناحيم بيجين ، المناصر للاحتفاظ بالضفة الغربية ، وينتقد حزب العمل الاسرائيلى على موقفه الغامض والضار من هذه المسألة. وراح الخطيب يعيد الى الأذهان ان سياسة (الأمر الواقع) تم تطبيقها لأول مرة فى الأراضى المحتلة فى ظل حكم حزب العمل : — فقد تم بناء كريات اربع، وتم التوطين من جديد فى منطقة اتزيون ، وتم تأسيس المستوطنات فى وادى الأردن ، وتم السماح لمستوطنى جماعة جوش ايمونيم بارساء موطىء قدم لهم فى سماريا وذلك باقامة معسكرهم فى قادوم . ويعترف الخطيب بأن حكومة ليكود برئاسة بيجين قامت ببناء المزيد من المستوطنات فى الأراضى المحتلة ، وبصفة خاصة فى منطقة سماريا الأكثر كثافة سكانية . وعلى الرغم من ذلك . فقد كان حزب العمل هو الذى وضع السابقة ، وصاغ الأسس الايديولوجية لسياسة الاستيطان .

والسؤال الهام هنا ، بطبيعة الحال ، هو ما اذا كان (الخيار الأردنى) لا يزال ممكنا أم انه مجرد اثر لعصر مفقود فى التاريخ السياسى للشرق الأوسط فعلى ضوء تنازل الملك حسين ، فى مؤتمر قمة الرباط ، عن دوره كمتحدث باسم الفلسطينيين فى الفترة التى ترجع الى عام ١٩٧٤ . ولكن حقيقة أن الحديث عن (الخيار الأردنى) لا يزال يتردد بالحاح بعد كل هذا الوقت ، ويجعل المرء يشك فى أنه لابد انه ينطوى على شىء — وذلك اذا استندنا فقط الى المنطق الذى يقضى بعدم وجود دخان بدون نار . واذا افترضنا ، من أجل المناقشة ، ان الملك حسين سيكون مستعدا للخوض من جديد فى الوضع الفلسطينى المعقد ، فسيبقى هناك عامل لا يمكنتجاهله وهو بالتحديد ، الفلسطينيون انفسهم وكيف يرون هذا الخيار . وهنا أعتقد — ان لتجربة « عزيز شهادة » دلالتها .

ففى ١٠ اغسطس عام ١٩٧٧ ، بعث « شهادة » ، وهو محام من رام الله بخطاب الى سيروس فانس وزير الخارجية الامريكى يعرض فيه وجهة نظره بشأن القضية الفلسطينية . كان الخطاب نموذجا للاعتدال المتوازن فى تاكيده على ان (الاسرائيليين والفلسطينيين يجب ان يعترفوا بالحقوق المشروعة المتبادلة لكلا الشعبين فى ان تكون له دولة قومية ذات سيادة فوق الأرض التى يدعى منهما ان له الحق فيها . ومضى الخطاب يحذر من أن القدس .... يجب الا يتم تقسيمها من جديد بسور) واقترح كحل « الا تكون هناك مدينة مقسمة ولكن سيادة مشتركة للاسرائيليين والفلسطينيين». وعلى الرغم من ان هذه الوثيقة اكدت مرارا على ان الحل العادل الوحيد هو اقامة دولة فلسطينية مستقلة « فى داخل حدود تكون ثمرة اتفاق يتوصل اليه (الاسرائيليون والفلسطينيون) » الا ان فقرة قصيرة أشارت الى مكانة للأردن فى اطار المشروع الاكبر ، وتقول هذه الفقرة « اننا نحن الفلسطنيين نعتقد أن مستقبلنا يرتبط بالعالم العربى ، وبصفة خاصة بالأردن . ويمكن أن يتحقق هذا فقطعن طريق الاتفاقمع الملك حسين والملكة الأردنية الهاشمية. اننا لا نريد ان يقدم لنا حل جاهز » .

وسواء بسبب غموض كلمة « هذا » الواردة فى الفقرة التى ذكرناها ، او بسبب وقاحة « شهادة » فى تخطيه لمنظمة التحرير الفلسطينية ومخاطبته حكومة الولايات المتحدة مباشرة ، فقد تعرض لضغط شديد وانتقاد قاس ، واجبر على نشر ترجمة عربية للوثيقة ، وفى تقديمه لها أعاد التأكيد علىاهمية اقامة دولة فلسطينية ، بينما لم يشر الى الأردن كطرف فى النزاع وفى حله. وفى تحليل مضمون رد الفعل البالغ الحساسية على خطاب « شهادة » فاننا يجب ان نتذكر أن التاريخ كان هو اغسطس عام ١٩٧٧ — اى قبل تأسيس لجنة التوجيه القومى باكثر من عام ، وقبل عودة بسام الشكعة الى نابلس ، وتحول فهد قواسمة الى الراديكالية ، وانبعاثالارهاب الطائرة ضد كل من الفلسطينيين والاسرائيليين . ويأخذ كل ذلك الذى حدث منذ ذلك الوقت فى الاعتبار ، هل يصبح بمقدور احد أن يعتقد ان الاحاسيس بالنسبة للمسالة الأردنية قد نضجت ؟

واكثر ما يثير الحزن ان المعتدلين قد هزموا تماما فى معركة كسب قلوب الشباب ، قادة المستقبل ، ويرجع جانب كبير من هذه الهزيمة الى انهم لم يتمكنوا من تقديم اى تفسير مقبول لسلوك اسرائيل فى الاراضى المحتلة . وكان التباين الواضح فى العقوبات التى يلقاهـا كل من الفلسـطينيين والاسرائيليين عن نفس التهم يشكل استفزازا كافيا . وكانت امثلة ضبط النفس الواضحة من جانب قوات الدفاع الاسرائيليةفى تعـاملها مع الحاخام ليفنجـر ، و « مدافعى كريات اربع » فى عـام ١٩٧٦ تثير السـخط بمافيه الـكفاية . ولـكن فى مايو عام ١٩٧٩ ، وصلت الأمور الى ذروة المهزلة فى حادثة مقاومة المستوطنين فى نيعوت سيناء على ساحل سيناء الشمالى ، لعملية اخلاء مستوطنتهم ، حسبما تقضى بذلك بنود معاهدة السلام المصرية — الاسرائيلية . فقد قذف المستوطنون المتمردون الجنـود الاسرائيليـين بالمشاعل الملتهبة ، ولـكن عندما تم تقديمهم للمحاكمة على سلوكهم المعوق ، تم تقديم اسباب لا حصر لها لتبرير دوافعهم ولاستخدام الرحمة معهم ، وتم الحكم على المتهمين بالحبس ثلاثة اشهر فقط ، وحتى هذا الحـكم تم تخفيفه الى عقوبة اقل . ومع ذلك ، فان الطلبة الفلسطينيين اذا ما اندفعوا الى الشوارع او القوا بالحجارة على الجنود الاسرائيليين ، فانه يمكن انيتوقعوا احكاما قياسية . وقد حوكمطالب يدعى « اسامة سعادة » عمره تسعة عشر عاما فى ديسمبر عام ١٩٧٨ بتهمة السلوك بشكل فوضوى والقاء الحجارة على المركبات العسكرية ، وتم الحكم عليه بالحبس لمدة عام ، وبالبقاء عامين آخرين تحت المراقبة ، وبغرامة مقدارها ٢٥ الف جنيه اسرائيلى — أى ما يقرب من ١٥٠٠ دولار .

ولم تشكل مثل هـذه العقوبات اى رادع لاندلاع المـزيد من العنف . ففى الأعوام القليلة الماضية اصبحت كلية « بيرزيت » مرتعا للتمـرد بين الشباب ومثقفى الضفة الغربية ، وقد شاهدت ثورة هذه الجامعة مرارا . وكان الجو مشحونا بالتوتر ، واصبح ممارسة العنف من كلا الجانبين — المتظاهرين والجنود على السـواء — هو المعيـار المعترف به وحشـدت الحكومة العسكرية كل قوتها فى محاولة لحصر اهتمام « بيرزيت » فى الأنشطة التعليمية فقط ، ولكن عندما فشلت كل السبل تم اغلاق الكلية فى ٧ مايو عام ١٩٨٠ بأمر من الحاكم العسكرى . وكان التبرير هو ان : — الطلبة والمدرسين كانوا يقومون بأعمال التحريض ويحاولون تقويض سيادة النظام العام فى انحاء الضـفة الغـربية .

والآن ، نجد ان المؤسسات المشابهة لبيرزيت وجيل الشباب بشكل عام ترسم الطريق لكل سكان الضفة الغربية .

وخلال احدى المظاهرات التى جرت فى معسكر « عمـارى » للاجئين بالقرب من رام الله كان افراد الطاقم الذى يعمل معى هدفـا سـهلا لمن يقذفون بالحجارة ، وكنا محظوظين اذ ابتعدنا دون ان يصيبنا اذى . وفى سوق عام بنابلس ، رايت ذات مرة امراة فى منتصف العمر تصب الماء من

شرفة بالدور الثالث فوق الجنـود الذين يقومون بأعمـال الداوريـة فى الشوارع . ولقد استنشقت الغازات المسيلة للدموع التى غطت شوارع المظاهرات عددا من المرات اكثر مما استطيع أن اتذكر ، واستطيع ان اشهد بمدى فعاليتها كسلاح فى تفريق التجمعات . ولا يزال اولئك الطلبة ومن يكبرونهم سنا يخرجون الى الشوارع لتلقى المزيد .

ماذا اذن عن الأطفال الذين « ولدوا » منذ عام ١٩٦٧ ، والذين لـم يعرفوا اى حكم اللهم الا الادارة العسكرية الاسرائيلية ؟ . اننى لن اغامر بالحديث عن ميولهم السياسية ولكن هناك شيء واحد مؤكد هو ان : — البنات والأولاد الذين يترعرعون فى الضفة الغربية الآن يمثلون جيلا بلا أمل. وفى الواقع ، ما هى نوع الاحلام التى يمكن ان يرعاها شاب من نابلس او الخليل فى هذا الزمن وكيف يستطيع المرء ان يتوقع منه ان يؤمن بأن العلم والتكنولوجيا سوف يحسنان من مصيره ، او ينتشلان شعبه من بؤسه ؟ .

من الغريب ان يتحدث المرء عن (هبة العلم والتطور) فى اقليم يتباهى بأن به مدرسة مهنية واحدة فقط — والغرض من وجودها الغالب دعائى — ويفتقر الى وجود معهد طبى واحد متقدم . ومن المؤكد ان ذلك لا يعتبر تربة صالحة للاعتدال .

وفى مواجهة هذه الحقائق — ناهيك عن ذكر مصادرة الأرض لصالح برنامج الاستيطان الاسرائيلى او التشدد التى تمارسها الحكومة العسكرية — من المستحيل بالنسبة لشخص معتدل فى الأراضى المحتلة ان ينادى باجراء حوار مع اسرائيل بشأن مستقبل المنطقة . ومن الانصاف القول بأنه ليس من السهل بالمثل على المعتدلين فى اسرائيل ان يدافعوا عن قضية التفاهم مع الفلسطينيين .

اذ كيف يمكنهم ان يعللوا الاستخدام المتعسف للارهاب كأداة سياسية؟ وكيف يمكنهم ان يطلبوا منح الحق فى حرية التعبير عن الراى والتجمع فى الأراضى المحتلة فى حين تتحول كل مظاهرة الى دوامة من العنف والقـدح الموجه ضد اسرائيل ؟ وهل يستطيع الشخص الاسرائيلى المعتدل ان يساند بصدق حق الشخص الراديكالى الفلسطينى فى التعبير عن نفسه اذا كانت هذه الحرية سوف يتم استخدامها لسد كل طريق امام التعقل والتوفيق ؟ .

لقد بدات هذا الفصل بتحليل تعبيرى : — معتدل وراديـكالى واننى انهيه باستنتاج ان التمييز بين الاثنين قد تضاءل بسبب حقـائق الحيـاة الواقعية فى الأرض المحتلة . فقد توارى العديد من المعتدلين السابقين خلف ستار التصريحات الراديكالية ، فى حين ان القلة التى تمسكت بوجهاتنظرها قد لجأت الى استخدام المعانى المزدوجة او الى التزام الصمت الـكامل فى اغلب الاحيان . ولا يهم من الذى تصبه الطلقات هذه الأيام ، فان منظمة التحرير الفلسطينية هى التى تخرج فائزة دائما .

الفصل التاسع

الارهـــــاب

اصبح اسم « منظمة التحرير الفلسطينية » مشهورا فى انحاء كثيرة من العالم ، كما اصبح زعيمها ياسر عرفات تجسيدا للنضال الوطنى الفلسطينى. بيد ان المنظمة على الرغم من انهـا تأسست فى مايو عـام ١٩٦٤ فهى لم تصبح عاملا سياسيا له شأنه الا بعـد حرب الأيام السـتة ، عندما بدات الحركة الفلسطينية المبعثرة تتخلص من سيطرة الدول العربيـة المختلفـة وتظهر بذاتها كقوة سياسية وبرلمانية مستقلة . وقد ادت تطورات حدثت فى اجتماع للمجلس الوطنى الفلسطينى فى القـاهرة فى مايو عام ١٩٦٨ ، الى تحقيق ذلك التحول فى وضـع مستقبل منظمة التحـرير الفلسطينية . كان التطور الاول هو سعى منظمة فتح الى فرض سيطرتها داخـل منظمـة التحرير — وهو ما تحقق فى النهاية فى الاجتماع التـالى للمجلس فى فبراير ١٩٦٩ ، عندما حصلت منظمة ياسر عرفات على اغلبية مقاعد المجلس المائة. والحدث الرئيسى الآخر الذى وقع فى اجتماع مايو ١٩٦٨ كان هو اصـدار وثيقة تسمى الميثاق الوطنى الفلسطينى ، وهو الميثاق الذى ابرز الصورة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية الى بؤرة الاهتمام ، وذلك بما تضمنه من ايديولوجية للحرب ضد اسرائيل وعرض تفصيلى لأهداف المنظمة .

وقد ذكرت المادة الاولى من الميثاق الوطنى الفلسطينى ان « فلسطين هى وطن الشعب العربى الفلسطينى وهى جزء لا يتجزء من الوطن العربى الكبير ، وشعب فلسطين جزء من الأمة العربية » .

وفى معرض التأكيد على حق الفلسطينيين فى الاسـتقلال السـياسى وتقرير المصير ، أنكر الميثاق نفس الحق على اليهود ، الذين تم تعريفهم بأنهم طائفة دينية بدلا من كونهم كيانا وطنيا . وباعادة منظمة التحرير الفلسطينية كتابة التاريخ اليهودى بما يتلاءم مع أغراضها ، استطاعت ان تستخلص ان هناك مكانا لليهود فى الدولة الديمقراطية — العلمانية التى اعتزمت اقامتها فى فلسطين وفى نوبة من الكرم نص الميثاق على انه لن يكون من الضرورى على اليهود جميعهم ان يتركوا البلاد . وذكرت المادة ٦ ان : « اليهود الذين كانوا يعيشون بصفة دائمة فى فلسطين حتى بداية الغزو الصهيونى ، سوف يتم اعتبارهم فلسطينيين » . غير انه فى فقرة تالية تم تحـديد بداية « الغزو الصهيونى » بعام ١٩١٧ .

وبالنسبة لوسائل تحقيق أهداف الميثاق قالت مادة ٩ : ان النضـال المسلح هو السبيل الوحيد لتحرير فلسطين وهو لذلك يعتبر استراتيجية وليس مجرد تكتيك .

وسرعان ما اصبح الميثاق الوطنى الفلسطينى شرطا اساسيا ومطلقا بالنسبة لجميع من ربطوا أنفسهم بالقضية الوطنية الفلسطينية . وفى بعض الأحيان هاجمت الشخصيات القيادية فى الأراضى المحتلة ، فى المناقشـات الخاصة ، نص وروح الميثاق .

بيد ان كل من تحدى الميثاق علنا كان يعرض شخصه لخطر كبير — وقد دفع البعض حياتهم ثمنا لما قدموه من انتقاد . وحقيقى ان الأصوات المعتدلة فى داخل منظمة التحرير الفلسطينية طالبت فى السنوات الأخيرة بالتراجع عن المطالبة بكل فلسطين التى كانت خاضعة للانتداب سابقا ، وبالعودة الى فكرة تقسيم البلاد الى دولتين ، ولكن تلك الأصوات تلاشت فى خضم صيحات الحرب التى اطلقها الليوث الشابة ، والتى ارتفعت من معسـكرات اللاجئين فى لبنان ، ومن المؤتمرات الشعبية السياسية فى الضفة الغربية .

وفى الوقت نفسه ، كان الميثاق الوطنى الفلسطينى بمثـابة اشـارة الخطر للمتشددين فى اسرائيل ، وهم يسوقونه لتبرير مطـالبهم الخاصـة بالحزم عند التعامل مع الفلسطينيين . ويقول هـؤلاء المتشـددون ان الرد الوحيد على مثل هذا الاعلان المتطرف هو اتخاذ موقف متصلب لا تنازل فيه. وهكذا فان الميثاق دعم المتطرفين على كلا جانبى النزاع . فمن ناحية ، قدم الميثاق اساسا منطقيا لتنبؤ عرفات المأثور الخاص بأن « فلسطين سقطت فى عاصفة من الحديد والنار وسـوف يتم استردادها بعاصفة من الحـديد والنـار » ، ومن ناحية اخرى فان الميثاق خلق مناخا سـمح للمستوطنين الاسرائيليين فى الأراضى المحتلة بأن يقـولوا انه : اذا كانت الديمقراطيـة ستقلل من امن أرض اسرائيل فمن الأفضل ان نتخلى عن تلك الديمقراطية.

كان استخدام العنف كوسيلة لحل المشكلات السياسية احـد الملامح المميزة لصراع الشرق الأوسط منذ البداية . وقد شجعه حكام الدول العربية لعشرات السنين حتى انهم اسـتغلوا قذارة وبؤس مخيمات اللاجئين لبنـاء كوادر من غير النظاميين المستعدين للتضحية بأنفسهم من اجـل (ارضهم السليبة) . ومن ذلك المنطلق فان الميثاق الوطنى الفلسطينى لم يضـف الا مجرد عنصر ايديولوجى الى الواقع الموجود . وعلى عكس الفدائيين الذين وجدوا فى الخمسينات وكان همهم الرئيسى الانتقام والقتل ، فان ياسر عرفات راى فى الارهاب وسيلة لبلوغ الأهداف السياسية واعطى قيمة لهذا الشكل من العنف بأن أضفى عليه نوعا من الاحترام الايديولوجى . ويمكن ان نلخص مبداه فى العبارة التالية : ان اليد التى تمسك البندقية يجب ان تكون يد شخص واع بذاته .

ومن وجهة نظر منظمة التحرير الفلسطينية ، كان الارهاب متنفسا للاحباط الذى يأكل أرواح اللاجئين الفلسطينيين . وهكذا فان عرفات برر القتل والتخريب كسبل يستطيع اللاجىء الفلسطينى ان يعبر من خلاله عن اصراره على التغلب على عدم المبالاة التى تنمو فى المخيمات ، وان يفعل شيئا لتغيير مصيره . ويقول عرفات لأتباعه : « ان الموت فى عمل ضد العدو افضل من الموت البطىء الدنىء فى خيام الصحراء » .

ومثل معظم الناس فى اسرائيل ، لم ادرك بشكل قاطع ان الرعب قد عاد ليسود من جديد . الا بعد حرب عام ١٩٦٧ . بيد ان استئناف الهجمات الارهابية (بعد فترة توقف طويلة فى اعقاب حملة سيناء) حدث قبل ذلك بعامين ، وقبل قيام اسرائيل بغزو الأراضى التى تحتلها . فقد جاء اول تحرك فى الحرب ضد اسرائيل والتى كانت تشبه لعب القط والفار ، فى ٣ يناير عام ١٩٦٥ ، عندما اكتشف موظف فى شركة مياه (ميكوروت) بعض اصابع الجلجنايت تم وضعها لتنسف خزانا يشكل جزءا من المورد الأقليمى للمياه .

تعقب قصاصو الأثر من بوليس الحدود المخربين حتى قرية « عربة » العربية فى الجليل الأدنى . وكشف استجواب اهل القرية عن أن المتفجرات تم تهريبها عبر الحدود بوساطة الارهابيين .

وعلى الرغم من ان معظم الفرق الارهابية عبرت الحدود من الاردن الى اسرائيل ، فان المركز الرئيسى للحركة الفلسطينية كان فى مصر وكان يديره عبد الرحمن عبد الرؤوف القدوة الحسينى ، الشهير باسم ياسر عرفات . ويقال ان عائلة الحسينى انحدرت من نسل النبى محمد عليه الصلاة والسلام، ولكن ربما يكون من الأصح ان عرفات تربطه علاقة دم مع الحاج امين الحسينى ، مفتى القدس السابق وزعيم الحركة الوطنية العربية الفلسطينية الى ان طرده البريطانيون بسبب انشطته التحريضية وهرب من البلاد فى عام ١٩٣٧ .

ولد عرفات فى القاهرة فى ١٩٢٩ ، بيد انه عادة يزعم متباهيا انه ولد فى القدس بالقرب من الحائط الغربى . وكانت امه من القدس بالفعل ، من عائلة ابو سعود ، التى كانت تقطن بالقرب من الحائط . (تم نسف هذا المبنى فى عام ١٩٦٩ لافساح مكان الميدان العام المواجه للحائط الغربى ، رغم أن عرب القدس يعتقدون أن المنزل تم تدميره بسبب ارتباطه بعرفات). واذا تركنا التناقض بشأن محل ميلاد عرفات جانبا لا نجد اى خلاف على ان عرفات قد ترعرع فى القاهرة هو واخوته الثلاثة :

جمال : وهو احد قادة منظمة فتح ، وفتحى وهو دكتور ومدير الهلال الاحمر الفلسطينى ، واخته التى لاتزال تعيش فى القاهرة مع أسرتها .

ارتبط اسم عرفات بشكل وثيق بمنظمة فتح منذ تأسيسها فى عام ١٩٦٥،

رغم ان بعض الروايات تعود بتاريخ انشاء المنظمة الى عام ١٩٥٨ بل وحتى الى عام ١٩٥١ ولكن الأمر المؤكد هو ان عام ١٩٦٥ كان اول عام يكون للمنظمة فيه مجموعات ارهابية عاملة فى الميدان ، فقد قامت هذه المجموعات بتنفيذ ٣٥ غارة مسلحة فى داخل الأراضى الاسرائيلية . واجتذب قادة المنظمة تأييد كل الدول العربية . ولكن فى سوريا ، حيث استقرت منظمة فتح اول الأمر ، واجه هؤلاء القادة مقاومة لوجودهم بصفتهم قوة مسلحة لا تخضع للسيطرة المباشرة للحكومة . كانت سوريا مهتمة بالفعل بدعم انشطة منظمة فتح ، بيد ان عرفات رفض قبول سيطرة حزب البعث . وقد تم حسم هذه المسألة فى مايو عام ١٩٦٦ ، عندما عبرت فرقة ارهابية الحدود الاسرائيلية وقامت بتلغيم مركبة مدنية قبل الحصول على اذن مسبق من الأركان العامة السورية . وقرر السوريون — الذين تضايقوا — وضع حد لنشاطات منظمة فتح واعتقلوا قادة المنظمة ومن بينهم عرفات .

بعد ذلك اخطر النقيب يوسف عرابى ، وهو ضابط فى احدى الوحدات الفلسطينية فى الجيش السورى ، جميع خلايا منظمة فتح بأن عرفات قد تم طرده ، وانه — اى عرابى — قد حل محله . الا ان عرابى اغتيل بعد ذلك بوقت قصير فى معسكر اليرموك للاجئين — وعلى ما يبدو بوساطة رجال عرفات . وعلى اية حال ، فان قادة فتح تم اطلاق سراحهم بعد فترة قصيرة ونقلوا مقارهم الى خارج سوريا التى حولت مساندتها الى منظمة الصاعقة .

كان تصميم منظمة فتح على الاحتفاظ باستقلالها امرا جديرا بالاهتمام بصفة خاصة فى تلك الحقبة التى كان من الممارسات العادية فيها أن تقوم الدول العربية المختلفة بتنظيم الفرق الفلسطينية تحت رعايتها . وقد ادى ذلك الى ان تقع الحركة الفلسطينية فى صراعات داخلية منذ البداية . فقد شجعت مصر ، على سبيل المثال ، العناصر الأكثر محافظة فى الحركة الفلسطينية والتى كان على راسها احمد الشقيرى الذى كان يشغل فى ذلك الحين منصب رئيس منظمة التحرير الفلسطينية . وكان الشقيرى بدوره ، حساسا ازاء ظهور منظمة فتح وازاء رغبة سوريا فى الهيمنة على الحركة الفدائية الفلسطينية . ومع ذلك ، فان المنافسة بين المنظمات الفلسطينية بالاضافة الى ما سببته من شقاق ، دفعت تلك المنظمات الى اثبات عزيمتها عن طريق العمل ضد اسرائيل — وقد نجحوا بالفعل فى هذا الصدد .

ففى يوم ١٢ نوفمبر عام ١٩٦٦ تسبب لغم ارضى غرسه الارهابيون فى طريق داورية فى صحراء « يهودا » فى مصرع ثلاثة جنود اسرائيليين . وتعقبت قوات الدفاع الاسرائيلية قاعدة عمليات الارهابيين حتى قرية (صموع) فى مرتفعات الخليل ، وقامت بعمل انتقامى تم خلاله نسف اربعين منزلا . لكن حتى هذه العقوبة الشديدة — التى تعتبر علامة على سخط اسرائيل المتزايد ازاء العمليات الارهابية — لم توقف الارهاب وفى الواقع ، عندما اندلعت حرب الأيام الستة ، زعمت منظمة فتح بأنها هى التى فجرتها . كانت هذه، بطبيعة الحال ، مبالغة كبيرة (ارجعها الكاتب المصرى لطفى الخولى

الى « نرجسية منظمة فتح »). ولكن من الحقيقى تماما ان الارهاب على طول حدود اسرائيل خلال العامين السابقين على حرب عام ١٩٦٧ قد اسهم فى زيادة التوتر فى المنطقة .

بعد اسبوعين من وقف اطلاق النار فى ١٠ يونيو عام ١٩٦٧ ، اجتمعت اللجنة المركزية لمنظمة فتح فى دمشق لبحث نتيجة الحرب التى كانت لها وقع الكارثة والتى عملت بهمة على اشعالها . وبينما كانت الدول العربية لاتزال تلعق جراحها ، بدا الفلسطينيون فى وضع الخطط للمستقبل . فتحت الخريطة الجديدة للشرق الأوسط آفاقا جديدة ، وصمم قادة منظمة فتح على ان يحولوا الهزيمة العربية الى نقطة انطلاق نحو تعزيز المنظمات الفلسطينية . وفى المؤتمرات الموسعة التى عقدت بعد الحرب . حاول ياسر عرفات ان يرفع المعنويات المنخفضة لاتباعه بتحذيرهم من ان « الثورة التى تتوقف عن العمل تقضى على نفسها بالانقراض » .

ومن الناحية العملية استنتج عرفات الابد من اعادة النظر فى اساليب القتال ونقل قاعدة العمليات ضد اسرائيل الى « الأراضى المحتلة » وفى الواقع فان عرفات كان قد حدد الهدف امامه وهو : شن حرب تحرير وبالفعل اسس عرفات رؤيته على مفهوم (حرب تحرير شعبية) .

فى يوليو عام ١٩٦٧ تسلل عرفات بنفسه عبر الحدود الى الضفة الغربية بينما كانت قوات الدفاع الاسرائيلية لاتزال مشغولة باتمام مهامها وبمحاولة استعادة الحياة الطبيعية . واقام عرفات مقره فى مبنى مهجور فى سوق نابلس واصبح يعرف بعدة اسماء مستعارة — « ابو محمد » و « الدكتور » ، والدكتور فوزى عرفات وما الى ذلك . وخلال الجولات التى قام بها عرفات فى الضفة الغربية بالموتوسيكل عقد اجتماعات فى المقاهى ، وحاول ان ينظم هيكل قيادة ، وكان طوال الوقت يجند الشباب المحليين فى صفوف منظمة فتح . وكان نائب عرفات فى تلك الفترة هو « ابو ليلى » الذى كان من مواطنى يافا وخريج الكلية الحربية فى بغداد ، وقد اغتيل فى جنين فى نهاية عام ١٩٦٧ .

وكان الرجال الذين عينهم عرفات كقادة محليين كلهم من مواطنى الضفة الغربية . واصبح فايز حمدون ، وهو ضابط مدفعية سابق فى الفيلق العربى، قائدا لقطاع القدس الذى تم تعزيزه بالطلبة الفلسطينيين الذين عادوا من المدارس فى المانيا ومصر وعندما اجبر حمدون على الهرب الى سوريا تم استبداله بـ (كمال نمرى) وهو مندوب صيدلى من القدس الشرقية كان ابنا لزواج مختلط ، فالاسم الأصلى لامه هو : « يتى كلينر » وكان قائد العمليات فى سماريا هو مازن ابو غزالة ، وهو سليل اسرة شهيرة فى نابلس لقى مصرعه ايضا خلال اشتباك مع القوات الاسرائيلية فى سبتمبر عام ١٩٦٧ .

وكانت نابلس هى القاعدة الطبيعية لعمليات منظمة فتح بسبب نشاط القوميين العرب (وهو الاسم الذى يطلق على اتباع حزب البعث السورى) هناك منذ امد طويل ، وهو ما جعل المدينة بمثابة ارض خصبة لمحاولات عرفات تجنيد العناصر لمنظمته. ومع ذلك — فقبل مرور وقت طويل كانت الخلايا وقواعد التدريب تنبثق من جميع انحاء سماريا . غير ان ثمن هذا النمو الكبير الذى تم بطريقة غير منظمة هو ظهور نوع من عدم الانضباط ليس فى وسع حركة سرية تحمله . فلم تتم مراعاة قيود السرية ، ولم يجشم المجندون انفسهم عبء اخفاء اسلحتهم ، وبدات السيطرة على الشبكة تتسرب من ايدى عرفات. وعلى الفور تنبهت الحكومة العسكرية الى الموقف ، وفى سبتمبر عام ١٩٦٧ وجهت ضربة انتقامية . حاولت الفرق التى تسللت من الأردن ، وكذلك الخلايا المحلية ان تقنع القرويين فى الضفة الغربية بأن يوفروا لها التغطية اللازمة، ولكن رسالة الحكومة العسكرية كانت أوضح واقوى ، وقام الفلاحون بطرد الارهابيين .

ورغم ان الارهابيين اصبحوا مطاردين ، الا انهم حاولوا ان يكثفوا انشطتهم ، ففيما بين سبتمبر وديسمبر عام ١٩٦٧ ، نفذوا ستين عملية ضد اسرائيل ، وكانت العمليات موجهة ضد اهداف مدنية — مصانع ، وبيوت ، واماكن التجمع العام مثل دور السينما . ومع ذلك فانهم لم يحققوا فى هذه المرحلة المبكرة الا القليل ، ويرجع ذلك فى الغالب الى عدم الاتقان فى عملياتهم. وقد عزف الشباب الذين اشتركوا فى هذه العمليات عن الاقدام على مخاطر كبيرة ، فزرعوا معظم الغامهم فى اماكن نائية حيث لم تحدث الا اضرارا بسيطة. وعلى الرغم من ذلك ، فانهم نجحوا فى خلق توتر كبير فى انحاء اسرائيل ،ظلت البلاد لاشهر طويلة تترقب وتبحث عن اى اجسام غريبة مشبوهة .

ودخل الرعب المدمر خلال هذه المرحلة المبكرة ايضا الى الاراضى المحتلة . وكان للسياسة التى تصورانها وسيلة لاسكات الخصوم ومعاقبة اولئك المتهمين بالتعاون مع الحكومة العسكرية ، اثر مزدوج : فبينما جعلت السكان اكثر حذرا فى سلوكهم فان التهديد خلق ايضا شعورا بالعداء نحو الجماعات الارهابية وفى الواقع ، استفاد جهاز الأمن الاسرائيلى كثيرا من حقيقة ان الدوائر المؤثرة فى مجتمع الضفة الغربية — الزعماء المحنكين واعيان القرى ، وتجار الخضر — عارضت الارهاب والمنظمات الارهابية . وعلاوة على ذلك ، فقد كان من الواضح ان الأمر يحتاج ، حتى ينجح الارهابيون فى احداث انتفاضة مسلحة الى مساندة شعبية فى شكل تمرد مدنى — من مقاطعات واضرابات وغيرها من اعمال الاحتجاج . ولكن المحاولات الأولى التى قام بها الارهابيون لحث الضفة الغربية على الثورة انتهت بفشل ذريع . فقد لقى مائتان من المجندين الجدد مصرعهم كما تم اعتقال الف شخص آخر ، واعترف عرفات بالهزيمة وهرب الى الأردن ليستحدث اسلوبا بديلا للعمليات .

مع ذلك فانه حتى الانتكاسة الخاصة برحيل عرفات واعتقال زعماء الشبكة الآخرين لم يتوقف الارهاب . بل العكس ، اصبح الهـدف الآن هو شن هجمات عقابية شديدة ضد السكان المدنين الاسرائيليين ، لاثبات ان المنظمات الارهابية لم يتم شل حركتها . وفى يوم ٢٢ نوفمبر عام ١٩٦٨ قاد احمد حسن زمرد ، من القدس ـ سيارته خلال النصف الغربى من مدينة القدس ، وتبعه شريكه خليل حسينى من اريحا ـ فى مركبة ثانية . وعندما اقتربا من السوق المكشوف الكبير فى (مهنة يهودا) اوقف شرطى سيارتهما ومنعهما من القيادة فى داخل منطقة السوق لاسباب امنية (كانت الرخص التى يحملانها تدل على ان السيارتين كانتا من الضفة الغربية والقدس الشرقية) .

اطاع زمرد تعليمات الشرطى واوقف سيارته على حافة السوق وغادر المكان . بعد ذلك بساعتين انفجرت شحنة ناسفة كانت بالسيارة وتسببت فى مصرع احد عشر شخصا واصابة اربعة وخمسين آخرين .

شجعت عظمة هذا (الانجاز) فرقا صغيرة اخرى . فقامت سيدتان شابتان بزرع قنبلة فيما كان يعتبر آنذاك السوبر ماركت الرئيسى فى وسط القدس ، مما اسفر عن مصرع اثنين واصابة ثمانية آخرين . وفى اعقاب هذه الموجة الجديدة من الارهاب انضم بعض صفوة المثقفين المحليين ـ مثل الدكتور صباحى جوشا ، والدكتور نبيه معمر ، والقس ايليا حورى الى الشباب الذين اشتركوا فيها ، ومع تزايد الغضب فى اسرائيل ، اصبحت الحكومة العسكرية مصممة بشكل متزايد على تتبع المخربين واثمرت جهودها عن كشف شبكة كبيرة فى سماريا والقاء القبض على ١٧٢ شخصا .

كما اصبح الارهاب حقيقة سياسية ، اضطرت القيادة المحلية فى الضفة الغربية ان تصيغ موقفا بشأنه ، والغريب ان التحفظات بشأن الارهاب والمنظمات الارهابية جاءت من دوائر غير متوقعة . فقد اعلن الشيخ الجعبرى عمدة الخليل ، واحد المحرضين على اعمال الشغب ضد اليهود والبريطانيين فى عام ١٩٢٩ معارضته الصريحة بهذه الكلمات : « كفى اراقة للدماء ، فاسرائيل لا يمكن هزيمتها بهذه الاعمال ، ولابد ان نضع حدا للعنف » . وعبر رشاد الشوا عمدة غزة ، الذى عمل كضابط اتصال للعصابات الارهابية العربية فى الثلاثينات ، عن اسفه لموت المدنين الابرياء ، وبالمثل ندد الحاج « معزوز المصرى » عمدة نابلس الاسبق باعمال التخريب رغم ان هؤلاء جميعهم اكدوا ان اعمال الارهابيين التى تبعث الاسف لا تبرر العمليات العسكرية الاسرائيلية ضد الاردن وجنوب لبنان ، او العقاب الجماعى الذى توقعه اسرائيل على سكان الاراضى المحتلة .

شهد عام ١٩٧٣ ، بعد الحرب ، تغيرا كاملا فى الموقف تجاه الارهاب والمنظمات الفلسطينية حيث تناقص عدد اولئك الذين لديهم الاستعداد لشجب مثل هذا العنف وتناسب ذلك عكسيا مع عدد الذين اعتقدوا ان

اسرائيل يمكن هزيمتها بالقوة . ولا عجب فى ان ذلك كان ايضا هو الوقت الذى سطع فيه نجم منظمة التحرير الفلسطينية فى الدول العربية وفى العالم على نطاق واسع ووصل التحول الحاد الى ذروته فى مؤتمر قمة الرباط فى عام ١٩٧٤ ، عندما اعترف العالم العربى رسميا بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل وحيد للشعب الفلسطينى . ومع هـذا التغيير فى مركزها والتعزيز لمكانتها ، بدات منظمة التحرير الفلسطينية تبذل جهدا اكبر فى المجال السياسى. وعلى الرغم من ان المنظمة كانت لاتزال متمركزة خارج الضفة الغربية وغزة ، فان قادتها كانوا يدركون الاهمية القصوى للاحتفاظ بتأييد سكان الاراضى المحتلة الذى بدونه سوف يفقدون حقهم المعنوى فى التحدث بالنيابة عنهم . ولذلك سعت منظمة التحرير الفلسطينية الى توسيع انشطتها التعليمية والتجنيدية بين الشباب فى الاراضى المحتلة . وكانت اهازيجها النضالية يتم تعليميها فى المدارس والكليات وغيرها من المؤسسات التعليمية ، التى اصبحت بمثابة معامل تفريخ المجندين من اجل الفرق الارهابية . وقد انعكس هذا النشاط المتصاعد ـ الذى حدث تحت سمع وبصر الحكومة العسكرية الاسرائيلية ايضا على الاساليب السياسية الكلاسيكية .

وقد ناقشنا بالفعل الكتل الوطنية جيدة التنظيم التى خاضت الانتخابات المحلية فى عام ١٩٧٦ . واعلن زعماء تلك الكتل ، فى تأييد صريح لمنظمة التحرير الفلسطينية انهم «ضد الحكم الذاتى ، والاحتلال ، وانهم يؤيدون اقامة دولة فلسطينية مستقلة » .

وكما نعرف ، فان القوائم الموالية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، حققت نصرا ساحقا فى تلك الانتخابات . فقد انتقل منصب الحاج معزوز المصرى ، المؤيد للملك حسين ، الى بسام الشكعة ، الذى يميل نحو حزب البعث ، وانفسح محمد على الجعبرى المجال لفهد القواسمة ، وهكذا كان الحال بالنسبة للمدن الصغرى فى انحاء الضفة الغربية . ومع ذلك فان الذين اشرنا اليهم فيما سبق على انهم جيل جديد من الزعماء ، ليسوا متجانسين فى انتماءاتهم السياسية فى داخل منظمة التحرير الفلسطينية ـ التى تتكون من ثمانى منظمات مستقلة .

فالبعض يرتبط بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (القيادة العامة) والتى يرأسها احمد جبريل ، والبعض الآخر يعتبرون اتباعا لمنظمة فتح التى يتزعمها عرفات . وتحظى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التى يرأسها جورج حبش بتأييد واسع فى مرتفعات الخليل ومنطقة نابلس ، ويتمتع نايف حواتمة زعيم الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين بتأييد كبير فى منطقة رام الله . وكل من حواتمة وحبش من اليساريين المعروفين الذين كرسوا انفسهم لمبادىء الماركسية ـ اللينينية ، بينما يعتبر عرفات ، طبقا لما يذكره العليمون ببواطن الامور ، نموذجا للشخص اليمينى ، على الرغم من انه يحاول جاهدا ان يخفى وجهات نظره الحقيقية .

وربما يكون جورج حبش هو اشهر كبار قادة منظمة التحرير الفلسطينية بعد عرفات . وقد توجه حبش ـ الذى ولد فى (موسرارا) Musrara المجاورة للقدس والتى يعيش بها خليط من العرب واليهود ـ الى مصر ، وفى الخمسينات ، فى نفس الوقت الذى اسس فيه عرفات اتحاد الطلبة الفلسطينيين تقريبا ، اسس جورج حبش الحركة القومية العربية ، التى حازت تأييد الرئيس المصرى عبد الناصر ولجورج حبش اتباع واصدقاء شخصيين عديدين فى الضفة الغربية ، ولكن ربما يكون اشهرهم هو الدكتور حاتم ابو غزالة ، وهو عضو المجلس البلدى فى نابلس ويعمل كطبيب وكان واحدا من الذين اسسوا المجموعة الموالية للبعث المعروفة باسم القوميين العرب .

ويقدم الدكتور ابو غزالة ، فى عيادته القريبة من ميدان برج الساعة فى نابلس ، الخدمات الطبية المجانية للاجئين من المخيمات الموجودة حول المدينة . ويفخر الدكتور (الداهية ذو الشعر الاحمر) كما يسميه اعضاء الحكومة العسكرية المحلية ، بعلاقته بجورج حبش ، ويقول لكل من لديه الاستعداد للاستماع ، ان النوايا الحقيقية لصديقه قد اسىء فهمها وان صورته قد شوهت . وكان احد اعمامى من (دالية الكرمل) يذهب الى عيادة الدكتور ابو غزالة لعدة سنوات وكان يتغنى بمدحه باستمرار حتى اننى فى احدى زياراتى المتكررة لنابلس قمت انا ايضا بزيارة الدكتور لكى اسأله عن رايه فى اتفاقية السلام المصرية ـ الاسرائيلية التى تم ابرامها مؤخرا وكان المصور الذى يرافقنى قد اعجب بالدكتور وخلال عودتنا ثانية الى القدس قال معلقا : انه لرجل عربى ساحر حقا ، اننى اكثر من مستعد للتعامل مع رجل كهذا « لم اتمالك الابتسامة الشريرة التى ارتسمت على وجهى وانا اشرح له بالضبط من يكون الدكتور ابو غزالة . ملأ السيارة صمت يشوبه الشعور بالحرج الى ان شرع الرجل المسئول عن اجهزة الصوت يقول : « اذا كانوا على هذه الصورة اذن فهناك امل ، وعلينا ان نحتفظ بالأمل ـ ونحتفظ بعيوننا مفتوحة » .

وعلى الرغم من تجربة منظمة التحرير الفلسطينية السياسية ـ على الصعيدين المحلى والدولى ـ فان الارهاب لم ينته ـ بل حدث العكس تماما :

فالاحصائيات تظهر ارتفاعا مطردا فى العمليات الارهابية للمنظمة ، ومنذ عام ١٩٧٤ تم تنفيذ اكثر من مائة عملية كل عام .

ويتم توجيه الهجمات ضد اليهود اساسا ، حتى على الرغم من ان منظمة التحرير الفلسطينية تحاول ـ فى بياناتها المذهبية الموجهة للجمهور الغربى ، ان تميز بين اليهود والصهاينة . وقد نقل عن عرفات قوله : « ان حركتنا ليست عنصرية » . ولكن الهجوم على احد المطاعم التى يتردد عليها صبية المدارس اليهود فى باريس وعلى مدرسة الأطفال اليهود الأرثوذكس فى (انتويرب) يبدو وكأنها تكذيب لهذا الزعم .

وعلى اية حال ، فان اليهود ليسوا هم وحدهم هدف ارهاب منظمة التحرير الفلسطينية . فقد اصبحت التهديدات باستخدام العنف لتخويف الرفاق العرب ، اكثر شيوعا . وفى احد الاجتماعات الشعبية فى بيت لحم ، تردد كلام مرعب عن « تمزيق افراد اسرتى دودين والخازندار اربا » واظهر المستمعون تأييدهم الكامل لذلك بالتصفيق المدوى . ولا تتوقف الاستراتيجية بالضرورة عند التهديدات ، ففى عام ١٩٧٨ ، تم اغتيال ثلاثة من المعتدلين المعروفين من رام الله بعد ان تجرأوا على التعبير عن تحفظات حذرة بشأن المذهب الذى يتضمنه الميثاق الوطنى الفلسطينى كما تجرأوا على المناداة بتسوية سلمية بين الفلسطينيين ودولة اسرائيل .

كان احد الضحايا هو تاجر محلى اسمه « عبد النور جنحو » الذى تم اطلاق النار عليه فى ٩ فبراير عام ١٩٧٨ بالشارع الرئيسى فى رام الله وكان « جنحو » الذى اشتهر بعلاقاته مع الاسرائيليين بما فى ذلك (تيدى كوليك) عمدة القدس وضباط الحكومة العسكرية ، قد نجا من محاولة سابقة لقتله بان اطلق النار على من حاول اغتياله فأرداه قتيلا . وحكمت محكمة عسكرية فى رام الله بأنه أطلق النار للدفاع عن النفس ولكن منظمة التحرير الفلسطينية لم تقبل الحكم ، وارسلت شابا آخر ، من قرية « سيلواد » لاتمام العملية وفى هذه المرة نجحت عملية الاغتيال . وبدلا من استنكار عملية القتل ، اعترف راعى ابرشية جنحو وكذلك نائب عمدة رام الله بلا تردد بأن منظمة التحرير الفلسطينية كانت مسئولة عن عملية القتل وكانت لديه أسباب وجيهة لذلك .

وبينما عبر بعض عمد الضفة الغربية عن عدم موافقتهم على الارهاب ـ رغم انه لم يكن من المحتمل ان يفعلوا ذلك علانية ـ فان التحول فى المشاعر العامة ازاء الارهاب كان واضحا فى اغلب الأحوال .

فقد اخبر (حلمى حنون) عمدة قرية طولكرم ، قائد الضفة الغربية الذى كان يزور القرية يوم ٢٧ يونيو ١٩٧٩ بأن الارهابيين المحتجزين فى السجون الاسرائيلية (ليسوا مجرمين انما كانوا يدافعون عن انفسهم فقط) . وفى ١٥ يونيو ١٩٨٠ ، حاولت وحدة من الارهابيين أن تستولى على شقة بمنزل فى مدينة نهاريا وقضى عليها الجنود الاسرائيليون وعندما تم اعلان هوية الارهابيين تبين ان واحدا منهم من قرية عنابتة فى سماريا . وفى اليوم التالى حملت الصحف المحلية تأبينا يتضمن الآية القرآنية « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » . كما تضمن عبارات مثل (تعزية فى وفاة عزيز) وجاء فى النعى الرسمى للقرية ما يلى :

« عمدة عنابتة واعضاء المجلس البلدى وجميع سكان القرية يفخرون من جديد بأن يقدموا الى الشعب الفلسطينى والأمة العربية والاسلامية ابنها الطاهر النقى الفقيد (عصام صابوبا) ورفيقيه ، الذين انتقلوا الى جوار ربهم فى صباح ١٦ يونيو ١٩٨٠ بعد ان رووا بدمائهم الذكية اقدس تربة من

اجل انبل الاهداف . فلتسكن روحك انت ورفيقك جنة الخلد حيث يسكن الطاهرون والانقياء . وعسى ان يتلقونكم بالرحمة هناك » .

وفى حادثة اخرى ، قام (زياد ابو عين) بغرس عبوة ناسفة فى مدينة طبرية الاسرائيلية مما اسفر عن مصرع عدد من المدنيين الابرياء ، ونجح فى الهرب الى الولايات المتحدة . وعندما شرعت السلطات الاسرائيلية فى اتخاذ الاجراءات لطلب تسليم هذا المتهم ، تحول عمد الضفة الغربية الى الدفاع عن الارهابى . واصر (ابراهيم الطويل) عمدة البيرة على ان المتهم (كان يقوم بواجبه فقط) واعلن (محمد ملحم) ان سكان الوطن المحتل يقفون خلف (زياد) ويستنكرون تماما قرار اعادة تسليمه .

ولا يعنى هذا ان هناك نقص فى عدد الارهابيين فى السجون الاسرائيلية ففى عام ١٩٧٨ ، كان مراسل الحوادث والجرائم بالتليفزيون يعد فيلما عن السجون ورافقته الى سجن عسقلان حيث قضينا ساعة مع بعض الارهابيين المحكوم عليهم الذين يطلق عليهم اسم (سجناء امن) لتميزهم عن المجرمين العاديين ، كان معظم الرجال الذين قابلناهم قد ارتكبوا بالفعل اعمال تخريب فى اسرائيل ، ولم يتم اعتقالهم بتهمة التآمر او العضوية فى مجموعة ارهابية . وفى البداية كانوا عازفين عن ان يقولوا شيئا على الاطلاق خوفا من ان يكون قد تم ارسالنا اليهم بوساطة احد اجهزة امن الدولة لاستدراجهم للافشاء عن اسرارهم . ولكن تعرف على بعضهم وبداوا فى الحديث . واكتشفنا ان هناك احتفاظا بتسلسل الرتب العسكرية للمنظمات الارهابية حتى وراء القضبان . فالرجال يأخذون الأوامر من (قائد اعلى) داخل السجن ، وهذا القائد بدوره يتلقى التعليمات من قيادة منظمة التحرير الفلسطينية خارج السجن . وايضا كانت هناك محاكم ثورية عاملة فى داخل السجون وتصدر احكامها على (الواشين) او المتعاونين مع السلطات بطرق اخرى . وقد قام الرفاق السابقين لأحد نزلاء سجن عسقلان بفقء عينيه بسبب مثل هذه الجريمة . وعندما طلبنا من مأمور السجن أن يعلق على هذه الحادثة لخص رايه فى سجناء الأمن عموما فى هذه الجملة القصيرة المعبرة : « انهم لا يحبون اسرائيل كما انهم ليسوا طيبين تماما » .

اننى اعترف بأنه من الصعب ان يتم الحديث عن الارهاب دون الانزلاق الى شرك الحديث عن الاخلاقيات . وعلى الرغم من ذلك ، فانه عندما يجد زعماء المنظمات الفلسطينية الارهاب باعتبار انه هو الخلاص للروح الفلسطينية ، فانهم يتجاهلون بذلك اثاره المعنوية المزعجة .

وهناك حوادث لا حصر لها لا استطيع ان اسوقها لتوضيح هذه النقطة ، ولكن تلح على حادثة واحدة بالذات بسبب ما تضمنته من قيم بسيطة ولكنها محورية كالثقة والولاء واخلاص المرء لمعتقداته . فمنذ سنوات قليلة مضت تم العثور على جثة سائق تاكسى من القدس الغربية فى سيارته وكانت جثته ملغومة . وكان الارهابيان اللذان قتلاه ــ وهما شقيقان من قرية

ابو ديس ــ يعرفانه منذ الطفولة ، لأن امهما كانت مرضعته قبل حرب عام ١٩٤٨ عندما كانوا يعيشون جميعا فى القدس وفى عام ١٩٦٧ تجددت عملية التعارف بينهم ولم يكن مصادفة أن ركب الشقيقان فى التاكسى الخاص به فى ذلك اليوم . وعلى اية حال ، فانه عندما عادا الى البيت وتفاخرا امام الأصدقاء بما قاما به من « عمل بطولى » تصادف ان سمعتهما امهما وادركت انه « من اجل القضية » قتل ولداها الرجل الذى ارضعته كابنها . وعذبها ادراكها لهذه الحقيقة فقامت بتسليم ولديها الى البوليس . ولا حاجة هنا الى القول بانها اضطرت الى أن ترحل عن قريتها وان تغير هويتها وتطلب اللجوء الى اسرائيل بعيدا عن منطقة القدس .

ان تلك الحادثة ليست مأساة استثنائية او فريدة . وهى تفصح عن التأثير السام الذى يمكن ان يحدثه الارهاب فى البنية الأخلاقية والاجتماعية لمجتمع بكامله . ومع ذلك ، يبدو أن هناك مقاومة كبيرة لمواجهة هذه الحقيقة. وحتى اولئك العمد وغيرهم من الشخصيات العامة فى الضفة الغربية الذين يعترفون بالآثار المهينة للارهاب يستشهدون بالارهاب الذى كانت تمارسه ايضا المنظمات اليهودية السرية فى نضال اسرائيل من اجل الاستقلال ، وهو رد مستهلك وبالى ، ان تاريخ كل امة يحتوى على بعض الصفحات الملطخة بالدماء ، حسبما يقولون ، وأن الارهاب هو الطريق الوحيد الذى يستطيع أن يواصل منه الضعفاء نضالهم ضد الأقوياء .

وعلاوة على ذلك ، فانهم يرددون مرارا الاشارة الى تكتيكات التخويف التى يتبعها المستوطنون الاسرائيليون فى الأراضى المحتلة وأساليب القهر التى تمارسها قوات الدفاع الاسرائيلية . اننى آخر من ينكر أن المستوطنين قد استفادوا من الازدواج فى القانون والنظام فى الاراضى المحتلة او ان المتظاهرين فى الضفة الغربية قد تم ضربهم او حتى اطلاق النار عليهم . لقد رايت اشياء بعينى راسى وامتلأت رعبا منها . ولكن لا يوجد مجال للمقارنة بين هذه التجاوزات وبين سياسة مقصودة للقتل والتدمير مستندة الى اساس ايديولوجى .

وكذلك فاننى لا استطيع ان انكر ان اسرائيل قد استسلمت لانتهاج سياسة ارهاب مضاد ــ رغم أن الحكومات المتعاقبة نفت بسخط مثل هذا الفهم لسلوكها واحد الأساليب التى اتبعتها الحكومة فى تهدئة الضمائر التى تشعر بالقلق هو ان تحاول تجميل المواقف القبيحة . فالعمليات التى تقوم بها المنظمات الفلسطينية تعتبر بمثابة ارهاب ــ اما اسرائيل فهى تقوم (بالرد) او تتعامل فى شكل « ضربات وقائية » ويرفض معظم المواطنون قبول حقيقة ان قوات الدفاع الاسرائيلية عندما تقوم القوات الجوية بقصف القواعد الارهابية فى لبنان بالقنابل متسببة فى مصرع واصابة النساء والاطفال انما تعتبر هى ايضا تمارس تكتيكات الارهاب . وقد اتخذ (مارتين بوبر) مثل هذا الموقف تماما ، بما فى ذلك التمييز بين الهجوم الذى يمكن تبريره ، واراقة الدماء البريئة عندما كتب يقول :

« اذا دخل رجل الحجرة التى يلعب فيها طفله وراى غريبا فى الشباك يصوب نحوه بندقية ، فانه يقوم بواجبه اذا أطلق هو الرصاص اولا — وقد نأمل فى ان يتم تبرئته من تهمة القتل . ولكن اذا اقتحم لص منزلا ما وارتكب جريمة قتل وهرب واطلق رب المنزل النار على احد المارة لمجرد انه من نفس جنس المجرم فكيف يمكن تبرير هذا العمل ؟ » .

ولا يمكن للمرء أن يتوقع اتخاذ موقف منصف ازاء مثل هذه الافتراضات، فى جو الشرق الأوسط المشحون . فالارهاب فخ شرير ، وكلما انتشر بصورة اكبر كلمازادت الحاجة الىاناس شجعان يرتفعون فوق الشعارات، والخوف، وقيود عواطفهم الخاصة ، ويطلبون العودة الى العقل . ويقضى العقل بأن الارهاب سياسة مفلسة — حتى لو كان ذلك لمجرد انها لم تفلح . فالعصابات العربية لم تفزع اليهود خارج فلسطين فى الثلاثينات والاربعينات. ولم يرهب الفدائيون الفلاحين الاسرائيليين ولم يدفعوهم لشد الرحال فى الخمسينات .

ومنذ عام ١٩٦٧ لم يفلح الارهاب الذى مارسته منظمة التحرير الفلسطينية فى اخراج اسرائيل من الأراضى المحتلة ، كما ان سيل القنابل التى سقطت على لبنان لم تنه منظمة فتح ، او تمنع شن المزيد من الغارات المسلحة ، او ردعت المزيد والمزيد من الشباب عن الانضواء فى صفوف منظمة التحرير الفلسطينية . ان الارهاب يبدو انه يجعل الناس فقط يجزون على انيابهم ويتمسكون بشكل اكثر حزما باصرارهم على الا يتزحزحوا قيد أنملة عن مواقفهم وكلما كان الارهاب دافعا ومشجعا اكثر على التحرك فان هذا التحرك يكون فى اتجاه زيادة التطرف . وهكذا فانه عندما يفشل كل شىء ، اثارة الأحاسيس الأخلاقية واثارة المشاعر العاطفية ، واللجوء الى المصلحة الشخصية الواضحة ، فان الأحداث الفعلية الخاصة بهذه السنوات الخمسين لابد وان تكون دافعا كبيرا للتفكير فى هذا الموضوع الملح جدا والمؤلم للغاية .

الفصل العاشر

المستوطنات

ان الرابطة بين الشعب اليهودى وارض اسرائيل كانت هى لب الحركة منذ بدايتها . وعلى الرغم من ذلك ، فانه عندما اضطرت الحركة ان تختار بين سيادتها على جزء من ارض اسرائيل وبين الاستمرار فى الخضوع لحكم اجنبى يضر بمصالحها بشكل متزايد قبلت الغالبية فى الحركة الصهيونية مبدأ التقسيم — الذى اقترحته بريطانيا اولا ثم الأمم المتحدة بعد ذلك كحل عادل للصراع العربى — اليهودى فى فلسطين . ولكن بقيت هناك مجموعة من المعارضين الذين لم يرضوا ابدا عن تقسيم البلاد وانتظروا عشرات السنين حتى تحين اللحظة المناسبة لاعادة طرح المسالة . وفى عام ١٩٦٧ سقطت معظم أرض اسرائيل التاريخية تحت السيطرة الاسرائيلية ، وبدأ الجدل يظهر من جديد ، وهو مستمر منذ ذلك الوقت بأسلوب او بآخر .

وعندما كان لدى اسرائيل اية سياسة بشأن الاستيطان فى الأراضى المحتلة فان هذه السياسة كانت دائما غامضة بشكل متعمد . وربما كان السبب الرئيسى . فى ظل حكومات حزب العمل ، هو التفانى الأعمى من أجل خرافات عفى عليها الزمن بدلا من التحليل الواقعى . فجزء من تراث خطط التقسيم المتعاقبة ، على سبيل المثال ، كان يتمثل فى الاعتقاد الغامض الخاص بأن خريطة الاستيطان اليهودى سوف تحدد حدود الدولة اليهودية . ولم يكن ذلك حقيقى تماما . وقد رسمت لجنة بيل عام ١٩٣٧ ، ولجنة وودهيد عام ١٩٣٨ ، واللجنة الخاصة التابعة للأمم المتحدة فى فلسطين عام ١٩٤٧ ، خرائط تقسيم تركت بعض المستوطنات اليهودية داخل نطاق المنطقة التى تم تحديدها لتكون دولة عربية والعكس بالعكس . ومع ذلك فان المبدا الذى ربما كان ممكن التطبيق خلال فترة الانتداب — ولكنه فقد بالتاكيد صلاحيته فى السبعينات لا يزال يسيطر على فكر نسبة كبيرة من الشعب الاسرائيلى .

وهناك خرافة أخرى كان يبدو انها لا تقبل الجدل تتعلق بأن المستوطنات الحدودية حمت امن اسرائيل . فى وقت من الأوقات لم يكن هذا الأمر خرافة على الاطلاق . فأثناء حرب ١٩٤٨ ، عندما كانت قوات الدفاع الاسرائيلية لا تزال تخوض عملية التحول الى جيش نظامى وكانت اسرائيل فى أمس الحاجة الى السلاح .

اوقف كيبوتز (داجانيا) هجوما سوريا مدرعا باتجاه الجليل . واوقف كيبوتز (يادموردخاى) بمفرده طابورا مدرعا مصريا لمدة خمسة أيام . مما اعطى قوات الدفاع الاسرائيلية الوقت اللازم لتعزيز دفاعاتها بالقرب من تل ابيب . ولكن فى هذا العصر الذى تنتشر فيه الترسانة المتخمة التى تحتوى على صواريخ « مزوج وسكود » فى الجانب العربى ، يصعب تحديد كيف تستطيع مستوطنات الحدود ان توقف تقدم العدو او تمنعه من تنفيذ عمليات تخريبية داخل البلاد . وفى الحقيقة تم اخلاء المستوطنات الموجودة فى مرتفعات الجولان خلال حرب عام ١٩٧٣ — وكان من حسن الحظ ان تم ذلك ، والا لوقع سكان هذه المستوطنات فى اسر السوريين — ووصلت صواريخ (مزوج) الى قلب منطقة الجليل .

وبغض النظر عن علاقة هذه الخرافات بالوقائع الحالية ، فانها تسلطت طوال عقد كامل — من عام ١٩٦٧ الى ١٩٧٧ — على تفكير غالبية الاسرائيليين ووجهته وحتى عام ١٩٧٧ كانت معظم المستوطنات فى الأراضى المحتلة قد تم بناؤها بالفعل بالقرب من الحدود — التى تعنى خطوط وقف اطلاق النار — فى وادى الأردن ومرتفعات الجولان .

وتم استيطان نتوء رفح جنوب قطاع غزة جزئيا للفصل بين سيناء وقطاع غزة — لضمان الا يعود القطاع الى مصر فى اى اتفاق سياسى مستقبلا . وفى خارج اسرائيل ، كان هناك استياء مستمر ازاء المستوطنات . طالما أن هذه المستوطنات كانت تقع فى مناطق لا يوجد بها كم كبير من السكان العرب (باستثناء كريات اربع بالطبع ، الكائنة خارج الخليل) ، فان المسألة لم تخلق احتجاجا صارخا وظل الحال كذلك الى أن جاءت حكومة الليكود بزعامة مناحم بيجين الى السلطة فى يونيو عام ١٩٧٧ ، واصبحت المسألة اكثر تعقيدا بادخال عنصرين جديدين : تغيير سياسة الحكومة بشأن موقع المستوطنات فى المستقبل ، وايديولوجية جديدة — او ربما يكون تعبير (تصوف جديد) افضل — لتحل محل الأساطير القديمة البالية التى سادت خلال الحقب السابقة . وقد تركز الجدل فى الغرب حول شرعية المستوطنات واضرارها بقضية السلام . وهنا فى اسرائيل اثارت المستوطنات الجديدة فى الضفة الغربية — بالاضافة الى النقطتين السابقتين — تساؤلات جادة حول سلامة النظام الديمقراطى الذى يسمح للحكومة بأن تكون متجاوبة الى هذا الحد مع شريحة صغيرة نسبيا من الشعب ، ويسمح بأن يكون لنفس هذه الشريحة مثل هذا التأثير الجامح على السياسة القومية .

وتتضح ابعاد المشكلة فى هذه الاحصائيات : حتى ديسمبر عام ١٩٨٠ تم اقامة ١١٠ مستوطنات فى انحاء الأراضى المحتلة بما فى ذلك سيناءومرتفعات الجولان وكانت هذه المستوطنات متركزة اساسا فى أربع مناطق : ٦٨ مستوطنة فى الضفة الغربية،بما فى ذلك وادى الأردن . تضم فى مجملها ١٧ر٥٠٠نسمة، و ٣ مستوطنات فى قطاعغزة تضم ٧٠٠ نسمة ، و ١٣ مستوطنة فى نتوء رفح تضم ٦ آلاف نسمة (من المقرر ان يتم اخلاء جميع هذه المستوطنات

بموجب معاهدة السلام المصرية — الاسرائيلية) . و ٢٦ مستوطنة فى مرتفعات الجولان لحوالى ٦٥٠٠ نسمة . ومنذ تولى حكومة بيجين السلطة . اصبحت الضفة الغربية — والمقصود هنا المناطق الجبلية الأكثر كثافة بالسكان فى جوديا وسماريا — للمرة الأولى هى لب الاستيطان اليهودى حيث تم اقامة ٤٤ تجمعا جديدا وارتفع عدد السكان اليهود خمسة اضعاف فى غضون ثلاث سنوات ونصف السنة .

ووفقا لوجهة نظر المرء ، فان النمو يمكن أن يعتبر انجازا مخيفا او انجازا مرغوبا فيه — او كليهما ويعتبر رد فعل « الياس خورى » مثالا هاما على هذا التناقض وخورى هو محامى عربى اسرائيلى شاب لقى والده مصرعه بسبب انفجار قنبلة فى ميدان زيون فى قلب القدس فى يوليو عام ١٩٧٥ .

وفى السنوات القليلة الماضية تخصص فى تمثيل عرب الأراضى المحتلة الذين تقدموا بدعاوى امام المحاكم بسبب مصادرة اراضيهم لصالح المستوطنات الجديدة . وقد تمت مصادرة مئات الهكتارات من اسرته هو نفسه ، فى قرية معلول فى وادى جزريل (التى تم تدميرها فى عام ١٩٤٨) ، وذلك بعد تأسيس الدولة ، ولذلك فان خورى كان قادرا تماما على فهم شعور سكان الضفة الغربية الذين سرق الاسرائيليون ارضهم منهم . قابلت خورى فى الرجيب بعد اعلان الحكم فى الدعوى التى رفعها بشأن قضية أيلون موريه ، وقد ابدى اعجابا غريبا ، بخصومه فقد قال فى حزن « اتمنى لو كان الجيل الشاب من شعبى يضم روادا مثل اولئك المستوطنون .. انهم يحاربون بكل السبل من اجل ما يريدون وفى النهاية يحصلون عليه (من دواعى السخرية ، اننى اعرف حالة حاول فيها احد الدروز واسمه صالح خير ويعمل رئيسا للمجلس المحلى فى (بيكعين) ، ان ينظم مجموعة من شباب الدروز لكى يقيموا مستوطنة جماعية فى الخليل ولكن لسوء الحظ لم يحرز تقدما يذكر وفى النهاية تخلى عن الفكرة يائسا) .

ويمكن فهم سر شعور الحسد الذى يراود « خورى » نحو الشباب اليهودى الذين يحظون بمعونة الحكومة لهم فى اقامة مستوطناتهم الجديدة . ومن الصعب تفنيد ادعاءات المستوطنين ، ذوى الاتجاهات القومية الدينية المتطرفة ، بأنهم يواصلون التقليد المجيد للرواد الصهاينة . وعلى الرغم من ذلك ، فان المسألة الصعبة الخاصة بالاستيطان فى الضفة الغربية يجب ان تتم مواجهتها بشكل منصف ، نظرا لما لها من اثر قوى على الأوضاع فى الأراضى المحتلة وعلى احتمالات تحقيق السلام . دعنا نبدأ بالقاء نظرة على حركة (جوش ايمونيم) التى هى المحرك الرئيسى وراء الاستيطان اليهودى فى جوديا وسماريا خلال السنوات الثمانى الماضية .

تأسست جوش ايمونيم فى عام ١٩٧٣ كفئة داخل الحزب القومى الدينى .

وفى ذلك الوقت نجح اعضاء هذه الفئة — الذين خرج معظمهم من الحركة الشبابية التابعة للحزب القومى الدينى والمسماة « بنـــاى اكيفا » — فى ان يفرضوا على الحزب خطا متشددا فيما يتعلق بمسائل السـلام والأمن . وهكذا اصبح الحزب القومى الدينى — الذى كان يعتبر دائمـا ذو اتجاه معتدل فى السياسة الخارجية — نصيرا لعمليات الاستيطان الواسعة النطاق فى انحاء الأراضى المحتلة وبصفة خاصة فى الضفة الغربية .

وقد اتجه « حنان بورات » الذى كان فى وقت ما الزعيم غير الرسمى لجوش ايمونيم والذى عكست تصريحاته الاتجاه السائد داخل الحـــركة — اتجه الى منطقة اتزيون للاستيطان هناك من منطلق شعوره بالواجب .

وكان قد ولد هناك ، قبل تاسيس الدولة ثم تم اجلاؤه عنها فى ينـاير عام ١٩٤٨ بسبب تعرض المنطقة لخطر الهجوم عليها من جانب الجنـود العرب غير النظاميين وفى المرة الأولى التى قابلت فيها (بورات) ترك لدى على الفور الانطباع بأنه رجل حازم ذو موهبة فى قيادة الناس نحـــو تحقيق اية اهداف حددوها لأنفسهم وقد نظم وراس العديد من محاولات الاستيطان غير المصرح بها فى الضفة الغربية وعلى مدى السنين بذل جهـــدا فى ايجاد اساس ايديولوجى للحركة . وقد تردد خلال المداولات التى جرت فى جـو من الحماس الأسطورى الذى يحرك رجلا مثل (حنان بورات) فى مؤتمـر عقدته حركة جوش ايمونيم فى يوليو عام ١٩٨٠ فى موشاف « جاناى تال » (الموشاف هو مستوطنة جماعية) على ساحل غزة صدى شىء من الحماس الأسطورى الذى يحرك رجلا مثل (حنان بورات . اذ تجمع الأعضاء ليناقشوا — ضمن اشياء اخرى — مسألة التعايش اليهودى العربى فى ارض اسرائيل، وفى سياق ذلك كشفوا عن بعض النقاط الموضحة لعقيدتهم فقـد أعلن بورات فى ذلك الاجتماع ما يلى :

اننى ارى اهداف الخلاص هو اصلاح العالم فى مملكة الله .. حيث تقوم دولة يتأكد فيها امام كل العالم وكل من يسكنه ، صــدق الآية التى تقول :

(نعم ، فى ذلك الوقت سوف اغير حديث الناس الى حديث نقى حتى ينادون جميعا باسم الله العظيم بلسان واحد ، ويخدمونه كفرد واحد) .

(زيفانيا ٩/٣) ان للشعب اليهودى دور محورى ليلعبه فى هذه الرؤية وتنتظم جميع الأمم الاخرى حوله فى دوائر متحدة المركز . واننى ارى ان الدائرة الأولى يمثلها الشعب الموجود هنا فى ارض اسرائيل . اننى لا اتحدث عن التحول فى العقيدة ، فجون هيركانوس حول عقيدة (الأيدومانيين) وانزل علينا حكم هيرود والامبراطورية الرومانية ويجب أن نعتبر السكان العرب الذين يعيشون بيننا بمثابة اختبار حاسم للشعب اليهودى من حيث نوعية العلاقة التى ستقوم بين هذا الشعب وبينهم ، وبمثابة مؤشر ، الى

حد ما ، على خلاص العالم ككل . وفى الختام ، اود ان اوضح اننى لم اجـــد فى اى مصدر تلمودى اى مفهوم قد يقضى بحتمية طرد غير اليهـــود من البـــلاد » .

ويوضح هذا التصريح الذى يتسم بالخير الظاهرى ، الكثير بشـــان موقف (جوش ايمونيم) ازاء شعب الأراضى المحتلة — ناهيك عن عرب اسرائيل . ففى افتراضهم الأساسى ان الأراضى المحتلة خاضعة لسـيطرة اسرائيل بشكل لا يقبل الجدل .

ولا يبدو ان (بورات) ورفاقه ازعجهم حقيقة انه لا يوجد ســوى حوالى ١٧٫٥٠٠ يهوديا فى الضفة الغربية وسط سكان يبلغ عددهم مليونا من العرب الفلسطينيين . وهم يختارون ايضا الا يعترفوا بأن الفلســطينيين لديهم هم ايضا طموحات وطنية ومطالب خاصة بهم بدلا من ان يكونوا مجرد عناصر سلبية بالنسبة للخلاص . كما انه ليس كل شخص فى جوش ايمونيم او ساكن فى احدى المستوطنات فى نفس دهاء وبلاغة (بورات) عند الحديث عن ايجاد حل لعرب الضفة الغربية . فالمحامى (الياكيم ها اتزينى) وهـــو واحد من اوائل المستوطنين فى كريات اربع (من غير المتدينين) يعتبر صريحا ، بكل ما فى الكلمة من معنى ، فقد قال فى اجتماع (جاناى تال) انه يخاطب جيرانه العرب بهذه العبارات .

(انتبهوا انه لم يكن هناك ابدا برنامج صهيونى ينادى بان تكون يافا مدينة يهودية .. ولكن عندما بدا عرب يافا يختالون فى شوارع تل ابيب متباهين بقولهم « هذا المنزل سيصبح ملكى وهذه السيدة ستكون لى » عملوا على ان تكون يافا مدينة يهودية . واليوم ايضا لا توجد لدينا اية خطة لجعل الخليل مدينة يهودية على حسابكم . ولكن اذا ظننتم ان كريات اربع لن تستمر، فمن الأفضل ان تتذكروا يافا) .

لم يحاول (ها اتزينى) ان يخفى نغمة التهديد الكامنة فى رســالته وكما يوضح هو الأمر ، فانه يبحث فقط عن حل صهيونى (لمشكلة عـــرب اسرائيل . واذا لم يسعد مثل هذا الحل بقية العالم ، فان هذا سيكون سيئا جدا — خصوصا طالمـــا انه يعتقد ان شعب اسرائيل لا يملك الا ان يصـــل الى حل اخلاقى .

غير ان الأمر الذى يثير القلق بدرجة اكبر هو محاولة غرس هـــذا الاتجاه الانتقامى فى اعماق الديانة اليهودية . فعندما كنت طالبـــا فى الجامعة العبرية تلقيت بعض الدروس فى الديانة اليهودية . وبينما يصعب على ان ازعم اننى عالم فى هذا الموضوع ، الا اننى درست الكتاب المقدس والتلمود والمشناة ، والفلسفة اليهودية والكابالا — المعتقدات الصوفية ، واعتقـــد بشكل راسخ ان الرؤية الدينية اليهودية هى رؤية انسانية اساسا . وعلاوة على ذلك فان التأييد الصريح الذى لاقيته من الكتاب الاسرائيليين وغيرهم

من المثقفين عندما هاجمنى المتعصبون والوطنيون الراديكاليون عزز اعتقادى بأن شعب اسرائيل يتمتع بحساسية اخلاقية غير عادية . وفى الوقت الذى انتشرت فيه مناهضة السامية من جديد فى العالم واطلت فيه النازية الجديدة بوجهها القبيح ، كان من المزعج بصفة خاصة ان نسـمع هذه الكلمـات « اهارون هالميش » وهو من مستوطنة (اوفرا القريبة من رام الله) .

« اننى اعتقد ان ارض اسرائيل ، فى التحليل الاخير ، سوف تكون يهودية بشكل غالب ، ومن منطلق هذا الاعتقاد فاننى سأتكلم هنا عن الأقلية العربيـــة .

وهناك خلاف بالطبع حول المعنى الدقيق المقصود بتعبير (الغـريب والمقيم مؤقتا) فى الكتاب المقدس والذى يجب قانونا منحه المساواة . واذا كنت استطيع لقمت بضم جميع الاراضى التى بحوزتنا الى دولة اسرائيل اليوم ولتركت العرب يختارون اية مواطنة عربية يفضـلونها . وليس من الضرورى ان نلقى بالقنابل اليدوية على سوق شيتشيم (نابلس) او ان نطرد العرب ولكن لا ضير اذا ما جعلنا الحياة صعبة بالنسبة لهم على امل ان يهاجروا . وما كان مسموحا به بالنسبة لحسين — الذى هاجر ٣٠٠ الفا من العرب — من جوديا وسماريا ابان فترة حكمه ان يكون مسموحا به بالنسبة لنا . وفى النهاية ، فان اولئك الذين سيبقون ربما يصبحون راغبين بحق وبصدق فى ان يكونوا مواطنين موالين لدولة اسرائيل وبعد ذلك — نسمح لهم بالتحول الى العقيدة اليهودية . لمـاذا لا ؟ ان من الأجدر ان يعترف من لا يستطيع ان يؤمن بهذه الرؤية بانه لا يعتقد فى اننا بالفعل على الطريق الى الخلاص » .

وعلى الرغم من ان هذا التفكير يتم صياغته بأسلوب مختلف فانه حافل بمشاعر الكراهية للأجانب التى غذت محاكم التفتيش الأسبانية وهنـاك اسلوب آخر تم اقتراحه فى مؤتمر (جاناى تال) وهو ان يتم تعلم لغـة العرب واسلوب حياتهم ، وهكذا يتم اجبارهم على الاحتفاظ بعلاقات الجوار سواء رغبوا فى ذلك ام لا . الأكثر من ذلك ، ان نفس الشعب الذى تحدث عن (فجر الخلاص) وحقوق الشعب اليهودى على اساس انها تنبع من مصادر دينية ، كان هو اول من استنكر اى تعبير عن المعارضة يستند الى مصادر دينية اسلامية مثل « الخومينية » ولم يخطر ببالهم ابدا ان الاسلام لا يعرف الاحتكار فى مثل هذا النوع من المواقف .

وربما فى محاولة لجعل مزاعمها اكثر قبولا لدى الراى العام الدولى ، فان جماعة (جوش ايمونيم) وانصارها حاولت ان تحول مسألة الاستيطان اليهودى فى الأراضى المحتلة الى مسألة تتعلق بحقوق الانسان بتصوير المعارضة العربية للاسـتيطان على انها انكار لحق اليهود فى الحياة حيثما رغبوا . حتى انهم ذهبوا الى حد وصف مثل هذه المعارضة بانها عنصرية . بيد ان التمحيص الادق يكشف لنا ان الخلاف لا ينصب اطلاقا على قيود الاقامة .

بل ان الخلاف فيما يتعلق بالأراضى المحتلة ، يدور فعـلا حول مسـألة السيادة القومية . وكما ذكر « اليعازر ليفين » وهو زعيم سابق (لجـوش ايمونيم) فى كتاب نشرته الحركة فان (هذا البلد هو أرض اسرائيل ولا يوجد احد له نصيب فى السيادة عليها — اللهم الا اخوتنا فى الدياسبورا ، الذين يحتاجون الى اتساعها لينقذوا انفسهم وينقذوننا » .

وجدير بالذكر ان ليفين ارفق باعلانه هذا الذى عبر عن ايمانه بحركة (جون ايمونيم) بعض التوصيات الواقعية هى بالتحديد ، ان يتم بناء ثمانى مدن فى سيناء ، وخمس بجوار القدس ، واثنين فى مرتفعات الجولان واثنتين فى مرتفعات الخليل ، ومثلهما فى وادى الأردن ، وكذلك اثنتين فى سماريا .

وتعتقد حركة « جون ايمونيم » ان الاستيطان اليهودى واسع النطاق فى الأراضى المحتلة سوف يحسم مسألة السيادة مرة واحدة الى الأبد لصالح اسرائيـــل .

وكل هذا واضح تماما لعرب الأراضى المحتلة ، وهو السبب الأساسى الذى من اجله يعارضون المستوطنات الاسرائيلية بهذه الشدة .

وربما امكن ايضاح فلسفة حركة (جوش ايمونيم) والطرق التى تجيزها بشكل افضل من خلال التاريخ الطويل لمستوطنة (ايلون موريه) فلقـد تم ارجاع الفضل فى الفكرة وراء اقامة (ايلون موريه) الى كل من (بنيامين كاتزوفر ، ومناحيم فيليكس) وهما من زعماء جوش ايمونيم ويرجع التفكير فى انشاء هذه المستوطنة الى عام ١٩٧٣ . حيث تصور الاثنان امكانيـة بناء مستوطنة فى سماريا توازى فى الحجم والتأثير مستوطنة كريات اربع الموجودة فى منطقة الخليل ، وقد ايدت عشرون اسرة اقامة المسـتوطنة المستهدفة ، وفى ٥ يونيو عام ١٩٧٤ — الذكرى السنوية السابعة لحـرب الأيام الستة — قامت هذه الأسرة باحتلال موقع تم اختياره مسبقا بالقـرب من معسكر للجيش فى مرتفعات سماريا .

وصاحب هذه الأسرة الى مكان المستوطنة زعيمها الروحى الحاخام العجوز « زفى هاكوهين كوك » ، وثلاثة من اعضاء الكنيست هم : يهـودا ابن مائير ، زفولون هامر ، وجيئولا كوهين هذا بالاضافة الى اريل شارون الذى كان حينئذ برتبة ميجور جنرال فى جيش الاحتياط .

ولمـا كانت الحكومة لم تصرح بهذه الخطوة فقد أصدر شيمون بيريز وزير الدفاع اوامره بأن يتم اخراج المستوطنة من الموقع .

بدأ الفصل الثانى من هذه الدراما فى ٢٦ يوليو ، عندما قام المستوطنون بمحاولة جديدة . وفى هذه المرة طلبوا المساعدة من آلاف المؤيدين لهم ،

والذين تجمعوا على الفور فى محطة سكة حديدية مهجورة بالقرب من موقع (سياستيا) القديم .

وقد ترددت الحكومة — التى خشت مما قد يحدث اذا ما حاولت ان تفرق المتظاهرين بالقوة وتركت المستوطنين فى مكانهم لمدة ثلاثة ايام قبل ان تتوصل الى قرار اخلاء الموقع وكان الاشتباك الذى نجم عن ذلك بين المستوطنين والجنود يمثل مشهدا اليما للاسرائيليين . ولكن اعضاء (جوش ايمونيم) كانوا اقل حساسية لما اصابهم عما كانوا عليه بالنسبة لعلامات تردد الحكومة ، وقرروا أن يواصلوا محاولاتهم المرة تلو الأخرى حتى يحققوا هدفهم . فى نفس الوقت ، بقيت الحكومة لتواجه مشكلة كيف تمارس سلطاتها بدون اثارة فتنة مدنية أو صراعات انقسامية بين مواطنيها .

وفى ديسمبر عام ١٩٧٦ عاد مستوطنو « جوش ايمونيم » الى الموقع الموجودة عند (سياستيا) وفى تلك المرة اجبروا الحكومة على ان تتفاوض معهم ، وتحت ضغط شديد استسلم مجلس الوزراء وسمح لهم بالبقاء « بشكل مؤقت » فى حدود احد معسكرات الجيش القريبة الكائنة خارج قرية قادوم (التى هى مسقط راس فاروق قدومى رئيس الدائرة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية) .

قمت بعد ذلك على الفور بزيارة قرية قادوم لاقف على ردود فعل سكانها . وتتكون القرية من مجموعة من الأفنية القديمة والمنازل الحجرية ، والممرات القذرة وبئر فى وسطها . وعلى مسافة ياردات قليلة من أماكن ايوان المستوطنين اليهود كان يوجد فلاح عجوز يحرث أرضه . انفقت وقتا طويلا لكى احمله على الحديث بيد انه ، فى النهاية قال والغضب يلمع فى عينيه :

« اليوم يأخذون الأرض ، وغدا يطردوننا خارجها » . ولا يمكن للمرء ان يتوقع من رجل عجوز أن يفهم ما هو مطلوب منه فى (فجر الخلاص) .

وقد رحب المستوطنون فى قادوم بفوز كتلة ليكود فى الانتخابات بابتهاج لا حدود له . وفور انتهاء الانتخابات قام رئيس الوزراء المعين مناحيم بيجين بزيارة المعسكر وصرح ، مبتهجا وهو يحمل التوراة بين يديه ، بقوله :

« سوف يكون هناك العديد من المستوطنات المماثلة لايلون موريه » . كان المستوطنون متلهفين على أن تفى الحكومة الجديدة بوعودها ، وعندما اتضح لهم أن ليكود تبدو كما لو كانت تتراجع عن موقفها ، قرروا أن يستولوا على ما كانوا يعتقدون انه حقهم .

ففى ٧ يناير عام ١٩٧٩ ، خرجت قافلة من السيارات الى الموقع الذى اختاره المستوطنون لاقامة « ايلون موريه » فى مناورة تعيد الى الذاكرة تلك

التى استخدمت ضد حكومة رابين . وتم ايقاف القافلة عند احد الحواجز التى اقامتها قوات الدفاع الاسرائيلية على الطريق بالقرب من قرية الرجيب ، بيد ان « جوش ايمونيم » كانت قد نجحت بهذا العمل فى تأكيد وجهة نظرها امام بيجين ووزرائه .

وبعد خمسة أسابيع اخرى من التأجيل والمشاورات . تلقت مجموعة الاستيطان تأكيدات حازمة بأنه سيسمح لهم بالتحرك الى موقع دائم فى غضون ثلاثة اشهر .

قامت الحكومة العسكرية بالتحرى عن جميع الأراضى الخاضعة للسيطرة العامة — اراضى الدولة — فى منطقة الرجيب خلال الأشهر التالية ولكن لم يبد انها استطاعت ان تجد أى مكان مناسب لاقامة مستوطنة .

وفى ٥ يونيو عام ١٩٧٩ وقع قائد الضفة الغربية أمرا بمصادرة ١٧٥ فدانا من الأرض — بعضها أرض مزروعة — من سكان قرية الرجيب . وبعد ذلك بيومين كان مستوطنو ايلون موريه ، بمساعدة قوات الدفاع الاسرائيلية، يعملون فى تلك الأراضى . ومما زاد الطين بلة بالنسبة لسكان القرية ، ان ملاك الأرض لم يتلقوا رسميا أمر المصادرة حتى ٧ يونيو ، وهو اليوم الذى بدأ فيه العمل فى المستوطنة . بيد ان السرعة الخاطفة للعملية لم تنجح فى تخويف أهالى القرية فبعد ذلك بأسبوع تقدم ١٧ منهم برفع دعوى استئناف ضد أمر المصادرة أمام المحكمة العليا للعدل . وقد كتب القضاة فى قرارهم هذا التعليق على توقيت عملية الاستيلاء على الأرض : « يوجد لدى المرء انطباع بأن التأسيس الفعلى للمستوطنة كان أشبه بتنظيم عملية عسكرية مليئة باستغلال عنصر المفاجأة لمنع احتمال تدخل هذه المحكمة استجابة لدعوى ملاك الأرض ، قبل ان يبدأ العمل فى الموقع » .

تصادف أن كنت فى البيت فى اجازة من عملى الاحتياطى عندما تفجرت قصة « ايلون موريه » اتصلت بى محررة « المجلة الاخبارية الأسبوعية » بتليفزيون اسرائيل وطلبت منى ان اذهب الى « الرجيب » لكى أسجل ردود فعل اهل القرية .

وبعد مكالمتها كان مدير قسم الأخبار الحريص على مبدأ التوازن المقدس ، على الخط لكى يذكرنى بأنه سيكون من الأفضل ان أسجل أيضا بعض ما يقوله المستوطنون .

كانت مدة التقرير الذى اعددته ثلاث دقائق تماما ، وذكرت فيه ان حكومة الليكود حاولت حتى ذلك الوقت ان تتحاشى الاستيلاء على أية ممتلكات خاصة لأغراض الاستيطان ، ولكن فى هذه المرة لم تكن الأرض المصادرة مملوكة ملكية خاصة فقط ، بل انها كانت مزروعة أيضا ، وفى الصباح التالى اثارت هذه الملاحظات عاصفة مدوية ، واتهم وزير الزراعة اريل شارون التقرير بأنه لم يكن امينا مع الواقع .

عرضت ان اصحبه الى الموقع لاريه الارض التى اشرت اليهـا . ولكن كما اتضح فى جلسة الكنيست فى الأسبوع التالى ، كان الوزير اقل اهتماما بالحقائق من متابعة الهجوم فعندما اعتلى منبر الخطابة قال بلهجة اللوم ان اى « طابور خامس سوف لا يوقف مسيرة الصهيونية » . وعندما تحدوه ليحدد من هو ذلك الذى يتهمه بالطابور الخامس اشار الى بالاسم موضحا انه قد شكا بالفعل الى مدير هيئة الاذاعة من الخبر الخاص بـ (ايلون موريه) الذى اعده ذلك المراسل الجديد بالثقة المسمى رفيق حلبى » (مع تهكم شديد بكلمة جديد بالثقة) . اثار التعليق اللاذع صيحات غاضبة فى البرلمـان وصرخ عضو الكنيست زيدان عطشى ، وهو من الدروز ، قائلا : ان هذه عنصرية ! « طالب عطشى بأن يسحب شارون ملاحظتـه ، بيد ان الوزير لم يفعل وزاد النار اشتعالا عندما قال مستهزئا : (لا انت ولا امثالك يمكن ان يجعلنى اتراجع عن الحقيقـة ابدا) . وقال الوزير فيما بعد ، وفى رده على سؤال بشأنى وجهه اليه مراسل صحيفة معاريف ، ان كونه درزيا لا يعطيه امتيازات خاصة » .

بدا الاجماع فى الصحافة منعقدا على ان المشهد الذى جرى فى الكنيست يفقد الثقة فى هذه المؤسسة وفى دولة اسرائيل ككل . بيد انى كنت فى ذلك الوقت مذهولا لدرجة اننى لم اجد اى مواساة فيما جاء بالمقالات الافتتاحية فى الصحف .

لقد وقف زملائى بصمود خلفى ، واصدر مدير قسم الأنباء بيانا يقول فيـه :

« ان المسألة قد تجاوزت حدود الخلاف الشخصى واصبحت الآن موضع اهتمام عام » . وعلى اية حال ، فقد توصلت الى نتيجة مفادها ان السبيل الوحيد المفتوح امامى هو ان استقيل ، حيث ان وزيرا مرموقا فى الحكومة وضابطا كبيرا فى الاحتياط لم يكتف بأن يشير الى اصولى فى سـياق مسألة بالغة الحساسية ، بل اتهمنى فى الواقع ايضا بالخيانة لاننى ذكرت شـيئا كان غير مناسب من وجهة نظره ومن وجهة نظر الحكومة لم اكن فى موقف يمكننى من الرد ، واحسست بأننى تم تحقيرى كصحفى ، وبالتقليل من شأنى كرجل . ذهبت الى احد مديرى تليفزيون اسرائيل لاقدم استقالتى ، ولكنه اطال الحديث معى واقنعنى باللين والملاطفة واثارة الحمية المهنيـة لدى بالتنازل عن موقفى المتشدد . ولكننى صممت على اخذ اجازة ــ ليس بهدف التخفيف عن اى احد ــ ، ولكن لاننى كنت احتاج الى وقت لكى اعيد ترتيب افكارى ومشاعرى لاحقتنى المسألة لبعض الوقت فى بيتى فى دالية الكرمل . واردت ان احجب التفاصيل عن والدى العجوزين المريضين،بيد ان رسـائل المساندة والتشجيع التى استمرت فى التدفق على حالت دون ذلك.بالاضافة الى ذلك ، فان المشاعر فى القرية اخذت تتصاعد ، وتحفز العديد من اصدقائى وجيرانى للقيام بعمل من نوع ما . وتردد الحديث عن القيام بمظـاهرة .

واراد بعض الراديكاليين المحليين ان يغلقوا القرية امام الدخلاء وان يقوموا باضراب عـام وباحتشاد جمـاهيرى . ولكننى كنت اخشى من ان يتحـول ما اعتبرته بمثابة نضال لحماية مبادىء الديمقراطية فى اسرائيل الى مواجهة عامة على اسس عرقية او قومية ــ وهذا ابعد ما ارغب فيه ، ولذلك حثثت اصدقائى واقربائى على الا يفعلوا اى شىء يزيد من خطورة الموقف .

عاد الهدوء الى النفوس ، واحسـنت استغلال وقتى وفى غضون اسابيع قليلة عدت الى العمل مرة اخرى . فى نفس الوقت تحول محـور الاهتمام الى المحكمة العليا للعدل التى كانت تتداول بشأن دعـوى الاستئناف المرفوعة من سكان الرجيب . ويعتبر اختلاف المحكمة بشأن (ايلون موريه) ذو اهمية خاصة بسبب الطريقة التى تمكن بها المستوطنون من تقويض دعوى الحكومة . اسند المدعى العام جبرائيل باخ حق الحكومة فى مصادرة ارض سكان الرجيب على أساس الاحتياجات الأمنية فقط . وفى قضية سـابقة مماثلة قضت محكمة العدل العليا بأن الاستيلاء على الارض الخاصة لانشاء مستوطنتين لا يعتبر خرقا للقانون الدولى ولا الاسرائيلى طالما ان المستوطنتان قد انشئتا لأغراض عسكرية . وفى ضوء هذه السابقة ، قرر باخ بشكل منطقى ان يسير على نفس النهج وادلى « رفائيل ايتان » رئيس الأركان بالشهادة بالنيابة عن الحكومة ، مدافعا عن « موقع ايلون موريه » على أسس عسكرية بحتة . وتوقع المحامون المترافعون عن مقدمى الدعـوى مسلك الدولة ، وسعوا الى الحصول على وجهات نظر مخالفة ، وحصلوا بالفعل على تاكيدات من رئيس الأركان السابق (حـاييم بـارليف) ومن « ماتتياهوبيليد » وهو ميجور جنرال فى الاحتياط ، شرحا فيها سبب اعتقادهما بأن اقامة مستوطنة مدنية فى (ايلون موريه) لن يسهم فى أمن الدولة .

كان من المفروض ان تكون القضية مسألة مفروغ منها وربما كانت الحكومة ستكسب الدعوى لو تركت الحكومة لوسائلها الخاصة ــ خصوصا وان المحكمة لم تكن ميالة الى الفصل فى المجادلات بين العسكريين . ومع ذلك ، فان حيثيات الحكم فى القضية تغيرت بشكل جذرى عندما قدم اثنان من المستوطنين هما (مناحيم فيليكس وافراهام شيفوت) وكلاهما عضوان فى الهيئة الادارية للمستوطنة ، التماسا للرد على القضية ، وتمت الموافقة عليه . زعم فيليكس فى شهادته ان اعضاء مجموعة الاسـتيطان انشـأوا « ايلون موريه » للوفاء بالوصية الالهية بالاستيلاء على الأراضى التى منحت لأجدادنا . واستمر « فيلكس » يقول : ــ « ان عملية استيطان شـعب اسرائيل لأرض اسرائيل هو اكثر الضمانات الحقيقية والعملية والفعـالة بالنسبة للأمن .

« وفوق ذلك فانه لا ينبع من اعتبرت عسكرية او احتياجات مادية ولكن من احساس بالواجب المقدس وبحتمية عودة الشعب اليهودى الى ارضه » . ولذلك ــ كما قال المستوطنون للمحكمة : ــ فانه مع كل الاحترام للاعتبار الأمنى .... نرى انه ليست له الا صلة ضئيلة (بالموضوع الحقيقى) .

بدا حكم المحكمة الذى نشر فى ٢٢ اكتوبر عام ١٩٧٩ متفقا مع هـذا الراى فبينما لم ترفض المحكمة حجج رئيس الأركان المتعلقة بموقع « ايلون موريه » فانها حكمت بأن تقديراته الفنية لم تتسبب فى حد ذاتها فى القرار الخاص بانشاء المستوطنة ومضى الحكم يقول : ان القوة المحركة الحقيقية وراء القرار كانت متمثلة فى الضغط على الحكومة من « جوش ايمونيم » التى صممت على التوطن فى قلب سماريا . ومن هذا المنطلق وجدت المحكمة ان مما له صلة وثيقة بالموضوع ان المبادرة بانشاء مستوطنة بالقرب من نابلس لم تأت من جانب قوات الدفاع الاسرائيلية ولكن من جانب الحكومة ، ولم يطلب من الجيش الا ان يختار واحد من المواقع الخمسة المقترحة على اساس انه يخدم المصالح العسكرية للدولة بشكل افضل . واخيرا لاحظت المحكمة — فى أقوى حجة وراء القرار — ان المستوطنين انفسهم فندوا راى الدولة القائل بأن « المستوطنة المدنية لايمكن ان توجد فى ذلك الموقع الا اذا استمر احتلال قوات الدفاع الاسرئيلية للمنظمة » . ومع ذلك فان الدولة لم تنقض ماقاله المستوطنون . ومن ثم استخلصت المحكمة أن الحكومة قررت بالفعل اقامة مستوطنة . « بهدف الابقاء عليها بشكل دائم — او على الأقل بعد ان ينقضى عمر الحكومة العسكرية » . واذا كانت المستوطنة قد اقيمت لتبقى بعد الحكومة العسكرية والمصالح الخاصة بها ، فان القضاة استنبطوا — ومن ثم حكموا — بأن « العامل الحاسم الذى دفع المؤسسة السياسية الى أن تقرر اقامة المستوطنة المذكورة لم يكن هو الاعتبار العسكرى » وتبعا لذلك ، لا تنطبق هنا السابقة الخاصة بمصادرة الأراضى الخاصة لأغراض عسكرية ومنحت الحكومة مهلة ثلاثين يوما لاجلاء المستوطنين من الموقع .

عدت الى الرجيب على الفور بعد ان اعلنت المحكمة العليا قرارها . ومن الغريب ان الياس خورى ، الذى رفع دعوى سكان القرية أمام المحكمة لم يقابل ابدا اى من موكليه ، وسألته عما اذا كان بمقدورى اصطحابه فى زيارة للقرية بعد أن صدر حكم المحكمة لصالح سكانها .

وقرية الرجيب هى قرية بدائية جدا ، وكان بها شىء ما يشدنى — ربما قدرتها على أن تثير ذكريات الطفولة عن والدى وهو يفلح التربة الصخرية فى الكرمل لتدبير لقمة العيش لأسرته بشق النفس . ويعيش سكان الرجيب فى منازل متواضعة ولا يزالون يستخدمون الطرق القديمة فى الفلاحة وفجأة اصبحوا فى بؤرة الاهتمام العام ، ولم يستطع العديد منهم ان يفهم السبب الذى جعلهم ينفردون بذلك الاحترام المريب . من الطبيعى أن اللقاء بين خورى وموكليه كان لقاء مشحونا بالعواطف ، واعترف بأننى شاركتهم سرورهم ، لأننى آمنت بأن عدالة قضيتهم سوف تنتصر فى النهاية ، وكان اعضاء « جوش ايمونيم » قد حددوا لأنفسهم الحق فى الأرض الموجودة خارج الرجيب لاثبات حقهم التاريخى فى التوطن فى اى مكان فى ارض اسرائيل وكان ذلك الجانب من رسالتهم قد وضح تماما . لكن الأمر الذى لم يكن واضحا بنفس الدرجة بالنسبة لى — على الأقل — هو لماذا كان من الضرورى ان يتم ذلك على حساب هؤلاء الفلاحين البسطاء .

وكخاتمة محزنة وموجزة لمسألة « ايلون موريه » هدد المستوطنون بأنهم لا يعتزمون ترك مستوطنتهم — بحكم المحكمة أو بدونه — هذا على الرغم من ان الحكومة كانت تنفق مبالغ كبيرة لاعـداد موقع جـديد لهم . وظل المستوطنون فى مكانهم طوال مهلة الثلاثين يوما التى منحتها المحكمة — وقد اخذت تهديداتهم بمقاومة عملية الاخلاء بالقوة ، اذا لزم الأمر ، على محل الجد . واحتمال أن تكون كل هذه الدراما ليست اكثر من زوبعة ، لاحداث اثر نفسى ، لم يكن مجرد شىء لا علاقة له بالموضوع ، بل كان بالفعل هو لب الموضوع .فالمناخ النفسى يعتبر عاملا سياسيا هاما فى هذا الجزء من العالم . وذات مرة ، عندما حاولت أن اشرح لفهد قواسمة ان اعضاء « جوش ايمونيم » ليسوا اكثر من اقلية هزيلة عالية الصوت فى اسرائيل ، وان معظم الاسرائيليين يريدون حلا عمليا للمشكلة الفلسطينية رد على بقوله « ان افتقار « جوش ايمونيم » الى القوة العددية — وهو ما يعرفه جيدا — ليس له علاقة كبيرة بتأثير الحركة على الحالة النفسية فى الأراضى المحتلة .

كانت وجهة نظره سليمة ، لان المستوطنات وسكانها يبدو انها تمارس تأثيرا يتجاوز تماما نسبة حجمها وقوتها الحقيقية . وعلى الرغم من رؤية « جوش ايمونيم » الطموحة وما أثارته من كلام كثير ، فان انجازاتهـا فى الأراضى المحتلة لم تتسبب كثيرا فى تغيير الطابع الديمغرافى للمنطقة . وحتى اليوم ، تم انشاء ٤٥ مستوطنة فى مناطق مرتفعات الضفة الغربية ، ومعظم هذه المستوطنات عبارة عن تجمعات صغيرة تقوم على اقل من مائة شخص — بيد ان هذه الأرقام لا تسبب اى طمأنينة لعـرب الأراضى المحتلة ومن السهل ان نعرف السبب . فالضفة الغربية (بما فى ذلك القدس الشرقية) تبلغ مساحتها ٢٢٧٥ ميلا مربعا ، ومن هذه المساحة لم يتم تحديد سـوى ١٧٥ الف هكتار — أو حوالى ١/٨ المساحة الاجمالية — لتكون اراض للدولة. وفوق ذلك كان هناك حديث عن توطين ما بين مليون ونصف مليون يهودى فى المنطقة ، وبشكل او بآخر لابد من تدبير الأرض اللازمة لهم .

وطالما ان اراضى الدولة لن تكون كافية ، فالنتيجة الواضحة هى أن اى برنامج من هذا النوع سيؤدى الى المصادرة الجماعية لأراضى مملوكة ملكية خاصة ومن هذا المنظور يعتبر سكان الضفة الغربية على صواب فى خوفهم من أن المستوطنات الصغيرة اليوم هى نواة التجمعات الحضرية فى المستقبل، تلك التجمعات التى ستجردهم من أملاكهم وتحطم حلمهم الخاص باقامة كيان فلسطينى مستقل .

هذا هو السبب فى أن المستوطنات تحدث تأثيرا اكبر كثيرا مما قد يبدو ممكنا من الاحصائيات الصماء وقد استسلم المستوطنون ، بدافع من الشعور بأن الوقت قصير وانه مازال ثمة الكثير يجب عمله ، لحالة من الجنون بالأرض ويبدو انهم لا يستطيعون اشباع رغبتهم هذه ويحاول سكان كريات اربع ، فى مرتفعات الخليل أن يوسعوا نطاق مستوطنتهم على حساب ملاك الأرض

فى قريتى (تاركومية) وشيوخ « المجاورتين .. وفى سماريا ، ثار خــلاف مؤخرا بشأن عملية مصادرة تركزت فى قرية عنابته (حيث اظهر بسام الشكعة من جديد شجاعته بالاشتراك فى مظاهرة احتجاج) واحقاقا للحق فان الفلاحين لم يواجهوا هذه الاعتداءات على اراضيهم باستسلام بل انهم لجأوا فى معظم الحالات الى المحكمة العليا المتخمة بالقضايا .

وقد فشلت جميع المحاولات لتسوية الخلافات من خــلال المجالس العسكرية للاستئناف ، لأن لجان هذه المجالس مكونة من ضباط قوات الدفاع الاسرائيلية التابعين للقائد المحلى او قائد المنطقة ، ولا يثق اصحاب الدعاوى العرب كثيرا فى نزاهة هؤلاء العسكريين .

وفى نفس الوقت ، يسلك المستوطنون الاتجاه العكسى تماما بحجة ان الحكومة الاسرائيلية لا تستطيع ان تتحمل شل حركتها بنــاء على نقــاط قانونية دقيقة فاذا لم يكن بالامكان شراء الارض من العرب ، فانه لابد من ان تصادر ويتم استيطانها على وجه السرعة . والحقيقة هى انه من الصعب فى هذه الأيام الحصول على ارض فى الأراضى المحتلة . ففى عام ١٩٧٩ على ســبيل المثــال ، تم شراء اقــل من ٧٥ هكتــارا من مصــادر عربية وهذا امر غير مستغرب حيث هددت الحكومة الأردنية والمنظمات الفلسطينية بقتل اى شخص يبيع ارضه لليهود . ان ندرة الأرض المتاحــة هى التى حضت المستوطنين على المجادلة بأن اسرائيل ليس أمامها خيار ، فاذا كانت تنوى توسيع الاستيطان اليهودى فى جوديا وسماريا فليس امامها الا ان تستولى على الممتلكات العربية حيثما شاءت ، متخلية بذلك عن الحجة المستندة الى اعتبارات الأمن وهى الحجة التى فشلت فى كسب دعــوى الحكومة فى قضية « ايلون موريه » .

وبصرف النظر عن الاحتمالات التى لا تبشر بالخير بالنسبة لمستقبل العلاقات العربية ـ اليهودية ، فان مثل هذا الأسلوب ينم عن اتجــاه جديد ومروع ازاء سيادة القانون فى دولة اسرائيل . وفى الواقع فان حركة جوش ايمونيم تضع نصب عينيها اهدافا ثابتة لا تحيد عنها لدرجة انهــا لا تهتم بطبيعة الوسائل التى تستخدمها الا من حيث مقدار نفعها لتحقيق هذه الأهداف فاذا استجابت الحكومة ووافقت على خطط هذه الحــركة فهذا هو المطلوب ، واذا لم تستجب ، فان جوش ايمونيم مستعدة تمامــا للجوء الى القوة والمغالطة . ومنذ سنوات قليلة مضت ، على سبيل المثال ، وصلت مجموعة ادعت انها من علماء الآثار الى موقع شيلوح بزعم التنقيب عن الآثار . والنتيجة كانت هى :

مستوطنة موجودة هناك اليوم يتباهى افرادها بنجــاحهم فى تحقيق غرضهم برغم الحكومة .

وسواء كان المستوطنون مسئولين عن تشويه صورة حــكومة بيجين بجرها الى العاب القوة هذه ام لا فمن المؤكد ان احد ضحايا برنامج اسرائيل الاستيطانى هى فترة الحكم الذاتى الواردة فى اتفاقات كامب ديفيد ، والتى رفضها معظم الفلسطينيين بالتحديد لأنها لا تستبعد الاســتيطان اليهودى فى الأراضى المحتلة فى المســـتقبل .

واصرار الحكومة الاسرائيلية على ان الحكم الذاتى ينطبق على سكان الضفة الغربية وغزة ، وليس على الأرض ، يظهر لنا ان اسرائيل لا تعتزم بالفعل تقليل وجودها فى تلك الأقاليم وأن ترتيبات الحكم الذاتى لن تكون ملزمة بالنسبة للمستوطنين اليهود :

ويتنبأ العرب ، بأن الاسرائيليين سيصبحون احرارا فى هذه الحالة لأن يفعلوا ما يحلوا لهم ، بينما تبقى هيئات الحكم الذاتى العربية عاجزة عن الرد باية طريقة . وفى سبتمبر عام ١٩٧٨ ، بعد التوقيع على اتفاقات كامب ديفيد ، عبر انور الخطيب عن المرارة التى يشعر بها العديد من الفلسطينيين عندما كتب يقول : « لقد خدعنا وتصورنا أن الاسرائيليين مهتمون بالتعايش ولا يكنون اية طموحات توسعية . واليوم يقولون انه لا مكان للفلسطينيين على ارضهم ، كما عادوا منجديد الى الحديث عن حقوقهم التاريخية . لقد نجحت السياسة الاسرائيلية فى دفع المعتدلين الى التطرف » .

ان الوضع الحقيقى للأمور اكثر تعقيدا بقدر كبير ، لأن خطةالحكم الذاتى قادت كلا المعسكرين الى التطرف : ـ فالفلسطينيون يرفضون الخطة لأنها تمنعهم من تحقيق حلمهم فى الاستقلال والسيادة ، والمستوطنون يعتقدون ان الخطة ليست الا المرحلة الأولى فى سبيل اقامة دولة فلسطينية مستقلة. وبالمثل ، فقد دعت لجنة التوجيه القومى الفلسطينيين الى ان يعارضــوا اتفاقات كامب ديفيد بكل السبل المتاحة ، ويستعد المستوطنون لمواجهــة احتمال ان تقوم الحكومة بتطبيق الاتفاقات بالفعل والتى تنص على «انسحاب القوات المسلحة الاسرائيلية » من الأراضى المحتلة و (أن تعيد القوات الاسرائيلية المتبقية انتشارها فى نقاط امن محددة » .

وفى مؤتمرين تم عقدهما فى الون شيفوت فى منطقة اتزيون ، وفى كريات اربع ، صمم المستوطنون على ان يشكلوا بوليسا خاصا بهم لكى يتمكنوا من الدفاع عن انفسهم فى حالة لجوء الحكومة الى تحديد وجود قوات الدفاع الاسرائيلية . وقد كشف « الياكيم هاتزنى » من كريات اربع ، الأمر بصراحة عندما اعلن فى اجتماع بالقدس فى يناير عام ١٩٧٩ أن « فى اليوم الذى يخرج فيه العسكريون النظاميون الاسرائيليون من المدن سيدخل اليهود النظاميين تلك المدن . ولكى يتم تنفيذ هذه الخطة ، سوف نقوم بتسجيل قوات احتياط من اليهود الذين لديهم الاستعداد لتلبية اى نداء . فاذا تم قذف اتوبيس يحمل يهودا بالحجارة فى حلحول غدا ، لا قدر الله ، وكانت قوات الدفاع الاسرائيلية محبوسة فى « نطاق امن » سيكون من الضرورى الرد

على حلحول ، ولن نقدر على ذلك وحدنا . واذا لم نساعد انفسنا فلن يساعدنا احد . ومن المؤكد ان حكومة اسرائيل سوف لا تساعدنا .

وفى مناخ خلقته تحركات وتصريحات كهذه ، يجب الا يستغرب احد ان العلاقات بين المستوطنين اليهود والقرويين العرب هى ابعد ما تكون عن الود والانسجام وعندما القى العرب بالحجارة على مركبة يهودية قام مستوطنون من شيلوح بقطع التيار الكهربائى عن جميع القرى المجاورة . وعندما القى اطفال من قرية بيت اور الحجارة على مستوطنى بيت حورون، قام المستوطنون — الذين اخذوا على عاتقهم تنفيذ القانون — باقتحام القرية ، وسدوا الباب المؤدى الى المدرسة ، وقطعوا التيار الكهربائى . وقد قام مستوطنو اوفرا بشكل متكرر بارهاب القرى العربية المجاورة ، وذهبوا الى حد احتجاز اى شخص قد يترائى لهم انه شكل « تهديدا للسلامة العامة » وجاءت اكثر الحالات صفاقة فى تعبير المستوطنين عن احتقارهم لجيرانهم وللحكومة العسكرية ، فى بداية عام ١٩٨٠ عندما تم الامساك بمجموعة من المستوطنين من بيت ايل « ومما يدعو للسخرية انها واحدة من المستوطنات التى وافقت المحكمة العليا على مصادرة الأرض لاقامتها على اساس انها (تخدم اغراضا عسكرية) » فى شوارع رام الله وهم يحملون مطارق وهراوات وقبل ان يتم اعتقال هؤلاء الأشخاص الاعضاء فى لجنة اقتصاص محلية — كانوا قد نجحوا فى تحطيم الواجهات الزجاجية لاربعين سيارة عربية ، كرد على القاء الحجارة على سيارة اسرائيلية واحدة ، ولم يتعاون المعتقلون مع المحققين ، ولكن على اية حال فقد تم اطلاق سراحهم مما دفع عمدة رام الله الى وصف المستوطنين بأنهم هم النظام الحاكم الحقيقى فى الأراضى المحتلة .

لقد قمت بتغطية مسهبة لـ « حكم » المستوطنين فى الأراضى المحتلة فى تقاريرى التليفزيونية ، وربما كان ذلك هو السبب فى اعتبارى شخصا غير مرغوب فيه فى معظم المستوطنات الجديدة . وخلال زيارة قمت بها الى الخليل، على سبيل المثال اتهمنى احد سكان « كريات اربع » بتدمير الحلم الخاص بارض اسرائيل ورددت عليه باننى ربما احب دولة اسرائيل بقدر ما يحبها هو ، بيد ان المحتل بدرجة اكبر هو انه كان يود معانقة دولة اسرائيل الى حد خنقها .

وتم هذا الحوار خارج بيت (هاداسا) الذى يعتبره كبار الضباط فى الحكومة العسكرية بمثابة بوتقة لاختبار العلاقات العربية — اليهودية فى الأراضى المحتلة . وبالاقامة فى بيت هاداساه ، فان اعضاء « جوش ايمونيم » تبنوا طريقة جديدة فى حربهم حيث وضعوا النساء والأطفال على خط المواجهة فى معركتهم من اجل السيادة فى الضفة الغربية .

وقد عاش فى بيت هاداساه لمدة تقترب من العامين ، ما يزيد على ثلاثين سيدة وطفلا فى ظل ظروف قاسية ، فالمبنى لا يضم الا مطبخا واحدا

وحمامين ، ودش واحد . وبدلا من تفريق هذا « الاستيطان بالقوة ، اعتمد الحاكم العسكرى للخليل على عوامل الطبيعة الصعبة وانتظر ليرى ما اذا كان الشتاء القاسى سوف يجبر النسوة على الرحيل .

بيد ان الشتاء اتى وانتهى ولم تزد النسوة الا تمسكا بالمبنى بشكل اكثر حزما ثم جاء الهجوم الارهابى فى مايو عام ١٩٨٠ ، ليزيد من قـوة عزيمتهم . وكان بيت هاداساه محاطا باكياس الرمل وبحرس مسلح دائم. وقد تم ازالة العديد من المبانى المجاورة او الاستيلاء عليها بأمر الحـاكم العسكرى من اجل تعزيز السيطرة على الموقع .

اما السطح فقد تم اغلاقه بعد الهجوم الارهابى ، ولكن قبل ذلك اعتاد اطفال المنازل المجاورة ان يجلسوا على الأسطح فى الصيف ليغنوا اغنيات قصيرة ، يرد عليها اطفال من احتلوا بيت هاداساه قائلين بالعبرية فى ايقاع عسكرى .

سوف نعيش فى هاداساه الى الابـد ...

ولن نعيـد ابـدا الخليـل ...

وسوف نعمل على تحقيق الخـلاص ....

وبعـد ذلك سـوف ياتى الخـلاص ...

لم يكن هناك تفكير فى طرد النسـوة واطفـالهن .... وكان تعليل الحكومة الاسرائيلية هو أن مثل هذه الخطوة لن تؤدى الا الى تحريك الجهاز الدعائى لمنظمة التحرير الفلسطينية وتسمح له بأن يزعم ان المنظمة حققت انتصارا . بعد ذلك وفى اعقاب الهجوم الارهابى انضم ثلاثة رجـال الى زوجاتهم فى بيت هاداساه مما حول الاقامة فى المبنى الى مسألة عائلية . وكان من بين هؤلاء الثلاثة الحاخام ليفنجر ، الذى كان قد تم حظر دخوله الى الخليل لأن الحاكم العسكرى اعتبره بمثابة تهديد للسلام . وكانت كل خطوة يقدم عليها ليفنجر تتم بناء على اعتقاد (ايديولوجى وقد اعطى هذا التفسير لوجوده فى بيت هاداساه لمراسل صحيفة معاريف قائلا :

« اننى اناضل ضد اعراف وتقاليد المجتمع الاسرائيلى من تهافت على الثروة المادية ، ووهن العزيمة ، وتعاطى المخدرات وقتل من اجل المال ، وارتفاع نسبة حوادث الاغتصاب والجريمة ويجب علينا ان نعود الى القيام بواجبنا المقدس والى كوننا شعبا مختارا . اننى ضد القتل والتعصب . بيد اننى افهم اولئك الذين يقتلون من اجل مثل اعلى .. ذلك لأن من قتل يهوديا سيقتل بدوره واننى افهم اولئك الذين يؤدون هذا الواجب ولكن لهم الاعجـاب » .

من حق الحاخام ليفنجر — بطبيعة الحال — ان يقدر من يشاء ويعجب به . ولكننى لا استطيع ان انفض عنى فكرة المناداة بان ما طالب به ليفنجر فى تلك الفترة بالذات « الاقرار بالشرعية المعنوية بالقتل » . قد ادت الى طرد فهد قواسمة ومحمد ملحم من بلدهما .

وفى أوائل عام ١٩٨١ قامت المجموعة التى (تستوطن) بيت هاداساه بتسليمه الى مجموعة من الأسر من كريات اربع . وتوجد فى الطابق الأعلى الآن مدرسة (شاف حبرون الدينية ، وتم نقل واجبات الحراسة الى المستوطنين . وقد وقع عدد من الحوادث غير السارة بين المستوطنين وجيرانهم منذ عملية الاستيلاء الأصلية على المبنى . ولكن أيا من هذه الحوادث لم يصل الى حد الحادثة الغريبة التى وقعت فى مارس عام ١٩٨١ خلال اجازة عيد (البوريم) والتى قوضت فى النهاية مسألة بيت هاداساه برمتها على راس محتليه عندما (تقوض) بالفعل السقف فوق راس ابراهيم دنديس صاحب محل الأقمشة والملابس الجاهزة الكائن فى الطابق الأرضى من المبنى.

كانت عائلة الدنديسى ، الأب والابن تستأجران المحل منذ ثلاثين عاما — من الهيئة الأردنية التى تشرف على شئون ممتلكات العدو « أولا ثم بعد ذلك من الهيئة التى خلفتها فى الحكومة العسكرية . وكان أبناء الدنديسى يغلقون المحل فى أيام الجمعة وهو يوم الأجازة عند المسلمين ، ولكنهم كانوا يعملون بطبيعة الحال فى أيام السبت مثلهم مثل كل أصحاب المحال الباقين فى الخليل . ومع ذلك ، فعندما قاموا بفتح المحل يوم السبت ٢١ مارس عام ١٩٨١ اكتشفوا وجود تغيير غريب فى الوضع القائم بينهم وبين جيرانهم الذين يقطنون الأدوار العليا اذ وجدوا ثغرة مساحتها حوالى ثلاثة أقدام مربعة قد حفرت فى السقف الذى كان يعتبر فى نفس الوقت أرض الحجرة التى يشغلها مستوطنو كريات اربع ، ابلغ ابراهيم دنديس الابن ، البوليس والحكومة العسكرية عما اكتشفه ، وقيل له — استنادا الى ما أعطاه المستوطنون من تفسيرات — أن هذا الدمار ناجم عن الرقص العنيف خلال الاحتفال بعيد (البوريم) ولكن الدنديس تشكك فى الأمر حيث أن الطابق مشيد من خرسانة قوية ودعا الدنديس ممثلا عن الحكومة العسكرية الى المحل وأشار له الى الدليل الواضح على ان طرفا او أطرافا استخدم معولا، وهو ما يكذب تأكيد المستوطنين على ان السقف انهار تحت تدافعهم الشديد فى غمرة نشوتهم .

من الطبيعى ، ان الدنديسى اراد ان يصلح هذه الفجوة بأسرع مايمكن ولكن عندما بدا هو واولاده العمل فى ذلك هوجموا بضربات عنيفة من شخص كان هو الحاخام ليفنجر نفسه الذى استشاط غضبا لانهم يعملون فى يوم العطلة :

(لا يهم هنا ان عائلة الدنديسى كانت تعمل كل اسبوع طوال ٣٠ عاما فى عطلة السبت المقدسة لدى (الحاخام ليفنجر) . فى نهاية اليوم ، ولم

يحقق ابناء الدنديس شيئا يذكر فى مجال الاصلاحات ، اغلقوا محلهم وعادوا الى مركز البوليس ليسجلوا شكواهم ضد جيرانهم لعرقلتهم عملية اصلاح وترميم السقف ، وكان ما يثير قلقهم بشكل كبير هو ان الفجوة تجعل المحل معرض بشكل واضح لاقتحامه من الدور الذى يعلوه والذى يسكنه المستوطنون . بيد ان الضابط المسئول اكد لهم ان دبوسا واحدا لن يضيع من محلهم وانه بوسعهم أن يستأنفوا اعمال الاصلاح فى اليوم التالى دون تدخل من جيرانهم .

لسوء الحظ ، لم يكن الأمر بهذه البساطة فكما ذكر الدنديس (الأبن) بعد ذلك فى ملف قضية الاتلاف التى رفعت امام محكمة العدل العليا ، فانه عندما عاد هو ووالده الى محلهما فى اليوم التالى ، قابلا مستوطنين مسلحين على الباب — الذى تم اغلاقه من الداخل . ووجدا أن اسياخ الصلب التى اشترياها لتدعيم الرقعة الموجودة بالسقف قد تم القاؤها فى الشارع . بيد انهم لم يكونوا قد شاهدوا بعد المفاجأة الأسوأ : فعندما دخل الدنديس وابنه اخيرا الى محلهم وجدا أن السقف قد ازيل بالكامل وان المستوطنين قد شيدوا سلما مكانه يفضى الى مساكنهم التى يعيشون فيها فى الدور العلوى. وكانت هناك « مراتب » مبعثرة فوق أرضية المحل — الذى كان خاليا تماما من البضائع — وكان التليفون محطما . وقبل ان يفيق الدنديس وابنه من الصدمة اخبرهما المستوطنون بأنه لا فائدة من عودتهما الى بيت هاداساه . وعرض المستوطنون أن يشتروا المحل ، كايماءة انصاف « نحو جيرانهم السابقين ، ولكن الدنديس وابنه لم يقبلا البيع ، ورفضا أن يرحلا عن المحل ، وازداد الموقف تعقيدا . وطبقا لشكوى ابن الدنديس امام المحكمة العليا ، فان الدنديس الكبير عندما جلس على السلم الجديد قام المستوطنون المسلحون بضربة وداسوه بأقدامهم وقذفوه بالقوة الى خارج المحل ، وكان من بينهم الحاخام ليفنجر ايضا . اما بالنسبة للمنسوجات التى ازيلت من المحل فقد وجدت فى حجرة أخرى بالمبنى وقد تبعثرت وتم اتلافها بشكل سىء . وكما ذكرت محامية ابراهيم الدنديس فى مرافعتها امام المحكمة ، فانه يمكن استنباط اهداف المستوطنين من مقالة نشرتها صحيفة « هاآرتس » يوم ٢٤ مارس حيث زعم فيها المستوطنون ان المحل جزء من املاكهم لأنه يقع فى البهو الأصلى لبيت هاداساه .

ربما كانت حيلة عيد البوريم هى القشة التى قسمت ظهر البعير لأنه بعد عامين من التجمل بالصبر قرر احد عشر شخصا ، يعيشون او يعملون بالقرب من بيت هاداساه ، أن يرفعوا قضية يطالبون فيها وزير الدفاع وقائد الضفة الغربية بايضاح السبب فى ان مستوطنى كريات اربع ، الذين ينتهكون القانون بالاعتداء على بيت هاداساه ، لا يتم طردهم على الفور . كانت فصول القضية أشبه بسجل للمضايقات والشكاوى التى تتراوح من رفض المستوطنين اصلاح مواسير المجارى المعيبة الخارجة من بين هاداساه ، والتى تتسبب فى الاضرار بالجار وايذائه ، والى قيامهم عمدا بعرقلة التجارة فى المؤسسات التجارية حول بيت هاداساه بسد الطرق الموصلة الى المحال بل وحتى يقذف الزبائن بالحجارة من نوافذهم .

وكما راينا ، فان السلوك الشائن لمستوطنى « كريات اربع » الذين يحتلون بيت هاداساه ، ازاء عائلة الدنديس ، لم يكن بالتأكيد هو المثال الاول الذى يستخدم فيه المستوطنون اساليب المضايقة والتخويف ضد الجيران العرب ، كما انه من المحتمل الا يكون الاخير . وفى الواقع ، فان الحاخام ليفنجر وفرقته يواجه منافسة حادة فى هذا الصدد من جانب حاخام آخر له اتباع متزايدون فى مستوطنات الضفة الغربية هو : مائير كاهان زعيم حركة (كاخ kach) . كان كاهان هو مؤسس ورئيس رابطة الدفاع اليهودى فى الولايات المتحدة قبل انيهاجر الى اسرائيل فى سبتمبر عام ١٩٧١ . ولا يقبل مؤيدوه الاستماع الى اى حل وسط بشأن حدود ارض اسرائيل ، وهم صرحاء تماما فيما يتعلق بطموحهم الرامى الى طرد جميع العرب الى خارج اسرائيل والأراضى المحتلة . ولما عجز كاهان عن تحقيق هدفه — الطرد التام لكل العرب — حاول بدلا من ذلك ان يقنع العرب بصفة فردية بالهجرة ، حتى انه وعد بأن يدفع لهم اجر تذكرة الطائرة وأن يساعدهم فى الحصول على عمل بالخارج . وقد عرف عن اتباعه — الذين ليسوا على هذا القدر من الدماثة — انهم بعثوا خطابات تهديد للشخصيات العامة العربية فى الأراضى المحتلة . وقبيل نهاية عام ١٩٧٩ قام عدد منهم باقتحام بعض المنازل المملوكة لليهود والتى يشغلها عرب فى الخليل وضربوا السكان « ونصحوهم » باخلاء تلك المنازل . بعد ذلك بأشهر قليلة علمت اجهزة الأمن فى اسرائيل أن كاهان كان يخطط للقيام بعمل مثير فى مكان ما بالضفة الغربية .

ومع تزايد التوتر بالفعل ، قررت الحكومة الا تترك له الفرصة ووضعته تحت الحجز الادارى لمدة ستة اشهر تقريبا . ولدى اطلاق سراحه سارع بقوله : — ان امامنا الكثير من العمل وبدا فى الظهور فى جامعتى تل أبيب وحيفا .

ولا يحظى كاهان بتأييد كبير بين الراى العام فى اسرائيل ولكن على الرغم من ذلك ، تعتبر نشاطاته مزعجة للحكومة ومقلقة للعديد من المواطنين . ويعتقد العرب انه — مثل الحاخام ليفنجر والعديد من المستوطنين فى الأراضى المحتلة — يتمتع بمعاملة تفضيلية من جانب السلطات ، التى تشجعه على متابعة اهدافه . وفى أوائل عام ١٩٨٠ تم اكتشاف مخبأ للأسلحة فوق احد المعابد اليهودية فى الحى اليهودى بمدينة القدس القديمة ، وعلى مسافة غير بعيدة عن الحائط الغربى . ويعتقد السكان العرب فى القدس ان الاسلحة كانت تخص اتباع الحاخام كاهان وانها كانت مخصصة لشن هجوم على احد مساجد المدينة القديمة خلال صلاة الجمعة . ولم تظهر اية علامة مباشرة بين كاهان والاسلحة ، ولكن حقيقة ان المواطنين الاسرائيليين كانوا يجمعون ويخزنون الاسلحة كانت مقلقة فى حد ذاتها .

وفى ديسمبر عام ١٩٧٨ تلقيت خطابا من يوسف ديان ، سكرتير حركة (كاخ) التى يراسها كاهان . ولقد احتفظت بالخطاب كوثيقة للذكرى لأن اسلوب الرسالة « الوقح » ترك أثرا فى نفسى أكثر مما ورد بالرسالة ذاتها وجاء فيها :

(قررت حركة « كاخ » — رابطة الدفاع اليهودى فى ارض اسرائيل — ان توضح لرفيق حلبى المراسل العربى بالتليفزيون الاسرائيلى ، انه لا يوجد مثل هذا الشىء الذى يسمى « فلسطين » ولا يوجد الا ارض اسرائيل . ولقد قررت سكرتارية حركة كاخ ان ترسل هذه الرسالة فى أعقاب التقرير الذى اذاعه حلبى يوم الأربعاء ، والذى ابلغ فيه المواطنين الاسرائيليين بأن « كريات اربع » غير شرعية وانها شيدت فوق أرض فلسطينية .. اذا لم يكن المراسل العربى رفيق حلبى يفهم انه لا يوجد شىء اسمه فلسطين . وانه لا يوجد سوى أرض اسرائيل فسوف نثبت له ذلك .. وما لا يمكن فهمه هو كيف مر هذا التقرير المملوء كراهية على هيئة الاذاعة الاسرائيلية (أم انها هيئة اذاعة فلسطينية ؟) . ان بث هذا التقرير كان مرحلة اخرى فى المعركة التى يخوضها اليسار الفاشستى ضد المجتمع اليهودى فى ارض اسرائيل من خلال عميله الموجود فى هيئة اذاعة اسرائيل . اننا سنقوم بعمل ضد رفيق حلبى لكى نوضح له من هم بالضبط الملاك الوحيدون لأرض اسرائيل !) .

بعد ذلك بأشهر قليلة ، كان من الواضح ان اعضاء حركة « كاخ » قد قرروا تنفيذ تهديدهم ، فقد قامت فتاتان احداهما لم تبلغ سن الرشد والأخرى مسلحة ببندقية كلاشينكوف ، بالتوجه الى مكتب استعلامات استديوهات تليفزيون اسرائيل فى القدس وطلبتا مقابلتى . تنبه واحد من ضباط الأمن وأسرع باستدعاء البوليس ، الذى قام بحبس الفتاتين ولكنه اطلق سراحهما بكفالة بعد استجوابهما . وكانت الفتاة التى تحمل الكلاشينكوف هى (ما زال كوهين) التى نالت شهرة كبيرة لأنها بصقت فى وجه وزير الدفاع عيزر فايتسمان أثناء اخلاء مستوطنة « نيعوت سيناء » ووضعت الملح فى قهوة الوزير عندما قام بزيارة « ايلون موريه » التى كانت عضوا فيها . وبعد اطلاق سراحها قالت لمراسل صحيفة «يديعوت أحرونوت» (ان المسألة كلها كانت فكاهة ولكن زمام الأمر انفلت منها) . لم يبد ان اى شخص فى استديوهات التليفزيون قد سرته هذه النكتة ، وفى الواقع ، كان ذلك الحادث هو السبب فى قيام الادارة لأول مرة بتعيين حارس خاص لى وقالت « مازال كوهين » بعد ذلك فى جدية مطلقة لابد من طرد رفيق حلبى من هذا البلد انه رجل يحول كل شىء الى اكذوبة انه ليس يهوديا . انه غريب ولا يستحق أن يبقى هنا . ولكننى بالطبع لن استخدم السلاح ضده لأننى أكون مجنونة اذا ضيعت عشرين عاما من عمرى فى السجن بسبب شخص عربى .

فى نفس الوقت ، ظلت خطابات التهديد تنهال على ، وظل البوليس يتهم اعضاء حركة (كاخ) وكانت أوضح « عبارات الحب » هذه موجودة

فى خطاب صادر من مدينة « عفولة » فى وادى « جزريل » وبه ما يلى :
« الى المراسل العربى القذر : سوف نقتلك . الموت نهايتك » .

منذ بداية عهد حكومة بيجين ، تركز معظم الاهتمام الخاص بالمستوطنات الجديدة على الضفة الغربية .

ولكن مصير مستوطنات نتوء رفح ، بما فى ذلك مدينة ياميت ، كان موضوعا يثير نفس الاهتمام والانفعال ، لأنه كان مقررا بموجب احد نصوص معاهدة السلام المصرية — الاسرائيلية ان يتم التخلى عنها وفكها . وقد وعد المستوطنون بأنه سيتم تشييد اثنى عشر مجتمعا بديلا لهم فى منطقة شالوم ، فى داخل حدود اسرائيل السابقة عام ١٩٦٧ ، ولكن لابد ان ذلك قد هدأ روعهم . وهناك فرص ممتازة لان تزدهر المنطقة الجديدة فى زمن قصير — كما أزدهرت مستوطنات رفح من قبل — بالمستنبتات الزجاجية ومزارع الدواجن ، والصناعات البسيطة ، والانتاج الزراعى المنتقى وكل ذلك بتمويل سخى من الحكومة ومن قروض ومنح الوكالة اليهودية مع الاستعانة بالعمالة العربية الرخيصة . ورغم ذلك فان مستوطنى نتوء رفح لا يتعجلون الرحيل ويتمسكون بأن تدفع لهم الحكومة تعويضات باهظة .

لقد ارتبطت عملية تحويل نتوء رفح الى ركن اسرائيلى اخضر مزدهر بعملية طويلة وشاقة لتطهير الأرض وكان ذلك يعنى فى الماضى ازالة الصخور من التربة الصخرية لكى يتم الحرث والزرع ، أما هذه المرة فان ذلك كان يعنى ازالة آلاف البدو الذين نصبوا خيامهم فوق الكثبان الرملية . ولا يمكن اخفاء حقيقة ان البدو تم طردهم دون اسلوب منتظم واحيانا تم ذلك باستخدام القوة ، والتهديد وذلك حتى تحتل المستوطنات الزراعية مكانهم ان كل من يزور المنطقة اليوم يمتلىء دهشة لرؤية انجازات المستوطنين . فالصحراء المهملة تم تحويلها الى مساحات خضراء زاهرة . ولا يوجد ما يذكر المرء بعملية القلقلة المفاجئة التى وقعت هناك سوى البدو الذين عسكروا على مداخل المستوطنات (والذين لا يسمح لهم بالعضوية فى هذه التعاونيات بطبيعة الحال) .

ويختلف الموقف فى مرتفعات الجولان عنه فى الأراضى المحتلة الاخرى لعدة أسباب . اولها : ان الاستيطان فى الجولان ، مثلما هو فى منطقة رفح، ما لم يكن الدافع اليهايديولوجية دينية او قوميةترتكز على كل ارض اسرائيل، بل الاعتقاد بأن اقامة سلسلة من المستوطنات الجماعية والتعاونية سوف يزيد بالفعل من أمن اسرائيل . وبطبيعة الحال ، تتركز فكرة ضم مرتفعات الجولان الى اسرائيل على تلك المستوطنات . ويقيم ما يقرب من ٦٥٠٠ شخصا ، بما فى ذلك حوالى ٢٣٠٠ طفلا ، يقطنون فى ٢٦ مستوطنة جماعية وتعاونية .

ويوجد ثلاث اخر تحت الانشاء فى مدينة كاتزرين وقد زودت الحكومة هؤلاء السكان بـ ١٨ الف هكتار للزراعة ، و ٧ آلاف هكتار لرعى قطعانهم.

ولا يزال الاسرائيليون يشعرون بأن مستقبلهم فى الجولان غير آمن — خصوصا منذ توقيع اتفاقية كامب ديفيد — وقد حاولوا ان يحصلوا على التأييد لقضيتهم بتنظيم حملة لتوقيع عريضة جماعية ضد الانسحاب الاسرائيلى من المنطقة .

كان ذلك مشروعا هائلا ، ولكن عندما انتهت الحملة الخاصة بهذه العريضة ، استطاع شيمون شيفز ، وهو من أنشط اعضاء لجنة مستوطنات الجولان ان يقدم وثيقة وقع عليها ٧٥٠ الفا من المواطنين الاسرائيليين الذين اعتقدوا أنها ستكون كارثة قومية اذا تم التخلى عن مرتفعات الجولان .

كان من بين الموقعين على العريضة سبعون من اعضاء الكنيست ، من بينهم وزراء فى حكومة بيجين ، وقادة حزب العمل المعارض — شيمون بيريز ، واسحق رابين ، وحاييم بارليف وايجال الون (الذى توفى منذ ذلك الحين) ولقد قام عدد من أعضاء الكنيست بتنظيم ضغط «لوبى» لمنع اية اتفاقيات سلام مع سوريا فى المستقبل تشترط اعادة المرتفعات الى سوريا ومن وجهة نظر من شكلوا هذه المجموعة ، فان القيمة الأمنية للوجود الاسرائيلى فى الجولان تفوق بكثير فوائد معاهدة السلام .

هناك سبب آخر يجعل الحالة السياسية فى الجولان مختلفة تماما عن تلك الموجودة فى الضفة الغربية او قطاع غزة . فالسوريون — على عكس الأردنيين والمصريين فى المناطق الخاصة بكل منهم — لم ينجحوا ابدا فى الهيمنة على الجولان وقد هرب السكان المسلمون من المنطقة عبر خط وقف اطلاق النار فى عام ١٩٦٧ تاركين خلفهم جماعة الدروز — الذين عاشوا دائما منعزلين فى قراهم الجبلية والذين يفخرون بتقاليدهم كمزارعين وقد تعلم الدروز — باعتبارهم اقلية مضطهدة فى الشرق الأوسط — ان يكونوا حذريين فى تصرفاتهم . ويرغب العديد من دروز الجولان — مثلهم مثل جيرانهم الاسرائيليين الجدد فى أن يتم ضم الاقليم الى دولة اسرائيل ولكن توجد أيضا مجموعة كبيرة تعتبر نفسها سورية . وتتراوح العلاقات بين الدروز والمستوطنين الاسرائيليين من العلاقات المهذبة الى العلاقات الودية . وقد حاول شيفز النشط ان يقنع الزعماء المحليين بالضغط من اجل الضم ، وساعده على ذلك عدم وجود خلافات . وقال لى شيفز بصراحة :

« اذا طالب الدروز ببسط السيادة الاسرائيلية على المنطقة فان هذا سيسهل علينا الأمور فى الكنيست » . ومع ذلك فان هناك قلة من دروز الجولان ميالة الى أن تخضع مصالحها لمصالح المستوطنين الاسرائيليين ، ويقوم زعيمهم غير الرسمى ، الشيخ سليمان كانج بتذكيرهم باستمرار بعلاقاتهم المتشابكة مع سوريا وشعبها . ولذلك فان مستقبل الجولان لا يزال معلقا بشكل مؤكد .

لقد حاضرت فى عشرات « الكيبوتزات والموشافات » فى اسرائيل على مدى السنوات القليلة الماضية ، وفى كل مرة كان اعضاء تلك المجتمعات

يلقون على محاضرات مضادة حول فشلى فى ادراك ما لذلك الاستيطان على الأرض من مغزى عميق من وجهة نظر العالم الصهيونى . اننى استأذن فى الاختلاف مع وجهة النظر هذه ، لأننى افهم تماما الأثر التاريخى والاجتماعى والنفسى للاستيطان كعامل ساعد على احداث ثورة فى الحياة اليهودية هنـا . ولكننى لا زلت اعتقد بأنه يجب التمييز بشكل اساسى بين الاستيطان اليهودى فى داخل دولة اسرائيل ، وبين الاستيطان فى الأراضى المحتلة . اننى لا ارى اى تناقض بين النضال بايمان عميق من اجل حق الشعب اليهودى فى الاستيطان داخل اطار ارض اسرائيل ، وفى نفس الوقت معارضة امتداد الاستيطان اليهودى الى المناطق المحتلة المكتظة بالسكان العرب اما بالنسبة لـما قد ينطوى عليه ذلك من « اختلاف هويتى الاسرائيلية » ، فبوسعى ان اقول انه منذ زمن ليس بالبعيد سـار ١٠٠ الف اسرائيلى آخر ـ اسرائيليون يهود ـ عبر شـوارع تـل ابيب وهـم يزارون بقولهم : « السلام افضل من كل ارض اسرائيل » ولم يشكك احد فى هويتهم او ولائهم او اى شىء آخر .

كان ذلك فى خريف عام ١٩٧٩ . هذاَ وما زال الجدل حول مستقبل الأراضى المحتلة والاستيطان اليهودى مستمرا ، ولا زالت الحكومة تواصل ارساء « الحقائق الواقعة » على الأرض فى شـكل المزيد من المستوطنات كل عام .

وقد راينا بالفعل تأثير ذلك على المناخ السياسى فى الأراضى المحتلة . وكان لها نفس قدر التأثير على التفكير السياسى فى اسرائيل ، وعلى القرارات الصعبة التى لابد من اتخاذها فى المستقبل القريب . وفى مايو عام ١٩٧٩ ، عندما حل موعد اخلاء مستوطنة (نيعوت سيناء) قام المستوطنون بتحصين انفسهم فى احد المبانى ، وتذفوا قوات الدفاع الاسرائيلية بكل ما كان فى متناول ايديهم ، بما فى ذلك مشاعل اللهب والمبيدات الحشرية السامة ـ ان اى سياسى اسرائيلى يفكر فى احتمال اجلاء بعض المستوطنين فى الضفة الغربية او جميعهم لابد أن يتعظ من درس (نيعوت سيناء) .

مع ذلك ، فانه من الواضح انه سيكون من الضرورى ، عند نقطة ما اتخاذ قرار ديمقراطى ـ وذلك طبعا ، على اساس افتراض الا يكون التطرف قد افسد فعلا العملية الديمقراطية لأنه ليس بوسعه اكثر التوقعات اثارة لليأس او اكثر الكلمات الوردية ان تمحو تجربة الأربعـة عشر عاما المـاضية . ولا يوجد أمل كبير فى أن تقوم علاقات سليمة أو حتى علاقات صحيحة بين المستوطنين الاسرائيليين والسكان العرب فى الأراضى المحتلة . وطالمـا ان العداء بين الشعبين يقترب من الحرب الخفية ، فانه لن يكون هناك سوى خيارين مطروحين :

نضال حتى النهاية او الاتجاه نحو ايجاد حل وسط عملى ـ وهـذا سوف يعنى التغاضى عن عمد عن الخلاف حول من هو صاحب الحق التاريخى الشرعى .

ان اعظم خطر نواجهه الآن هو ان اتساع نطاق الاستيطان فى الأراضى المحتلة ربما يضلل الاسرائيليين ويحملهم على التفكير فى اننا تجاوزنا النقطة التى يكون عندها الحل الوسط الاقليمى لا يزال ممكنا . ان التنبؤ لم يكن ابدا من خصالى بيد اننى سأغامر بالقول ان المثل المأثور « ان التعقـل هـو افضل مكونات الشجاعة » لن يكون ابدا اصدق منه فى الأيام القادمة عندما يتعين علينا ان نعالج مصير الأراضى المحتلة .

الفصل الحادى عشر

محور نابلس ــ الناصرة

ان منتقدى دولة اسرائيل يدعون بشكل ثابت ان الحركة الصهيونية منذ بدايتها قد تجاهلت باستمرار وجود عرب فلسطين . ومحور الاتهام هو انكار ان اليهود قد قاموا بأى جهد للوصول الى تعايش مع السكان الأصليين للبلاد . وكل من ينقب فى التاريخ الخاص بالحركة الصهيونية يعرف أن هذا الاتهام ينطوى على مبالغة فى التبسيط ، نتيجة لرفض الاعتراف بمدى التعقيد الذى يحيط بالمشكلة التى دامت لفترة طويلة . ففى أوائل عهد الاستيطان اليهودى الجديد فى فلسطين ، كان زعماء الحركة الصهيونية قد تحرروا من فكرة ان فلسطين كانت ارضا قفرا خالية ربما تكون قد بدت كذلك فى أعين الأوروبيين ، بيد انها بالتأكيد لم تكن قفرا ، وكان الرواد اليهود ومساندوهم فى المؤسسة السياسية الصهيونية يدركون تماما حقيقة وجود العرب الفلسطينيين وكذلك الحاجة الى اقامة علاقات سلمية معهم . وفى عام ١٩٢٥ تناول بن جوريون هذه المسألة عندما كتب هذه العبارات الصريحة :

« كان هناك وقت اتجهت فيه الحركة الصهيونية الى ان تتجاهل مسألة المجتمع العربى فى فلسطين ، وحسبت تحركاتها كما لو كان هذا البلد خالى من السكان تماما . ولكن عصر ذلك النوع من الصهيونية الساذجة قد انتهى الى الأبد ... ان المجتمع العربى فى هذا البلد هوجزء لا يتجزأ من ارض اسرائيل وهو متأصل الجذور فى هذا البلد ، يعمل فيه ، وسوف يبقى فيه . ان الصهيونية لم تأت الى هنا لتحل محل هذا التجمع أو لكى تبنى نفسها على انقاضه » .

كان هناك فى ذلك العام الذى ادلى فيه بن جوريون بهذا التصريح ، حوالى ٨٦٠ر٠٠٠ عربى و ١٢٠ر٠٠٠ يهوديا فى فلسطين .

وقد واجه المهاجرون اليهود الذين وصلوا خلال تلك الفترة مجتمعا عربيا ضعيفا من الناحية السياسية وذا اتجاه تقليدى . كان معظم عرب فلسطين عبارة عن فلاحين يعملون فى الأرض كمستأجرين لصالح الأفندية ــ ملاك الأرض الاقطاعيين اللذين كانوا يعيشون فى المدن او فى الخارج . اجبرت ظروف الحياة الصعبة فى هذا البلد المتخلف الفقير اليهود الذين

وصلوا حديثا الى مواجهة مشكلة الشكل الذى يجب ان تكون عليه العلاقة مع جيرانهم العرب ، وفى معالجتهم لهذه المشكلة على العقائديين وصانعى السياسة فى الحركة الصهيونية أن يسألوا انفسهم عما اذا كان اليهود يأتون الى فلسطين ليكونوا طبقة حاكمة بقصد استبعاد سكان البلد الآخرين .

وتأتى الاجابة واضحة فى موقف بيرل كاتزنلسون ، وهو واحد من اعمدة الحركة العمالية الصهيونية ، الذى اكد بيقين مطلق ان الصهيونية « لا ترغب فى ان تخلق فى فلسطين بولندة جديدة مع اختلاف واحد بسيط هو ان يلعب العرب دور اليهود فى بولندا ويضطلع اليهود بدور البولنديين ، وان كان من المحتمل أن يؤدوه باحساس اقوى قليلا . بالشهامة ازاء جنس الاقلية » .

ومع ذلك ، فانه فى الوقت الذى تحدث فيه بن جوريون وكاتزنلسون كان حلم التعايش السلمى قد تبدد بسبب موجة اراقة الدماء التى حددت نمط العلاقات لعدة عقود لاحقة . لقد اصبحت المصادمات بين العرب واليهود اكثر تكرارا واكثر عنفا مع قرب انتهاء الانتداب البريطانى وبحلول فترة منتصف الثلاثينات كانت البلاد قد غرقت فى العنف وكانت تمر بما يسمى فى التاريخ الفلسطينى باندلاع (الثورة العربية الكبرى) وقاتل عرب فلسطين فى جبهات عديدة حيث تحدوا السلطات البريطانية باضراب استمر ستة اشهر محاولين وقف نمو المجتمع اليهودى ، ومشعلين فى سياق ذلك ، الشرارات الأولى للصراع فى داخل المجتمع العربى ذاته . ذلك لأنه خلال هذه الفترة بدأ الفلاحون الاجراء فى التمرد ضد الظروف الاقطاعية التى فرضها عليهم الأفندية . وفى ذلك المجال ، على الأقل ، ربما وجد يهود وعربفلسطين ارضية مشتركة ، حيث ان احد أهداف الصهيونية كان القيام بثورة على الأنماط القديمة للحياة الاقتصادية اليهودية . ولكن حتى هنا فان الشقاق فى الصراع قد فاق كثيرا التضامن المفترض بين الطبقات العاملة ، وعلى الرغم من المحاولات المتكررة ، لم تنجح الحركة الصهيونية العمالية ابدا فى صياغة تحالف مع الفلاحين او مع العمال العرب الكادحين .

استمر الصراع الخفى بين المعسكرين القوميين فى فلسطين خلال الأربعينات وبعد ذلك اندلع من جديد بكل قسوته عندما اصدرت الأمم المتحدة قرارها بتقسيم البلاد وفى نفس اليوم الذى تم فيه اعلان قيام دولة اسرائيل اى فى ١٤ مايو عام ١٩٤٨ . كان هناك ١ر٢٠٠ر٠٠٠ عربيا على ارض فلسطين التىكانت تحت الانتداب مقابل ١ر٦٥٠ر٠٠٠ يهوديا واثناء وبعد حرب عام ١٩٤٨ ، هرب حوالى ٦٥٠ر٠٠٠ من العرب او تم طردهم من المناطق التى اصبحت خاضعة للحكم الاسرائيلى ، وخلفوا وراءهم ١٥٠ر٠٠٠ شخصا من العرب المسحوقين والمرتاعين فى داخل حدود الدولة اليهودية الجديدة وعاش الـ ٤٠٠ر٠٠٠ شخص الباقين فى الضفة الغربية وغزة التى كانت مخصصة اصلا لتكون جزءا من دولة عربية فلسطينية .

ومع ذلك ، فى عام ١٩٥٠ تم ضم الضفة الغربية من جانب واحد الى مملكة شرق الاردن ، مما جعل تاسيس تلك الدولة امرا مستحيلا .

وشق العرب فى اسرائيل طريقا شـاقا لكى يلتئم جرحهم ، ذلك لان الحرب والهجرة الجماعية قد خلفت بنيتهم السياسية والاجتماعية فى حالة انهيار ، كما خلفت قيادتهم محطمة ومبعثرة وقد تم تحطيم قرى عـديدة او تدميرها كلية خلال القتال ، وقدر لسكان هذه القرى المنحوسين ان يصبحوا لاجئين فى الأردن او مصر او لبنان او حتى فى بلدهم . وهنـاك افتقار الى الأرقام التى يمكن الاعتماد عليها بشأن عدد القرى التى تم تدميرها او هجرها فى حرب عام ١٩٤٨ ، ولكن ليس سرا أن المسـتوطنات اليهودية سرعان ما قامت فوق الأرض التى امتلكها او عمل فيهـا سابقا القرويون الراحلون وعندما انتهى القتال ، وجد المواطنون العرب فى اسرائيل انفسهم معزولين عن العرب فى الضفة الغربية وغزة وعن العـالم العربى كله . والأسوا ، رغم ذلك ، كان قيام الدولة الجديدة بفرض حكومة عسكرية عليهم وقيدت حريتهم فى الحركة . وقد تم الغاء هذه القيود على مدى تسعة عشر عاما ، وتم الغاء الحكم العسكرى كلية فى ديسمبر عام ١٩٦٦ . وبصراحة تامة ، يمكن القول ان الحكم العسكرى كان يعوق سبيل النمو الاقتصـادى فان الاقتصاد الاسرائيلى كان فى حاجة الى العمال ، وكانت هنـاك وفرة منهم فى القرى العربية التى كانت تعانى من حرمان اقتصادى مزمن . وقد فتح الغاء الحواجز ، المتمثلة فى الحكم العسكرى ، الطريق امام عرب اسرائيل لكى يخرجوا من عزلتهم الاقتصادية ، ان لم يكن حتى من عزلتهم الاجتماعية .

ربما كان مصير قريتين هما — عكريت وبيرام هو اكثر الأمثلة المقلقة على الأخطاء التى ارتكبتها اسرائيل فى التعامل مع المشـكلة الشـائكة — فعلا الخاصة بمواطنيها العرب .

لقد قامت كتيبة تشكلت من جنود من الكيبوتزات والموشافات « المحلية بالتحرك الى قرية عكريت المسيحية العربية فى وسط الجليل الشمالى بجزء من عملية حيرام » التى نفذتها قوات الدفاع الاسرائيلية عام ١٩٤٨ للاستيلاء على الجليل وعندما اقترب جنود الكتيبة من القرية خرجنها ثلاثة اشخاص لملاقاتهم وهم يحملون اعلاما بيضـاء قام القس جيريس خورى بمباركة (اطفال اسرائيل) الواقفين امامه وهو يحمل فى يده الـكتاب المقـدس . وكان يتبعه ميادا حنا داوود مختار القرية الذى قام بتوزيع العيش والملح كعلامة على الاحترام على رجـال الوحـدة الاسرائيلية . بعد ذلك قـام اهل القرية بدعوة الجنود الى منازلهم كدليل على حسن النية . وبعد ان تلقى سكان القرية تأكيدات صريحة بامكانية عودتهم الى القرية بعد انتهاء القتال ، اذعنوا للأمر الخاص باخلاء القرية من اجل استمرار الحرب .

اقترب القتال من نهايته ، وعاد السلام الى المنطقة واصبحت الحدود مع لبنان مستقرة ، بيد ان سكان عكريت لم يسمح لهم بالعودة الى قريتهم وفى يوليو عام ١٩٥٧ رفعوا دعوى امام محكمة العدل العليا طالبوا فيهـا باحترام الضمانات التى اعطيت لهم . واعترفت المحـكمة بصحة دعواهم وحكمت بوجوب السماح لهم بالعودة الى منازلهم بيد انهم لم يحصلوا على اذن بالعودة وعانى سكان قرية (بيرام) من مصير مماثل ، واصـبح اسم هاتين القريتين مثالا على التجربة المرة التى خاضها العرب الذين اعتقدوا انهم كانوا يخدمون مصالح بلدهم ولكن تمت معاملتهم كأعداء . واستزرعت الكيبوتزات « والموشافات القريبة من بعض اراضى هذه القرى المهجورة ، التى وجد سكانها انفسهم فى وضع فريد حيث اصبحوا يعتبرون حاضرون غائبين » اى حاضرين فى بلـدهم ولكنهم غائبين عن املاكهم وعندما تولى مناحيم بيجين مهام منصبه فى يونيو عام ١٩٧٧ ، عبر عن رأيه فى ان العدالة يجب ان تطبق على سكان قرية بيرام (لسبب ما ... لم يذكر بيجين اسم قرية عكريت) . ومن الطبيعى ان المرء لا يمكنه الا ان يفترض أن الحكومة مسئولة عن تنفيذ حكم المحكمة ، بيد أن شيئا لم يحدث فى هذا الصدد حتى يومنـا هـذا .

لقد اوضح اعلان اسرائيل اعتزام الدولة منح حقوق متساوية لجميع المواطنين ، ولكن هذه الخطة النبيلة ضلت فى مـكان ما على الطريق ومن قبيل التناقضات ، ان الحرب الصعبة والمأساة المروعة التى حلت بالسكان العرب فى اسرائيل خلقت ظروفا مواتية للغـاية للتوفيق ولـدمج الأقلية العربية فى الدولة اليهودية الجديدة . واليوم ، وبعد اربعة وثلاثين عاما ، ليس بوسع المرء الا أن يحزن على هذه النتيجة الخـاصة بترك اسرائيل الفرصة الممتازة ، وربما الفريدة ، لتفلت منها . ويتساءل بعض الاسرائيليين الآن عما اذا كانت فكرة دمج عرب اسرائيل الكامل فى حياة الدولة لا تزيد عن كونها مجرد حـلم مستحيل . ولكن « زفى البيليج » الذى كان سـابقا الحاكم العسكرى للمنطقة المكتظة بالسكان العرب المعروفة باسم المثلث (وتقع عند خط الهدنة القديم تقريبا فى النصف الشمالى للضفة الغربية) ، لايزال مقتنعـا بأن عرب اسرائيل كانوا فى عام ١٩٦٧ بسـبيلهم الى ان يصبحوا جزءا لا يتجزأ من المجتمع الاسرائيلى . وهو يملك مجموعـة من الصور الفوتوغرافية للاحتفـالات بيوم الاستقلال التى اقيمت فى سنوات مختلفة بالقرى العربية الاسرائيلية ، ويتذكر قائلا ان « المـدارس كانت تتنافس بحماس على شرف حمل العلم الوطنى فى عيد الاستقلال » . ومع ذلك ،فان المكاسب العديدة التى تحققت فى اتجـاه التقـارب الحقيقى — لسوء الحظ — قد قضى عليها الحكم العسكرى الذى خلف وراءه جراحـا عميقة فى القطاع العربى من المجتمع الاسرائيلى .

لقد قامت الحكومة العسكرية — من بين مهامها الأخرى — بقمع اية اشارة الى قيام اى نشاط سياسى راديكالى كما قامت باحباط كل محاولات

للعرب لتنظيم صفوفهم خلف لواء سياسى مستقل . وتم حظر حركة (منظمة الأرض) التى نادت بعودة اللاجئين الفلسطينيين واقامة دولة مزدوجة الجنسية وذلك بسبب نشاطها التحريضى وكانت القيود تفرض على أعضاء الحزب الشيوعى العربى على الرغم من ان زملائهم اليهود كانوا احرارا وكثيرا ما كانوا يعتبرون أعضاء محترمين فى المؤسسة السياسية الاسرائيلية — وكثيرا ما كانت القيود تفرض على حرية حركة العناصر الشيوعية النشطة اثناء الحملات الانتخابية ، بل ان بعضهم قد تم اعتقاله طوال استمرار الحملة الانتخابية . وكان من نتائج التلاعب السافر احيانا على الساحة السياسية فى القرى العربية ان حزب الماباى الحاكم حصل على ٦٧ر٩٪ من الأصوات العربية فى عام ١٩٥١ ، و٦٤٪ فى عام ١٩٥٥ — وهى ارقام مذهلة فى ضوء الحالة السياسية السائدة آنذاك بين عرب اسرائيل .

وحتى مع العديد من القيود والعقبات ، اظهرت الأقلية العربية استعدادا كبيرا للتكيف مع مصيرها . بيد أن الطريق الى قبول هذه الأقلية سرعان ما سده عمل اصبح شائعا : الا وهو المصادرة الواسعة النطاق للأراضى العربية . كان هذا العمل ، ولايزال ، اكثر النقاط حساسية فيما يختص بالنزاع بين الأقلية العربية وبين السلطات القومية الاسرائيلية ، وفى عام ١٩٥١ صادرت الحكومة ١٨٧٥ هكتارا من ملاكها العرب لاقامة مدينة الناصرة العليا . واليوم يعيش ما يزيد على ٤٠ الفا من البشر فى الناصرة العربية التى تبلغ مساحتها ٨ر٢ ميلا مربعا ، حين يعيش أقل من ٢٠ الف من اليهود فى الناصرة العليا فوق مساحة تبلغ ٥ر٣ ميلا مربعا .

وتم أيضا مصادرة اراضى فى قرى « بعانة » ، « دير الأسد » «ونحاف» فى الجليل الغربى لاقامة مدينة « الكرمل » وقد فسرت الحكومة عمليات المصادرة على اساس الحاجة الى تنمية الجليل ، ولكن العرب فى المنطقة يرون ان هذه العمليات تعد بمثابة خطوة محسوبة لتجريد العرب من ملكيتهم واستئصالهم حتى يمكن نقل اراضيهم لليهود ، وقد استنبط العرب الأكثر راديكالية فى الجليل نظرية مفادها ان هناك مؤامرة حكومية شريرة لتدمير الحياة الريفية العربية كخطوة نحو الهدف النهائى الخاص بحمل الأقلية العربية بكاملها على الهجرة من الدولة .

ان الحقيقة المؤسفة هى ان سياسة اسرائيل الرسمية تجاه مواطنيها العرب اتسمت لعدة عقود بالتناقضات والبلبلة والمراوغة . وحتى عام ١٩٦٧ ، عاش عرب اسرائيل فى (جيتو) اجتماعى وثقافى ، فقد تم اقامة دولة اسرائيل كدولة يهودية ، وبحكم طبيعتها وضعت العراقيل فى طريق اى شخص غير يهودى رغب فى المشاركة فى اسلوب حياتها . وقد وضع هذا التناقض العرب الاسرائيليين فى وضع يتسم بالاحباط على المستويات النفسى والاجتماعى والسياسى . وقد اعلنت الحكومة انها تريد ان يشعر المواطنون العرب بالغيرة وان يدينوا بالولاء للدولة ، دون ان تشعر ان

هذا قد يمثل تناقضا فى المفاهيم . وفى الوقت نفسه فان العرب الاسرائيليين — وقد اجبروا على ان يكونوا فى وضع هامشى كمجموعة معزولة عن بقية المجتمع — ظلوا يكنون الشعور بالاستياء الجماعى لديهم وتم وصم القلة التى حاولت ان تكسر حاجز القيود وتشق طريقها فى المجتمع اليهودى « بالخيانة الوطنية » بسبب « اندماجها » فى هذا المجتمع وعادت هذه القلة ، ان آجلا أو عاجلا ، الى بيوتها ويحدوها الشعور بالخجل والخذى .

وفى ٨ مارس عام ١٩٧٣ ، وبعد حوالى خمسة وعشرين عاما من اقامة دولة اسرائيل ، بعث صمويل توليدانو ، مستشار رئيسة الوزراء للشئون العربية ، مذكرة سرية الى جولدا مائير تشرح وضع الأقلية العربية ، وجاء فيها :

« لا يبدو هناك اى امكانية لايجاد حل جذرى للمشكلات الصعبة التى تواجه الأقلية القومية العربية فى اسرائيل ، طالما استمرت حالة الحرب بين اسرائيل والدول العربية . ومن ناحية اخرى ، فانه من الممكن بلا شك أن يتم تخفيف المشكلة وربما تقليل معدل تدهورها اذا كنا من الذكاء بحيث نعطى عرب اسرائيل احساسا بالانتماء الى الدولة . ويمكن أن يتحقق ذلك باشراكهم فى مستويات التخطيط وصنع القرار والتنفيذ — سواء كان ذلك فى الوزارات الحكومية والمؤسسات العامة أو فى الفروع الأخرى للنظام السياسى — وفيما يتعلق بالمسائل التى تمس حياتهم بشكل مباشر على الأقل » .

ان ذلك يبدو كصيغة متواضعة جدا ، ومع ذلك فانها لم تظهر حتى فى شكل اقتراح الا فى عام ١٩٧٣ . وبالفعل ، كانت هناك قبل عام ١٩٦٧ تصورات أكثر قيمة للدور الذى يلعبه عرب اسرائيل فى زيادة رفاهيةدولتهم. واحد هذه التصورات أنهم يمكن أن يصبحوا جسرا يقود دولة اسرائيل الى تحقيق تفاهم مع العالم العربى كله ، بيد ان هذه الاستعارة البلاغية لم يتم ترجمتها أبدا الى سياسة .. والأسوأ من ذلك ، ان محاولات العرب لكى يصبحوا جزءا أساسيا منتجا فى المجتمع الاسرائيلى قوبلت بحاجز من اللامبالاة . لقد وقفوا الى جانب الدولة فى عام ١٩٦٧ ، فى ساعة محنتها ، وعلى الرغم من نذر التشاؤم المخيفة التى سادت أنحاء اسرائيل ، لم يكن هناك عمل واحد من اعمال التمرد ، أو اية محاولة لاستغلال نقاط ضعفالدولة خلال تلك الأزمة ، واعترف مستشارو (وخبراء) الحكومة الذين صوروا الأقلية العربية باستمرار كما لو كانت طابورا خامسا ، انهم كانوا مخطئين وبأنهم افتروا على شريحة مسالمة وموالية من سكان اسرائيل . ومع ذلك ، لم يتريث أحد ليفكر فى ان الوقت ربما يكون قد حان لمكافأة هذه الأقلية على ولائها بتبنى سياسة جديدة نحوها ، وبعد ذلك الوقت بسنوات عديدة وقف المسئولون الحكوميون ليخبطون على صدورهم فى ندم ويتساءلون عن سبب عدم تعيين واحد من الاسرائيليين العرب فى وظيفة مدنية فى الأراضى المحتلة . وبدا ان احدا لا يعرف الاجابة .

ان سياسة الاهمال غير الكريمة الواضحة هـذه هى السبب فى ان الاسرائيلى العربى قد تعلم ان يتعامل مع ما تعلنه الحكومة بمزيد من الشك . فاسرائيل مجتمع حر ومفتوح ، ويتحدث المتحدثون باسم الحكومة عن الحقوق المتساوية وعن القانون الواحد لكل المواطنين . ولكن الأقلية العربية اكتشفت ان ما يكون مقبولا تماما بالنسبة للمجتمع اليهودى لا يصدق عليها بالضرورة .

وعلى سبيل المثال ، فان كل اعلان عن مصادرة الأرض يصدر مصاحب باعلان عن النوايا النبيلة . وقد تحدثت الحكومة لعدة سنوات عن زيادة رخاء المجتمع العربى ، وايجاد مصادر جديدة للعمل ، وحل مشكلات الاسكان . كان ذلك ايضا هو الخط الذى سلكته الحكومة عندما صـادرت الأراضى العربية لاقامة الناصرة العليا والكرمل .

ولكن اذا حاول احد العرب ان ينتقل الى واحدة من المدن الجديدة ، فانه يقابل بعداوة واضحة . ان القانون غير المكتوب ينص على ان اى عربى يريد الارتقاء بحياته عليه ان يفعل ذلك فى حدود قريته ــ التى نعرف جميعا انها متخلفة عن بقية الدولة بعشرات السنين . وهكذا ، بمجرد ان تنتهى مثل هذه الجمجعة الرسمية ، تبقى الحقائق المريرة كما هى : العـديد من القرى قد حرمت من أراضيها .

بينما كان الحكم العسكرى لا يزال قائما فى داخل اسرائيل ، لعبت اجهزة الأمن دورا نشطا فى شئون القرى ، وكانت لها فى كل قرار هام : بالنسبة لمن يتم استئجاره للعمل كمدرس ولمن يدير المدرسة ، ولمن يتم ارجاء خدمته العسكرية ومن لم يتم تأجيل خدمته (بالنسبة للدروز) ، ومن سيحصل على وظيفة دائمة فى مصلحة السجون او بوليس الحدود ، ومن سيكون عليه ان يعول نفسه . ولم تغلق الحكومة العسكرية القرى العربية فقط ، ولكنها حجبت المعلومات الخاصة بها عن المجتمع الاسرائيلى ككل . ولقد ذهلت فى المدرسة العليا وفى الجامعة من ضآلة معرفة يهود اسرائيل ــ او اهتمامهم ــ بشئون الأقلية العربية فى البلاد من اية زاوية ، سواء كانت سياسية ام ثقافية ام اجتماعية . كان زملاء دراستى يجهلون تماما كل شىء عن الثورة الصناعية والزراعية التى حولت قرى مثل طيبة والطيرة مثلا الى مصادر رئيسية لتصدير الفراولة . ولم يعرفوا شيئا عن التناقص التدريجى لسيادة النظام الأبوى كنظام اجتماعى حاكم فى القرى ، وكانوا غافلين تماما عن التميز والحرمان الذى عانت منهما وتحملتهما الأقلية العربية . وكانت قرية ام الفهيم وهى اكبر القرى العربية فى اسرائيل ويسكنها حوالى عشرين الف نسمة يعيشون فى ظل ظروف معيشية لا يمكن وصفها ــ حيث لا كهـرباء ولا تسهيلات للصرف الصحى وتكاد بيوتها المتزاحمة فى حواريها الضيقة تكون خالية من التهوية ــ ولكن يهود اسرائيل كانوا يجهلون ذلك .

وعلى الرغم من ان معظم الاسرائيليين اليهود يضعون كل مجموعات الاقلية فى هذا البلد فى مرتبة واحدة باعتبارهم « عربا » . الا ان الحقيقـة

هى ان المجتمع العربى ابعد ما يكون عن التجانس . وحتى المجمـوعات الفرعية المختلفة تظهر علامات على التوتر والتمزقات فى نسيجها الاجتماعى . فمثلا يعيش العديد من البدو حياة مستقرة فى بيوت دائمة ، وتزود بعض الذين ظلوا يعيشون فى خيامهم ، بمولدات الكهرباء ، ونقلوا اجهزة التليفزيون الى القفار الصحراوية ، غير انهم لا يزالون يتمسكون بعاداتهم التقليدية ، ولهم تطلعات تختلف عن تلك الخاصـــة بعرب المثلث او الجليل ويســود المجتمع الدرزى قدرا ملحوظا من الشقاق الداخلى ، حيث توجد معسكرات متنافسة تتدافع فى اتجاهات متعاكسة (ففى داخل اسرتى ، يعتبر اخوتى انفسهم جزءا من الأقلية العربية فى اسرائيل ، على الرغم من كل محـاولات والدى لأن يبث فيهم الشعور بالانتمـاء الى المجتمـع الدرزى المنفصـل والمتميز) .

كما ان المجتمع المسيحى العربى . منقسم على نفسه بشكل خطير .

وعلى عكس رجل الشارع ، كانت السلطات الاسرائيلية مدركة تماما للنقص المحزن فى وحدة وتماسك المواطنين العرب . وحاولت ان تسـتغل ذلك كوسيلة لممارسة السيطرة على المجتمع العربى ــ وفقا للتكتيك القديم القـائل :

« فرق تسد » . وقد اختلف الموقف الرسمى من الدروز ، على سبيل المثال ، بشكل ملحوظ عن الموقف تجاه المسلمين والمسيحيين . وعندما ضج الدروز بالشكوى المرة من انهم يعاملون كعرب فيما يتعلق بالحقوق وكيهود فيما يتعلق بالالتزامات ، استمعت الحكومة الى الشكوى واتخذت اجراءات لتحسين حال مجتمع الدروز . واليوم يكاد التفضيل فى المتخصصات المـالية التى تمنح للمجالس المحلية يعكس التميز بين الفئات المختلفة فى المجتمـع فعلى القمة تأتى المجالس المحلية اليهودية التى تتلقى ميزانيات كبيرة نسبيا من وزارة الداخلية ، وبعدها يأتى الدروز ، وفى قاع السلم نجد العـرب المسلمين والمسيحيين . ومن الطبيعى ، ان اولئك الذين يعتبرون بمثـابة « العرب الطيبين » حصلوا على اموال اكثر .

وقد حدث اول تعديل فى الوضع السياسى والاجتماعى القائم بالنسـبة لعرب اسرائيل ، عندما التقوا بعرب الضفة الغربية فى عام ١٩٦٧ . فبعـد تسعة عشر عاما من الانقسام والعزلة ، التقت افرع العاملات على جانبى الحدود من جديد وتفتحت اعينهم على بعض الخبرات المثيرة للدهشـة . فقد وجدت عائلة « الفاهوم » وهى من الناصرة ، ان بعض اقاربها كانوا زعماء مرموقين فى منظمة التحرير الفلسطينية .

واستفاد العرب الاسرائيليين من الخدمات الطبية فى جنين ونابلس ومن صحف الضفة الغربية التى تدفقت على القرى العربية فى اسرائيل . وهى

علامة على التعطش الى صحافة عربية حقيقية . وفى الوقت نفسه فان العرب الاسرائيليين صدموا بالظروف المعيشية غير الانسانية التى عاشها الأقارب الذين قضوا ما يقرب من عشرين عاما فى معسكرات اللاجئين فى الضفة الغربية او غزة . وكان الأثر الكلى لهذه المواجهة ساحقا ، وربما كان ذلك هو السبب فى ان الاعتدال والحذر ساد فى البداية .

لقد تم تجديد الروابط الأسرية ، بيد ان عرب الجليل والمثلث ظلوا يعتبرون انفسهم كيانا منفصلا ارتبط مصيره بمصير دولة اسرائيل .

واشعلت العلامات الأولى على التمرد فى الأراضى المحتلة — من مظاهرات وحرق الاطارات والاعتقالات الجماعية — بعض الجمرات الخامدة بين عرب اسرائيل كذلك ، ولكن لم يحدث التحول الحقيقى حتى عام ١٩٧٣ . فعندما عبر الجيش المصرى قناة السويس وحطم خط بارليف ، فانه حطم صورة قوات الدفاع الاسرائيلية كقوات لا يمكن قهرها من وجهة نظر عرب اسرائيل بالاضافة الى عرب الأراضى المحتلة أيضا .

وادى ظهور ياسر عرفات فى الأمم المتحدة والاعتراف الدولى الذى ناله لمنظمة التحرير الفلسطينية ، الى زيادة سرعة عملية اضفاء « الطابع الفلسطينى » على عرب اسرائيل وللمرة الأولى وقف الطلبة العرب الاسرائيليون امام كاميرات التليفزيون واعلنوا صراحة أنهم عرب فلسطينيون — اسرائيليون . وسرعان ما تسبب تراكم التصدعات فى انهيار السد مما ادى الى تدفق المشاعر الفياضة لتغمر المجتمع العربى بكامله .

واليوم ، يصعب أن تجد عربيا واحدا فى اسرائيل لا يصف نفسه بأنه فلسطينى بطريقة او بأخرى ، وعندما يرد ذكر منظمة التحرير الفلسطينية فى الاجتماعات الجماهيرية يرتفع صياح الحشود بابتهاج . ولم يستغرق الأمر طويلا لكى تنعكس أعراض هذا التحول على المستوى التنظيمى . ففى عام ١٩٧٤ تم تشكيل المجلس الوطنى لرؤساء السلطات المحلية العربية لكى يقود النضال من اجل المساواة فى الحقوق . واعقب ذلك بوقت قصير تشكيل المجلس الوطنى لطلاب المدارس الثانوية ، وفى عام ١٩٧٥ ظهر الاتحاد الوطنى لمجالس الطلبة العرب . وفى نهاية عام ١٩٧٥ ، ظهرت الهيئة الأكثر نفوذا من كل هذا وهى : المجلس الوطنى لحماية الأراضى العربية وقد كشفت الشخصيات العامة والجماعات التى اتحدت لتشكل هذا المجلس عن اهدافها الوطنية بصراحة تامة ، واعلنت ان المجلس ليس حزبا ولا تنظيما سياسيا مستقلا على الرغم من أن أغلبية المراقبين كانت واثقة من ان القوة المحركة وراءه كانت « جماعة قائمة الشيوعيين الجدد (راكاخ) اى الحزب الشيوعى الاسرائيلى .

وكانت هذه الدعوة المدوية الى الالتحام فى النضال من اجل المساواة فى الحقوق اشارة على حدوث تغيير بعيد المدى فى الوضع السياسى للعرب

الاسرائيليين . فبضربة واحدة تراجعت المقاومة السلبية امام الحركة السياسية التى لم تهاب الدخول فى مواجهة مع الحكومة ، وساورتنى شكوك خطيرة بشأن ما قد يؤدى اليه كل ذلك لأن المواجهة مع السلطات يمكن ان تتصاعد بسهولة الى عنف يهدد المكاسب العديدة التى احرزها عرب اسرائيل — الى جانب خلق صدع عميق فى داخل المجتمع العربى الاسرائيلى . وسرعان ما وجدت اننى لم اكن الوحيد فى قلقى من الاتجاه الجديد .

كان جمال ابو طعمة ، الرئيس السابق للمجلس المحلى فى البقاع العربية ، واحدا من الذين حاولوا ان يحتفظوا باحساس متوازن . قال لى جمال فى محادثة خاصة « اننى أؤيد نضال الحزب الشيوعى ضد مصادرة أرضنا ، ولكن بعد ذلك تختلف اساليبنا . اننى اسرائيلى عربى » .

على الرغم من مثل هذه المشاعر ، لم يكن هناك اى توقف للعملية التى بدأت فى عام ١٩٦٧ واكتسبت قوة دفع متزايدة منذ عام ١٩٧٣ .

وفى غضون السنوات القليلة الماضية ، بلغت التوترات بين الفصائل المختلفة فى المجتمع العربى الاسرائيلى وبين العرب واليهود فى اسرائيل درجة كادت معها ان تصبح ملموسة . وفى صيف عام ١٩٨٠ ، القيت محاضرة عن التطورات الأخيرة فى الضفة الغربية امام خليط من المستمعين العرب واليهود فى كيبوتز جيفات هافيفا وكان من بين العرب اعضاء فى حزب العمل الاسرائيلى (الصهيونى) واعضاء فى حزب (راكاخ) الشيوعى « غير الصهيونى » وموالون للاتحاد السياسى الموسع المعروف باسم (القروبون) والذى يردد نفس ما تنادى به منظمة التحرير الفلسطينية من اقامة دولة ديمقراطية علمانية فى فلسطين . وبمجرد ان بدأت فى الحديث لاحظت ان المستمعين جلسوا حسب الانتماء السياسى . ووسط ملاحظاتى تقفز فجأة شاب من حركة « القروبين » وصرخ قائلا : « انهم يتصرفون نحونا مثل النازيين ! » — مشيرا بذلك الى السلطات الاسرائيلية . وعلى الفور هب اهل الكيبوتز الذين جرحوا فى الصميم ، وطلبوا اعتذارا ، تراجع الشاب العربى ، واطبق صمت واجم على جمهور المستمعين وحاولت ان استمر فى حديثى كان شيئا لم يكن . ولكن هذه الحادثة كانت درسا واقعيا فى المشاعر واتجاهات الجيل الصاعد من عرب هذا البلد .

وبدأت ازمة عرب اسرائيل المزمنة تظهر بشكل اكثر توترا ، وفى مجالات اكثر تنوعا ، واصبح الشعور الراديكالى الذى اخذ يسيطر على المجتمع يثير القلق وقد لمس سيف الدين الزوابى ، وهو عضو سابق بالكنيست ومؤيد صريح لاقامة علاقات بناءة متبادلة بين العرب واليهود ، لب المشكلة عندما قال : ان بلدى اسرائيل فى حالة حرب مع شعبى العربى ، وهذه هى المعضلة التى نواجهها .

وقد تجنبت حركة « القروبين » هذه المعضلة باعتبار اسرائيل قوة

احتلال فى حالة حرب مع شعبها ، وبرفض حتى مجرد الاستماع الى اى تفسير آخر للموقف . وفى عام ١٩٧٨ ، فى محاضرة القيتها امام نادى طلاب جامعة حيفا ، وقف طالبان عربيان من مدينة شفارام على مرمى السمع ولكنهما أعلنا انهما لن يدخلا الصالة . وبدافع الفضول ، سألت عن السبب فصوب أحدهما نحوى نظرة غاضبة وانطلق قائلا : « انك كذاب حيث تصف مقاتلى منظمة التحرير الفلسطينية الاحرار بالارهابيين » والمأساة الخاصة بذلك النوع من الهراء الدعائى هى انه يؤدى من خلال تمجيده للارهاب الى تقويض موقف أولئك اليهود الاسرائيليون الذين يؤيدون المطلب الخاص بتقرير المصير الفلسطينى ، وكان الطالبان على حق فى الا يحضرا محاضرتى فلم يكن هناك اى اساس للحوار بيننا .

ربما كان بالامكان منع عملية اضفاء الطابع الفلسطينى والراديكالية على افراد المجتمع العربى الاسرائيلى عن طريق الاتصالات مع عرب الأراضى المحتلة ، ولكن لا يمكن انكار ان مما ساعد على هذا التحول السياسات التى انتهجتها الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة — مع استمرار بقاء مسألة مصادرة الأرض بمثابة الشوكة الأكثر حدة . وعلى سبيل المثال ، فانه فى اوائل عام ١٩٧٦ تم تطويق حوالى خمسين هكتارا من الأرض فى شمال وشرق قرية كفر قاسم بأمر هيئة الأراضى الاسرائيلية .

واجد ان من الواجب على هنا ان أوضح ان هذه القرية كانت مسرحا لحادثة مرعبة افسدت العلاقات بين اليهود والعرب لعدة سنوات ، واصبحت تجسد ظاهرة بالغة القبح وجرحا مؤلما ووقعت الحادثة اثناء حملة سيناء عام ١٩٥٦ عندما تم فرض حظر التجول على كفر قاسم — القائمة بالقرب من حدود عام ١٩٤٨ مع الأردن — وتم اعطاء بوليس الحدود امرا باطلاق النار لدى رؤية اى شخص يخرق هذا الخطر — وبحلول الظلام وسريان مفعول حظر التجول ، قام بعض رجال البوليس المفرطين فى الحماس باطلاق النار على مجموعة من الفلاحين العائدين من الحقول مما اسفر عن مصرع ثمانية واربعين (من بينهم نساء واطفال) واصابة عشرات آخرين بجراح . لقد كانت واقعة مذهلة بشكل لا يمكن تصديقه ، وخصوصا فى بلد لا تزال تعتمل فى نفوس ابنائه بالكامل عبارة (كنت انفذ الأوامر فقط) . وتم تقديم الضباط والجنود المسئولين للمحاكمة وثبت عليهم الجرم ولكن صدرت ضدهم احكام مخففة نسبيا ، ثم تم تخفيفها بدرجة اكبر بعد الاستئناف .

واذا علمنا ان اسم « كفر قاسم » كان بمثابة شعار على اكثر جوانب الصراع العربى — الاسرائيلى بشاعة فلابد ان يكون من الواضح ان هذه المحاولة الجديدة لتقييد تنمية القرية ستثير عاصفة من الاحتجاج بين سكان اسرائيل العرب . وبالاضافة الى ذلك ، ففى عام ١٩٧٦ كانت هناك اداة تنظيمية تمكن هؤلاء العرب من تحويل غضبهم الى عمل سياسى . زارت لجنة التوجيه التابعة للمجلس الوطنى لحماية الأراضى المحتلة قرية « كفر

قاسم » والزمت نفسها بمواجهة مستمرة مع السلطات اذا لم تتراجع عن تصرفها . واقسم الأشخاص السبعون الذين يملكون الأرض فى المنطقة التى تم تطويقها ان يقاتلوا حتى النهاية . وفى نهاية الأمر اصدر رئيس الوزراء ووزير العدل اوامرهما بوقف العملية .

وادى ذلك الى وضع حد للمسألة — ولكنه لم ينه عملية مصادرة الأراضى التى لعبت مثل هذا الدور المحورى فى زيادة درجة وعى عرب اسرائيل فبعد ذلك بفترة وجيزة ، قررت وزارة الدفاع أن تستأنف المناورات القتالية فى الاقليم المعروف باسم المنطقة رقم ٩ ، التى تتاخم مزارع الكروم بصحنين ، ودير حنا وعربة فى الجليل . كانت المنطقة بالفعل موضع خلاف حاد بين القرويين بالحكومة ، وكان معنى استئناف المناورات فرض القيود من جديد على الزراعة فى المنطقة . وفى ١٤ فبراير عام ١٩٧٦ ، تجمع سكان القرى الثلاث فى صحنين وقرروا أن يقوموا بمظاهرات احتجاج وباضراب ضد تلك القيود ، بعد ذلك تراجعت وزارة الدفاع ومنحت القرويين اذنا خاصا بالعمل فى حقولهم . غير أن السياسة المرتبكة والمتأرجحة التى انتهجتها الحكومة لم ترض أحدا ، ولم تخدم مصالحها الخاصة الا بالحد الأدنى وكما أشار حنا مواس ، الذى كان حينذاك رئيسا للمجلس المحلى فى راما ، فى اجتماع لاحق فى صحنين ، فان « تراجع الحكومة — أيا كان تواضعه — قد تحقق بسبب وحدة الصفوف وتفانى المجتمع العربى فى حماية اراضيه ... ان قتالكم العنيد دفاعا عن أرضكم وقبور أحبائكم قد أجبر الحكومة وهيئة الأراضى الاسرائيلية على التراجع عن أعمال المصادرة فى كفر قاسم ... والمنطقة رقم ٩ » .

واذا كان مواس قد قصد أن يشير الى أن ذلك كان بمثابة ارساء سابقة ، فانه يكون قد تسرع فى القول ، ففى ٢٩ فبراير عام ١٩٧٦ وجهت الحكومة ضربة جديدة معلنة قرارها بمصادرة اراضى فى اربع مناطق من الجليل :

١١٧٥ هكتارا فى الناصرة ، ٧٧ ٪ منها مملوكة للعرب ، و ١٨٧٥ هكتارا فى منطقة الكرمل ، ٢٦ ٪ منها مملوكة للعرب ، و ٥٢٥ هكتارا بالقرب من قرية مكار ، ٣٥ ٪ منها مملوكة للعرب ، و ١٤٥٠ هكتارا فى منطقة صقد جميعها من أراضى الدولة أو من الممتلكات اليهودية غير أن لجنة التوجيه التابعة للمجلس الوطنى لحماية الأراضى العربية كانت قد دعت ، حتى قبل علمها بتلك الخطة ، الى اعلان اضراب عام فى ٣٠ مارس ١٩٧٦ . ووصفت اللجنة الاضراب ، فى سياق مطالبتها باعلانه بأنه :

تعبيرا عن الغضب المضطرم فى قلوب ابناء شعبنا ضد سياسة تحاول ان تقتلعنا من كل جزء من ارضنا ..... اننا نناشد السكان العرب فى اسرائيل ان يعلنوا الاضراب العام وان يحولوا يوم (٣٠ مارس) الى (يوم الأرض) حيث ترفع فيه الجماهير العربية أصواتها فى دعوة الى

التخلى عن السياسة الرسمية التى تشكل تهديدا لمستقبلنا فى هذا البلد ... لقد حان الوقت بالنسبة لنا لكى نقول لحكام اسرائيل : كفى — فالبقية الباقية لنا لا يجب ان نفقدها .

كان للدعوة الى الاضراب أثر قوى على الرغم من ان القيادة العربية لم تنضم كلها الى التيار المتجه نحو التطرف .

لقد خشى رؤساء المجالس المحلية وغيرهم من الشخصيات العامة الأخرى من عواقب العنف والاضرابات ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يسيطروا على المشاعر المتطرفة للمجتمع العربى . وقد حاول بعض أولئك الزعماء بدلا من ذلك ان يقنعوا الحكومة بانتهاج الحذر والتعقل — برغم ان نبرة اللوم الذى وجهوه للحكومة كانت واضحة وأفصح زكى دياب — العضو السابق بالكنيسيت ورئيس المجلس المحلى فى تمرا ، عن هذا التحذير ، خلال اجتماع فى (صحنين) فى ١٤ فبراير عام ١٩٧٦ ، عندما اعلن : « ان على الأطراف المسئولة ان تفهم اننا ، نحن المعتدلون ، اذا ما شعرنا بالحرمان فاننا سنكتم شعورنا بالاستياء فى قلوبنا ، حتى يحين الوقت الذى نتصرف فيه . وعندما نتصرف فاننا سنفعل ذلك بطريقة ستجعل من عرب اسرائيل قوة اكثر خطورة من المائة مليون عربى الذين يعيشون فيما وراء حدود اسرائيل » .

سعى دياب وعبد الرحيم حاج يحيى ، رئيس المجلس المحلى فى طيبة، بلا كلل لاستعادة الاحساس بالهدوء ونجحا فى اقناع معظم رؤساء المجالس المحلية بأن الاضراب العام كان غير ضرورى وينطوى على خطورة . ولكن اتحاد الطلبة العرب رد بأن وصفهما « بعملاء لا يمثلون ارادة الشعب » واستنكر « نشاط الانهزاميين » على اعتبار أنه « لا يعدو كونه تكتيكا خداعيا مضللا . وان قصدهم هو ان يغرروا بالعامة وايهامهم بأن المجتمع العربى قد وضع مقاليد شئونه فى ايدى هؤلاء الناس الذين عفى عليهم الزمن » . وعندما اجتمع ، فى ٢٥ مارس ، خمسة واربعون من رؤساء المجالس المحلية الذين عارضوا الاضراب فى شفارام ، تجمع حشد كبير من الشباب خارج الصالة وانهالوا بالشتائم على المجتمعين .

واثناء خروج المجتمعين من القاعة شق احد الشباب طريقه الى زكى دياب وبصق على وجهه . وبدا أن الانقسام بين العرب الاسرائيليين قد تحول الى مواجهة كاملة من خلال صراع الأجيال .

وعلى الرغم من المحاولات الرامية الى كبح جماع العواطف ، الا ان المتطرفين برهنوا على ان لهم اليد العليا هذه المرة ، لأن الاضراب تم وكان فعالا بدرجة كبيرة . كانت الأنباء والصور الخاصة بالمظاهرات العنيفة ، والاطارات المحترقة ، وحوادث القاء الحجارة على المركبات والجنود ، والأعمال المضادة التى يقوم بها الجنود الاسرائيليون مستخدمين الهروات

وهم فى زى القتال ، تعيد الى الأذهان احداث مماثلة فى الضفة الغربية ، واحتلت هذه الأنباء العناوين الرئيسية فى الصحف . واسفرت المظاهرات ايضا عن محصلة مهولة من الخسائر فقد لقى ستة مواطنين عرب مصرعهم — ثلاثة فى (صحنين) وواحد فى (عربة) وواحد فى « كفر كانا » وواحد فى « طيبة » — واصيب عشرات آخرون بالاضافة الى العديد من الجنود .

وقد بدا العنف فى ٢٩ مارس ، عشية الاضراب العام ، عندما اعترض طريق شاحنة محملة بالجنود متجهة نحو دير حنا — صحنين — عربة ، حاجز من الحجارة فقفز عدد قليل من الجنود الى خارج المركبة لازالة الحجارة من الطريق ولكنهم قوبلوا بوابل من الحجارة والمشاعل المحترقة وفتح الجنود المحاصرون النار ... بعد ذلك اتهم محمد نصر حسين ، رئيس مجلس دير حنا ، الجنود « باعتقال الشباب داخل بيوتهم وضربهم وتعريضهم للاهانة ، والاذلال أمام أولياء أمورهم ، وبأنهم قاموا ايضا بضرب النسوة اللاتى حاولن حماية ابنائهم واتهم الجنود ايضا باطلاق النار واصابة العديد من الناس وشهد جمال طربية ، رئيس مجلس « صحنين » — والذى كان ذات يوم من المؤيدين المتحمسين لحزب ماباى — بأن « فيما بين الثامنة والتاسعة صباحا تم قتل ثلاثة اشخاص مع سبق الاصرار دون سبب على الاطلاق وكانوا قد خرجوا لتوهم من بيوتهم فتم اطلاق النار عليهم وكانت هناك فتاة خارجة من منزلها وتم توجيه الأمر لها بدخول المنزل ثم اطلق الرصاص على ظهرها وهى تنفذ الأمر » .

كان قد تم فرض حظر التجول على القرى الثلاث التى سادها الاضطرابات ولكن كان بقية عرب اسرائيل قد انضموا الى الاضراب باقتناع وحماس مضاعف . وتوقفت الحياة تماما فى القطاعات العربية فى يوم ٣٠ مارس . فلم تفتح المدارس أبوابها ، ولم يخرج الموظفون الى عملهم ، وتعطلت المصانع تماما — وتدهورت مكانة أولئك الذين عارضوا الاضراب الى ادنى مستوى . وقال لى طارق عبد الحى ، رئيس المجلس المحلى « للطيرة » فى تذمر ، وقد أذهله التصرف المتطرف الذى قامت به الحكومة — « لقد أخرجونا ولم يعد بيدنا شئ لقد اصبحنا رجالا خاوين الآن . بيد اننا لن نرتكب نفس الخطأ مرتين ، لأنه يتم تصويرنا كأدوات تنفيذ سياسة أضرت بعرب اسرائيل لمدة ثلاثين عاما .

بيد أن الوقت كان قد فات بالفعل بالنسبة لرجل مثل عبد الحى . فبعد الأحداث الراديكالية الخاصة به « يوم الأرض » أعطى عرب اسرائيل ظهورهم لزعمائهم المعتدلين وصوتوا من أجل ابعادهم عن مناصبهم . وفى اغسطس عام ١٩٧٦ ، تم اسقاط عبد الرحيم الحاج يحى من منصبه فى طيبة واستبداله بأحد رجال حزب « راكاخ » قام زملاء زكى دياب — الذى كان قد تعرض للضرب فى (يوم الأرض) على يد الجنود الاسرائيلين — فى تمرا باقصائه على الرغم من ان وزير الداخلية قضى ببطلان هذا العمل واعلن حل المجلس المنتخب ، وتعيين هيئة جديدة محله . بل ان حتى « جمال

طربية » فى صحنين ، الذى كان ذات يوم زعيم المعتدلين الذين استنكروا الاندفاعات الراديكالية ، غير موفق منذ ذلك الحين . وقد سالنى خلال عام ١٩٧٨ عن رقم تليفون فهد قواسمة ، وبعد ذلك بفترة قصيرة اجتمع الرجلان ليبحثا المصير الموحد للفلسطينيين والحاجة الى اقامة دولة مستقلة تضمهم جميعا . كان طربية رجلا قد اكد مرارا انه لن يتخلى عن دولة اسرائيل اليهودية ، والآن هاهو يختار ان يسبح مع التيار بدلا من ان يسبح ضده . وتوصل غيرهم من زعماء المعسكر المعتدل الى قرارات مختلفة فانضموا رسميا الى الجبهـة الديمقراطية للسلام والمساواة ، وهى تجمع تحت لوائها كل من حزب راكاح والجماعات الأخرى ذات الفكر المشابه .

يرجع كل الفضل فى نجاح اضراب « يوم الأرض » الى « توفيق زياد » فلقد كان هذا الشاعر الحساس ، وعضو الكنيسيت وعمدة الناصرة ، هو المحرك الرئيسى وراء نشر الروح النضالية الجديدة بين عـرب اسرائيل وباعتباره زعيما للجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة فقد ظهر فى كل التجمعات المجاهيرية السابقة على (يوم الأرض) ودعا شعبه ، بصوته الأجش المؤثر ، الى ان يجند نفسه للقضية . ومع ذلك ، فلم يفقد ابـدا احساسه الدقيق بالوزن الصحيح للأمور ، وكان حريصا على ان يحذر من الافراط فى الحماس ، وفى منشور تم توزيعه فى الناصرة عشـية « يوم الأرض » قال « زياد » لأبنائه فى دائرته :

« يجب علينا ان نثبت اننا شعب لايخاف ولا يركع » . ولكنه اكـد ايضا على الحاجة الى التعقل . انتشرت كلماته البلاغية المتفقة مع شعارات وطنية مثل « ارض الوطن » كما كان لديه ولع بالعبارات اللازمة مثل « بدون ارض ان يكون هناك وطن او بيت ... ولا يكون هناك سوى التسـكع بلا نهاية بحثا عن عمل . اننا لا نريد ان نصبح البدو الرحل للقرى العشرين».

قضيت (يوم الأرض) فى نابلس محاولا ان اسجل ردود الفعل هناك ازاء الأحداث التى كانت قد بدأت تنكشف فى ذلك الوقت فى اسرائيل . لم يحدث فى مرة واحدة منذ عام ١٩٦٧ ان عبر عـرب اسرائيل عن تأييدهم الصريح لعمليات الاحتجاج فى الأراضى المحتلة ، ولكن هاهم الآن وقد قرروا ان يفصحوا عن شكواهم مما منحهم التأييد الكامل للضفة الغربية وشجعت منظمة التحرير الفلسطينية بدهاء مظاهر التضامن هذه وكانت النتيجـة ان اغلق تجار نابلس ورام الله محالهم ايضا وانضموا الى الاضراب .

وهكذا فان « يوم الأرض » يمثل فى الأذهان باعتباره علامة على اقرار التحالف الضمنى بين عرب اسرائيل وعرب الأرض المحتلة .

وتظهر فى البيانات التى نشرها المجلس الوطنى لحماية الأراضى العربية الدلائل الواضحة على هذه الرابطة الجديدة ففى بيان صدر فى ١١ مايو عام ١٩٧٦ اعلن المجلس ما يلى :

(ان السكان العرب فى اسرائيل الذين يشكلون جزءا لا ينفصل عن الشعب العربى الفلسطينى ، لايزالون يطالبون بأن تحتـرم السـلطات الاسرائيلية حقوقهم الوطنية والانسانية وأن تتخلى عن سياسـة التمييـز العنصرى الموجه ضدهم ــ والتى تجلت اولا وقبل كل شىء فى مصـادرة الأرض العربية . انه من المستحيل ان نفرق بين العدوان على عرب اسرائيل الذى تجلى فى (يوم الأرض) وبين العدوان المستمر على عـرب الأراضى المحتلة منذ عام ١٩٦٧ . ان هذا لايعدو كونه جانبا آخر للسياسة الرامية الى انكار حقوق الشعب العربى الفلسطينى والاستيلاء على ارضه بالقوة!».

كان من المنطقى ــ فى ضوء نغمة وفحوى مثل هذه البيانات ــ ان تبدا اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية فى دعم ما اسمته بـ (الانتفاضة العربية فى اسرائيل ، بالأموال واشار الجهاز الرسمى التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية ، « فلسطين الثورة » الى « شـعبنا فى الجليل » باعتبـاره « سلاحا للتحرك من أجل تحرير الشعب الفلسـطينى ». ويجب أن نتذكر ان « يوم الأرض ») جاء قبل أسابيع قليلة من الانتخـابات التى أتتبـكل من بسام الشكعة وكريم خلف وفهد قواسمة ، الى السـلطة فى الضـفة الغربية التى كانت قد غمرتها الدعاية الانتخابية الموالية لمنظمة التحـرير الفلسطينية ، وفى حين أن من المحتمل الا يكون للحمـاس الجنونى ، الذى سبق الانتخابات ، أى صلة مباشرة بالحالة النفسية للمجتمـع العربى فى اسرائيل ، الا ان من المؤكد أن مجىء العمد الذين تساندهم منظمة التحرير الفلسطينية الى السلطة قد ساعد فى تقوية الروابط بين عـرب اسرائيل وعرب الأراضى المحتلة ذلك لأن الشكعة وقواسمة أصرا على دعم محور نابلس ــ الناصرة . وعندما تم اغتيال كمال جنبـلاط الزعيم الاشتراكى اللبنانى الدرزى فى مارس عام ١٩٧٧ ، عقـدت الناصرة اجتماعا رسميا عاما للاحتفاء بذكراه . وتوجه الشكعة الى الاجتماع حيث أستقبل كبطل قومى ، وتحدث عن الحاجة الى وحدة الصفوف فى النضال ضد (الامبرياليين والمغتصبين) مما جعل الجمع المحتشد يهدر بالهتافات . وبعد هذا الاجتماع قال لى عمدة نابلس انه شعر فى الناصرة كأنه فى بيته وأضـاف « اننى لم افاجأ باستقبال كهذا » .

وعمل حزب راكاخ بثبات من أجل توثيق الروابط عبر « الخط الأخضر خط هدنة عام ١٩٤٩ » ، الذى شـكل حـدود اسرائيل حتى حرب الأيام الستة : وأصبح نشاط راكاخ واضحا الى حد أن الحكومة العسكرية بدأت تمنع أعضاء الحزب الاسرائيلى من دخول الأراضى المحتلة بعد ان شعرت بالقلق ازاء النتائج المحتملة لمثل هذا التحالف وعلى الرغم من ذلك ، فقـد زارت شخصيات قيادية فى حزب راكاخ من أمثال المحامية النشطة فيليسيا لانجر ، وعضوى الكنيسيت توفيق طوبى وتوفيق زياد ، مدن الضفة الغربية مرارا . وكان التعاون بين الأفرع المختلفة للحزب واضحا بصفة خـاصة فى الصحافة الشيوعية ، مع مساهمة العرب الاسرائيليين بمقالات فى الصحف التى تنشر فى الأراضى المحتلة والعكس بالعكس .

ويرى حزب راكاح ان منظمة التحرير الفلسطينية هى المثل الوحيد للشعب الفلسطينى ، وكان الاجتماع الذى عقد فى صوفيا فى سبتمبر عام ١٩٨٠ بين اعضاء الكنيسيت الشيوعيين وياسر عرفات مجرد تتويج لعملية استمرت لعدة سنوات . وفى الوقت نفسه ، فطالما ان الاتحاد السوفييتى والتحدى الكبير الذى يواجهه حزب راكاح من الدوائر الراديكالية الشابة فى القرى هما اللذان يواجهان تحركات الحزب ، لا يمكن تلافى البلبلة والحيرة . وعلى سبيل المثال ، فان عرب اسرائيل ربما يكونون جزءا لايتجزا من الشعب الفلسطينى ، ولكن منظمة التحرير الفلسطينية ليست بأية حال المثل الوحيد لهم .

وفى يونيو عام ١٩٧٦ أصدر بعض زعماء راكاح بيانا محيرا يطالب باعادة تأسيس اسرائيل لتكون دولة مزدوجة القومية . وأنا اقول انه كان بيانا محيرا لأن مثل هذه الفكرة كانت تمثل تناقضا صارخا مع الخط الرسمى للحزب الشيوعى ، وبالفعل نشر نفس الزعماء بعد أيام قلائل خطابا تفسيريا فى صحيفة هاآرتس تراجعوا فيه عن موقفهم . فأعلن الخطاب بوضوح أن « اسرائيل تأسست كدولة يهودية ، وتم الاعتراف بها على هذا الأساس ، ولابد من أن تظل كذلك ، اننا نحارب من أجل حقوق الاقلية العربية فى اسرائيل التى نرى انها جزء لايتجزأ من الأمة الفلسطينية تماما مثلما نحارب من أجل حق الأمة (الفلسطينية) فى دولة خاصة بها الى جانب دولة اسرائيل » . اننى لازلت أتساءل أحيانا عما اذا كان النص الأصلى لا يزيد عن كونه خطأ محرج ، وقع بدافع من الحماس المفرط ، أو كان مقصودا به الاشارة الى حدوث تغيير فى الاتجاهات الداخلية بين صفوف الحزب .

وعلى اى حال ، فان أعراض الراديكالية لم تمر مر الكرام على اليهود الحساسين سياسيا فى اسرائيل . فلجأت بعض الدوائر — التى ربما تكون قد أصابها الذعر من قوة البلاغة المنبعثة من المثلث والجليل — الى مبالغات خاصة بها وتحدث هؤلاء ، الذين أولوا اهمية كبيرة لروح النضال الجديدة بين عرب اسرائيل عن « اختفاء الخط الأخضر » . وذكروا أنه كان واضحا أنه لا يوجد اختلاف حقيقى بين نابلس والناصرة . ولكن مثل هذا التشويه الكبير للموقف تجاهل حقيقة رئيسية وهى أن عرب اسرائيل ظلوا على ولائهم لدولة اسرائيل حتى عندما تحدثوا عن انفسهم باعتبارهم جزء لايتجزأ عن الشعب الفلسطينى . ولم يكن اليهود ، الذين اشاروا الى « عرب فلسطين » ككيان موحد متماسك ، دون تطبيق معيار المواطنة القومية ، للتمييز بين القطاعات المختلفة من السكان الفلسطينيين ، يسهمون الا فى تنشيط العملية الديناميكية التى كانوا يحاولون ايقافها .

وكما رأينا فى جوانب اخرى للصراع الفلسطينى — الاسرائيلى ، فان القوى السياسية المتضادة اتجهت الى ان يغذى بعضها البعض . وبنفس الطريقة التى اثر بها هذا التعايش بين النقيضين على منظمة التحرير

الفلسطينية وجوش ايمونيم ، فان اى ميل نحو الانفصال بين عرب اسرائيل قوبل برد فعل مضاد من جانب الوطنيين اليهود المتطرفين . بل حتى كانت هناك دعوات الى اعادة فرض الحكم العسكرى على السكان العرب الاسرائيليين ، من اجل واد فى المهد ، لأية محاولة للانفصال .

وبينما تطالب حركة (كاخ) التى يتزعمها مائير كاهان بالقيام بعمل لتشجيع العرب على الهجرة من اسرائيل ، فان توفيق زياد هدد بانه اذا لم تمنح الدولة مواطنيها العرب المساواة فى الحقوق « فانهم سوف ينشرون اعلانات فى الصحف .... » يعلنون فيها أن عرب اسرائيل يبحثون عن دولة خيرة الى حد قبولهم — هم وأرضهم ومع ذلك ، فان حتى زياد — الفنان — ربما يكون قد فوجىء بحدة رد الفعل الاسرائيلى لانه أصدر فى سبتمبر عام ١٩٨٠ بيانا يعيد التأكيد على تصميم « راكاح » على عدم الانحراف عن السياسة التى تعترف بحق اسرائيل فى الوجود .

وصرح زياد قائلا « ان عرب اسرائيل يرون أنهم جزء لايتجزأ من الدولة . وأنه لا يوجد صوت واحد جاد يدعو الى الانفصال عن الدولة . ان عرب اسرائيل هم العرب الوحيدون الذين يعترفون بدولة اسرائيل ، وهم يودون البقاء فيها ، لأن هذه الدولة هى بيتهم وموطنهم » .

لم يكن الخط الحذر نسبيا الذى تبناه حزب (راكاح) أكثر وضوحا « مما كان عليه فى الذكرى السنوية الأولى (ليوم الأرض) عندما قامت « حركة القرويين » بمحاولة فاشلة لتكرار نفس أحداث العام السابق فقد تمنى (القرويون) أن يلهبوا حماس الجماهير العربية ، ولكن (راكاح) عمل بهمة على تحويل الشعور بالاحتجاج الى قنوات « بناءة » ومظاهرات هادئة ومؤتمرات شعبية منظمة بشدة بحيث لا تترك مجالا كبيرا للأعمال العفوية .
ومع ذلك ، يبدو أن الحزب الشيوعى فى اسرائيل يحارب معركة خاسرة فان الاضطراب الذى ساد المنظمة بالاضافة الى التهاب المشاعر الوطنية فى الضفة الغربية ، التى غمرها حماس متقد ، قد أبعد شباب القرى عن حزب (راكاح) وقد دل على ذلك التحول البيان الذى صدر فى مارس عام ١٩٨٠ فى قرية « أم الفهيم » باسم تنظيم يسمى نفسه (الحركة الوطنية التقدمية) تحدث البيان ، ضاربا عرض الحائط بالاعتدال عن النضال ضد السلطات الصهيونية العنصرية التى تشن حرب ابادة مادية وسياسية وثقافية ضد الشعب العربى الفلسطينى .

.... ان « يوم الأرض » هو يوم نضال وليس يوم احتفالات وليسقط الاحتلال ولتسقط المستوطنات واليهود وليحيا النضال العربى — اليهودى ضد الاحتلال وأعمال المصادرة .

من المستبعد أن يؤدى هذا النوع من الكتابات الى تدعيم مناخ الهدوء والتعقل . غير ان التركيز على الخطر الذى يشكله مثل هذه المبالغات يعد مثالا نموذجيا على معالجة الأعراض دون الأسباب ولا يمكن أن يكون الشباب المتطرف مسئولا عن سياسة جعلت المشكلة تتفاقم عشرة مرات . فحكومة

اسرائيل وما يرتبط بها من هيئات هى المسئولة فى المقام الاول ، بسبب افتقارها الى الحساسية والادراك لعزلة العنصر المعتدل بين عرب اسرائيل. واحدى القضايا فى هذا الصدد كانت حملة الحكومة (لتهويد) الجليل . فعلى الرغم من ان وكالات الاستيطان اليهودى حاولت ان توضح ان مثل ذلك (التهويد) لن يكون على حساب عرب المنطقة ، الا ان من الواضح ان الغرض هو قطع دابر اى مطالب قومية عربية فى الجليل وتبرير الادعاء اليهودى بتفرد اليهود بالحق هناك .

لقد عثرت على وثيقة للوكالة اليهودية حاولت ان تشرح الحاجة الى اقامة مستوطنات يهودية مصغرة — تسمى « نقاط مراقبة » — فى الجليل وكان عنوان هذه المذكرة هو « اقامة نقاط مراقبة » فى منطقة الجليل الجبلية . النضال من اجل حماية ارض الأمة وتأكيد طابع المنطقة بالنسبة للمستقبل . ومضت الوثيقة فى تفسير معنى تلك الكلمات الموجزة بايضاح ، حيث ذكرت أن ٧٠٪ من سكان الجليل ليسوا يهودا ، ونتيجة لهذا الوضع الديموجرافى الواقعى وتوزيع السكان اليهود فى المنطقة ظهر وضع غير مرغوب فيه . واستطردت المذكرة تقول : ان هذا الوضع فى الواقع يشكل تهديدا كبيرا بالنسبة لطابع المنطقة باعتبارها جزءا من الدولة اليهودية بل وحتى بالنسبة للسيادة الاسرائيلية على المنطقة وهناك فرصة لأن يطلب العرب ، فى محادثات الحكم الذاتى (مع مصر) ان يتم ضم هذا الأقليم الى (المنطقة التى سيتم منحها الحكم الذاتى) .

وبدا ان مؤلفى الوثيقة لم يدركوا اطلاقا ان تحليلهم يوحى باحتمال وجود اسباب لاعادة النظر فى حق اسرائيل فى فرض سيادتها على الجليل . واكثر من ذلك ، فان شخص مثلى يؤمن تماما بحق اسرائيل فى الوجود كدولة يهودية ومستعد للقتال من اجل ذلك الحق ، يصعب عليه أن يقبل الأسلوب الذى تبنته الوكالة اليهودية . واذا كانت هذه الهيئة الموقرة ترى فى عرب اسرائيل عدوا جماعيا لابد من مقاومته على اساس قومى ، فلماذا يندهش اى شخص من أن عددا مطردا من الشباب العربى يتجه الى المعسكر الفلسطينى ؟ .

بل ان جولة قصيرة سطحية فى القرى العربية فى اسرائيل تكفى لأن يشعر المراقب ثاقب النظرة بمدى الحيرة التى تسيطر على سكانها لقد مر اربعة عشرة عاما منذ ان تم فتح الطرق واعادة الاندماج من جديد بين عرب اسرائيل واقاربهم فى الضفة الغربية ، ولكن الاسرائيلى العربى لا يزال يشعر بأنه غريب فى نابلس او الخليل . وعلاوة على ذلك ، فان عدم القدرة على الشعور بالالفة فى الضفة الغربية قد دعم أيضا احساسه بالعزلة وبأنه كم مهمل بالنسبة للمجمع الاسرائيلى وقبل عام ١٩٦٧ فان حقيقة عدم وجود خيار آخر ، قد اجبرت اسرائيل على محاولة الاندماج فى حياة الدولة . ومن المفترض الآن ان لديهم خيارا آخر ، ولكنه تركهم أكثر عرضة للشكوك والحيرة عن اى وقت مضى . والنتيجة هى فى الغالب الغضب الجامح والاتجاه الى التعلق بأية قشة سياسية .

وفى ٦ مارس عام ١٩٨٠ ، تم عقد اجتماع جماهيرى فى مبنى البلدية فى شفارام . وكان من بين المشتركين فى الاجتماع شخصيات عامة من كل الاتجاهات السياسية ، من ممثلين عن البدو فى النقب ، وعشرين من العمد ورؤساء المجالس المحلية فى الجليل ، وكتاب وشعراء يساريين ، وثلاثة اعضاء عرب فى الكنيسيت . ووقف اعضاء حزب راكاح النشطون فى مدخل قاعة الاجتماع يوزعون منشورات احتجاج على احتلال الأراضى ، وتدعو الى اقامة دولة فلسطينية الى جوار دولة اسرائيل . ولم يعرف احد بل ان احدا لم يسأل عن علاقة المنشورات بالموضوع المطروح وهو — شكاوى المجتمع العربى الاسرائيلى ضد الحكومة. وفى الواقع ، عندما اعتلى المنصة الدكتور اميل توما الفيلسوف الأيديولوجى لحزب راكاح ، ليستنكر التمييز العنصرى ضد عرب اسرائيل ويطالب باقامة دولة فلسطينية تحكمها منظمة التحرير الفلسطينية الى جوار دولة اسرائيل ، انفجر المستمعون فى عاصفة مدوية من التصفيق . وغرقت فى مقعدى وقد احسست بحيرة تامة . هل يمكن بالفعل ان يكون عرب اسرائيل يريدون شد الرحال والانتقال الى دولة فلسطينية مستقلة ؟ .

عندما استدرت نحو الرجل الذى كان جالسا بجوارى — وهو صحفى اسرائيلى عربى آخر — وسألته هذا السؤال بصوت مرتفع ، ابتسم بثقة وطمأننى قائلا : ان ذلك مجرد نفاق ظاهرى ، او ان شئت فقل انه التزام معنوى . فاذا تم اقامة دولة فلسطينية فى الأراضى المحتلة ، فان احدا من هذه القاعة لن ينتقل الى الجانب الآخر .

وفى نهاية الاجتماع ، اكتشفت اننى لم اكن الوحيد فى القاعة الذى شعر بأنه غريب فى هذا المكان — او ربما على الأصح بأنه لا يستطيع مجاراة ما يدور فيه واقترب احد اعضاء الكنيسيت منى وهمس فى اذنى قائلا : « لقد أعددت خطبة قوية ولكنهم — اى القوميين — سوف يستغلونها لأغراضهم الخاصة . لقد احسست بعدم ارتياح شديد خلال الاجتماع » . واعترف طارق عبد الحى رئيس مجلس محلى « الطيرة » ، فى حديث خاص دار بيننا بأن مشاعر مماثلة انتابته وقال ، متذمرا « ليس كل من يتكلم عن فلسطين يفهم بالضبط اين هى حدودها . اننى اود ان اظل عربيا اسرائيليا » . ومن ناحية اخرى ، فان عبد الحى كانت لديه ضغائن خاصة ضد دولة اسرائيل . ففى نفس الحديث المشار اليه شكا من ان « الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة قد اذلتنى ونسجت حولى شبكة من الأكاذيب ولن اقف مكتوف الأيدى ازائها » .

كان عبد الحى ، وهو من خريجى مدرسة « قادورى الزراعية » المشهورة والتى كانت ذات يوم افضل اماكن التدريب التابعة لحركة العمال معروفا على مدى سنوات بأنه « رجل الحكومة الاسرائيلية فى المثلث » . وكان يستطيع دائما الدخول بسهولة الى الوزارات — رغم انه بدا اقل نجاحا فى الدخول الى قلوب وعقول ابناء دائرته وكان من المنادين صراحة بالتعايش السلمى . ولكن خيبة امله فى السياسات الاسرائيلية خلال

السنوات الأخيرة قادته الى الانضمام الى الجبهة الديمقراطية من اجل السلام والمساواة ، التى كان من الواضح أن ترحيبها الحار به قد خفف من ضيقه على المستويين السياسى والاجتماعى .

وبالعودة الى اجتماع شفارام ، فان المجتمعين قرروا العودة للانعقاد فى نوفمبر ١٩٨٠ فى الناصرة ، فى شكل مؤتمر وطنى موسع وقبل الانتهاء من تنظيم الاجتماع ، تدخلت الحكومة الاسرائيلية ، بناء على توصية اجهزة الأمن لمنع انعقاده . كان رد الفعل الأولى لعرب اسرائيل عاصفا ، ولكن سرعان ماهدات العاصفة ووقف الراى العام اليهودى فى اسرائيل الى جانب الحكومة ، بسبب الاعتقاد السائد بأن الأمور قد لا يمكن التحكم فيها خلال المؤتمر — أى ربما استطاع الانفصاليون والراديكاليون الموالون لمنظمة التحرير الفلسطينية ان يسيطروا على المؤتمر ويجروا فى اعقابهم الجماهير الأقل ثقافة والأكثر عرضة للتأثر . وعلاوة على ذلك ، فان الصمت الواضح من جانب الدوائر الرسمية العربية عزز الشعور بأن قرار الحكومة كان هو القرار السليم . غير أن من الواضح أن الصراع بين عرب اسرائيل والحكومة الاسرائيلية كان يزداد اتساعا يوما بعد يوم ، ولم يؤد قرار منع مؤتمر الناصرة — الذى كان سيدعو بالتأكيد الى اقامة دولة فلسطينية مستقلة فى الأراضى المحتلة — الا الى زيادة حدة النفور بين الشعبين اللذين يسكنان دولة اسرائيل .

واذا أخذنا فى الاعتبار ان سكان اسرائيل العرب عاشوا فى (جيتو) اجتماعيا وثقافيا عدة سنوات، فانه ربما يكون من العدالة الالهية ان تصبح اكثر العناصر اتصالا بالسكان اليهود — أى طلبة الجامعة — هى اكثر العناصر راديكالية فى المعسكر القومى . ويوجد حاليا حوالى الفين من الطلاب العرب فى الجامعات الاسرائيلية ، وهم يشكلون حوالى ٤٪ من اجمالى الطلبة وبينما يشكل عرب اسرائيل حوالى ١٥٪ من اجمالى سكان البلاد . وحتى عام ١٩٦٧ ، كان طلاب الجامعة العرب يقابلون بفتور فى الحرم الجامعى ، ناهيك عن المتاعب التى كانوا يواجهونها عند بحثهم عن اماكن لائقة للعيش فيها ، والوظائف الحقيرة التى كانوا يضطرون الى قبولها . ولكن منذ ذلك الحين ، تغيرت الظروف بدرجة كبيرة : فقد حدث انبعاث للكبرياء الوطنى بين الطلاب ، وعلى مدى السنوات القليلة الماضية ازدهرت الكتابات الراديكالية فى داخل الجامعات . ان الطالب العربى اليوم يجاهر بتأييده لمنظمة التحرير الفلسطينية ، بل ربما يحمل شعارها على قميصه .

كان من نتائج هذه العزيمة ، ان حوادث العنف داخل الجامعات تكررت مرارا . فقد بدأ الطلبة اليهود الذين نصبوا انفسهم أوصياء على القانون والنظام تواقين الى تسوية الخلافات العقائدية بقبضات ايديهم متسببين بذلك فى تحويل العديد من المناظرات الوطنية الى مشاجرات . وفى الواقع، لن يكون من قبيل المبالغة ان نقول ان معاهد التعليم العالى — التى كان من المتصور انها ستصبح أدوات لتحقيق التفاهم المتبادل بين الشعبين — اصبحت

تربة خصبة للعداوة . واذا امتد المناخ السائد فى الجامعات الى الاطار الأوسع للعلاقات بين العرب واليهود ، فانه يؤسفنى ان اقول اننا يمكننا فى تلك الحالة ان نتوقع سنوات صعبة عديدة قادمة .

ان عرب اسرائيل ، الذين تزايدوا كما من ١٥٠ الفا — الى حوالى نصف مليون منذ عام ١٩٤٨ ، ناضلوا من اجل الاحتفاظ بهويتهم وبأسلوب حياتهم لمدة خمسة وثلاثين عاما تقريبا . وقد جلبت عليهم حرب ١٩٤٨ المأساة حيث حاولت الحكومة العسكرية أن تقمع اى مظهر من مظاهر الروح القومية ، ولكنهم ، على الرغم من ذلك ، نجحوا فى الاحتفاظ بوعيهم المستقل. وفى نفس الوقت ، فان التقدم التكنولوجى ادى الى تحسين وضعهم الاقتصادى والاجتماعى كثيرا . ولكن لم يكن ذلك كافيا . فقد وجد عرب اسرائيل انفسهم فى مواجهة معضلة وطنية صعبة ولابد لجميع مواطنى هذا البلد أن يتفهموا تلك المعضلة ويساعدوا على حلها .

لقد ادرك عرب اسرائيل عبر السنين فوائد الديمقراطية ومعنى حياة الحرية . وبمجرد أن التقوا باخوتهم من الضفة الغربية وغزة فى عام ١٩٦٧ ، ادركوا مدى الهوة الهائلة التى تفصل بينهم . فلا يزال البناء الاجتماعى الأبوى التقليدى قائما فى الأردن وغزة ولم تعد المجموعتان تتفقان فى نظرتهما الى المسائل السياسية او تشتركان فى نفس الطموحات. وعندما ينظرون الى جوهر الأمور ، فليس من غير المستغرب أن قلة من العرب الاسرائيليين هى التى لديها استعداد للتخلى عن ارضها وحياتها فى اسرائيل ولعبور « الخط الأخضر » على الرغم من احلام اليقظة بالبعث الفلسطينى التى تنتظرهم هناك .

وفى نفس الوقت ، فان هناك كثيرا من الاصلاحات التى تحتاج الى صبر لانجازها حتى يمكن للمجتمع الاسرائيلى ان يتجنب مخاطر التفتت ، ولا تبشر الحلول التكتيكية البحتة التى تم اقتراحها بالخير . وانا من جانبى لا أعلق الا القليل من الثقة على الاقتراح الخاص بتوسيع نطاق الخدمة العسكرية لتشمل كل عرب اسرائيل كوسيلة لتزويد الشباب العربى باحساس اكبر (بالانتماء) . ولقد برهنت قوات الدفاع الاسرائيلية على انها البوتقة الكبرى لصهر المجتمع اليهودى الذى يتسم بالتعددية فى اسرائيل ، ولكن نفس هذا العلاج لن يكون فعالا بالضرورة بالنسبة للعرب واليهود فبعد كل ما سبق ، فمن الصعب على عرب اسرائيل أن يقتنعوا بأن الدولة مستعدة للموافقة على منحهم حقوقا متساوية . فلماذا اذن يجب عليهم ان يتساووا فى تحمل المسئوليات ؟ .

والى ان تتم صياغة حل لمشكلات عرب اسرائيل العديدة ، لا يوجد لديهم خيار الا ان يستمروا فى مصارعة الغموض والتناقضات التى اصبحت تميز هويتهم الوطنية . انهم ليسوا فى موقف يحسدون عليه . ولكن يمكن القول ، من فى الشرق الأوسط اليوم فى ذلك الموقف ؟ .

الفصل الثانى عشر

ثورة فى المجتمع العربى

ظل سوق العمل ، لما يقرب الآن من قرن ، ساحة للمواجهة بين المجتمعين العربى واليهودى فى هذا البلد . وقد تطلعت الحركة الصهيونية، التى عكفت على تطوير الأنماط الاقتصادية للحياة اليهودية ، الى خلق اقتصاد يهودى متكامل ومستقر فى فلسطين ، وكان على الرواد اليهود ، فى محاولتهم ضرب الجذور فى التربة وترسيخ السيطرة على البلد ، ان ينافسوا منتجات العمالة العربية وان يحاولوا الحيلولة بين العرب وبين سوق العمل . وقد وصلت الأمور الى حد ان اصبح رفض توظيف العامل العربى بمثابة اختبار لولاء المزارع او البناء للمبادىء الصهيونية . وعلى الجانب الآخر ، ومع اعلان الاضراب العام فى عام ١٩٣٦ — وهو الاضراب الذى استمر ستة اشهر حاولت الحركة القومية العربية ان تستخدم العقوبات الاقتصادية كسلاح للاضرار بالمجتمع اليهودى الضعيف . غير ان الخطة اتت بنتائج عكسية حيث ان الاضراب عمل كحافز تنمية اقتصاد يهودى مستقل — وعمل ذلك بدوره بطبيعة الحال ، على دعم الدعوة الى تأسيس دولة يهودية مستقلة .

الآن ، وبعد فترة طويلة من تأسيس تلك الدولة وتدعيم اقتصادها اصبحت العمالة العربية قضية مطروحة من جديد ، تمتد آثارها الى ابعد بكثير من حدود المجال الاقتصادى ويجادل بحماس اولئك الذين يهتمون بالحياة المعنوية لبلدهم ، وهم محقون فى حماسهم هذا ، بأن المجتمع الذى سمح لنفسه بالاعتماد على القوة العاملة لدولة أخرى — مثلما هو الحال فى اسرائيل التى تمتص بشكل كبير العمالة غير الماهرة من الأراضى المحتلة — لا يفسد مركزه المعنوى فحسب ، ولكنه يعرض امنه القومى ايضا للخطر . ويصدق هذا كله بدرجة اكبر عندما يكون الشعبان ملتحمان فى صراع مضن من اجل الهيمنة القومية .

ان يهود وعرب اسرائيل يلتقون اليوم فى الورش ، والحقول ، والمصانع ومواقع البناء وغيرها من اماكن العمل . وقد نما الاعتماد المتبادل بين الاقتصاديين فى داخل اسرائيل ذاتها بسرعة ، وهذا نتيجة لثورة اقتصادية حولت الفلاحين — الذين لايستطيعون ان يحصلوا على الحد الادنى من سبل الحياة من اراضيهم صغيرة المساحة — الى عمال يوميين يعملون خارج قراهم .

ففى عام ١٩٨٠ ، كان ٩٠ ٪ من العرب الاسرائيليين الذين تتراوح اعمارهم بين ١٥ و ٤٥ عاما يشتغلون كعمال يتقاضون رواتب منتظمة وعندما كنت طفلا شهدت عملية التحول وهى تحدث . كانت دالية الكرمل— تدب فيها الحياة فى الساعة الخامسة صباحا عندما يخرج الرجال فى مجموعات من المركبات — تاكسيات وشاحنات ، وسيارات نقل — لأماكن عملهم على طول الخليج الموجود فى منطقة حيفا فى المنطقة الصناعية بالقرب من تيرات هاكارميل ، او للعمل فى الحدائق والمتنزهات العامة فى حيفا والكيبوتزات الموجودة فى المنطقة . وفى ذلك الوقت كانت الشابات قد بدأن الخروج للعمل وبصفة خاصة فى مصانع النسيج التى اقيمت فى القرى وحولها وتحول الفلاحون الى عمال ومقاولين ، وميكانيكيين فى الجراجات ، كما اصبحوا عمالا فى المطاعم ، وجرسونات فى الفنادق . وفى البداية تم توجيه القوة العاملة الجديدة الى الوظائف التى كان يستنكفها العمال اليهود ، والآن يسيطر الحرفيون والعمال المهرة العرب بالفعل على شرائح كاملة من الاقتصاد الاسرائيلى .

وقد ادى هذا التدفق اليومى للعرب الاسرائيليين من القرى ليصب فى المحيط الاقتصادى والاجتماعى للمجتمع اليهودى وليتصل به ، تغييرات شاملة فى حياة القرية ، فبالاضافة الى المرتبات ، احضر العمال العرب الى بيوتهم أفكارا جديدة حول مجاراة العالم الحديث وكان التغيير جذريا بصفة خاصة بالنسبة لمكانة المراة العربية وصورتها عن نفسها ، فلم تعد تقتنع بالقيام بدور المخلوق الأقل شأنا الذى ينعزل فى غيابات المطبخ . ورات عدة نساء ممن تولين وظائف لدعم أكبر لدخل الأسرة ، ان مساهمتهن الاقتصادية تعتبر اساسا للمطالبة بالمساواة الاجتماعية والسياسية ايضا. وفى نفس الوقت ، حققت التغيرات فوائد مؤكدة للمجتمع اليهودى — او لأولئك المزارعين والصناع الاسرائيليين الذين استفادوا من استغلال عمل الذين يعملون لديهم وحققوا لأنفسهم مكاسب ضخمة وتطلب الأمر تدخل الهستدروت — الذى كان ذات يوم نصير القوة العاملة اليهودية فى نضالها ضد العمالة العربية الأرخص والأكثر خبرة — لكى يوقف أو يخفف من الاستغلال الفاحش بتنظيم العمال العرب وضمان حصولهم على فوائد اجتماعية متساوية .

وكانت ثورة العمالة جذرية الى حد ان العرب الاسرائيليين اصبحوا فى نهاية الأمر هم عماد خدمات وفروع معينة فى الصناعة والى الحد الذى دفع مواطنيهم اليهود للتساؤل فى حيرة عن الكيفية التى كانت تدور بها عجلة الاقتصاد قبل مساهمتهم فيه .

وسرعان ما بدأ الفلاحون الذين بقوا فى الأرض الزراعية فى التخلى عن اساليبهم البدائية لصالح الميكنة الزراعية وتحولت منطقة المثلث الى مركز للصادرات الزراعية وحصل مزارعو « طيبة — على سبيل المثال — على ارباح تقدر بملايين الجنيهات الاسرائيلية . بل ان والدى جرفه التيار نحو التحديث .

وفى محاولة منه لكى يجـد مكانه فى هـذا النظام الجديد . قام باقتلاع اشجار الزيتون القليلة المعوجة فى ارضه وحاول ان يزيد محصوله باتباع الطرق الحديثة فى الزراعة ولسوء الحظ فان نتائج التجربة لم تكن تحقق النجاح الذى توقعه ، وفى نهاية المطاف تخلى اخوتى عن الزراعة كليـة ودخلوا عالم التجارة .

وبمرور الوقت ـــ بدأ التغيير يمتد ليشمل حتى اقبح النواحى السلوكية الراسخة بل ان تعبير « عمالة عربية » ، الذى يقصد به التحقير ، بدا انه هو ايضا أخذ يتلاشى من اللغة ثم بعد حرب الأيام الستة ، غرقت اسرائيل بالاف العمال من الأراضى ـــ بدو من سيناء وفلسطين من الضفة الغربيـة وغزة ـــ وتم استثناء عملية استغلال العمالة العربية على نطاق اكبر من ذى قبـل .

وكنت ادرك بصورة مبهمة ، ذلك الجانب البغيض للاحتلال ، ولكننى لم ادرك بوضوح تام مدى اتساع نطاق وعمق هذه النكبة الا عندما قمت فى عام ١٩٧٨ بزيارة قطاع غزة لتصوير تقرير عن سوق العمالة المحلية هناك . وصلت والطاقم الذى يعمل معى الى نقطة عبور الحدود بين قطاع غزة واسرائيل فى الساعة الثالثة صباحا حيث فوجئنا بمنظر يثير الدهشة ينكشف امامنا ، كان هناك مئات من العمال اليوميين غير المهرة يتجمعون حول نيران المعسكرات فى انتظار وصول مقاولى العمال على امل ان يحصلوا على عمل بأتفه الأجور . وعلى ضوء أحد المصابيح الكهربائية رايت عشرات الصبية يتطلعون برجاء وهم يتجهون شمالا ناحية المعبر وحقائب وجبـة الغداء فى ايديهم . كان بعض هؤلاء الصبية قد قطع ما يزيد على ستة أميال سيرا على الأقدام من معسكر اللاجئين فى جباليا الى « سوق الرقيق » عند مفرق عسقلان وسرعان ما وصل مقاولو العمال وبداوا فى تقسـيم المهـن الزراعية . كان السعر الجارى لليومية مذهلا من ٣٠ الى ١٠٠ جنيهـا اسرائيليا « من ١٫٦٠ دولارا الى ٥٫٥٠ دولارا » .

بيد ان الصبية تهافتوا على هذا العرض . لم يكن لديهم اية مطالب خاصة وكانوا على استعداد للعمل من الصباح الباكر حتى وقت متأخر بعد الظهر ، حيث يتم نقلهم الى منازلهم وكان نفس الشىء تقريبا يتكرر فى سوق العمالة فى حى مصرارة بالقدس وفى وسط مدينة غزة ، حيث وقفت عشرات الشاحنات والسيارات نصف النقل فى انتظار حمل آلاف العمال غير المهرة الى اماكن العمل فى اسرائيل .

توجهت الى احدى العربات المكتظة فوجدت بداخلها خمسـة عشر طفلا سألت : ـــ الى اين ؟ « فقال أحدهم بفخر انهم كانوا ذاهبين الى العمل فى جنى الطماطم .. » بعد ذلك تحولت الى المقاول (الريس) وسألته عن سبب عدم وجود هؤلاء الأطفال فى المدارس قال بتهكم « ان هؤلاء الأطفال حمقى ... انهم لن يتعلموا فى المدرسة ، أى شىء بأية حال » .

قلت فى الحاج : كم يحصلون مقابل عملهم ؟

قال : كثير .. مابين ٤ و ٥ جنيهات ـــ أى ما بين ٢٠ و ٢٥ سنتا.

قلت باندفاع وانا فى ذهول من سخريته التى تنم عن قلب متحجر : « وما الذى تحصل عليه من وراء ذلك » .

قال : ما يكفى لشراء بعض الطعام .. وعلى اية حال فهم عندما يعملون لايكون بوسعهم ان ينطلقوا على هواهم فى الشوارع وهذا الأمر طيب بالنسبة لاسرائيل لأنهم بهذه الطريقة لن يكونوا مصدرا للازعاج .

كانت وجوه الأطفال مزهوة بالابتسامات المتحمسة لانهم ضمنوا عمل اليوم . وان ضمير (الريس) الذى كان واثقا من انه اسدى جميلا للجميع مستريحا تماما . ولكننى عدت مهموما الى حجرتى بالفندق فى عسقلان .

كانت هناك قوانين عمل فى اسرائيل تمنع بوضوح تشغيل الأطفال تحت سن السادسة عشر ، غير ان من الواضح ان كلمة واحدة من هـذه القوانين لم تصل الى « جنوب اسرائيل الموحش » . وظننت ان الموشافات المنشأة حديثا فى نتوء رفح هى التى استأجرت هؤلاء الأطفال .

ولكن بينما كنا نسير فى اتجاه الجنوب ، فى متابعة لموضوعنا ، ولكى نتفحص ظروف العمل على الطبيعة ، مررنا بكيبوتز (يادموردخاى) وهو تجمع ناجح قائم فى داخل « الخط الأخضر » حيث راينا مجموعة اخرى من الأطفال العرب الذين اخبرونا بأنهم يعملون فى اعداد ازهار الكيبوتز للتصدير .

وبسبب الخواطر التى يثيرها اسم ياد موردخاى فان ذلك الاكتشاف كان محبطا بصفة خاصة . فقد كان هذا الكيبوتز ، الذى تأسس عام ١٩٤٣ بواسطة مجموعة من الرواد الشبان القادمين من بولنده ، قد تمت تسميته كذلك تخليدا لموردخاى انيليويز ، قائد انتفاضة « الجيتو » فى وارسو . وبعد ذلك بخمس سنوات ، وجد المستوطنون انفسهم فى مواجهـة نفس الصعاب التى واجهها مقاتلو وارسو ـــ باستثناء انه فى هذه المرة كان العدو هو الجيش المصرى القادم من شمال سيناء وبنفس طراز البطولة ، تمكن عدد قليل من سكان الكيبوتز من الصمود لمدة ستة أيام قبل ان تسـقط المستوطنة فى مايو عام ١٩٤٨ وبعد ذلك بخمسة اشهر استعادت قـوات الدفاع الاسرائيلية مستوطنة (ياد موردخاى) وتم اعادة بناء الكيبوتز . ومنذ ذلك الحين ، صار هذا الكيبوتز رمزا مزدوجا للبسالة اليهـودية فى مواجهة الصعاب الساحقة ، ان لم تكن المسـتحيلة . والآن هاهو وباء الاستغلال البذىء ينتشر فى الكيبوتزات ـــ التى رفضت لعدة سنوات ان تستعين بالعمالة المأجورة من اى نوع بسبب مبادئها الخاصة بالاكتفاء الذاتى وخشية استغلال مثل هؤلاء العمال عن عمد او عن غير عمد ـــ بل انه امتد

ايضا الى مجتمع مثل ياد موردخاى الذى استسلم لرزيلة تشغيل الاطفال العرب كان الدليل ماثلا امام عيوننا رغم انه كان يصعب تصديقه . ولم يكن هناك اى سلوى فى تذكر ان الكيبوتزات التى كانت تستعين بعمالة خارجية كانت تدفع لعمالها المستأجرين اكثر من المعدل الجارى ، وكانت تحرص على ان تقدم لهم الضمانات الاجتماعية المعتادة .

مضينا الى نتوء رفح ، وعند كل نقطة كانت عدستى تسجل الادلة المذهلة التى ستقدمها قريبا الى الشعب الاسرائيلى . وعندما اذيع التقرير فى برنامج « مجلة الأخبار الأسبوعية » تسبب فى اثارة موجة من الذهول فى انحاء اسرائيل وقدم احد اعضاء الكنسيت سؤالا عاجلا حول مسألة تشغيل الأطفال العرب فى « المزارع المنشأة حديثا جنوبى اسرائيل » . وقال يوسى ساريد ، العضو العمالى ، فى معرض طلب اعطاء اقتراحه اولوية خاصة :

« اذا كان تحقيق المثل الأعلى الصهيونى سيقوم على اكتاف اطفال عرب فى سن السادسة والسابعة فانه من الأفضل ان نترك القش ليتعفن فى الحقول وثمار الطماطم لتذبل على سوقها » . قرر الكنسيت أن المسالة تستحق الاهتمام بالفعل ولكنها ليست ملحة وانه سوف يتم تناولها فى حينها.

مع ذلك ادى ضغط الراى العام الى دق نواقيس الانذار فى وزارة العمل ، وتم ارسال مفتشين لبحث الموقف على الطبيعة . وسرعان ما وجد مزارعو نتوء رفح انفسهم فى وضع غير مريح ، على اضعف الايمان . فقد عاش البدو ذات يوم على الأرض التى تنتصب فوقها الآن الموشافات الجديدة المزدهرة ، كما أن « ملاك الأرض » فى رفح اصبحوا يقومون بتشغيل البدو الذين سبق أن طردوهم من أراضيهم .ولكن كان الأمر الذى يسيء الى كل المعايير السلوكية السليمة هو أنهم كانوا يملأون حساباتهم البنكية عن طريق تشغيل اطفال البدو . عندما سألت احد مستوطنى موشاف (دكلا) عما اذا كان ضميره قد أنبه فى أى وقت بسبب تشغيل الأطفال قال — « ان هذا سؤال محرج .. لقد فاجأتنى فى موقف يثير الشبهة » وأجاب مستوطن آخر من موشاف (نيتف هاآزاراه) ، دون أدنى شعور بالندم ، بقوله فى سخرية : « اننى ادفع للطفل مبلغا طيبا — مائة جنيه عن عمل يوم واحد » وطالما ان القانون لايفرق بين عمل الطفل بأجر مرتفع او بأجر زهيد ، فان كرمه المزعوم لم يخفف من الجريمة . ومع ذلك فان رده المتعجرف جعلنى اتشكك فى زعمه ، ولذلك تحولت الى احد الأطفال العرب وسألته عن المبلغ الذى يحصل عليه . ورد على الطفل الذى لم يفهم ما دار بينى وبين مستخدمه بلا تردد قائلا « اربعين جنيها » واستنتجت من ذلك أن الرجل الذى لا يشعر بوخز الضمير لاستغلال الأطفال كان لا يتورع حتى عن الكذب .

عندما وصلت وأفراد طاقمى الى « نيتف هاآزاره » اضعنا كثيرا من الوقت لنعثر على اى مستوطنين رغم أن عشرات العمال كانــوا يحومون

حولنا ، وقال سائق التاكسى الذى أقلنا ، والذى كان يعتز بمعرفته للمنطقة، انه بمجرد أن نغادر المكان سيظهر « ملاك الأراضى » فى رفح ليصطحبوا العمال المأجورين الى حقولهم وثبت أن العمال كانوا يحجمون كليـة عن الوقوف أمام الكاميرا لأنهم كانوا يعلمون جيدا أن عشرات غيرهم ينتظـرون ليحلوا محلهم اذا تم الاستغناء عنهم .

كان قد تم ارسال مستخدمو هؤلاء البدو ليقيموا فى نتوء رفح سلسلة من المستوطنات كان من المفترض أنها حيوية لأمن اسرائيل ولكن ينتابنى — بصفتى شخص درس بعمق أسلوب الحياة التى وصلت اليهـا هـذه المستوطنات — شعور بأن هؤلاء المزارعين الاسرائيليين الذين يستأجرون عمالا واطفالا عرب لفلاحة ارضهم لن يتورعوا عن ان يؤجروا الأرض لغيرهم ويديروا مشروعاتهم كما لو كانوا من « الكولاك » اى مزارعى روسيا الأغنياء « أو الأفندية » لقد حدث ذلك من قبل . وفى نفس الوقت ، فان هذه العمالة الأجيرة كانت تعيش على هامش المستوطنات الزراعية وكما كان عليه الحال فى الماضى قبل الحرب ، فى الولايات الجنوبية بأمريكا ، كانت الأسر الكبيرة العدد تحتشد فى « عشش » من الصفيح بدائية وفى اكواخ متداعية من الخشب تطل على فيلات مـلاك الأرض الاسرائيليين الذين يزدادون ثراء من عرق جبين العرب ولم يكن تعبير « مثير للشبهة » هو التعبير الملائم من وجهة نظرى لوصف مثل هذا الحال .

فى النهاية ، أجريت فى الكنيست المناقشة التى طالب « يوسى ساريد » باجرائها ، ودوت الخطب النارية فى انحاء القاعة — ومع ذلك لم يتغير الكثير فى الواقع فقد تم تقديم اربعين مزارعا للمحاكمة بنسبة خرق قوانين العمل، ولكنهم لم ينالوا الا احكاما خفيفة تثير السخرية ، فالمستوطن الذى استخدم عشرات الأطفال على مدار العام لم يكن ليضيره ان يدفع بضعة مئات من الجنيهات كغرامة لعدم استئجاره العمال من خلال « هيئة تبادل العمـال الحكومية . وبطبيعة الحال ، فمن المقرر ازالة جميع هذه المستوطنات وثمة اسرائيليون يعتبرون لذلك بمثابة مأساة قومية ، ولكن هناك غيرهم عديدين يشعرون بشىء من الارتياح ازاء قرب انتهاء هذا الجانب المؤسف من قصة رفح .

فاذا كان هناك تهاون فى تطبيق العدالة فى نتوء رفح ، فانه يبدو أن العدالة الالهية سادت فى نهاية الأمر حيث تردى البشر .

عموما ، فان الاقتصاد الاسرائيلى يستخدم حوالى ٦٤ الفا من العمال العرب من الأراضى المحتلة ، ويعمل حوالى ٨٠ ٪ منهم من خلال « هيئة تبادل العمال » الحكومية . وهذه القوة العاملة متنوعة الى حد كبير وبدأت تضم مؤخرا شبابا جيد التعليم لا يستطيع ان يجد العمل الذى يتناسب مع مواهبه ومهاراته . ويعود معظم الـ ٦٤ ألف عامل الى بيوتهم فى نهاية يوم العمل ، ولكن هناك عدد كبير يفضل ان يبقى فى مدن اسرائيل الكبيرة رغم

انهم يخرقون القانون بهذا الصنيع — ويعرضون أنفسهم للمخاطرة بمواجهة العقاب والطرد الى وراء « الخط الأخضر » .

هذا ، وبعد اسبوعين من تقريرى الخاص بعمل الاطفال فى المستوطنات الاسرائيلية بالقرب من قطاع غزة ، ذهبت الى يافا بحثا عن موضوع حول الظروف المعيشية للعرب الذين يعملون فى تل أبيب ولكن يعيشون فى الأركان المظلمة لتلك المدينة الساحلية المترامية والمتطورة.وبدات بالاقتراب من عمال احدى محطات البنزين وملاك احد المطاعم لأجمع بعض الخيوط حول المكان الذى يقضى فيه العمال ليلهم ، ولكنهم جميعا كانوا يروغون من أسئلتى . وأخيرا قابلت شابا وجهنى الى احد بيوت ايواء العمال فى احد ازقة يافا الرطبة . كان الباب قد تم اغلاقه بقفل ، وعندما عثرت على صاحبة البيت ، وهى امراة حادة الطبع عجوز أخبرتنى بأن العمال يهجعون وراء ابواب مغلقة لحمايتهم . وقالت لى مؤكدة « ان ظروفهم المعيشية جيدة وسوف ترى بنفسك بعد دقيقة . اننى اغلق الباب عليهم حماية لهم من البوليس واللصوص » .

ازيلت الاقفال ، ودخلنا حجرة كبيرة يدوى فيها غطيط متنافر النغمات. كانت الحجرة تحتوى على حوالى عشرين سريرا اصطفت جنبا الى جنب وهى تصر وتتداعى تحت وطأة شاغليها ، وكانت الحشايا الموجودة عليها من القذارة بدرجة لا يمكن قبولها حتى بأقل المعايير الصحية . استيقظ بعض الرجال عندما اضأنا المصابيح العلوية واضفنا الاضاءة الخاصة بعدساتنا . كنت اعرف ان وجودنا هو تطفل فظ ، ولكننى اعفيت نفسى من الالتزام بآداب اللياقة . وشرعت فى اقناع الرجال بأن يتحدثوا . لم يكن ذلك عملا سهلا . فقد طلب اول شخص اقتربت منه وهو شاب من غزة فى الثامنة عشرة من عمره ، الا ازعجه لأنه لابد أن يستيقظ فى الثالثة صباحا ليبدأ ورديته كشيال فى سوق تل ابيب العام وكان معظم الآخرون فى هذا البيت بالذات عمال بناء ، ولكننا وجدنا هنا ايضا عددا قليلا من الأطفال المذعورين من معسكرات اللاجئين فى غزة .

وفى ليالى الصيف المعتدلة ، كان العديد من هؤلاء العمال يقوم بتوفير نفقة المأوى بالاستلقاء فى الحدائق العامة ، أو على شاطىء البحر ، حيث كان الهواء منعشا على الاقل ، وحيث كان المأوى الذى وفرته الطبيعة انظف فى الغالب من ذلك الذى قدمه البشر لهم . لقد تعودوا على عمليات التحرى المهينة وعلى المعاملة الفظة من جانب دوريات البوليس على طول الشاطىء وفى ازقة السوق وفى معرض جولتى وصلت الى جراج أخبرنى صاحبه ، دون ان تطرف له عين انه يوصد باب المبنى على عماله ليلا . وبغض النظر عما فى ذلك من تجاهل كبير للكرامة الانسانية فان التصرف كان ممقوتا بصفة خاصة لمجرد انه يمكن ان ينتهى بمأساة — ففى ذات مرة كان العمال قد حوصروا فى مبنى احد المصانع عندما شب حريق فيه . ولست فى حاجة الى ان اشرح النتيجة المروعة التى نجمت عن ذلك .

ان كل فندق زرته ، وانا أعد ذلك التقرير ، كانت له نفس الملامح المقيتة — القذارة والنتانة — والظروف غير الانسانية . وفى كل مكان ، كنت اضيع وقتا طويلا فى اقناع المستأجرين بأننى لم اكن اعمل لحساب البوليس . الا انهم كانوا بمجرد اقتناعهم بذلك يسارعون بصب سيل من الشكاوى عن سوء المعاملة التى يلقونها من مستخدميهم ، والأجر المنخفض الذى يحصلون عليه وعن مضايقات البوليس لهم . فبعد كل عمل عدائى فى المدينة كان العمال العرب يتم احتجازهم للاستجواب ويبدو ان اصحاب العمل لم يكلفوا انفسهم مطلقا مشقة الدفاع عن عمالهم ، ونادرا ما سمع المرء عن رئيس عمل يهتم برفاهية مستخدميه او بايوائهم بشكل لائق .

وقد اوضحت فى مقدمة التقرير ان الكشف عن اسوأ جوانب الاحتلال — وبالذات فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية — ربما يجعل الناس يقفون ليتأملوا فيما يتعرض له شعورهم باحترامهم لأنفسهم . لقد كان هناك عهد قامت فيه معسكرات قوات الدفاع الاسرائيلية فى سيناء باستخدام العرب المحليين فى مطابخها وفى أى عمل آخر (يستنكف) الجنود عن ادائه وعندما احيط الرأى العام علما بهذا الوضع ، قوبل بعاصفة من الاحتجاج — ولم يعد اطفال البدو الآن يقومون على خدمة الضباط الاسرائيليين . ولا يزال هناك فى اسرائيل أناس يتمسكون بالاعتقاد الخاص بأن (الاحتلال المستنير) امر ممكن كما ان هناك كثيرين غيرهم ممن يشعرون بقلق عميق ازاء الفساد الاخلاقى الذى لابد وأن ينجم عن أى حكم استعمارى وقد ساعدت الصرخات التى يطلقها من وقت لآخر ، أولئك الذين يحرسون الصفات المعنوية الواهية مثل « العدالة الاجتماعية » و « التكامل الاخلاقى » — ساعدت على الاحتفاظ بالانتهاك الفاضح لهذه الاعتبارات عند الحدود الدنيا . ولكن مع ذلك ، فان السلوك القاسى والمنحط ازاء عمال الأراضى المحتلة — الذين لا يستطيعون المطالبة بحقوقهم بسبب موقفهم السياسى الضعيف — لا يزال شائعا بشكل لا يمكن معه ان نتجاهله .

وعلى الرغم من ان عملى قادنى بشكل طبيعى الى ان اركز الاضواء على المساوىء الا انه من الخطأ ان نقول ان التجربة الفلسطينية فى الاقتصاد الاسرائيلية كانت تجربة سلبية برمتها . فبعد اربعة عشر عاما ، من الممكن ان نرى بعض الاتجاهات الايجابية الواضحة نتيجة لاندماج عمال الأراضى المحتلة فى الاقتصاد الاسرائيلى . ويعمل العمال غير المهرة فى مجالى الخدمات والزراعة اللذين يأتيان فى ادنى درجات السلم الاقتصادى ، ولكن هناك عددا متزايدا من العمال الكادحين الذين وجدوا اماكن لهم فى المشروعات الصناعية الكبيرة واكتسبوا المهارات الفنية التى تعد السبيل الى زيادة مكانتهم واجورهم. وعلى الصعيد الاقتصادى الاجتماعى ، يمكن ان نشاهد فى انحاء المدن وفى معسكرات اللاجئين فى الضفة الغربية ثمار مزاولة العمل داخل اسرائيل . ففى معسكرات اللاجئين على سبيل المثال،تنتصب هوائيات أجهزة التليفزيون فوق الأسطح ويوجد لدى العديدين اجهزة كهربائية وهناك موجة من التوسع الاسكانى وعمليات التجديد للمساكن القائمة . وقد احدث النمو الاقتصادى

ارتفاعا مطردا فى مستوى المعيشة مع تزايد الاستهلاك الفعلى للفرد بمتوسط يزيد على ٧ ٪ منذ عام ١٩٦٧ . وحدثت ايضا تغيرات ديمغرافية مماثلة فان الهجرة من القرى الى المدن تزيد باطراد ويسهم الآلاف ممن تعلموا بعض المهارات المهنية من خلال دورات دراسية حصلوا عليها فى اسرائيل — بمواهبهم فى المشروعات المختلفة فى الاردن وفى منطقة الخليج .

وترك مثل هذا التقدم فى المجال الاقتصادى بصمته على الظروف المعيشية والمستويات الصحية . فقد تناقص معدل الوفيات بين الأطفال بدرجة كبيرة ، حيث اصبح يبلغ ٤٢ فى الالف فى الضفة الغربية ، و ٤٧ فى الالف فى غزة بينما نجد الأرقام المناظرة فى لبنان تصل الى ٥٩ فى الالف ، وفى الأردن ٨٦ فى الالف وفى سوريا ٩٣ فى الألف ، ومصر ١١٦ فى الالف ، اما فى السعودية فان هذا المعدل يصل الى ١٥٢ فى الالف : والاحصائيات الخاصة بحركة تشييد المساكن تعد اكثر ابهارا ففى عام ١٩٦٨ غطت عمليات البناء ٥٨٠ الف قدما مربعا ، وفى عام ١٩٧٩ بلغ هذا الرقم ١٠ر٣٠٠ر٠٠٠ قدما مربعا — اى بزيادة تقدر بحوالى ١٧٠٠ ٪ فى احد عشر عاما .

ومن السهل ان نرى النمو الاقتصادى المنتشر فى انحاء الأراضى المحتلة ، والذى لم تفت على السكان هناك آثاره .

ومع ذلك فان هناك بعض الفلسطينيين الذين يعتقدون أن ما يقلل من الاحترام الذى تحظى به قضيتهم الوطنية أن يعترفوا بأن الاحتلال العسكرى قد لعب اى دور مؤثر فى دعم حركة النمو وقد قبلت مؤخرا دعوة لمشاهدة ما حققه المهندسون الزراعيون الاسرائيليون العاملون فى الضفة الغربية . وكانت الغلة التى حققوها من الأرض ، تفوق كل تصور كما أنهم كانوا مسئولين عن ادخال محاصيل جديدة بالاضافة الى احدث الأساليب الزراعية: وعلى الرغم من ذلك فان احد الفلسطينيين المستخدمين فى نابلس بوساطة وزارة الزراعة نفى لى نفيا باتا وجود اية صلة بين اسهامات الخبراء الاسرائيليين ، وبين التحسينات الكبيرة فى الزراعة بالضفة الغربية ، واذا حكمنا بموجب المشاعر العامة الراهنة فى الأراضى المحتلة ، فاننى اقول ان مثل هذا الرفض لارجاع الفضل الى اصحابه ، ربما يصبح هو الاتجاه السائد بين الفلسطينيين .

ان الاحتلال وجهود الحكومة العسكرية قد عملا بشكل اقل تعمدا الى حد كبير على ظهور — او على زيادة سرعة ظهور — عدد من الاتجاهات الاجتماعية فى المجتمع الفلسطينى ، يعتبر بعضها بمثابة اتجاهات ثورية فعلا ، ويرتبط اكثر التحولات وضوحا بوضع المراة فى الأراضى المحتلة فعندما ساعدت زليخة شهابى ، رئيسة الاتحاد النسائى فى الضفة الغربية ،

على اثارة النضال العام ضد الاحتلال فى عام ١٩٦٧ ، كانت السابقة الاجتماعية التى ارستها بصفتها امراة لا تقل تأثيرا عن الاثر الذى احدثته تلك الانتفاضة السياسية ، لقد أجبر المجتمع العربى التقليدى نساءه على ان يلعبن دورا سلبيا يتطلب منهن البقاء فى داخل البيوت . ومنذ عام ١٩٦٧ تحطم هذا النموذج بشكل خطير ، وبدات المراة تنهض بدور نشط فى السياسة ووصلت الى مرتبة الأبطال الوطنيين . وقد التقت الشاعرة فدوى طوقان — وهى من نابلس بوزير الدفاع موشى ديان ذات مرة فى محاولة لفتح قنوات جديدة للحوار حول نزاع الشرق الأوسط . بيد أن اهم انجاز تم تحقيقه هو اشتراك المراة فى الانتفاضة المدنية فى الأراضى المحتلة حيث تمن باذكاء حركة التمرد .

وقد اخذت النساء ، وعلى راسهن زوجات الشخصيات السياسية وامهات « سجناء قضايا الأمن » بزمام المبادرة فى كل شىء ابتداء من الاعتصام فى المكاتب المحلية للصليب الأحمر وحتى الاشتراك فى المواكب الجنائزية الخاصة بالشباب الذى يسقط قتيلا خلال الاضطرابات . وعندما تم تأسيس لجنة التوجيه القومى انتخبت سميحة خليل عضوا كاملا بها ، وكانت هى المتحدث البارز فى الجموع التى احتشدت فى أعقاب اعتقال بسام الشكعة واعتلت « أم خليل » منصة الخطابة — على غير ما يقضى به العرف — والقت خطبة مروعة ، تدفقت بعدها نساء نابلس المنفعلات الى الشوارع لحث الشباب على التظاهر ضد الحكومة العسكرية . وعندما قامت زوجتا عمدتى الخليل وحلحول اللذين تم طردهما باضراب عن الطعام ، قال لى زميل صحفى ، رافقنى فى تغطية الحدث ، معلقا على ذلك (ان هؤلاء النسوة سيصبحن هن آلهة الانتقام ، وليس الطلبة او السياسيين) .

بيد ان المراة الفلسطينية لم تقصر دورها على عمليات الاحتجاج السياسى الشكلية . فان اكثر البطلات الفلسطينيات شهرة هى الشابات اللاتى انضممن الى المنظمات الارهابية الفلسطينية والى — العمل الملموس — ضد اسرائيل ، فصور مختطفة الطائرة ليلى خالد ، الفلسطينية الشابة تزين حجرات العديد من الشابات الفلسطينيات ويتباهى طلبة المدارس العليا برغبتهم فى السير على خطاها او على خطى فاطمة برناوى ومريم شخشير التى نفذت العديد من العمليات الارهابية الدامية فى اسرائيل . وكانت الشابات بمثابة القوة المحركة وراء مظاهرات الطلبة فى انحاء الضفة الغربية . فقد خرجن وهن يرفعن العلم الفلسطينى فى مواجهة الجنود الاسرائيليين ويقذفن الحجارة وهن فى ذروة الحماس الوطنى . ومنذ وقت ليس بالبعيد كان اشتباك الفتاة الفلسطينية مع الجنود المسلحين او تعرضها للاعتقال والايداع فى السجن ، يعتبر امرا مخزيا ومثيرا للعار واليوم حتى اكثر الآباء تقليدية ومحافظة يفخرون باعتقال بناتهم بواسطة الحكومة العسكرية ، بل ان الامر لم يكن ينتهى عند حد الاعتقال ، فعشرات من الشابات اللاتى تم تقديمهن للمحاكم العسكرية واجهن بثبات احكاما قاسية بالسجن . ان خلاصة كل هذا هو ان الماضى لن يعود البتة : فالفتاة الفلسطينية اليوم

سوف لا تسير فى خطى امهاتهما فعلت الفتيات فى الماضى على مر اجيال لا حصر لهـا .

وقد برزت ثلاث نساء ـ هن زوجات ثلاث من عمد الضفة الغربية مؤخرا بسبب ما أظهرته من تماسك بالكرامة ، والتجمل فى الشدة ، والقدرة على معالجة الأزمات بانفسهن .

وما فعلنه هو انهن رفعن دعاوى استئناف امام المحكمة العليا بالنيابة عن ازواجهن،فقد رفعت سيدة جذابة لطيفة الى اقصى حد ، وهى عناية الشكعة » الدعوى الأولى أمام المحكمة العليا فى أعقاب القاء القبض على زوجها وارست بذلك سابقة حذت حذوها فيما بعد كل من يسرا قواسمة وجيهان ملحم والسيدة يسرا قواسمة التى تعمل بالتدريس وهى سيدة ذات ميول تقليدية وتتصرف بموجب القواعد الراسخة فى الخليل المعروفة بمناخها الدينى . وقد حدث ان اخرجتها ازمة طرد زوجها مرة واحدة عن حيائها النسائى التقليدى لتدخل دائرة الشهرة العامة . كنت زائرا معتادا لبيت نهد قواسمة لمدة اربعة اعوام ، ولم يحدث ان صاحبت السيدة زوجها فى وجودى طوال تلك المدة ، ومما يثير الدهشة فى الواقع اننى حتى لم اقابلها ابدا الى أن تم طرده .

ولكن عندما تعرفت عليها اخيرا تاثرت على الفور باصرارها الهادىء وقوتها الداخلية العظيمة .

كانت سميحة خليل طرفا ايضا فى قضية (يسرا قواسمة ، وجيهان ملحم) التى طالبن منها الرجوع فى قرارات طرد ازواجهن حيث كانت تعمل من وراء الكواليس وتتولى النواحى الادارية وتعتبر « ام خليل » سيدة ملفتة للنظر تستند شهرتها كفلسطينية وطنية مخلصة على نشاطها السياسى بلا وهن بالاضافة الى مشروعها العظيم للرعاية الاجتماعية الذى اسسته وتديره بنفسها . ان خبراتها على مدى السنوات الست عشرة الماضية تعكس الدور الناهض للمراة الفلسطينية فى الشئون العامة ففى عام ١٩٦٥ وبواسطة قرض من الحكومة المحلية لمدينة البيرة ، اسست ام خليل « جمعية اعانة الأسرة » واليوم قد نمت هذه الجمعية وتحولت الى معهد كبير تزيد ميزانيته السنوية على مائة الف دولار وفى عام ١٩٦٥ حصلت ثمانى فتيات على الدورات الدراسية التى نظمتها « ام خليل » واليوم تلتحق بالمعهد ٢٢٥ سيدة شابة ، حيث تتم تخريج ١٥٠ منهن كل عام . بدات « جمعية اعانة الأسرة » نشاطها فى حجرتين مستأجرتين والآن تعقد الجمعية دوراتها الدراسية فى مبنى رحب جيد التصميم به فصول دراسة وقاعات محاضرات مناسبة و تتلقى الطالبات فى هذا المعهد دروسا فى الحياكة والتطريز والنسيج والاقتصاد المنزلى والتجميل . وتشرف « ام خليل ايضا على مشروع مكرس لتطوير الفنون الشعبية الفلسطينية كما انها توظف ١٥ الف امراة فى مشروع صناعى لانتاج اعمال التطريز الريفى التقليدى التى يتم تسويقها من خلال منافذ تديرها جمعية « اعانة الأسرة » .

وفى الصيف تفتح ام خليل معهدها لمئات الفتيات اللاتى يرغبن فى استكمال دراساتهن المنتظمة بدورات دراسية مختصرة فى اللغة الانجليزية والعبرية ، و « الارشاد القومى » . ومعظم طالبات الصيف من بنات المهاجرين الفلسطينيين الذين عادوا الى الضفة الغربية لقضاء أجازاتهن السنوية . وتشرح « ام خليل » هدفها بسعادة قائلة : انها تعمل من اجل تشكيل شخصيات الشابات الفلسطينيات«حتى يكون بمقدورهن رعاية انفسهن وحماية وطنهن » . وفى كل عام توسع سميحة خليل من نطاق انشطتها التى يستفيد منها اعداد متزايدة من الناس . انها تقدم العون للطلبة الفلسطينيين فى انحاء العالم ، وتقدم اعانات اجتماعية للأيتام ولحوالى ١٣٠ اسرة محتاجة فقدت عائلها . ولكنها ترفض تماما اى تفكير فى قبول مساعدة من وزارة الشئون الاجتماعية الاسرائيلية او من وكالات الرعاية التابعة للأمم المتحدة . لقد اخبرتنى ذات مرة فى حسم وبلا ادنى تردد « اننى لن ابسط يدى ابدا لأولئك الذين يعملون ضد اهداف الأمة الفلسطينية حتى على الرغم من اننا نحتاج الى كل سنت يمكن ان نحصل عليه » .

ان الرعيل الجديد من المراة الفلسطينية كسر حاجز الخوف ـ وهو انجاز استغلته الحركة الوطنية الفلسطينية بشكل جيد . بيد ان البحث الأدق للديناميات الاجتماعية التى تسود فى الأراضى المحتلة يكشف ان وضع المراة العربية لا يزال رغم التحول فى الجانب النفسى والسياسى ، دون تغيير أساسى فنفس النسوة اللاتى قدن الاضرابات وخرجن الى الشوارع للتظاهر ضد اضطهاد شعبهن . وجدن ان حقوقهن الأساسية المتمثلة فى المساواة فى التمثيل السياسى السليم لا زالت غير معترف بها . وتعد تجربة « ريموندة الطويل » فى هذا الصدد دليلا على ذلك ، كانت هذه السيدة . التى ربما تعتبر واحدة من اشهر الكاتبات الفلسطينيات من الزعيمات الأوائل لحركة الاحتجاج النسائى فى نابلس ومع ذلك عندما حاولت ان تتفاوض بشأن دخولها معترك السياسة وجدت الطريق امامها مسدودا بالحقوق المكتسبة التقليدية الخاصة بسيطرة الرجل لذلك فان الصورة النضالية للمراة الفلسطينية يبدو انها لا تزيد عن كونها مجرد رمز اخاذ يفتقر الى المحتوى الفعلى وانه من المؤكد ان فكرة « تحرير المراة » لم تتسرب الى داخل مخيمات اللاجئين حيث لا زالت الأمهات تقمن بتدريب بناتهن على طريقة حمل جرار المياه فوق رؤوسهن وهن قانعات برعاية المنزل والسهر على اطفالهن . وعلى الرغم من ان الطالبات تمجدن ذكرى اخوات لهن سقطن قتلى مثل « لينا نابلس ومنتهى حوراني » وتسبحن بسالتهن ، الا ان النضال من اجل الاعتراف بحقهن فى المساواة الاجتماعية والسياسية لم يبدأ بعد داخل المجتمع الفلسطينى . وفى نفس الوقت لم ترتفع ولو همسة واحدة تطالب بتلك الحقوق وقد دخلت سيدات شابات عديدات معاهد التعليم العالى فى الضفة الغربية فى السنوات الأخيرة بيد انهن لا زلن بحاجة الى أن يتحلين بروح او برموز الحركة النسائية الشائعة جدا فى جامعات اوربا والولايات المتحدة . وقد بدأ عدد متزايد من النساء الفلسطينيات اللاتى دفعهن ازواجهن الى المساعدة فى تخفيف العبء عن كاهل ميزانية الأسرة ،

فى شغل وظائف تستغرق ساعات عمل كاملة ، ولكن ما زال عليهن ان يطالبن ولو بالاعتراف الاجتماعى بهن الذى يجب ان يصاحب هذا الدور الجديد .

اننى لا أستطيع ان اصدق ان الاندفاع نحو المساواة سوف يبقى مع ذلك ، خامدا ، وعلى اسرائيل ان تلعب دورا فى دفع هذه العملية . من جهة فان فرصة العمل المتاحة فى الاقتصاد الاسرائيلى امام المراة الفلسطينية تحولها الى قوة تمويلية يحسب لها حساب . وخروجها من « سجن » المنزل قد غير بالفعل العديد من المعتقدات القديمة الراسخة وقد ترتب على احتكاكها بالمجتمع الاسرائيلى ان تشككت فى العادات الاخرى التى تفرضها عليها بيئتها الاجتماعية ومن المحتمل ان تكون مرحلة الانتقال مثلها مثل العديد من مثل هذه الانتقالات فى حياتنا الشخصية ، مربكة ومؤلمة فى بعض الأوقات ويمكن للشخصيات البارزة او الرائدة أن تتوقع انها ستواجه العزلة او يساء فهمها .

ان « ريموندة الطويل » المعروفة بصراحتها ، وكانت صريحة بشكل لازع فى كل تعاملاتها مع مسئولى الحكومة العسكرية . ولكن على الرغم من غضبها فانها كانت صريحة تماما فى الاعتراف بالأثر الهائل الذى تركه احتكاكها بالمجتمع الاسرائيلى فى نفسها . وكان لديها بصفتها ابنة اسرة ثرية من « عكا » بعض المعرفة بالمجتمع اليهودى فى فلسطين حتى قبل تأسيس اسرائيل . وبعد حرب الأيام الستة اقدمت على الخطوة الشجاعة المتمثلة فى دخول الجامعة العبرية وهناك اصبحت على اتصال وثيق بمجتمع اسرائيل المفتوح وقد تركتها محاولتها القصيرة الفاشلة لدخول معترك السياسة الفلسطينية الذى يسيطر عليه الرجال ، بعيدة عن التيار الرئيسى للحركات السياسية فى الضفة الغربية وقد حظيت تصريحاتها المؤيدة « للدوائر اليسارية التقدمية فى اسرائيل » ومحاولاتها اجراء حوار مع اليسار الاسرائيلى بنفس القدر من سوء الحظ مما ادى الى الاضرار بمكانتها بين ابناء شعبها .

وقد ظلت الروائية (سحر خليفة) التى تلقت دراستها فى كلية بيرزيت تعكس فى كتاباتها نبض الثورة الاجتماعية فى الأراضى المحتلة . وتم ترجمة كتابها الأول (الصبار) الى العبرية ــ وهو ما يندر حدوثه بالنسبة لأعمال القصصية الفلسطينية ــ كما أن كتابها الجديد (عباد الشمس) يعكس الاتجاهات التى اخذت تسود الضفة الغربية ، مع تركيز خاص على المشكلات التى واجهتها المراة الفلسطينية وربما كان ذلك هو السبب فى أنها كانت تشعر بهذا القدر الكبير من عدم الثقة بالنفس عندما توجهت لزيارتها فى بيتها فى رام الله وقالت لى بتأمل بعد ان قرات النسخة الخطية لكتابها « ان طبع الكتاب سيتسبب لى على اكثر احتمال الأذى .. ان لدى احساسا بانه سيساء فهمه تماما » .

ان التيارات التى تؤثر على دور ومركز المراة الفلسطينية تسير فى اتجاه متوازن مع التيارات الخاصة بعملية اخرى لها نفس النوع من التأثير

العميق على المجتمع فى الاراضى المحتلة ــ الا وهى النفور المتزايد من جانب الشباب ازاء القوانين الجامدة للنظام الاجتماعى الأبوى . فآلاف الشباب الذين يعملون فى اسرائيل يعودون من رحلاتهم اليومية الى مدنها ذات الحضارة الغربية ، وهم فى حالة من السخط والتمرد ، ان الكآبة التى تخيم على السوق العامة فى قراهم تثبط هممهم وتفكيرهم فى العودة للاندماج فى مجتمع ينكر على شبابه الحق فى ان تكون له آراءه الخاصة ، يدفعهم الى التمرد ، وقد صاحبت هذا الاتجاه بعض العلامات المحزنة بصفة خاصة والتى تدل على مدى تخبطهم . فالشباب العربى الذى يعمل فى المدن اتخذ لنفسه اسماء عبرية وحاول أن يبدو اسرائيليا ــ ويمكن فهم هذا باعتباره محاولة لتخفيف او لتحاشى العداوة الواضحة التى يكنها لهم الاسرائيليون وعلى الرغم من ذلك ، فان الدوائر الوطنية فى الضفة الغربية تشعر بقلق عميق ازاء اختيار الشباب التنكر لاصلهم بدلا من الاحتماء خلف درع نفسى من المشاعر الوطنية الجياشة ويمكن الاحساس بوضوح فى القدس كبرى مدن الضفة الغربية بكل التغييرات فالشابات تسرن فى الشوارع وقد ارتدين ملابس وفق أحدث الموضات وحل الجينز اللصيق بالجسم تدريجيا محل الفستان المتواضع المحافظ الذى كان ذات يوم علامة على التنشئة السليمة ، والشباب والشابات الذين يعملون فى القدس الغربية غالبا ما يعودون الى هناك ليلا لارتياد أماكن اللهو بالمدينة وهم لا يلقون استقبالا وديا من جانب الاسرائيليين ، ولكن هذا لم يمنعهم من محاولة أن ينغمسوا فى زحام شوارع المدينة اليهودية . بيد أن الوقت لا يعمل لصالح هذا الاتجاه الرامى الى التشبه بالاسرائيليين واسترضائهم فقد ثبت انه ليس اتجاها مجزيا كما أن الشعور بالاحباط وخيبة الأمل الذى يستبد بهذا الشباب العربى يزداد يوما بعد يوم .

ان مؤرخى التاريخ الاجتماعى سيقولون الكثير فى المستقبل بلا شك عن الطرق التى غير بها الاحتلال الاسرائيلى وجه الحياة الفلسطينية فى الضفة الغربية وقطاع غزة . ومن التناقضات الظاهرية أن النقطة الجوهرية فى الثورة الاجتماعية الفلسطينية هى أن اسرائيل عندما عجلت بالتطوير الاجتماعى والنمو الاقتصادى للفلسطينيين ، انما عجلت ايضا بصورة عفوية وبدون قصد ، عملية نمو الوعى الوطنى الفلسطينى ، وبصورة حتمية ، الكيان الوطنى الفلسطينى وهناك تشابه واضح بين الحالة النفسية التى سادت المجتمع اليهودى خلال فترة الانتداب البريطانى ، وبين الحالة النفسية الراهنة فى الضفة الغربية .

فلقد بدا الناس فى الأراضى المحتلة يتحدثون عن (أن الدولة الفلسطينية اصبحت تلوح فى الأفق) تماما مثلما فعل يهود فلسطين فى الثلاثينات والأربعينات .

ويمكن ان نجد الدليل على هذا الاتجاه فى كل مجالات الحياة . فقد عرض المسرح الفلسطينى ، الذى يعمل سرا احيانا ، اعمالا عن جوانب

التجربة العربية فى سوق العمل الاسرائيلية ، وعن مصادرة الأراضى ، وبطبيعة الحال ، عن البطل الفلسطينى . وقد قام سليمان منصور ، وهو فنان من رام الله . وكان يعمل كاتب سيناريو فى تليفزيون اسرائيل ولكنه ترك عمله هذا بعد أن تلقى تهديدات بالقتل من منظمة التحرير الفلسطينية باعداد اعمال كثيرة تصور الصعوبات التى يلاقيها الرجل العادى فى الضفة الغربية . وفى عام ١٩٧٨ رسم لوحة رائعة تصور رجلا عربيا يتألم وهو يرزخ تحت ثقل دمعة ضخمة فى داخلها القدس الغربية وفتح منصور معرضا لعرض اعماله ، ولكن الحكومة العسكرية أسرعت باغلاقه على أساس انه كان يقوم بنشاط سياسى . رد منصور عليهم غاضبا بقوله : « ان الهواء الذى نستنشقه هو هواء سياسى .. اننا نأكل ونشرب الوطنية .. اذن كيف يمكننى أن اتحاشى رسم لوح « سياسية » » ؟ .

لم تذهب كلمات منصور سدى ، فان الأمر يبدو احيانا كما لو أن تفانى زعماء الضفة الغربية والشعب من اجل قضية الاستقلال الوطنى ، سيحدث تغيرا فى قلب هذا البلد .

لقد خفف كبار ضباط قوات الدفاع الاسرائيلية والشخصيات السياسية والأكاديميون من موقفهم العنيد ضد خلق كيان فلسطينى وذهب البعض الى حد الاعتراف بأنه لا مناص من اقامة دولة فلسطينية مستقلة ومسألة ما اذا كانت مثل هذه الدولة يمكن أن تظهر الى الوجود فى المستقبل القريب ، تتوقف على مجموعة كبيرة من العوامل يدخل ضمنها صراعات القوى العظمى ، والصدام بين المصالح داخل العالم العربى ، وغيرها من العوامل التى تتجاوز ارادة ورغبات كل من الفلسطينيين والاسرائيليين ولكن التطورات الداخلية فى هذا الاتجاه واضحة تماما لا يمكن انكارها . فالمرة الأولى التى رايت فيها علما فلسطينيا يرفرف خلال مظاهرة كانت فى أوائل السبعينات واليوم لا يتم عقد اى اجتماع عام بدون ان ياخذ هذا العلم مكانه . حتى أطفال المدارس اصبحت لديهم خبرة بصنع نسخ منه فى بيوتهم مستخدمين الورق والوان المياه . والضفة الغربية مليئة بالكتب الادبية الوطنية التى تحمل اغلفتها الوان العلم الفلسطينى .

ويتردد نشيد منظمة التحرير الفلسطينية فى انحاء قاعات جامعة بيرزيت وغيرها من المدارس الأخرى . وقد عرضت اسرائيل على سكان الأراضى المحتلة خطة للحكم الذاتى حسبما جاء فى اتفاقات كامب ديفيد . ولكن أى شخص على صلة بالواقع يعرف أن سكان الضفة الغربية يؤمنون أنهم يمارسون بالفعل درجة من الحكم الذاتى اكبر من تلك التى تنص عليها خطة كامب ديفيد .

وتعطينا بعض الاحصائيات فكرة عن حقيقة الأشياء فى الضفة الغربية اليوم . فالنظام التعليمى شهد ثورة كاملة . ففى عام ١٩٦٧ كان هناك ٦١٦٧ فصلا فى الضفة الغربية ، واليوم ارتفع العدد الى ١١ر١٨٧ فصلا .

ومنذ بدا الاحتلال زاد عدد التلاميذ من ٢٥٠ الفا الى ما يزيد عن ٤٠٠ الف تلميذ . ويصعب القول ان عدد الاسرائيليين الذين يتولون وظائف مدنية مع الحكومة العسكرية — ٥٠٧ شخصا — قد زاد على الاطلاق فى حين ان عدد الموظفين العرب تضاعف اربع مرات .

فهناك ١٦٣٧٨ من المسئولين والاداريين والمهنيين يشرفون حاليا على مختلف مجالات النشاط فى الضفة الغربية . وعلاوة على ذلك ، فان الزعماء السياسيين فى الضفة الغربية يؤكدون أن مثل هذا الكم من الموظفين قادر على تسيير جهاز حكومى معقد كامل .

لقد مال الناس فى اسرائيل الذين أذهلتهم عنف الاضطرابات وحدة الشعارات الى تجاهل تزايد ثقة الفلسطينيين فى انفسهم وما احرزوه من تقدم فى المجالات الاقتصادية ، والتعليمية والثقافية،ان الفضل فى هذا التطور يرجع الى الحكومة العسكرية ولكنها لا تخفى الاعتراف بأن نفس هذه التطورات التى تصفها « بالايجابية » لها آثار جانبية أخرى تعرقل أية تطلعات قد تكون لدى الحكومة الاسرائيلية للاحتفاظ بالضفة الغربية وغزة فى حوزتها . وكما يفعل الكهنة البوذيون الذين يثقون فى قدرة الرموز على التحكم فى الأحداث ، فان الحكام العسكريين يطلبون من آلاف الموظفين الفلسطينيين ان يشيروا الى الضفة الغربية باسم « جوديا وسماريا » فى جميع التعاملات والوثائق الرسمية . وبينما يقبل الفلسطينيون مثل هذه القواعد الغربية فان تأثيرها الأساسى هو أنها تعمل على زيادة الشوق الى الاستقلال .

غير اننى احسست مؤخرا ، حدوث تحول فى الحالة النفسية العامة من الشعور بالاستياء النابع من اليأس الى نوع من الارتفاع فى الروح المعنوية التى تحدث عندما يبدا الحلم يتجسد لقد قال لى مؤخرا احد المسئولين فى وزارة الزراعة فى نابلس (لا يهم التسمية التى يطلقونها على المنطقة — جوديا او سماريا او حتى (الأرض المحررة) — فتحت هذه الأسماء أيا كانت فقد بدأت فلسطين تخرج الى الوجود . وقد قال لى فهد تواسمة — الذى لا يمكن اعتباره شخص خيالى قليل الخبرة — بعد عودته من اجتماع مع ياسر عرفات فى ثقة تامة : « بعد عام ، سوف تحتاج الى جواز سفر لكى تزورنا » . بيد أن اكثر ما ادهشنى هو تأملات نزيه حجازى — الصحفى من الخليل ، الذى كان يعمل فى تليفزيون اسرائيل والذى قاسى على أيدى العرب والاسرائيليين على السواء لقد قال لى نزيه حجازى : « اننا نمر بعملية بعث تماما مثلما حدث لليهود قبل ان يقيموا الدولة . ومثل اليهود ، سوف نعيد مواطنينا من المنفى الى بلادهم وسوف نأتى بالخبراء الفلسطينيين الى « الأراضى » سنأتى باساتذتنا من الجامعات فى الولايات المتحدة والخليج العربى — وسوف نقيم دولة عظيمة » .

الفصل الثالث عشر

عودة الى العقــل

عندما سمع أصدقائى اننى اعد كتابا عن مقابلاتى مع عرب الضفــة الغربية وغزة ، حذرنى العديد منهم من اتخاذ موقف قاطع سواء مع او ضد اى من الحلول الممكنة لمشكلة الأراضى المحتلة – خطة الحكم الذاتى ، او « الخيار الأردنى » او الدولة الفلسطينية المستقلة . انهم ليسوا فى حاجة الى ان يقلقوا ، لاننى سوف اتجرا على ان اخبر سكان الضفة الغربية وغزة بما هو الأفضل بالنسبة لهم ، او كيف يخططون مستقبلهم . فهذا شىء عليهم ان يقرروه بانفسهم . ومع ذلك ، فاننى اتمسك بحقى كاسرائيلي فى ان احذر ابناء بلدى ، بعبارات لا لبس فيها ، من ان هناك شريحة كبيرة من السكان تسىء فهم الأوضاع فى الأراضى المحتلة وتقودنا بشكل اعمق الى مستنقع لايمكن الا ان يكون سببا للاضرار المستمر بنا .

ان وقوف سيارة تابعة لحرس الحدود امام مقر الصليب الأحمر فى القدس الشرقية قد يبدو كما لو كان الهدف منه هو المحافظة على الأمن هناك ولكن وجودها لا يؤدى فى الواقع اولا الا الى تفاقم حالة العداء وزيادة التعطش الى الاستقلال الوطنى . واعتقال المئات من اطفال المدارس ، وتحطيم اقفال المحال التى تغلق ابوابها كمشاركة فى حركات الاحتجاج العامة ، وتصعيد عملية الاستيطان اليهودى فى الأراضى المحتلة – كل هذه التصرفات قد تبدو كما لو كانت ستعيد الهدوء الى البلاد وستدعم موقف اسرائيل فى الأراضى المحتلة . ولكن اذا رفع المرء القشرة الهشة للسيطرة والنظام فانه سيرى تحتها الأمواج المتلاطمة التى يتسع نطاقها فى كل يوم . وفى الأشهر الأخيرة رايت اطفالا فى التاسعة والعاشرة يسيرون فى مظاهرة احتجاج وهم يلوحون بالعلم الفلسطينى ويرددون باصواتهم المرتفعة نشيد « بلادى بلادى » فى اداء ينبىء بالدمار .

ولكن ليس الاضطراب وحده هو الذى ينتشر . فهناك ايضــا نوع ملحوظ للثقة بين الفلسطينيين فى انه كلما ازداد حدة قمع الحكم الاسرائيلى، كلما اقتربت نهايته . وفى نوفمبر عام ١٩٨٠ اصدر احد ضباط الحـكومة العسكرية كان يزور كلية بيرزيت اوامره الى ادارة الكلية بتفكيك معرض اللوحات التى رسمها المسجونون الفلسطينيون على اساس « انهم سجناء وليسوا فنانين » .

وايا كان المنطق الذى راته قوات الدفاع الاسرائيلية فى ذلك الأمر ، فان منظمى المعرض راوا فى الأمر علامة اخرى على ضعف اسرائيل – وان الحكومة العسكرية امكن تخويفها من خلال معرض فنى ! . فبعــد ذلك بحوالى شهر ، رايت فتاة عربية مصابة بجرح فى ساقها برصاص الاسرائيليين الذى اطلق اثناء قمعهم لاحدى المظاهرات وكانت تقفز برجلها الأخرى وهى تهدىء أصدقاءها قائلة « انا على مايرام .... انا على مايرام » . لم استطع ان ارفع عينى عنها : الهدوء ، والحضور الذهنى ، ونظرة الانتصار على وجهها بالرغم من الالم .. كل ذلك بدا انه يجسد ما كانت عليه الأمور فى الأراضى المحتلة . لقد اجتمع شمل الشعب الفلسطينى فى ظل اسرائيل وكرد على محاولات اسرائيل للقضاء على روحهم المعنوية . لقد حدث نفس الشىء بالنسبة لشعب اسرائيل عندما واجه البريطانيين فى الأربعينات – كان من الواجب علينا ان نكون قد حفظنا الدرس . فكلما كانت الضربات اكثر عنفا كلما دلت على اليأس بدرجة اكبر ، والفلسطينيون واثقون من ان الوقت يعمل فى صفهم .

وربما يكونون على حق لان ردود الفعل فى اسرائيل ازاء تلك الأدلة على الافلاس السياسى ، هو الشعور بالارتباك .

ان بعض ابناء بلدى لا يزالون يتمسكون بالصيغة البالية القائلة « ان اللغة الواحدة التى يفهمها ذلك النوع من البشر هى لغة القوة » .

ويشعر غيرهم بالعجز عن قبول سخف قيام دولة فنية معتزة بنفسها مثل اسرائيل – وهى نتاج حركة قومية ذات عزيمة – بانفاق كل هــذا القدر من طاقتها فى محاولة قمع حركة قومية مماثلــة . ودعــونى اكون واضحا – اننى لااتهم اى شخص من ابناء بلدى – ناهيك عن كل اولئك الذين خدمت معهم فى قوات الدفاع الاسرائيلية – بسوء النية فى موقفهم ازاء عــرب الأراضى المحتلة . وفى الواقع ، فاننى اشــك فى ان معظم الاسرائيليين ، عندما يتاملون مايحدث فى الضفة الغربية وغزة ، يتمنون فى قرارة أنفسهم لو ان المشكلة الفلسطينية تلاشت برمتها . ومع ذلك ، فقد نكون محاطين بالأساطير والرموز ولكننا لا نعيش حكاية خيالية ولا توجد عصا سحرية او خاتم سليمان ليطرد تلك الأشباح عن حياتنا القومية لتتركنا احرارا لنعيش فى سعادة الى الابد ، ان علينا ان نشكل مصيرنا بايدينا . ولقد كان شعب اسرائيل يفعل ذلك لعشرات السنين ، استجمع خلالها همته وخلق شيئا فريدا تماما ، وثبوط همتنا حاليا سيكون بمثابة مأســاة اكبر مما اتخيل .

ولابد لنا من ان نتصرف ، بل لابد ان نتصرف بسرعة . فالخلاف القاسى بين اسرائيل وجيرانها ، وفى الأراضى المحتلة وما وراءها ، يتسبب فى تصلب المواقف ، ويؤدى الى استقطاب المعسكرات بصورة اخطر فلم يعد العداء بين الشعبين يعتبر مجرد اثر جانبى لنزاع ســياسى يمكن ان يتم حلــه

بالمفاوضات . ويتهم كثير من العرب الصهيونية ودولة اسرائيل برسم مخططات عنصرية سرية ، فى حين بدأ اليهود فى الحديث عن هوة الكراهية التى يشعر بها العرب والتى لا يمكن تخطيها . ويأخذ فهد قواسمة « بروتوكولات » حكماء صهيون « الزائفة على أنها حقيقية ، ويؤمن بوجود مؤامرة يحيكها اليهود « ذلك الشعب المتعجرف الوقح » — للاستيلاء على العالم . ويتهم جيرانهم فى كريات أربع — وعلى مسافة ابعد فى تل ابيب بالنازية . ان الجانبين — بدلا من ان يتحدث كل منهما الى الآخر — يقبعان خلف اسوار عالية من شعورهما بالجدارة الذاتية ، ويقذف كل منهما الآخر بتهمة العنصرية . ومن الغريب ان احدا لم يقف ليصيح :

« كفى ! — اننا لن نسمح بهذا بعد الآن » . فما الذى ننتظره ؟ .

لقد عملت على مدى السنوات السبع الماضية على اساس افتراض ان الراى العام الاسرائيلى اذا تم اطلاعه بثبات وبصدق على ما يحدث فى الأراضى المحتلة — مهما كانت الحقيقة معقدة او مرة — لتمكن من مواجهة المشكلة والتعامل معها بوعى .

ولكن النتيجة الأساسية التى توصلت اليها — والتى نبعت من معرفة وثيقة بما كان يجرى فى الضفة الغربية وغزة منذ عام ١٩٦٧ — هى ان الاجابات البسيطة لا وجود لها ولكن توجد فقط صيغ ساذجة .

اننى اقدر المخاوف الأمنية التى عبر عنها ضباط الحكومة العسكرية ، ولكننى على الرغم من ذلك مقتنع بأن من الخطأ أن تستند السياسة فى الاراضى المحتلة على الاعتبارات الأمنية فقط . وفى الواقع ، فاننى ذهلت وغضبت اكثر من مرة من التعليمات التى يوجهها كبار المسئولين والتى تصدر نتيجة لمناقشات لا تأخذ فى حسبانها الا احتياجات الأمن فقط .

ويحتج الحكام العسكريون بأن صنع السياسة ليس جزءا من عملهم، وأن عليهم فقط ان يتأكدوا من تطبيق القانون والمحافظة على النظام . ومع ذلك فباسم القانون والنظام ، يتم اهدار حقوق الانسان ، ويتم تقويض الاحترام الذى يحظى به القانون ، كما ان النظام يتم افساده بشكل منتظم . وباسم القانون والنظام اقتحم الجنود مدرسة بيت جالا واطلقوا الغاز المسيل للدموع على التلاميذ « الذين لم يشف غليلهم أن الضباط المسئولين قد تمت معاقبتهم بعد ذلك » .

وباسم القانون والنظام ، تم اعتقال مئات الطلبة ، وفرض حظر التجول ، والقيام بعمليات التفتيش — واليوم يوجد احترام اقل للقانون ، وثقة اقل فى فضيلة النظام عما كان عليه الحال من قبل . ولاتزال الحكومة العسكرية تردد هذه الكلمات كما لو كانت تعويذة ستجعل العواقب المعنوية والاجتماعية والسياسية لسياستها العنيدة والوحشية — تختفى .

واعتقد ان البعض فى اسرائيل ، يشعرون بالسخط بسبب المأزق الحالى ، وايضا بالخوف ازاء عنف الحركة القومية الفلسطينية ، ويخدعون انفسهم فيتصورون أن من الممكن اعادة عقارب الساعة الى الوراء وان يتم وضع الضفة الغربية تحت السيادة الأردنية من جديد . واجد من الصعب على ان اعتقد بأن هذا الحل ، أو اى حل آخر ، يمكن فرضه على الفلسطينيين او على اسرائيل . ولكن القوميين فى المعسكر العربى يرتكبون نفس الخطأ عندما يتحدثون عن اعادة الزمن الى الوراء ، الى عام ١٩٤٨ وينكرون على الشعب اليهودى وجوده السياسى المستقل .

ومما يدعو للسخرية ان المتطرفين فى كلا المعسكرين يتحدثون عن اعتقادهم الغريب بأن الجانب « الآخر » يمكن ان يحرم عنوة من الحياة المستقلة الخلاقة وقد قدم المثقفون وذوى المشاعر الانسانية فى العالم حلولا لمشكلتنا ، ولكن غالبا ما فشلت الصيغ المقترحة القادمة من بعيد ، والتى قد تبدو جيدة على الورق ، فى ان تأخذ فى حسبانها الحساسيات الخاصة بأولئك الذين يجب عليهم أن يعيشوا مع واقعهم . ان من يتجرا على اسداء النصح لنا يجب ان يظهر قدرا متساويا من الفهم لآلام وآمال الناجين من الابادة (الهولوكوست) اليهودية وتلك خاصة باللاجئين العرب المبعثرين فى انحاء الشرق الأوسط .

ان هذا هو السبب فى اننى مقتنع بأن شعوب هذه المنطقة وهذا البلد يجب ان تشترك مع بعضها فى صياغة حل بنفسها ، ولنفسها .

ان التنبوء بالكيفية التى سيتم بها هذا بالضبط امر بالغ التعقيد ولكننى كشخص تتعلق اهتماماته بكيفية الاقتراب من المشكلة اكثر مما تتعلق بتفصيلات الحل ، فانى أعتقد انه لن يضيرنا ان ندرس بعض الأنماط المتاصلة لسلوكنا ونعيد النظر فى بعض المعتقدات التى نحملها عن انفسنا ولقد ركزت فى ما ذكرته بهذا الكتاب على الكيفية التى مكننى بها وضعى كعربى اسرائيلى من أن اكون فى مركز فريد اثناء بحث الجوانب المختلفة لنزاع الشرق الأوسط . فعرب اسرائيل الذين يمزقهم الولاء لبلدهم والارتباط بشعبهم يدركون بشكل خاص الحاجة الى ايجاد الحل المعقول للمشكلة . وكان الافتراض السائد طوال العقود الماضية ، هو أن العقل لابد ان يسود اذا جلست الأطراف المعنية مع بعضها وتحدثت كل منها الى الآخر وقد ادت رحلة الرئيس السادات المفاجئة الى القدس واتفاقية السلام التى تم التوصل اليها فيما بعد بين مصر واسرائيل ، الى زيادة الثقة فى ذلك الافتراض . ولكننى ، كمراقب محترف للعملية الديناميكية التى تربط بين اسرائيل والأراضى المحتلة ، تأثرت بفعل قوة تعمل على مستوى آخر اكثر عمقا ، وتمارس سيطرة كبيرة على حياتنا الا وهى : قوة الرموز أن الرمز الشائع للانسان الاسرائيلى هو الجندى شديد الحساسية والرواد الشباب الذين بنوا هذا البلد وهم يحملون فأسا فى يد وبندقية فى اليد الأخرى (بل ان عملتنا حملت

بعض الوقت ، صورة لهذين الرمزين كشعار لدولة اسرائيل) ولا يهم ما قد يكون عليه جنودنا من قسوة اليوم ، او التغيير الذى طرا على الاسلوب الذى يتصرف به مستوطنونا المعاصرون ، فان ما عليك الا ان تجعل شخصا ما يستحضر الرمز الخاص باستيطان الارض وسرعان ما تقفز الى الذاكرة صورة هذين الشابين الحاليين اللذين كانا يحملقان فينا من ورقة البنكنوت فئة الخمسين جنيها . اما الامر الذى اتخذه الفلسطينيون فهو صورة الفدائى (بكوفية) ملتفة على وجهه ، وبندقيته التى يحملها فى يده ، وبجسمه الذى يقف فى وضع التحدى وقد دعموا هذا الرمز مؤخرا بسجل الشهداء من الشباب الذين ماتوا فى حركة النضال المدنى فى الضفة الغربية .

اننى لا اقصد السخرية من مثل هذه الرموز بل على العكس فاننى اكن لها احتراما كبيرا لاننى اعرف كم تتسلط على عقولنا بقوة ، وتقودنا الى ردود افعال غريزية ، وتغرينا بالتفكير فى اسلوب قاطع ذى بعد واحد اما كذا او كذا — مصبوب فى قوالب نمطية غير معقدة فى حين ان الحياة ليست كذلك على الاطلاق . والرموز التى اخترتها لتجسيد التجربة الراهنة لشعوبنا اكثر تعقيدا بكثير ، حيث انها تتناسب مع تعقد الموقف ، كما اننى اعتقد انها اكثر صدقا . واختيارى هو ، بطبيعة الحال اختيار شخصى ، فكلا الرمزين اللذين اعتقد انهما ملائمان يمسانى بشكل مباشر ويعكسان جوانب من هويتى الخاصة **فاحدهما** : جندى اسرائيل **والآخر** : صحفى اسرائيلى وانا متأكد ان ايا منهما لن يدخل التاريخ كبطل كما ان كل منهما يعتبر — بصورة او اخرى — من ضحايا الصراع الاسرائيلى — الفلسطينى مثلنا جميعـا .

وربما كان هذا هو السبب فى اننى اعتقد ان مصائرهما رمزية بالنسبة لنـا جميعا .

حدث فى يونيو عام ١٩٨٠ ان سليمان خيروابى ، من قرية جوليس الدرزية فى الجليل وخبير المفرقعات بقوات الدفاع الاسرائيلى ، ارسـل فى مهمة لابطال مفعول شحنة متفجرة تم وضعها فى منزل ابراهيم الطويل عمدة البيرة « وقد اصيب بسام الشكعة وكريم خلف فى نفس اليوم نتيجة لانفجار شحنات مماثلة » بيد ان الشحنة انفجرت فيه قبل ان ينزع فتيلها واصابته اصابة خطيرة تسببت فى فقده البصر . اراد الطويل واعضاء مجلس مدينة رام الله المجاورة ان يزوروا خروابى فى المستشفى كلفتـه تدل على العرفان والاحترام . ولكنهم ترددوا — وبحق ، لان والدى خروابى كانا قد اذهلهم الاسى على ماساة ابنهما الى حد انه كان من المحتمل ان يضربا العمدة بقدر ما كان من المحتمل ان يشكراه على طيبته وعندما اتصل بى اودى رينتيس ، نائب عمدة رام الله ، يسالنى النصيحة المحت له بانه من الافضل ان يظلوا بعيدين خشية ان تنعكس هذه اللفتة على رؤوس هؤلاء الزوار حسنى النية .

اما نزيه حجازى ، الصحفى الذى نشا فى الجليل والذى نقلت فيما سبق كلماته الجذابة البراءة حول البعث الفلسطينى ، فقد هبت عليه رياح حظ من نوع آخر . فبعد حرب عام ١٩٦٧ مباشرة ، انجذب نحو قضية مجموعات « فتح » العاملة فى منطقة الخليل ، ولكن عندما راى الآثار المدمرة للعنف قطع كل روابطه مع « فتح » وعمل مع تليفزيون اسرائيل . ظل حجازى يعمل فى قسم البرامج العربية لمدة ثمانى سنوات ، وقد تعرفت به هناك فوجدته — هادئا متواضعا ، يمكن الاعتماد عليه ، وشديد التانق فى حديثه . ثم سافر حجازى للعمل فى ابو ظبى لكى يكون لنفسه راس مال من اجل المستقبل ولكنه ظل على اتصال باصدقائه ، وفى الواقع ، اعتاد حجازى على ان يكتب لى بالعبرية ، وربما كان ذلك احد الاسباب التى دفعت مخابرات حركة فتح الى التشكك فيه وعلى اية حال ، فقد تم نقله الى بيروت للاستجواب . انزعج والده فقام بتنظيم وفد من وجهاء الخليل للذهاب الى لبنان للمطالبة باطلاق سراحه ولحسن الحظ نجح مسعاهم وعاد نزيه الى بيته والتحق ثانية بالعمل بالتليفزيون .

وعندما عاد حجازى الى العمل اخبر ضابط الأمن بهيئة الاذاعة عن ماضيه القريب بطبيعة الحال ، وكان المفترض ان تلك هى نهاية المسالة ولكن بعد ذلك بأيام قليلة تم القاء القبض على حجازى — فى هـذه المـرة بوساطة السلطـات الاسرائيلية — ونشرت بعض الصحف روايات عن « الايقاع بمراسل للتليفزيون متهم بالتجسس والقيام بانشطة ارهابيـة » . ثار زملاؤه فى العمل لأن واحدا من بينهم قد تحول الى خائن ولكننى لم اقتنع بهذه البساطة بان نزيه حجازى مذنب فذهبت لرؤيته فى سجن الخليل ، واخبرنى قائد السجن (وهو ضابط درزى من اليوسفية) بعدم وجود اى دليل او حتى اية اسباب لاتهام نزيه حجازى بالقيام بالانشطة الارهابية المزعومة وبعد أيام قليلة تم اطلاق سراح صديقى واكتفت الصحافة التى اثارت مثل هذه الضجة الكبيرة حول اعتقاله بنشر سطور قليلة على الصفحات الداخلية تشير الى انه تم اطلاق سراحه لعدم وجود دليل .

عاد نزيه حجازى الى العمل كصحفى ، بيد انه حرر خبرا عن الحساب الشخصى لفهد قواسمة فى عمان اثار غضب ابناء بلده فى الخليل (كان يفهم من الخبر ان العمدة قد اختلس من الاموال العامة) .

وتعرضت زوجته للتهديد . واخيرا خضع نزيه حجازى للضغط وترك وظيفته ويخطط حجازى الآن للهجرة الى اوروبا . كفرصة اخيرة للهرب من قدره المشئوم . وجدير بالذكر ان حوالى ٢٠ الف فلسطينى يهاجرون سنويا من الأراضى المحتلة الى الدول العربية ، واوروبا ، والولايات المتحدة ولا يعود سوى القليل منهم الى وطنهم .

ربما كان الرمز الاخير الذى يجب ان نبحثه هو :

« الأرض » ــ ذلك المزيج من الوطن والبلد والتربة بكل دلالاته ومضامينه ومن المؤكد انه هو اقوى الرموز جميعا لكلا الشعبين اللذين يسكنان هذا البلد ، وانا اعتقد أن الكثير مما يرتكبه كل منا فى حق الآخر هو نتيجة لكوننا خاضعين لتاثيره لقد اتى الربيع الى اسرائيل والضفة الغربية بعنفوانه هذا العام .

والريف اخضر يانع « بحلول شهر مايو سوف تذهب شمس البحر المتوسط بهذا اللون » ، وعلى الساحل بين جبل الكرمل ومرتفعات «جوديا» تفعم زهرات البرتقال الهواء بأريجها الظاهر . وسرعان ما يتفتح « زهر العسل » وبعد ذلك الياسمين ليمتلىء هذا البلد بالالوان والاريج وفى الربيع يمكن للمرء ان يفهم بسهولة أكبر العاطفة التى يشعر بها السكان المتحاربون نحو هذه الأرض . بيد أن القوة الواضحة لهذا الربيع بصفة خاصة جعلتنى افكر فى ان الأرض ربما تسخر منا على تصديقنا لأكذوبة اننا نستطيع ان نمتلكها .

لقد اتى الرواد الصهاينة الى هذا البلد لكى يبنوه ويبنوا انفسهم لقد نزحوا مستنقعات الوديان الشمالية المليئة بالملاريا وحولوا التربة الخصبة الى مسطحات خضراء ومزهرة ، مضيفين اليها برك الأسماك التى تتلألأ مثل رقائق الفضة عندما تنعكس اشعة الشمس على سطحها كان انجازا ملحوظا ملأهم بالفخر على زعم انهم جعلوا الصحراء زاهرة . بيد اننى رايت الصحراء مزهرة هذا العام بألوان لايمكن ان تتجلى فى اية محاصيل ، ولم يخلق ذلك الجمال الصاخب المفرط سوى المطر والشمس والتربة فقط . اننى افكر احيانا فى أن هذه الأرض تسخر من غرورنا واحلامنا الزائفة بالملكية . اننا قد نريق دم بعضنا البعض ونوهم انفسنا باننا اذا ضربنا بعنف وحطمنا وكسرنا وفى النهاية اخمدنا حلم التنافس ، نستطيع بفضل القوة المحقة ان نتغلب على هذه الأرض ايضا ، واننا نستطيع أن نملك هذه التربة ، وهذه الشمس المشرقة وهذا المطر لأنفسنا ، ولكن عندما يأتى الربيع كربيع هذا العام ، فاننى اتساءل عما اذا كانت الأرض تسخر منا باشباعها احاسيسنا بما تفجره من حياة بكر لا يمكن وقفها ، بينما ننتظر نحن الموت والدمار باسمها .

اننى لست رومانسيا بطبيعتى كما اننى لست ادرى لماذا اثر فى الربيع بعمق بالغ هذا العام . ربما لأننى تعرضت مؤخرا للعديد من حوادث الموت بوجهه القبيح . وربما لأننى رزقت هذا الربيع بمولود جديد فجر مجيئه فى سيلا من التأملات غير المعتادة . اننا نمنح اطفالنا الحياة ، وبعد ذلك نربيهم ليستعدوا للموت من اجل بلدهم . وانا اريد ان يكون اطفالى تواقين الى الحياة من اجل صلاح حال بلدهم ومن اجل مصلحتها . اريدهم ان يحبوها ، ويستمتعوا بها ويتقاسموها ــ تماما مثلنا يتقاسمون الكثير من العادات والهويات بصفتهم اسرائيليين وعرب ودروز ، مما يزيدهم ثراء . ولا توجد

لدى اية حلول جاهزة لأقدمها لهم او لغيرهم ، ولا يوجد اى مغزى لهذه الحكاية ــ اللهم الا اشارة مترددة خاصة وأن أطفالنا ، وقد راوا اخطاءنا واخفاقاتنا ، ربما يعطون السلام قيمة اكبر من وهم الملكية « وربما يتعلمون سر المشاركة بدون الخسران . اننى اتمنى هذا من اجلهم ومن اجلنا . واتمنى الا يستغرق تحقيقه وقتا طويلا .

دالية الكرمل ــ القدس

ابريل ١٩٨١

محتويات الكتاب

صفحة



مطابع الاهرام التجارية القاهرة - مصر